رحلة الحبشة

من الأستانة إلى أديس أبابا

1896

صادق باشا المؤيد العظم

ارتياد الآفاق

حررها وقدم لها: نوري الجراح

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

دار السويدي للنشر والتوزيع

رحلة الحبشة

من الأستانة إلى أديس أبابا

رحلة الحبشة ، من الآستانة إلى أديس أبابا (١٨٩٠) / أدب رحلات
صادق باشا المؤيّد العظم / مؤلّف ، [حرّرها وقدّم لها : نوري الجرّاح]
الطبعة الأولى ، ٢٠٠١

دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي ، ص. ب : ٤٤٤٨٠
الإمارات العربيّة المتّحدة ،
هاتف : ٦٣٢٢٠٧٩ ، فاكس : ٦٣١٢٨٦٦

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية برج الكارلتون ،
ص.ب : ٥٤٦٠-١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٨٠٧٩٠١

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E-mail : mkayyali@nets.com.jo

التنفيذ والإشراف الفنّي :
سيتي سيء ®
الخطوط وتصميم الغلاف :
منير الشعراني / مصر
الصفّ الضوئي :
القراية الإلكترونيّة / أبو ظبي + مطبعة الجامعة الأردنيّة / عمّان
التنفيذ الطباعيّ :
سيكو للطباعة والنشر / بيروت ، لبنان

رحلة الحبشة

من الأستانة إلى أديس أبابا

1896

صادق باشا المؤيد العظم

حررها وقدم لها: نوري الجراح

ارتياد الآفاق

استهلال

تَهْـدُفُ هذه السّلسلةُ بَعْثَ واحـد من أعـرقِ ألوانِ الكتـابةِ في ثقـافـتنا العربية ، من خلال تقديم كلاسيكيّاتٍ أدبِ الرِّحلةِ ، إلى جانب الكشف عن نصوصٍ مجهولةٍ لكتاب ورحّالة عربٍ ومسلمينَ جابوا العالم ودوّنوا يوميّاتهم وانطباعاتهم ، ونقلوا صوراً لما شاهدوه وخَبِروهُ في أقاليمه ، قريبةً وبعيدةً ، لاسيما في القَرنين الماضيين اللذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النُّخب العربية المثقفة ، ومحاولة التعرّف على المجتمعات والنَّاس في الغرب ، والواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمـام العربي بالآخر عن ظاهرةِ الاستشراق والمستشرقين الذين ملؤوا دروبَ الشّرقِ ، ورسموا له صوراً ستملأ مجلدات لا تُحصى عدداً ، خصوصاً في اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية ، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم ، ومن منطلق المستأثر بالأشياء ، والمتهيّئ لترويج صور عن «شرق ألف ليلة وليلة» تغذّي أذهان الغربيين ومخيّلاتهم ، وتُمهِّدُ الرأي العام ، تالياً ، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق . ولعل حملة نابليون على مصر ، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية ، هي النموذجُ الأتمُّ لذلك . فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي

لتؤسس للظاهرة الاستعمارية بوجهيها العسكري والفكري .

على أن الظّاهرة الغربية في قراءة الآخر وتأويله ، كانت دافعاً ومحرضاً بالنسبة إلى النخب العربية المثقفة التي وجدت نفسها في مواجهة صور غربيّة لمجتمعاتها جديدة عليها ، وهو ما استفز فيها العصب الحضاري ، لتجد نفسها تملك ، بدورها ، الدوافعَ والأسبابَ لتشدّ الرحال نحو الآخر ، بحثاً واستكشافاً ، وتعود ومعها ما تنقله وتعرضه وتقوله في حضارته ونمط عيشه وأوضاعه ، ضاربة بذلك الأمثال للناس ، ولينبعث في المجتمعات العربية ، وللمرة الأولى ، صراع فكري حاد تُسْتَقْطَبُ إليه القوى الحيَّةُ في المجتمع بين مؤيد للغرب موالٍ له ومتحمّسٍ لأفكاره وصياغاته ، وبين معادٍ للغرب ، رافض له ، ومستعدٍّ لمقاتلته .

وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تنميط الشرق والشرقيين ، عَبْرَ رسمِ صورٍ دنيا لهم ، بواسطة مخيِّلةٍ جائعةٍ إلى السّحري والأيروسيّ والعَجائبيّ ، فإن أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم ، كما سيتّضحُ من خلال نصوص هذه السلسة ، ركّز ، أساساً ، على تتبع ملامح النهضة العلميَّة والصناعيَّة ، وتطوّر العمران ، ومظاهر العصرنة ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق . لقد انصرف الرّحالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات ، مدفوعين ، غالباً ، بشغف البحث عن الجديد ، وبالرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط ، من باب الفضول المعرفي ، وإنما ، أساساً ، من بابِ طَلَبِ العلم ، واستلهام التجارب ، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديث ، واقتفاء أثر الآخر للخروج من حالةِ الشّلل الحضاريّ التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها . هنا ، على هذا المنقلب ، نجُد أحد المصادر الأساسية المؤسّسة للنظرة الشرقية المندهشة بالغرب وحضارته ، وهي نظرة المتطلّع إلى المدنيّة وحداثتها من

موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة ، المتحسِّر على ماضيه التليد ، والتّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية .

إن أحد أهداف هذه السّلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم ، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكَّل عن طريق الرحلة ، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرّحالة ، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار . فأدب الرحلة ، على هذا الصعيد ، يشكِّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً ، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار ، فضلاً عن كونه مادة سرديّة مشوّقة تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى ، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلِّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكَّرُ بها .

أخيراً ، لابد من الإشارة إلى أن هذه السّلسلة التي قد تبلغُ المائة كتابٍ من شأنها أن تؤسس ، وللمرة الأولى ، لمكتبة عربية مستقلّة مؤلّفة من نصوص ثريَّة تكشف عن همّة العربيِّ في ارتيادِ الآفاقِ ، واستعداده للمغامرة من بابِ نَيل المعرفةِ مقرونةً بالمُتعةِ ، وهي إلى هذا وذاك تغطي المعمور في أربع جهات الأرض وفي قارّاته الخمس ، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخر وعالَمه ، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء ، وغيرهم من الرّحالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية .

محمد أحمد خليفة السويدي

المقدمة

I

تُصَنَّف هذه الرحلة في عِداد الرحلات الدبلوماسية ، فقد قام مؤلفها صادق باشا المؤيد العظم برحلته إلى الحبشة في ربيع وصيف سنة 1896 موفداً من قبل السلطان عبد الحميد ، ومعه رسالة إلى النجاشي منليك الثاني إمبراطور الحبشة ، الذي استقبله في بلاده بحفاوة تليق بشخصية كبيرة . فالكاتب كان قائداً عسكرياً كبيراً في الجيش العثماني (فريق أول) ، ومندوب الدولة العلية في بلغاريا ، اضطلع بمهمات عديدة على الأصعدة العسكرية والدبلوماسية ، منها الإشراف على مدّ الأسلاك البرقية من دمشق إلى الحجاز ، وهو سوري ينتمي إلى أحد أعرق البيوت الدمشقية ، ولد ونشأ في دمشق وتلقى دروسه الأولى في مدارسها ، وانتقل إلى مدارس بيروت ، أما علومه العالية فتابعها في الآستانة وبرلين وتخرج من كلّياتها الحربية ، وقام بزيارات عديدة إلى أوروبا . وهذا الكتاب هو تدوين لوقائع سِفارته المشار إليها . وللعظم إلى جانب«رحلة الحبشة» كتابٌ آخر في الرحلة تحت عنوان«الرحلة إلى صحراء أفريقيا الكبرى» أشار إليه في غير مكان من هذا الكتاب . قضى أيامه الأخيرة في دمشق ، وتوفي ودفن فيها سنة 1911 .

II

بدأ صادق باشا رحلته في 15 إبريل/نيسان سنة 1896 ، منطلقاً من ميناء اسطنبول على ظهر باخرة فرنسية متجهة إلى مرسيليا ، ورجع إلى الآستانة على ظهر باخرة روسية يوم 16 يوليو/تموز من العام نفسه ، وبذلك تكون رحلته إلى الحبشة استمرت ثلاثة أشهر . وبين هذين التاريخين ووسيلتي النقل ، حملته بارجة حربية فرنسية ، من بور سعيد إلى سواحل جيبوتي وسفن أخرى استقلها الكاتب قبل ذلك من موانئ في اليونان وإيطاليا ومصر ، وقطارات بين دريدوه وهراري ، والإسماعيلية والإسكندرية ، وعشرات البغال المدرّبة على صعود الجبال الوعرة واختراق الغابات والأدغال الكثيفة ، وعبور الأنهار الجارفة في المناطق الإفريقية وصولاً إلى أديس أبابا ، وفي طريق العودة منها .

بتوصية من السفير الفرنسي في الآستانة المسيو كونستان استقل العظم (وبصحبته بقية أعضاء الوفد المؤلف من البكباشي طالب بك ، الجاويش ياسين أفندي ، إبراهيم بكر أفندي ، شوكت أفندي) بارجة حربية فرنسية تدعى «لا فودر» أي «الصاعقة» التي توقفت في بور سعيد في طريقها إلى الهند الصينية ، وغادرها بعد ذلك في جيبوتي ، وقد احتفى قائد البارجة به وبمرافقيه في الرحلة بصورة رسمية ، وودعه عندما غادر البارجة بطلقات من مدفعيتها ، وكان طوال أيام رحلته يرتدي الزيّ العسكريّ الأبيض .

III

دوّن الكاتبُ وقائع رحلته وما حفلت به من أحداث ومشاهدات يوماً بيوم ، وبالتالي فهي تشبه في ترتيبها المذكرات اليومية ، ولم يهمل الكاتب يوماً ولم يدوّن فيه ما شاهده وسمعه وقرأه ووقّعَ له ، حتى ليخيل إلينا أن الكاتب لا هم له أكبر من تدوين الرحلة . والواقع أن صادق باشا العظم يفصح هنا عن كاتب رحلة محترف ، ورحلته هذه تضعه في مصاف كبار كتابها العرب والأجانب ، لما يتميّز به من دقّة في التعبير ، وأمانة في النقل ، ورهافة في وصف المشاهد ، وذكاء في قراءة الظواهر ، وبساطة في اللغة ، وطلاوة في العبارة ، وطرافة في التعليق . فهو يذكر بعناية كبيرة

الأمكنة ، ومحطات التوقف ، ودرجات الحرارة والمواقيت ، كأن يقول مثلاً : «وفي الساعة السادسة وخمس دقائق إفرنجية مررنا بجزيرة كابري قادمين من نابولي» ؛ أو : «نحن الآن على ارتفاع 1500 قدم عن سطح البحر» ، إلى جانب التقاطاته اللمَّاحة في أمور ومسائل شتى تتصل بالناس والسلوك والعلاقة مع البيئة . وفي كل مكان يحلُّ رحالتنا فيه ، تراه يدون مشاهداته وانطباعاته على مستويين أساسيين : أولاً : يوميات البعثة من حل وترحال ، واستكشاف للطرق بين المدن والحصون والمواقع ، والوقائع اليومية للمسافرين ، وما يواجههم من متاعب ومشاق ونجاح وإخفاق ومفارقات خلال السفر .

وثانياً : نقل الصور والمشاهدات والظواهر على خلفية متصلة من حوادث الطبيعة ، واختلاف الجو ، وتبدل المناظر التي لا تتوقف عن مدّ الرحلة بعالم من الجمال الطبيعي ، يسوده اختلاف الطقس بين وادٍ وجبل ، وبين ساحل وقفرٍ ، وتفاوت المناخ . وهو إلى هذا وذاك يرسم ملامح وصفية للناس تكاد تكون قطعاً أدبية ملهمة ، ويورد أخباراً تتعلق بالمكان وحاضره وماضيه استقاها من السكان وتعليقاتهم ، كاشفاً عن قدرة كبيرة على شبك خيوط السرد بالوصف والمقارنة ، والاسترجاع والتسجيل والتحليل بكثير من الدقّة والسلاسة ، تاركاً لنا أن نتتبع ساعة بساعة ويوماً بيوم مسير قافلته في عالم لم نألفه ، ولا قبل لنا به . ومن أول ورقةٍ في الرحلة إلى ختامها ، يبدو العظم لنا مشاهداً يتأمل وينصت ويدون بسرعة بديهة ، وخبرة في الكتابة لافتة ، لا يضير صاحبها أن يكشف عن جهله بأمر ، مادام في دور المستكشف ، أو أن يسخر من خرافة أو مفارقة مادام في وضع من يحتكم إلى العقل . وهو يفعل ذلك بلغة أنيقة مقتصدة وجذابة .

وتكشف تعليقاته عن نفس ذات نزعة إنسانية لا يتناهى إليها تعصب لجنس أو دين أو ثقافة ، فنراه لا يكتفي بأن تلفت انتباهه الظواهر والمواقف والحالات الغريبة المفاجئة ، بل وحتى الأشياء البسيطة والجميلة المؤثرة . فالمرأة تحت المظلة تتخذ لها في سطوره حضوراً شاعرياً ، والأزهار الغريبة تبلغ عينه المتجولة باندهاش ، كأن يقول : «ورأيت وقت إذٍ نوعاً من القرنفل المطبّق لم تر عيني مثله قطا» . والحق أن العظم يتصرف كعاشقٍ مولع بالنبات . ولا نكتفي بأن نشير إلى براعته في حياكة النسيج

الذي يؤلف الرحلة ، بل نشير أيضاً إلى لطف الاستطراد لديه ، وخفة الانتقال من موضوع إلى آخر ، ومن إيراد حادثة إلى سرد أخرى ، من دون حشو ولا إملال .
وتكشف هذه الرحلة عن مستوى رفيع من ثقافة صاحبها ، فهو لا يهمل ، مثلاً ، أن يعقد الصلة بين المكان والأدب ، ففي طريقه إلى مرسيليا يمر بجزيرة مونت كريستو ، إذ ذاك نراه يشير إلى أن الكسندر دوماس اتخذها موضوعاً لإحدى قصصه الشهيرة . وهو أحياناً قليلة نراه يخبر عن نفسه ، إنما بموضوعية وتواضع في مناسبة تتعلق بحدث أو مكان ، أو تجربة تستدعي خبرة سابقة .

وفي ما يتعلق بالآراء والأفكار التي يفصح عنها صاحب الرحلة ، فنحن قلما وجدناه يتناول موضوعه من خارج ، أو يستعمل ما يعرض له ليؤكد فكرة مسبقة ، أو يروج لموقف . فهو إذ يثني على مهارة البحارة العرب في الشدائد والملمات وتفضيل الأوروبيين لهم على غيرهم من البحارة ، فلكونه رآهم يتصرفون بسرعة بديهة وذكاء فطري وخبرة مديدة ، وهو ما يفسر اعتمادهم من قبل البحرية المتصلة بشواطئ الرحلة . وإذ يمتدح مسلكاً في شخص أو جماعة ، فلكونه يرى في ذلك إنصافاً .
وعندما يمتدح مسلك القناصل الأوروبيين الذين استضافوه على طول خط الرحلة ، فلأنه يرى في هذا مسلكاً تقتضيه اللباقة الدبلوماسية ، بصرف النظر عن موقفه الرسمي من الصراع بين الآستانة وأوروبا .

وربما بسبب من دبلوماسية الرجل لم نلاحظ في خطابه أي إفصاح عن موقف خاص من الظاهرة الاستعمارية الغربية في أفريقيا ، على رغم أن الرحالة يورد معلومات جمة عن أوضاع الإنجليز والفرنسيين والطليان وتحركاتهم في المنطقة يوم ذاك ، في ظل الصراعات على النفوذ والثروات ، التي كانت دائرة ما بين القوى المذكورة من جهة ، وبينها مجتمعة وبين السلطنة العثمانية .

IV

يذكر العظم أنه استقى الكثير من المعلومات عن حاضر البلاد وتاريخها وتاريخ الدول والممالك ، والحروب الداخلية ، والحروب مع الطليان ، والأوضاع التجارية ، وغيرها ، من خلال أشخاص من أبناء الجالية العثمانية من سوريين ومصريين وأرمن

وغيرهم ، ممن التقاهم هناك أثناء رحلته ، سواء في جيبوتي أو في الحبشة نفسها ، كنعمان الخوري ، سفير فرنسا في الحبشة ، الذي زامله في المدرسة في أول نشأته ، وانقطع عنه منذ أيام الصبا . ومن بين هؤلاء ، أيضاً ، يذكر العظم أخوين سوريين من قرية بيت شباب في لبنان هما اسكندر وبشارة غالب ، وكانا في مطلع الثلاثينات من العمر ويشتغلان في التجارة . ويصفهما بأنهما على جانب كبير من الشهرة في البلاد . وقد وضعا نفسيهما في خدمة الوفد السلطاني الذي يرأسه العظم وقدما للأخيرمعلومات مفيدة عن أحوال البلاد وتجارتها وسياستها .

وفي هذا السياق لا يهمل الرحالة إيراد معلومات مستفيضة عن الأمكنة العامرة بالحركة والنشاط التجاريين ، وأطوارها وميزاتها وإمكاناتها وطرق الوصول إليها ، كجيبوتي ، مرغباً التجار العثمانيين في الوصول إلى هذه الأمكنة من باب توسيع تجارة السلطنة .

ونراه يورد معلومات مفيدة عن النشاط التجاري عبر البحار على خطوط التجارة القديمة والحديثة ، وأبرز القوى البحرية كالروس والإنكليز والفرنسيين والإيطاليين والهولنديين والهنود والعثمانيين والإيرانيين وغيرهم . ويعدد أنواع البضائع التي تمر بميناء جيبوتي ، وتلك التي تدخل الحبشة قادمة من أميركا وإنكلترا والبلاد العربية ، كأنواع الأقمشة القطنية والحريرية والأجواخ ، والآلات والأدوات الحديدية ، والبسط العجمية والأوروبية ، وأنواع الأسلحة النارية ، ومصنوعات الفضة والنحاس ، والطنافس التركية ، وعطر الورد والبن والملح وأنواع الحبوب ، والحصر ، وهذه البضائع ترد بواسطة السفن وكلها تعمل تحت العلم العثماني .

أما البضائع التي ترد من الحبشة عن طريق مضيق هرمز فأبرزها ، كما يذكر العظم ، البن والعاج والذهب الأصفر والشمع العسلي والماشية كالعجول والغنم والماعز وغيرها ، وجلود الحيوانات الوحشية ، وينشط هناك من الرعايا العثمانيين السوريون واليمنيون والحجازيون والأرمن .

V

لم يهمل الرحالة خلال وقوفه على الأمكنة تفصيلاً يستلفت انتباهه ، مهما كان

صغيراً ، إلا وتشاكل معه . فهو يصف كل ما راح يقع تحت نظره من بشر أو حيوان أو جماد ، مستعرضاً ميزاته ، ومعملاً المقارنة بينه وبين نظيره في أمكنة أخرى خبرها .

من هنا فإن وصفه يمكن أن يشكل وثيقة بالغة الأهمية لما كانت عليه الحال في الحبشة خلال نهاية القرن التاسع عشر . وهكذا تحضر المدن والجبال والقرى والغابات والأنهار بطبيعتها وحيوانها وعمرانها وناسها ، والعادات والتقاليد والأزياء ، ومظاهر السلوك العام والخاص ، والطقوس والعادات الاجتماعية ، فلا يترك العظم شاردةً أو واردة ، إلا ويصورها ، ويتتبع حياة الحيوان وسلوكه ، وسلوك الناس نحوه ، ويصف الشخصية الوطنية وطبيعة استجاباتها بإزاء الآخر المقيم في ظهرانيها ، أو الغازي الأوروبي القادم من بعيد ، وتداعيات هذه الشخصية بإزاء التطور الطارئ على البيئة بفعل الوجود الاستعماري وما حمله معه من مفردات العصرنة .

ولا يتركُ الرحالة أن يبدي دهشته وأسفه لأحوال النساء في تلك البلاد ، وللحيف الواقع عليهن من جانب الرجل وثقافة المجتمع المفرط في ذكوريّته ، فهو ، هنا ، على شيء كثير من النباهة في تأمل حال المرأة ، والإشارة باستنكار إلى ما يحط من شأنها ، ويقلل من مكانتها كمشاركة مبدعة في الوجود ولها كيان خلاق . لكنه لا ينسى أن يثني على همتها ونشاطها وكفاحها اليومي الصامت والسعيد ، قياساً على خاملات القسطنطينية .

وعندما يصف السيدات الحبشيات ، فهو في الوقت الذي يصف جمالهن الأخاذ ويحتفي بسمرتهن ودقّة أنوفهن وبساطة مسلكهن ، وتقشفهن ، وانتمائهن الحي والأصيل إلى المكان ، وإلى فكرة العمل والإنتاج ، يكشف في الوقت نفسه عن وعي رفيع لفكرة الاختلاف الحضاري ، فيرى في التصرفات والسلوكيات الخاصة بنساء الحبشة ميزات راقية .

والحق أن الموضوعية والأمانة والدقة التي يتحلى بها الكاتب ، فضلاً عن الروح الإنسانية المتخفّفة من العقد ، تمكن هذه الرحلة من أن تُتخذ كدليل بالغ الجودة بالنسبة إلى الرحالة والمسافرين إلى تلك الأنحاء ، وإلى القراء الراغبين في معرفة جغرافية تلك البلاد وأحوالها معرفة لا تنشد إلا نفسها . والمؤلف نفسه أشار إلى ذلك عندما كتب يقول : «رحلتي هذه أكتبها بطريقة تُمَكّن السائح في تلك البلاد من

اتخاذها كدليل له» . ونحن نضيف ، إلى هذا بأنها نص يقدم المعرفة بالمكان وإنسانه أقرب إلى الشمول .

فوصف الطبيعة ، وعلاقة الإنسان بها يشغل حيزاً بارزاً من اهتمام المؤلف ، وهي عنده طبيعة شاعرية أجمل حالاتها عندما تتيح للبشر أن يحضروا من خلال انسجامهم معها ، فينقل إلينا حالته وهو ينصت إلى أصوات الطبيعية وحركاتها كأني به شاعراً متمرساً ، أو رساماً مرهفاً يرسمُ .

VI

يتوقف الرحالة كثيراً عند معتقدات الأفارقة إزاء عالمهم وإزاء الآخر الأبيض الذي ولد قبل أوانه ، فكان له هذا اللون الشاحب ، لون ما قبل النضج !

ولو كان هناك جزء من هذه الرحلة بلا كبير قيمة ، فهو ليس بلا طرافة ، وأعني به ذكر اللائحة اليومية للأطعمة التي دأب الوفد على تناولها خلال سفره . وهنا لا بد أن نلاحظ أن الصيد لعب دوراً أساسياً في تزويد المسافرين بالطعام ، وقد بلغ عددهم في بعض مراحل الرحلة الـ ٤٠ نفراً .

ولعل في تلك المقارنات التي لم يتوقف الرحالة عن عقدها بين الظواهر والطبيعة والأعمال التي وقف عليها في الحبشة وما يشبهها في موطنه سوريا ، أو في الآستانة ، ما ينبهنا إلى المكونات الفكرية للكاتب ، ويكشف عن مرجعياته الثقافية التي يستند إليها ، فهو يفصح عن تفكير يمزج بين الأخذ بالعصرنة ، والانتماء إلى الأصول الإسلامية لمثقف دمشقي ينتمي إلى النخبة العسكرية العثمانية المتطلعة إلى مجتمع عثماني جديد لا يفصل بين فكرة التحديث من جهة وثقافة الأهل من جهة ثانية .

وعندما نتطرق إلى ظروف الرحلة ، فإن الخطر كان ، باستمرار ، محدقاً برحَّالتنا في الغابات والأدغال والجبال والوديان ، وعند ضفاف الأنهار ، لا سيما في الليل ، حيث تنتشر الذئاب والأسود والفهود والضباع وغيرها من الحيوانات الكاسرة ، وحيث يحتاج المسافر ، كما يمكن للقارئ أن يلاحظ ، إلى خبرة كبيرة بمخاطر السفر واحتمالاته في مثل تلك الأمكنة ، إذا كان يريد أن يحتفظ بنفسه ، ويحافظ على حياته من المفاجآت التي قد يشكلها ظهور أسد أو نمر أو تمساح ، فكانت نيران معسكر

رحالتنا في الليل عالية إلى الحد الذي يجعل سباع البر تتردّد في الاقتراب منه .

وإذ يصف العظم استقبال الإمبراطور له في القصر الإمبراطوري ، فإنه يعدد الهدايا التي سلمها للنجاشي منليك والهدايا التي تسلمها منه ، ويصف الإمبراطور والإمبراطورة ، وتاريخ تأسيس الإمبراطورية الجديدة في الحبشة انطلاقاً من الإجماع الذي وقع على النجاشي منليك من قبل الأحباش جميعاً أثر مصرع الإمبراطور السابق يوحانس في واقعة حربية مشهورة في أدووا .

وفي هذا المعرض يصف الرحالة في نصّه دور الإمبراطورة القوية تيتوفي نهضة بلادها ، وفي السياستين الداخلية والخارجية للبلاد ، ويؤكد على موقفها الحازم من الاستعمار الإيطالي ومحاولاته الهيمنة على مقدّرات البلاد وعلاقاتها الخارجية ، ويشيد بدورها الوطني المؤثر في تكريس استقلال سياسة بلادها .

ويفرد المؤلف الصفحات الأخيرة من رحلته لوصف المواقع الحربية العديدة التي دارت بين الأحباش والإيطاليين ، من دون أن تخفي موضوعيّته في العرض إعجابه الكبير ببسالة المقاتلين الوطنيين ، ونباهة قادتهم العسكريين . ويورد معلومات تفصيلية دقيقة بالأرقام عن عتاد الجيش الحبشي وعدته وعديده ، ما يكشف عن سعة اطلاع هذا الضابط الكبير وخبرته العسكرية .

أخيراً ، فإن قارىء هذا الكتاب ليستغرب غزارة المعلومات التي يوردها المؤلف عن البلاد والأشخاص والوقائع ، حتى ليظن الواحد منا أنه قضى أيامه في الحبشة لا يفعل شيئاً سوى جمع المعلومات وتدوين الأخبار ، وتسجيل الملاحظات والمشاهدات ، فهو ما أن يورد اسم علم حتى يأتيك بأخباره ويصف منزلته ، ويُعرِّف به أحسن تعريف فيكاد هذا يشخص أمامك .

نوري الجرّاح

أبوظبي في 13/3/2001

مسار الرحلة

الانطلاق

* السفر من الآستانة 15 إبريل / نيسان .
* إزمير 16 إبريل .
* ميناء بيرة 18 إبريل ثم زار أثينا لـ 3 ساعات ثم عاد إلى بيرة .
* نابولي .
* ميناء (جوليت)- مرسيليا .
* بورت سعيد الوصول 27 إبريل المغادرة 1 مايو / أيار .
* الوصول إلى جيبوتي 5 مايو ، المغادرة 8 مايو .
* دريدوه 9 مايو آخر محطة من سكة الحديد (قرية صغيرة) المغادرة 10 مايو .
* مدينة هرر 11 (مايو) الوصول .
* مرحلة (هرمايا) .
* مرحلة قارحة 16 مايو .
* مرحلة بككا 17 مايو .
* مرحلة جالنقو 18 مايو .
* مرحلة دررو 19 مايو .

* مرحلة طوللو 20 مايو .
* مرحلة ديبه سو 21 مايو .
* مرحلة قونني 22 مايو .
* مرحلة بدسا 23 مايو .
* مرحلة قالمو 24 مايو .
* لاغاهارديم 25 مايو .
* مرحلة قاجانواها 26 مايو .
* مرحلة فنطاللي 27 مايو .
* مرحلة تاديجامالكا 28 مايو .
* مرحلة جوبا 29 مايو .
* محطة منابللا 30 مايو .
* مرحلة بالجي 31 مايو .
* مرحلة تينجة فيدنسا 1 يونيو / حزيران .
* مرحلة عقاقي 2 يونيو .
* مرحلة جولا 3 يونيو .
* مرحلة أديس أبابا 4 يونيو .

العودة

* مرحلة عقاقي 15 يونيو .
* مرحلة دوببي 16 يونيو .
* منابللا 17 يونيو .
* تاديجامالكا 18 يونيو .
* قارابا (بحيرة على نهر صغير) 20 يونيو .
* مرحلة لقامعو 21 يونيو .
* مرحلة غوط 24 يونيو .

* مرحلة توما 25 يونيو .
* الوصول إلى دريدوه 26 يونيو .
* السفر إلى جيبوتي 28 يونيو .
* السفر إلى السويس 30 يونيو .
* الوصول إلى السويس في 7 يوليو / تموز .
* 8 تموز السفر بالقطار عن طريق الإسماعيلية ومنها إلى الإسكندرية والإقامة فيها ليومين .
* في يوم السبت التوجه إلى الأستانة 10 يوليو على الباخرة جنجاجيف (الروسية) .
* الوصول إلى الأستانة في 16 يوليو .

الانطلاق

15 ابريل/نيسان 1896

السفر من الآستانة

تراجمة بيره - ساعتان لطيفتان في نابولي - الوصول إلى مرسيليا - خادم القهوة - الوصول إلى بورت سعيد - مهارة ملاحي البحر الأحمر - الاستمرار على السير.

امتثالاً للأمر السلطاني الصادر بانتدابي لإيصال كتابه إلى جلالة منليك الثاني نجاشي الحبشة سافرت من الآستانة في الخامس عشر من شهر نيسان (أبريل) على الباخرة أوره نوف من شركة مساجري ماريتيم الإفرنسية قاصداً مرسيليا لأركب منها أول باخرة تسافر إلى جيبوتي . وكان في صحبتي البكباشي طالب بك من ضباط الفرقة الثانية ومن ياوران الحضرة السلطانية وياسين أفندي أحد جواش بلوك المعية ، وكانت الباخرة المذكورة كبيرة جداً وعلى غاية من النظافة ، تقطع في الساعة ثلاث عشرة عقدة ، ولم يكن معنا من الركاب في الدرجة الأولى سوى ثلاثين راكباً نساءً ورجالاً ، لذا كان لنا مجال واسع للتمشي على ظهر الباخرة والراحة في بهوها .

بلغنا جناق قلعة (الدردانيل) ليلاً فرست بنا الباخرة برهة يسيرة ريثما أعطت البريد وأخذت غيره ثم مخرت بنا قاصدة أزمير ، وكان البحر هادئاً والطقس جميلاً

جداً ، وفي اليوم التالي الجمعة وصلنا أزمير في منتصف الساعة السابعة صباحاً ، وألقت الباخرة مراسيها خارج الميناء وأخذت تشحن البضائع من قطن وزبيب وبيض وتين مجفف بكثرة لنقلها إلى مرسيليا ، فرأيت أن أنزل إلى المدينة لأجل إتمام بعض نواقص السفر اللازمة لنا في سفرنا هذا . وقد كانت أمتعتي وأدواتي التي ادخرتها بعد سياحاتي وأسفاري لأواسط أفريقيا (مرة إلى جغبوب ومرة إلى كفره) وآسيا الصغرى (الأناضول) ورحلتي من دمشق إلى الحجاز في مهمة مد الخط البرقي بين القطرين المذكورين ، كاملة تغنيني عن أخذ مثلها الآن ، لكن الحريق الذي دمّر منزلي الكائن بالآستانة في العام الغابر أتلف كل هذه العدد ، فاضطرني إلى تجديد كل ما يلزم لمثلي في الأسفار .

وبعد أن مكثنا في أزمير أربعاً وعشرين ساعة أقلعت بنا الباخرة منها في الساعة السابعة ونصف صباحاً قاصدة ميناء (بيره) وبينما كنا نتناول طعام المساء تغير الطقس وأخذت الباخرة تتمايل بنا ذات اليمين وذات اليسار ، فانقبضت الصدور وترك الركاب المائدة من نصف الأكل وجعلوا يتسلّلون إلى غرفهم واحداً تلو آخر . ومع كثرة معاناتي لركوب البحار وما صادفته فيها من الأنواء العظيمة لم أعتد الصبر على الدوار فاضطررت للذهاب إلى غرفتي أيضاً ، ونمت من الساعة الواحدة بعد الغروب (على الحساب الشرقي) .

وفي يوم الأحد التالي وصلنا إلى ميناء (بيره) ولم تلبث الباخرة أن ألقت مراسيها وأخذت الجواز الصحي ، حسب العادة ، حتى امتلأت بسماسرة الفنادق وتراجمة السياح وأصحاب القوارب ، وأخذوا يحومون حول الركاب ويكلمونهم بلغات متعددة كالإنكليزية والإفرنسية والرومية ، فكنت أتخيل من كلام من كانوا نصيبي من هؤلاء النوتية أن من يخاطبني بالتركية إنما يخاطبني بالإفرنسية ، ومن يخاطبني بالإفرنسية إنما يخاطبني بالتركية . وكان كل من هؤلاء النوتية يبذل جهده ويظهر من فصاحة اللسان ما عنده لإقناع الركاب بالنزول إلى البر والذهاب إلى (أثينا) عاصمة اليونان والتفرج عليها . وقد أراني أحد التراجمة بطاقة أحد رفاقي من الياوران وقد كان مرّ بهذه الميناء وهو ذاهب لقضاء مهمة كان انتدب إليها ، وزار (أثينا) وضواحيها مع الترجمان المذكور ، وعلى ظهر البطاقة كتابة بتوقيع صاحبها تشهد بحسن حال

الترجمان . ولما رأيت هذه الكتابة نزلت إلى البر مع رفيقي بصحبة ذلك الترجمان لزيارة عاصمة اليونان ، وركبنا مركبة مكشوفة من الجنس المعبر عنه (لاندو) لنتمكن من الوقوف في الطريق عند الحاجة ومشاهدة الآثار كما يجب . وكنا كلما مررنا بأثر قديم ومحل مشهور يقف صاحبنا بنا خطيباً ويحملق بناظريه ويشير إلى اليمين والشمال بيديه مسترسلاً في سرد تاريخ ذلك الأثر ، مشخصاً حالة أصحابه بشكل مستغرب وبيان مخل زائد عن الحاجة . وكيفما كان الحال قد قضينا في (أثينا) ثلاث ساعات عدنا بعدها إلى (بيره) ثم قصدنا الباخرة ولما بلغناها وجدنا الدرجة الثالثة مملوءة بالركاب . وفي الساعة السادسة أقلعت بنا من (بيره) والإشاعة دائرة بين الركاب أن نوءاً شديداً سيحدث في الليل . ولما جاء الليل كذب تلك الإشاعة ولم يحدث النوء بل بالعكس كان الهواء لطيفاً والبحر هادئاً وقضينا الليل في راحة ، وعلمت ونحن على طعام المساء شيئاً أحببت ذكره هنا وهو :

كنتُ أعهد بالأوروبيين الشره إلى أكل لحم الخيل ، وكثيراً ما رأيت في باريس ألواحاً على حوانيت بعض الجزارين مكتوباً عليها (البغال السمينة) وفيها كثير من لحم البغال والخيل ، إلاّ أنّي ما كنت أعرف أنهم يأكلون لحم الحمير أيضاً . نعم إن المعلوم عقلاً أن ليس هناك فرق بين لحم البغال والخيل ولحم الحمير ، وربما تشابهت هذه اللحوم لأن غذاء الحيوانات واحد ، ومن أكل لحم الخيل والبغال يسهل عليه أكل لحم الحمير أيضاً ، إنما موضع الاستغراب هو أني أعلم أن جنس الحمير قليل جداً في أوروبا ، وأنه لا يوجد إلاّ في حدائق الحيوانات في عواصم أوروبا الكبرى بين الحيوانات الغريبة . ولم أسمع أن هذا الحيوان كثير في أوروبا لدرجة أن يؤكل لحمه حتى رأيته تلك الليلة على المائدة وذلك أن الموكلين بالطعام أتونا بنوع من النقانق (السجق) ذي منظر بهيج ولون جميل مقطع قطعاً مستديرة ولما لم أعرف جنس هذا الطعام ومن أي لحم عمل لم أتناول منه ، وكان بجانبي قسيس ضخم الجثة سمينها يظهر من سيماه وصحته أنه يحب المآكل النفيسة ، فلما رآني اكتفيت بالسردين والزبدة قال لي : (كُلْ يا سيدي من هذه النقانق لأنها من أنفس ما صنع ، وهي معمولة من لحم البغال والحمير معاً) ووافق الحضور على أقواله ، أما أنا فاعتذرت مع الشكر لهذا القسيس الكثير العناية بجيرانه .

وفي صباح اليوم التالي الذي هو يوم الثلاثاء رأينا عن شمالنا جزيرة (استرومبولي) وقضينا وقتاً في مشاهدة الدخان المتصاعد من جبالها البركانية ، وفي الساعة الخامسة إفرنجية مررنا بين نابولي وجزيرة (كابري) ، وهنا قرب جزيرة (كابري) نفق طبيعي جسيم يُمر به من طرف إلى طرف ، ويرى من الباخرة . وكان الركاب يتحدثون بموت المسيو كروب صاحب معمل مدافع كروب في هذه الجزيرة ، وبزيارة الإمبراطور ويلهلم إمبراطور ألمانيا لهذه الجزيرة منذ عشرين يوماً ومكثه فيها نحو شهر من الزمان .

وفي الساعة السادسة إفرنجية دخلت باخرتنا ميناء (نابولي) المشيدة بيد القدرة وهي بيضية الشكل وتحيط بها الجبال من أطرافها ، ويرى الراكب من الباخرة جبل (فيزوف) الناري الشهير . ويوجد لهذا الميناء الطبيعي رصيف جسيم وجميل كلما اقتربنا منه نرى الزوارق الصغيرة مملوءة من المغنين والمغنيات مقبلين علينا لاستقبالنا وهم يغنون الأغنيات المطربة ، وكانت تدنو أجمل تلك الفتيات وبيدها المظلة (الشمسية) معكوسة أي أن اليد إلى الأعلى لتتلقى بها النقود فيأخذ ركاب الباخرة برمي ما تجود به أنفسهم من الدراهم لهؤلاء المساكين ، فكان كلما ازداد سقوط الدراهم إلى المظلة يزداد سرور المغنين . وكان دنو الشمس من الغروب ومنظر المدينة البهيج يمثلان صورة من أبدع الصور لا سيّما تلك الزوارق التي كانت محيطة بالباخرة ويحمل بعضها أنواع الزهور وبعضها أنواع الفواكه وأخصها الكرز . وقد رأينا وقتئذ نوعاً من القرنفل المطبق لم ترَ عيني مثله قط . ولما دنت كل هذه الزوارق من الباخرة علت أصوات الموسيقى وازداد السرور ، ثم أخذت الفتيات المغنيات بالرقص في الزوارق حتى أقبل الركّاب جميعهم إلى شرفات الباخرة يشاهدون هذا المنظر البديع وهم مبهوتون .

ولما كانت الباخرة لا تقف ثمة أكثر من ساعتين أو ثلاث ساعات ، فقد اكتفيت بمشاهدة المدينة من الخارج هذا وقد جرت المعاينة الصحية في الباخرة بكل اعتناء وتدقيق ، وخرج أكثر ركاب الدرجة الرابعة إلى البر ليُنقلوا إلى باخرة أخرى . ولما أرخى الليل ستاره أخذت زوارق المغنين والمغنيات وبائعي الزهور والفواكه تنسلُّ واحدة وراء الأخرى راجعة إلى حيث أتت واستولى السكون على أطراف الباخرة وظهرت المدينة بحلّة بهية تسطع بالأنوار فتجتذب إليها الأبصار وتعوّض النفوس من

المسرة عما فاتها في النهار . ولما أتمت الباخرة أخذ القليل من البضائع التي وردتها وإنزال مثلها وقصد الركاب غرفهم لأجل النوم أقلعت بنا قاصدة مرسيليا .

وفي يوم الأربعاء التالي أصبحنا والجو متلبد بالغيوم والبحر متلاطم بالأمواج والباخرة باهتزاز مستمر ، فلم يتمكن أغلب الركاب من الجلوس على المائدة وقت الظهر ، وفي الساعة السادسة بعد الظهر مررنا أمام جزيرة (مونت كريستو) التي اتخذها اسكندر دوماس الكاتب المعروف موضوعاً لإحدى قصصه الشهيرة وتركناها على يميننا ، ولما كان البحر مستمراً في هياجه اضطر أكثر الركاب للالتجاء إلى غرفهم وملازمة سررهم قبل الوقت ، وقد كنت أنا من جملتهم أيضاً .

وفي يوم الخميس رُئيَ البرُّ ، وأخذَت الباخرة تقترب من مرسيليا ، وفي منتصف الساعة الرابعة دخلنا مينا (جوليت) في الثغر المذكور ، ولما صعدنا إلى البر أخذنا حقائبنا الصغيرة وتركنا ما عداها من الصناديق في الجمرك لعزمنا على سرعة السفر على باخرة أخرى ، ونزلنا في فندق (جنيف) الكائن في شارع (كابنيدر) الشهير الذي يباهي به المرسيليون أهلَ باريس ويعدُّونه من أجمل الشوارع وأعظمها .

يستطيع الإنسان أن يكتب كثيراً من الصفحات عن مناظر مرسيليا وموقعها وآثارها ، ولكن رحلتي هذه خاصة بالحبشة فقط ، لذا اكتفيت بسرد الأشياء والأحوال التي تستدعي دقة النظر كثيراً .

بعد أن استرحت في الفندق بضع دقائق وتركت الحقائب الصغيرة هناك خرجتُ للبحث عن باخرة تسافر إلى جيبوتي أو إلى عدن ، فذهبت لمكتب شركة (بننسولر) الإنكليزية فأُعلمت أنها تقوم في اليوم التالي ؛ باخرة قاصدة عدن . ولدى سؤالي عن وجود بواخر تسير بين عدن وجيبوتي أجابوني أنهم لا يقطعون بالعلم بوجود باخرة تتردد بين جيبوتي وعدن ، والأولى الاستعلام عن ذلك من وكالات الشركات البحرية في بورت سعيد ، فلذا عزمت على السفر إلى بورت سعيد على تلك الباخرة ، حتى إذا علمت ثمة أن ليس بين عدن وجيبوتي بواخر للسفر أمكث في بورت سعيد ريثما تمرُّ منها باخرة قاصدة جيبوتي .

وفي يوم الجمعة صباحاً بينما كنت جالساً خارج إحدى المنتديات أسرّح الطرف في الغادين والرائحين ، إذ أتى خادم المحل وحلّ عرى (التنته) وأنزلها إلى قرب

الأرض ، فسألت الخادمَ عن سبب ذلك فأومأ بيده مشيراً إلى الساعة ، فرفعت نظري إليها فإذا هي السابعة والنصف ، ففهمت أن العادة في هذا المحل تنزيل (التنته) في هذا الميعاد منعاً لأشعة الشمس . على أن الشمس كانت هذا اليوم غائبة ولم يكن من حاجة لتنزيلها ، وإنما هذا الخادم الشبيه بآلة ميكانيكية لم يدرك ذلك . وذكرتني هذه الحكاية حكاية مثلها شاهدتها في برلين ، وذلك أني كنت مرة هناك أتنزه مع بعض رفاقي الضباط فأخذ الجو في التغيير فجأة ، وظهرت علائم المطر فاضطررنا للالتجاء لمنزل أحد رفاقنا ، وكان قريباً إلى المحل الذي كنا فيه . وبعد قليل تدفقت السيول حتى حاكت الطرق الأنهار . وبينا هي كذلك إذ جاء الرجل المكلف من قبل البلدية برش الطريق راكباً على عجلة يجرها حصان ، فوقف أمام الحنفية الخاصة لملء عجلات الرش ، ووضع الماسورة وملأ خزانة العجلة بالماء وأخذ يرش الطريق مبتدئاً من المحل الذي كان وصل إليه الرش قبل نزول المطر ، غير مبالٍ بانهمار المطر عليه . وعندها دخل علينا صاحب المنزل فسألناه عما يفعل هذا الرجل القائم برش الشارع مع نزول المطر ، فأجاب : إن الرجل قائم بأداء وظيفته ! .

وقد كنا نقلنا كل ما معنا من الصناديق والحقائب من الجمرك إلى إحدى بواخر شركة (بننسولر) التي أقلعت بنا من مرسيليا في الساعة الحادية عشرة صباحاً قاصدة بورت سعيد .

كنت عندما قمنا من الآستانة عجبت من عظم باخرة المساجري التي أقلتنا إلى مرسيليا ، ولكن لما دخلت سفينة الشركة الإنكليزية دهشت لعظمها وظننت نفسي في منزل كبير ذي غرف كثيرة ، أو أنّي نازل في فندق قونتيننتال أو فندق برابالاس ، وقد عرّفني وكيل الشركة في مرسيليا قبل مغادرة السفينة بمفتش هذه المصلحة المسافر معنا وبكوميسر الباخرة لأنهما كانا يتكلمان اللغة الإفرنسية ، وأما غيرهما من مستخدمي الباخرة البالغ عددهم مائتين فلا يعلمون سوى الإنكليزية . وغريب جداً عدم إقبال الإنكليز على اللغة الإفرنسية مع أن المسافة بين عاصمة فرنسا وبين عاصمة الإنكليز قريبة جداً ، حتى أنه ليستطيع الإنسان أن يفطر صباحاً في باريس ويتناول طعام الغذاء وقت الظهر في الساحل الإنكليزي ، والسيجارة إذا ابتدأ المرء بها في البَرِّ الفرنسوي قد لا يلقيها من يده إلا وهو في البلاد الإنكليزية بعد ساعة

ونصف . ومن كان معنا من المسافرين الفرنسويين كانوا لا يعرفون الإنكليزية ، فكانوا يتبرّمون مثلي من جهل القائمين بخدمة الركاب العارفين اللغة الإفرنسية . ومن المعروف أن يكون خدّام البواخر والفنادق ممن يتكلمون بلغات متعددة لوجود مسافرين من جميع البلاد .

أما النظافة في الباخرة والنظام فعلى غاية ما يرام ويبلغ محمولها 200527 طونيلاتة وقوة عدّتها 16500 حصان ، وتتسع الدرجة الأولى 400 راكب ، والدرجة الثانية 180 راكباً ، ولكل من هاتين الدرجتين بهو للطعام على حدة ، وتتسع المائدة أربعمائة راكب في بهو الدرجة الأولى وجميع كراسيها ثابتة ، ولكن الركاب يتفرقون على موائد صغيرة تتسع الواحدة منها عشرة ، وبين كل كرسي وآخر من الفراغ ما يتسع كرسياً آخر ، وسلالم الدرجة الأولى متقابلة من الطرفين كسلالم الفنادق الكبيرة ، ومفروشة بالطنافس الثمينة ومزينة بأجمل الرياش ، والسقوف عالية حتى أن الإنسان لو لم ينظر إلى البحر لخيل له أنه في قصر مشيد .

والغرف التي للطعام والتي لشرب الدخان وللمطالعة على غاية من الزينة ، ويوجد في الغرف مراوح كهربائية إذا أديرت في الأيام الشديدة الحرارة تغير هواء المحل وصار منعشاً .

ويجلس الركاب على المائدة أربع مرات في اليوم ، ويأكلون في كل مرة ما يشتهون ويجد الراكب أمامه في كل جلسة ورقة مطبوعة عليها أسماء أنواع الطعام الكثيرة .

والحجرات التي للاستحمام فيها ما يُسرّ من الرشاشات المتنوعة ، وظهر هذه السفينة كبير جداً وقد يلعب عليه الركاب بالكرة المسماة (تنس) وكان بين البحّارة والخدام كثير من الهنود ، فالوثنيون منهم يضعون على رؤوسهم قبّعات كالإفرنج ، والمسلمون يضعون عمامة طويلة حمراء اللون .

وكانت باخرتنا حديثة النشأة وهذه هي المرة الثانية التي جرت فيها في اليمّ فكانت تقطع 16 عقدة في الساعة وعندها مزيد من الاستعداد لسرعة السير .

وكنا نعرف المسافة التي تقطعها هذه السفينة لأنهم كانوا كل يوم يعلّقون فيها خريطة يُكتب عليها بخط أحمر الطريق التي تسير عليها السفينة ، والجهة التي تبلغها وقت الظهر ، مع بيان الطول والعرض واليوم والتاريخ . وبهذا كنا نستطيع أن نعرف

متى تصل الباخرة إلى المحل المقصود . ولكل باب من أبواب الحجرات قفل ، ولكنه من غير مفتاح ، وأظن أن هذا الحال هو من قبيل الاحتياط ، أي أنه إذا طرأ خطر فجائي على الباخرة فلا يشغل الراكب فتح الباب بل يجد السبيل سريعاً للخروج من الحجرة . وقد طلبتُ من الخادم مفتاحاً لحجرتي فلم يفهم أو أظهر عدم الفهم .

وقد تغير النوء في اليوم التالي ، واشتد الريح ولم تظهر الشمس ذاك اليوم ، وأصبحنا يوم الأحد والسماء صافية ولم تزل كذلك حتى وصلنا بورت سعيد يوم الثلاثاء الموافق 27 نيسان (أبريل) في الساعة الثانية بعد الظهر . ولما نزلت إلى البر أخذت أسأل عن السفن التي تسافر من عدن إلى جيبوتي ، فعلمت أنه توجد باخرة صغيرة بين هذين الثغرين ، ولكن لخلل طرأ عليها لا تسير في هذه الأيام ، وأنه لا بدّ للمسافر من ركوب السفن الشراعية للذهاب من عدن إلى جيبوتي . ولما علمت ذلك عدلت عن السفر إلى عدن وأنزلت الأمتعة من الباخرة وسلّمتها إلى مخزن الجمرك الكائن على رصيف الميناء ، ونزلت ومن كان معي في فندق البوستة لأني أُخبرت أن صاحبه كان صاحب فندق في جيبوتي وأقام هناك مدة طويلة . وإنما لم أسافر على إحدى السفن الشراعية من عدن إلى جيبوتي لأنها قوارب صغيرة لها أشرعة فليست جديرة أن يعتمد عليها المسافر . وقد كنت ركبت واحدة منها من رابغ إلى جدّة إذ كنت ناظر إنشاء السلك البرقي الحجازي . ولم أدرك ما هي هذه السفينة التي دخلتها ليلاً إلاّ بعد أن أقلعت بنا وبعدنا عن الساحل . ولما طلع النهار أبصرتها ، فإذا هي ملفقة من ألواح خشبية بغير نظام ، حتى أن الماء كان يدخلها من كل جانب فيضطر اثنان من البحارة أن يشتغلا برفع الماء على الدوام بالسطول (الجردل) وبينما نحن سائرون عليها إذ تمزق الشراع ، فلم يوجد عند البحارة إبرة وخيط لخياطة الشراع ، فأعطيت للجنود الذين كانوا معي ما يلزم لرتق هذا الفتق . ولا نكران لمهارة البحارة العرب في فن الملاحة ، فقد كانت هذه السفينة الشراعية سائرة قرب الساحل مارة من بين الشعوب الكثيرة في تلك الجهات ، حتى أن الراكب إذا ألقى بصره على سطح البحر يرى أنه سائر على شبه غابات ، وكان الربان في مقدم السفينة منتبهاً يكلم البحار الواقف على دفة القارب بصوت عالٍ يقول له : شمالك ويمينك ويحذره من مصادمة الشعوب ، وكان يقول : خذ حذرك من شعب كذا ، أو وصلنا إلى محل

كذا ، أو مررنا بمحل كذا ، والبحار الممسك بدفة القارب يدير حركات السفينة التي كانت تسير بالريح بسرعة اثنتي عشرة عقدة .

ولذلك تضطر البواخر التي تدنو من سواحل البحر الأحمر لأخذ دليل من العرب خوفاً من المصادمات ، والبواخر التي لا تأخذ أدلاء تضل السبيل فتغرق . أما زوارق العرب الصغيرة فهي لوح خشبي طويل وسطه المحفور لا يسع سوى شخص واحد فقط ، فيركبها العربي الساحلي في النهار فيذهب للصيد عليها في البحر ، وعندما يرجع في المساء يحملها على كتفه كعامود صغير ويأتي بها إلى كوخه الحقير . وإذا حصل نوء وهو عليها في البحر يقلبها على وجهها ويركب عليها كما يركب على حصان . ولا يوجد في داخل هذا الزورق شيء سوى مجداف صغير جداً وليس على الرجل من الملابس سوى فوطة في وسطه . وبما أني رأيت ما ذكرته رأي العين لم تمل نفسي إلى ركوب قارب من القوارب المذكورة في سواحل عدن وفي مدخل البحر المحيط الهندي .

إن المسافر إلى الحبشة لا بدّ له من المرور ببلاد الصومال الفرنسوية ، ولذلك قد تكرم حضرة الموسيو كونستان السفير الفرنسوي في الآستانة بكتب توصية إلى جناب والي الصومال وإلى سفير فرنسا في عاصمة الحبشة يوصيهما بالبعثة السلطانية خيراً ، وتفضل بإرسال الكتب المذكورة مباشرة إلى القنصلية الفرنسوية في بورت سعيد لأستلمها من هناك ، فأشكره وأشكر الموسيو (لدو) ترجمان السفارة الذي بذل الهمة في إرسال هذه الرسائل إلى بورت سعيد ، وقد استلمت هذه الرسائل من جناب الموسيو يوسف خوري النائب عن القنصل الذي كان مسافراً . وصادف أن بارجة فرنسوية كانت على وشك المرور بالقنال بعد بضعة أيام مسافرة للهند الصينية مارة في طريقها على جيبوتي ، فهيأ لي الموسيو يوسف كلّ ما يلزم لسفري عليها بصفة ضيف ، وكان السفر من بورت سعيد في اليوم الأول من شهر مايس (مايو) الشرقي .

وقبل سفر البارجة جرى التزاور والتعارف بوساطة الموسيو يوسف خوري بيني وبين جناب الميرالاي الموسيو غبرات قائد البارجة المذكورة ، وقد حكى لي أنه قبل بضع سنين كان قائد البارجة التابعة للسفارة في الآستانة ، وأنه نال من تعطفات الحضرة

السلطانية بعض الوسامات السامية ، وأثنى على حضرة السفير الموسيو كونستان وذكر محبته واحترامه له وأظهر سروره العظيم من سفر البعثة السلطانية على بارجته . وبذلك جعل لساني ينطلق بشكره وبشكر الموسيو يوسف خوري الذي أكرمني غاية الإكرام . ولولا هذه البارجة لاضطررت أن أمكث في بورت سعيد منتظراً الفرج في وقت لا آمل فيه بحضور باخرة تسافر إلى جيبوتي ، بالنظر لاعتصاب بحارة البواخر كلهم في مرسيليا .

السّفر على البارجة المسماة (لافودر)

يوم السبت 1 مايو / أيار

إكرام القائد والضباط لنا - وصف البارجة - ذكرى طريق الحجاز - السمك الطيار - الحَرّ في البحر الأحمر

في الساعة الثامنة من صباح هذا اليوم أرسل قائد البارجة قارباً بخارياً فأخذ أمتعتنا إلى البارجة ، وفي الساعة الحادية عشرة أرسل زورقاً بخارياً آخر فركبناه وركب معنا الموسيو يوسف خوري ليشيعنا إلى البارجة ، فلما وصلناها استقبلنا حضرة قائدها وضباطه من السلالم بكل تحية وإكرام ، وبعد مصافحة الضباط أوصلني الميرالاي إلى المحل المخصص لإقامتي ، كما أن أحد الضباط أوصل طالب بك إلى حجرته وخصص حجرة أخرى لياسين أفندي .

والمحل الذي عين لإقامتي فيه أكبر بهو في البارجة وغرفة للطعام خارج هذا البهو وأخرى للنوم وحمام . وقد أقام القائد أمام دائرتي واحداً من الجنود البحارة للخدمة وبعد أن غيَّرت ملابسي صعدت على ظهر البارجة..

وهذه البارجة تسمى (لافودر) أي الصاعقة ، ومحمولها ستة آلاف طونيلاته وقوة عدتها 11500 حصان وطولها 118 متراً وعرضها 16 متراً ، وهي غاية في الزينة والنظافة ، والمدافع والبنادق الموجودة فيها تخطف الأبصار من شدة اللمعان ، وفيها ورشة جسيمة كاملة العدد لإصلاح ما يلزم لها ، وسرعتها 16 عقدة في الساعة ويمكن

أن تسير 19 عقدة في الساعة ، وهي مسلحة بستة عشر مدفعاً ، وعدد بحارتها أربعمائة وهي مقلّة إلى الهند الصينية طوربيلين كبيرين وأربعة طرابيل من الجنس الصغير .

سافرنا من بورت سعيد في منتصف النهار بالقوة المعينة لسير السفن في القنال ، أي بمعدل خمس عقد في الساعة ، وكنا نرى عن شمالنا كثيراً من الملاحات ، وعن يميننا السكة الحديدية الممتدة إلى السويس ، والترعة الحلوة المتفرعة من النيل .

وكنا كلما صادفنا في طريقنا باخرة نقف نحن حتى تمر الباخرة أو تقف هي حتى تمر بارجتنا/ وقرب المساء رأينا بارجة هولندية ذاهبة إلى البحر الأبيض المتوسط ، فلما قربت منا أخذت موسيقاها تعزف النشيد الفرنسوي سلاماً وتحية للبارجة الفرنسوية .

والسفن التي تمر من القنال تَستأجر من الشركة مصابيح كهربائية جسيمة شديدة النور والضياء جداً ، تعلقها على مقدمها لرؤية طريقها إلى مسافة كبيرة فيجعل الليل نهاراً . ويوم الأحد وصلنا إلى السويس ورست البارجة بضع دقائق ريثما أخذت الوقّادين المستأجرين ليقوموا بإيقاد النار في مواقد البارجة ، لأن الوقّادين الأوربيين لا يتحملون شدة الحرارة في البحر المحيط الهندي والبحر الأحمر ، لذا تستخدم البواخر المسافرة لهاتيك الجهات الوقّادين الوطنيين .

البارحة كنا نسرّح الطرف على سواحل القنال ، واليوم نرى عن جانبنا سواحل خليج السويس ، ونشاهد جباله وهضابه . وفي الليل خرجنا من خليج السويس ودخلنا في البحر الأحمر ، وإذ ذاك أخذت الحرارة تزداد زيادة مستمرة ، فاضطررت أن انزع ما علي من أكسية الصوف وأن ألبس الأكسية البيضاء كما فعل ضباط البارجة .

إنه لا يسوغ لي أن أشكو من المدة التي قضيتها في باخرتيّ المساجري والبننسولر ، لكن (والحق يقال) كنت أعظم انشراحاً في سفري على هذه البارجة لشغف الفرنسويين بإكرام ضيوفهم إكراماً فوق العادة ، فقد كنت أرى جميع الموجودين بالبارجة من القائد إلى الجندي لا يضيعون فرصة لجلب سرورنا ، وكنا نشاهد كل يوم التمرينات الحربية البحرية والرياضية التي كان يقوم بها البحارة فينقضي الوقت من غير أن نعلم .

ولما دخلنا البحر الأحمر أخذت الحرارة تتزايد كلما قطعنا مسافة إلى الجنوب ، وكانت الريح على عادة البحر الأحمر تهب على الدوام من الشمال إلى الجنوب ، فلا تعدل الحرارة وإنما كانت تساعد على سرعة البارجة . وكانت المراوح الكهربائية تجدد هواء البهو وتجعله دائماً طرياً إلا حجرات النوم ، فإني كنت أنام وفي إحدى يدي المروحة وفي الأخرى المنديل لمسح العرق ، وقد كان قائد البارجة هذا المضيف اللطيف استأذنني مراراً أن يضع مروحة كهربائية عندي في غرفة النوم ولكني كنت أجيبه ، كل مرة ، مع الشكر له بأنه لا لزوم لاختيار هذا التعب ، وإن غرفتي ليست حارّة لدرجة أن يتعب فيها الإنسان .

كنت كل يوم أضع الخريطة أمامي وأتتبع خط سير البارجة ، ولما كانت تمرّ بنا محاذية ثغور الأقطار الحجازية مثل ينبع ورابغ وجدّة كانت تتمثل نصب عيني جميع تلك البقاع والقلاع التي على طريق الحجّ ، وأبقى ساعات متذكراً تلك الأيام التي خلت في هاتيك البلاد النائية ، حيث كنت متجولاً كالعرب الرحّل تحت الخيام مدة ستة شهور ، عندما كنت مأموراً بمد السلك البرقي الحجازي ومعي الكوكبة العسكرية الفنيّة . وقد كنت وقتئذ ألِفت الإقليم والمناخ وعرب البوادي ، وكثيراً ما كنت أستحضر مشايخ العربان المتعادين ليتناولوا الطعام معي وكانوا كأنهم ليس بينهم شيء من العداوة ، حتى أنني عندما كنت في مداين صالح دعوت رؤساء قبائل (اليدا) و(الفقير) و(بلي) وطلبت منهم أن يعقدوا الهدنة (ويسميها العرب العطوة) في ما بينهم فأجابوا طلبي وعقدوا الهدنة لمدة سنة . وسبب توسطي للهدنة بين هؤلاء القبائل هو احتياجنا لمساعدتهم في مد السلك البرقي ، إذ إن السلك يمر من البلاد الضاربة فيه قبيلتا اليدا والفقير ، فكنا محتاجين لجمال عرب هاتين القبيلتين لنتمكن من نقل ما يلزم لنا من الذخائر ولوازم الجنود وأعمدة الخشب والأسلاك ، وكنا مضطرين لجِمال قبيلة بلي لنقل ألفي عمود أُنزلت في ميناء الوجه يمرون بها من أراضٍ جبلية صعبة المسالك إلى قرب مداين صالح التي تبعد عن الساحل اثنتي عشرة مرحلة ، فتقرر بهذه الهدنة أن تنقل كل قبيلة من القبائل المذكورة لوازمنا ضمن حدودها ، وقد قاموا بهذا العمل حق القيام ، فأنعمت الحضرة العلية السلطانية عليهم بالرتب والوسامات السَنية وأُلبس مشايخهم الخلع السلطانية في احتفال فخيم أقيم

لذلك بين دوي المدافع وعزف الموسيقى وأصوات العربان والأهالي صاعدة إلى السماء بالدعاء للحضرة السلطانية .

وحصل بإيصال السلك البرقي المذكور على المدينة فوائد للناس ، منها ، وهي أولها ، التخاطب مع سكان مدينة النبي صلى الله عيه وسلم وارتباطها مع باقي المعمورة من أنحاء الدنيا ، ومنها أن المسافرين مع قافلة الحج ما كانوا يتجاسرون على التباعد عن القافلة ، ولو قليلاً ، فالذي كان يتأخر لتعب أو غيره كان يضل في الصحارى المقفرة فيدركه الموت من الجوع والعطش ، أما الآن فإن المسافر الذي تخلف عن القافلة يمكنه أن يهتدي بأعمدة السلك البرقي القائم كل واحد منها مقام دليل في تلك البوادي .

وقد رأيت عندما كنت في وظيفة معاون ناظر إنشاءات السكة الحديدية الحجازية أن كثيراً من الفقراء الذين لا يودون انتظار القافلة يذهبون على أقدامهم محاذين السلك البرقي ومتزودين ما يلزم لقوتهم من القلاع السلطانية .

كنت كتبت عندما كنت بالوظيفة المار ذكرها كثيراً بخصوص تلك البلاد وهي رحلة كبيرة ولكن احترق ما كتبته أيضاً ولم يبقَ من كل ذلك إلا ما علق بالذهن ، لذا رأيت أن أشرح في رحلتي هذه بمناسبة سفري على بلاد كائنة أمام القطر الحجازي كل ما يعنّ بفكري من السوانح الخاصة بتلك البلاد المباركة .

بينما كنت جالساً على ظهر البارجة أكتب هذه السطور سمعت على وجه الماء أصوات طيور فالتفت فرأيت طيوراً مرت على وجه الماء ولم تبعد إلا قليلاً حتى توارت فيه ، وحينئذ التفتّ إلى أحد ضباط البارجة وكان ينظر إليها مثلي فسألته عن ذلك فأجاب : إن هذا سمك طيار يوجد في المحيط الهندي بكثرة ، ولم يتم الضابط كلامه حتى خرج سرب من تلك الأسماك من الماء وأخذ في الطيران على وجه الماء بسرعة السهم ، وبعد أن قطع خمسين متراً غاص في الماء ، ثم خرج ثم غاص ثانية ، واستمر كذلك هنيهة ثم اختفى عن النظر ، وقد استغربت جداً هذه الأسماك الطيارة لأنني لم أرها من قبل .

مررنا اليوم الساعة السادسة بعد الظهر أمام جزيرة جبل الطور وفنارها وتركناهما عن يسارنا ، وفي الساعة التاسعة وصلنا إلى أمام فنار زبير ، ودلّ ذلك على أننا اقتربنا

كثيراً من البحر المحيط الهندي ، وكان الجوّ في هذه الليلة حاراً رطباً فجعل العرق يسيل من أعضائنا ولم تغننا المراوح الموجودة في أيدينا شيئاً ، وقضيت معظم تلك الليلة على ظهر البارجة مستلقياً على كرسي من الكتان مفكراً في حالة الطقس في جيبوتي وحرارتها الشديدة .

الوصول إلى جيبوتي

يوم الخميس 6 مايو / أيار

الوصول إلى جيبوتي - النزول إلى البر - زيارة والي جيبوتي وقنصل الحبش - سرور الأهالي الإسلامية - أين ينام الإنسان تحت السماء براحة - ذكرى المدينة المنورة - إكرام العرب وضيافتهم للوارد عليهم.

أصبحنا اليوم فوجدنا البارجة تسير مقتربة من مضيق باب المندب ، وكثير من طيور الماء تحوم حولها . وفي الساعة التاسعة رأينا على يسارنا مدينة شيخ سعد وجزيرة بريم ، وعن يميننا خليج (جون) رأس سحبان ، وأخذنا بعد ذلك نقطع أضيق محل من مضيق باب المندب والمسافة بين الساحلين هنا ثلاثة عشر ميلا فقط . وفي الساعة الرابعة بعد الظهر وقفت البارجة أمام جيبوتي وألقت مراسيها في الميناء ، وقد حضر كثير من غلمان الصومال السود سابحين في البحر لاستقبال البارجة . ولهؤلاء الصوماليين مهارة عظيمة في الملاحة والسباحة حتى أننا كنا نلقي في البحر بعضاً من الدراهم الصغيرة الحجم فيلقون بأنفسهم وراءها ويأتون بها قبل أن تصل إلى قاع الماء . ولما أدرت آلة الرسم عليهم لأرسمهم أظهروا الخوف والجزع .

وبعد رسو البارجة أمر القائد فأحضروا لنا زورقاً بخارياً يرأسه أحد الضباط ، وقد كنا قبل وصولنا إلى الميناء أخرجنا جميع أمتعتنا من المخزن ولم يبقَ إلا النزول إلى البر .

ولما أزف وقت النزول إلى البر ودّعنا قائد البارجة وضباطه ومررنا من بين الجنود المصطفّة على ظهر البارجة لأداء التحية العسكرية ، وكان العلم العثماني مرفوعاً على

الساري الكبير كما أن القائد وضباطه كانوا مرتدين أكسيتهم الرسمية ، وعند نزولنا في الزورق البخاري واتجاهنا تلقاء المدينة أخذت مدافع البارجة تدوي تحية لنا .

ولما وقف الزورق بنا على الرصيف الذي عليه دائرة الوالي (سراي الحكومة) صعدنا لعند جناب الموسيو بونهور والي الصومال الفرنسوي فوجدناه غاية في الرقة واللطف والإنسانية ، وقد أكرمَنا غاية الإكرام وقدم لنا على عادة تلك البلاد القهوة بجامات كبيرة ، وقد كنت شربت القهوة المثلجة في أسفاري في صحراء أفريقيا والقطر الحجازي فوجدتها أحسن شيء لتسكين سورة الحرارة .

وبعد خروجنا من عند الوالي ذهبنا لعند آتو يوسف قنصل جلالة منليك نجاشي الحبشة في جيبوتي ، وقد كنت عرفته لما وفد على الآستانة وكان رئيساً لذلك الوفد الأول المرسل من قبل جلالة النجاشي ، وعقب وصولنا أرسل الوالي بالتلغراف يبلغ وصولنا إلى جيبوتي إلى القناصل الموجودين في هرر ، وإلى السفير الفرنسوي المقيم في أديس أبابا عاصمة الحبشة كما أن آتو يوسف عرّف جلالة النجاشي وصولنا .

نزلنا في الثغر المذكور بفندق (ده زاركاد) وهو النزل الوحيد هناك وصاحبه رجل فرنسوي ، ومنذ خرجنا إلى البر أخذ الأهالي وكلهم من المسلمين يفدون علينا أفواجاً مرحبين بنا بعبارات الاحترام والتعظيم ، ولم يكتفوا بذلك بل انتظرونا بينما كنا عند الوالي وآتو يوسف خارج المحل ، وعند ما خرجنا رافقونا مهللين مكبرين ، واستمروا كذلك كلما نخرج يرافقوننا من محل إلى آخر ، وينتهزون كل فرصة لإظهار سرورهم العظيم من ورودنا لثغرهم ، فإذا طلبنا مركبة يجري العشرات منهم لإحضارها ، وإذا سألناهم الطريق يقدم مئات أنفسهم للقيام بخدمتنا ، وما كنا نحتاج لهم لأن الوالي كان عقب وصولنا عيّن سكرتيره ليكون (مهماندارا) لنا مدة إقامتنا في جيبوتي ، ولكن اعتذرت عن ذلك شاكراً إنسانيته ، واكتفيت بجنود الشرطة الذين خصصهم لخدمتنا .

وبعد قليل من صولنا الفندق تكاكأ المسلمون على بعضهم في الردحة الكائنة أمام الفندق ، وأخذ يزداد عددهم كثيراً ، فكانوا لا يقنعون برؤية الوفد المرسل من قبل خليفة الإسلام مرة واحدة ، بل كانوا يريدون أن يروه كثيراً على قدر استطاعتهم ، واستمر الزحام على هذا المنوال أمام المنزل إلى ما بعد العشاء .

واضطرنا الحَرُّ إلى استعمال الثلج كثيراً ، فكنتَ ترى البعض منا يجتهد لتسكين حرارته بالقهوة المثلجة والآخر بالكازوزة والثالث بالليموناده ، وبعد تناول طعام العشاء خرجنا إلى الشرفة المحيطة بالفندق من كل جوانبه وألقينا بنفسنا على الأسرّة الموضوعة هناك من غير غطاء ، إذ يستحيل على الإنسان أن ينام في الحجرات من شدة الحر ، وقد اعتاد سكان البلاد الحارة أن يناموا في العراء ليلاً ، حتى أني كثيراً ما نمت في بيره جك واورفه وديار بكر والحجاز في العراء لا يظلني شيء سوى السماء ، ووجدت النوم في العراء في المدينة المنوَّرة أحسن جداً منه في باقي البلاد المذكورة ، لأن سطوح المنازل في تلك البلاد مكشوفة فالنائمون يرى بعضهم بعضاً وأما منازل المدينة المنورة فإن سطوحها في الدور الثاني غرف بجدران عالية ولكنها لا سقف لها ، فيصعد الإنسان بالسلم الواصل من الأسفل إلى شبه دهليز بالسطح ومنه تتفرع الحجرات التي ليس لها سقوف كتفرع الحجرات الموجودة في الدور الكائن تحته ، ولا يفتحون الشبابيك في الحيطان الفاصلة بين حجرة وأخرى ، وإنما يجعلون كوى شطرنجية الشكل في حيطان للدائرة الكبرى لتخلل الهواء مطلّة على الخارج ، محافظة للتستر ، غير مانعة للهواء . وعند المساء يصعد السقّاءون فيرشّون أرض السقف بالماء ويفرشون المراتب على أسرة مصنوعة من خوص النخل على غاية من البساطة والنظافة ، وعند النوم يذهب كل إلى محل نومه . والناس في المدينة حتى الفقراء ينامون على الأسرّة لرخص ثمنها ، إذ لا يجاوز ثمن الجيّد منها ريالاً مجيدياً ، ويضعون في كل محل قلالاً متعددة لشرب الماء ، لأن الإنسان في تلك البلاد لا يستغني عن شرب الماء كثيراً في الليل كالنهار ، وهبوب الهواء الحار يبرد تلك القلال ويجعل الماء فيه كأنه مثلج . وأما آنية النحاس فلا تبرد فيها المياه بل تبقى كماء الحمّامات ، وإذا انقطع الهواء الحار وظهرت الغيوم في الجو تسخن المياه في القلال وتصير غير قابلة للشرب ، فالإنسان يشاهد هناك التطبيقات الطبيعية الواردة في مبحث التبخر في الحكمة الطبيعية ، إن الحديث ذو شجون فذكر تلك البلدة الطيبة المباركة من حيث هوائها وذلك بمناسبة هواء البلاد الحارة التي نحن بصددها ذكّرني بأهل المدينة ، فأرجو أن لا ينفر القارئ من هذا الاستطراد .

لسكان المدينة المنورة فقيرهم وغنيهم ذوق سليم في معيشتهم فلبسهم جميل

وطعامهم جيد ومن شيمهم إكرام الضيف والغريب إلى حد المبالغة ، فإذا دعا أحدهم بعض الناس فإنه يقدم لأضيافه من الطعام ما يكفي أربعين واحداً ، وبعد الضيوف يطعم الفقراء الموجودين بخطه ، وإذا ورد على أحد الأهالي ضيف من عرب البوادي يذبح صاحب المنزل في الحال له شاة ، وإذا صادف وورد ضيف آخر يذبح شاةً أخرى قبل وضع الذبيحة الأولى على النار ، وهلم جرا يذبح من الأنعام كلما ورد عليه ضيف ، وبالاختصار يجب أن يفهم الضيف أن صاحب المنزل ذبح لأجله ذبيحةً خاصةً من الشاة المطبوخة ، التي يؤتى بها محشية في آنية كبيرة وتوضع أمام الزائر على المائدة ، ولا بدَّ من وضع الخرفان المحشيّة على الموائد في المآدب قبل وضع الأصناف الكثيرة الأخرى المصنوعة من اللحم أيضاً ، وربما يقول معترضٌ : ولم كل هذا الإسراف ؟ ولم يطبخون لعشرة ما يكفي مائة ؟ أولا تكفي بضعة أرطال من اللحم لنفر من الضيوف يردون على صاحب المنزل من البادية؟ فما الموجب لذبح شاة أخرى مع وجود الأولى مذبوحة ومهيأة للطهي ؟ وكيف يعمل صاحب المنزل إذا كان فقيراً ؟

فأقول إن هذه الاعتراضات كلها في محلّها ، ولكن ما العمل وهذه هي عادات البلد ولا يتأتى لأحد من أهلها مخالفتها ، بل هو ملزم باتباعها كل الاتباع ، فالرجل الذي لا يكون قادراً على القيام بإكرام الضيف الوافد عليه تراه يستلف النقود لأداء هذا الواجب ، وقد دُعيت مرة عندما كنت ببوادي الحجاز بمهمة تمديد الخط البرقي الحجازي لوليمة أقيمت لي من طرف شيخ عشائر البلقاء وعدوان ، ولما جلسنا على المائدة أحضرت قصعة كبيرة يحملها الخدم فإذا فيها كبش كبير محشوّ كما كان أمام كل الضباط الذين كانوا برفقتي والموجودين على المائدة معنا خروف ذبح لأجلهم ، وبالاختصار فإن الإنسان لا يمكنه أن يعرف مقدار كرم العرب وإكرامهم للضيف حتى يخالطهم ويقيم بينهم وإني أورد لك مثالاً على كرم هؤلاء الناس في القصة الآتية :

كان لأحد عرب البادية ناقة سريعة السير جميلة المنظر جداً فاتّفق يوماً أن قصد الرجل عاصمة بلاده لغرض له ، فرأى أحد أعيان تلك المدينة الناقة فأراد شراءها بمبلغ يزيد عن ثمنها الأصلي أضعافاً ، ولكن العربي أبى أن يبيع ناقته لشدة حبه لها وتمسكه بها وانصرف إلى باديته ، وأما الذي رغب في ابتياع الناقة فإنه تولّع بها وعزم

على أخذها مهما كلفه الحال وتوسل لبعض أعيان بلده بالذهاب إلى البادية وأن يطمعوا البدوي بكثرة الدراهم وزودهم بالدنانير فذهبوا للبادية وسألوا عن بيت الرجل ونزلوا ضيوفاً عليه دون أن يعرف سبب مجيئهم وما يريدون منه فأخذ في إكرامهم حسب العادة ولما آن أوان الأكل وجلسوا على المائدة وضع البدوي أمامهم قصعة كبيرة من ثريد اللحم فأكلوا ، وبعد أن شربوا القهوة فاتحوا البدوي بمسألة الناقة فقال لهم :

لماذا لم تخبروني عن ذلك حين وصولكم إلى هنا فإن اللحم الذي أكلتموه مع الثريد هو لحم الناقة التي ذبحتها إكراماً لكم ولو أعلم ذلك لما كنت ذبحتها .

فاستغرب الجماعة من هذا الأمر واستولى عليهم البهت والحيرة ويحق لهم ذلك ومن ذا الذي لا يعجب من كرم رجل فقير لا يملك سوى ناقة يطلبها أحد أعيان الحضر الذي ربما نفعه يوماً بكثرة ماله وبعظم جاهه بثمن كبير أضعاف ثمنها الحقيقي فلا يفعل ، ثم لما لم يكن عنده سواها نحرها لإكرام ضيوف لا يعرفهم أداء لواجب الإكرام والضيافة وتمسكاً بالعادات البدوية .

يقال إن الكلام يجر الكلام فإننا بينما كنا نتكلم على النوم في شرفة المنزل في جيبوتي إذ ذهب بنا الحديث إلى النوم على سطوح منازل المدينة المنوّرة ومنها انتقلنا إلى العربان وكرمهم وأحوال ضيافتهم في البادية ، ولنعد الآن إلى البر الأفريقي من البحر الأحمر ونرضى بالرغم عنا بالنوم على شرفة فندق (ده زاركاد) .

جيبوتي

يوم الجمعة 7 مايو / أيار

زيارة الوفود الصومالية لنا - زيارة الوالي والقنصل - سكة حديد جيبوتي - ٤١ ولداً ذكراً من أب واحد وأربع أمهات - البواخر التي تمر بجيبوتي - الوارد والصادر - جنس الدانغاليين - المأدبة في سراي الحكومة - المراوح الجسيمة

أصبحت هذا اليوم وأخذت أشتغل بتجهيز الصناديق المقرّر إرسالها إلى محطة السكة الحديد مساءً ، وتفريق الأشياء والملابس التي لا لزوم لها في الطريق لإبقائها

في جيبوتي لحين عودتنا إليها ، أما السكة الحديد المذكورة فهي من النوع الضيق وطولها 310 كيلو مرات ممتدة من جيبوتي إلى (دره يده وا) على طريق عاصمة الحبشة ، فالمسافر إليها يركب قطار هذا الخط الحديدي إلى المحطة المذكورة ومنها يتم طريقه على البغال ، وسنتكلم فيما يأتي عن هذه السكة .

بينما أنا مشتغل بتهيئة الصناديق إذ ورد خادم الفندق المعروف في المدن الأوروبية باسم (الجارسون) وقال أن بعض رؤساء الأهالي أتو للزيارة وهم ينتظرون إذنكم بالمقابلة ، فأمرته بإصعادهم إليّ فذهب الخادم ليأتي بهم ، وهنا أستميحك أيها القارئ نظرة لما أصفه لك من حال خدمة الفنادق في هذه البلاد : إذا قلت لك عندما ورد اسم نزلنا (أوتل ده زاركاد) إنه أكبر فندق في جيبوتي فلا يجب أن يخطر في بالك أنه (برابالاس أوتل) أعظم فندق شتوي في الآستانة ، مثل شبرد أو جزيرة بالاس في القاهرة وهو تبع الشركة صاحبة الفندقين المذكورين ، أو (سومر بالاس أوتل) أعظم فندق صيفي فيها واقع في طرابيه على البوسفور . وإذا قلت لكم عن خادم الفندق (جارسون) فلا تظن أني أعني بذلك خدام الفنادق الكبيرة في أوروبا اللابسين الملابس السوداء والقمصان ورباط الرقبة البيضاء وبيدهم القفافيز المصنوعة من الجلد الأبيض الرفيع ، كلا فإن الخادم الموجود هنا هو رجل ليس عليه إلا قميص بسيط وعلى هذا القميص وشاح (صديري) ونصفه الأسفل مستور بقطعة من القماش (فوطة) ولا يلبس حذاءً في رجله ولا يضع قبعة أو طربوشاً أو ما شابه ذلك على رأسه ، والحاصل أنه يكاد يكون نصف عريان ، والبعض منهم يلبس على رأسه طاقية حمراء ، وكل هؤلاء الخدام هم من الوطنيين وأعمارهم تتراوح بين السادسة عشرة والخامسة عشرة على جانب عظيم من الذكاء ولهم مهارة تامة في أداء خدمتهم .

هذا وقد غاب الخادم قليلاً ثم جاء ومعه الزائرون وكان عددهم ثمانية وهم رؤساء قبيلتي عبسسا ودانجالي ، وهم سمر الوجوه لون البعض منهم يميل للجوزي وكلهم طوال القامة متناسبو الأعضاء تجللهم سمات الوقار والمهابة ويلبس البعض قميصاً طويلاً وعلى رأسه طاقية ، والبعض ليس عليه سوى (فوطة) وهو مكشوف الرأس ، وشعرهم الكث فوق رؤوسهم يشبه العمامة المدورة الكبيرة يضعون في خلاله سهماً طويلاً مصنوعاً من أغصان الأشجار مثل (الدبوس) الذي تربط به السيدات الغربيات

قبعاتهن على شعورهن ، ويستعملون هذا السهم لحك جلد رؤوسهم عند اللزوم ، لأنه لا يمكن وصول أصابعهم لجلد رؤوسهم بسبب كثافة الشعر ، وكان بعضهم وهم الذين كانوا يترددون على الحجاز يتكلم اللغة العربية جيداً والباقون لا يعرفون منها إلا قليلاً .

وبعد المصافحة والسلام أخذوا يدعون وهم وقوف على الأقدام للحضرة العلية السلطانية ، وأبلغوني أنه ستصل مساءً وفود من طرف القبائل القريبة من جيبوتي للتسليم على الوفد السلطاني ، ثم جلسوا فصاروا يسألون عن أحوال الآستانة مستفسرين عن عدد سكانها وعن مساجدها الجامعة والمحلات المباركة فيها وعن الوجهة التي أقصدها وسبب سفري إليها .

وكسوة هؤلاء الرؤساء بسيطة جداً والبعض منهم حافي القدمين والبعض يلبس في رجله نعلاً مثل النعال الحجازية ، ومع كل ذلك ترى الإنسان يشعر بهيبتهم ووقارهم حال رؤيته لهم ، وسمات الشجاعة والبسالة الظاهرة على وجوههم تجعل كلاً منهم شبه تمثال للحرب والكفاح صنع من (البرونز) .

بينما كنا نتجاذب أطراف الحديث إذ جاء الموسيو بونهور والي الصومال الفرنسوية لرد الزيارة ومعه حاشيته والكلُّ مرتدون أرديتهم الرسمية ، وكان يمشي أمام مركبة الوالي فارسان من جنود الشرطة ، فلما رأى الوالي الموما إليه رؤساء القبائل الصومالية هش في وجوههم وصافحهم جميعاً يداً بيد وسأل عن أحوالهم وصحتهم ، ولم يمضِ قليل من وصول الوالي حتى جاء أيضاً (آتو يوسف) قنصل الحبشة في جيبوتي ، وبعد أن مكث الوالي برهة استأذن بالذهاب مذكراً إياي بالاجتماع عنده في دار الحكومة مساءً لحضور المأدبة التي أعدها إكراماً للوفد السلطاني ، وقد كان الوالي دعاني ومن كان معي لهذه المأدبة يوم وصولنا إلى جيبوتي .

وبعد ذهاب الوالي ورؤساء القبائل جاءني زائران سوريان هما اسكندر أفندي غالب وبشاره أفندي غالب وقد كانا جاءا بالأمس إلى الفندق عقب وصولنا وحصل بيننا التعارف بواسطة آتو يوسف .

وهذان الشابان من قرية بيت شباب من أعمال لبنان ، وكان عمر أحدهما حوالي الثلاثين والثاني يقرب من الثامنة والعشرين وقد أتمّا دروسهما في مدارس بيروت ، ثم

اشتغلا بالتجارة في كثير من أنحاء أفريقيا وعلى الأخص في داهومي ، ثم استقرا قبل بضع سنوات في جيبوتي وأخذت تجارتهما تمتد وتنمو حتى دخلا في عداد التجار المشهورين هناك ونالا ثقة جلالة النجاشي منليك ، واكتسبا الصيت الحسن والشهرة الطيبة ، وعرفا بالأمانة اللازمة جداً للتجار . وبواسطة هذه الخصال الحميدة والمزايا الحسنة ربحا كثيراً من الأموال حتى صارا من الأغنياء ، وقد تسر حالة هذين الهمامين كل سوري عثماني ، ونود من صميم أفئدتنا أن يكونا قدوة لسائر شبابنا السالكين مسالك التجارة ، وقد أكرمانا غاية الإكرام وعرضا أنفسهما لخدمة الوفد وأن يقوما بكل ما يلزم لنا فشكرت معروفهما ووقفت منهما على ما أريد الوقوف عليه من أحوال البلاد وهما بها خبيران ، لا سيّما فيما يختص بثغر جيبوتي وعمرانها ، وقد جلت المدينة متفرجاً وطفت على أحيائها بدلالة أحدهما اسكندر أفندي .

ولما رجعت من مشاهدة المدينة وجدت أن ميعاد الذهاب إلى المأدبة الرسمية لم يحن بعد فانتهزت هذه الفرصة لكتابة ما جمعته من الأخبار بشأن هذه البلاد وهذا هو :

كانت الحكومة الفرنسوية اشترت سنة 1863 ميلادية المحل المسمى (اوبوك) الكائن خارج مضيق باب المندب والواقع شمالي خليج ناجورا من الرؤساء المحليين ، واتخذت المحل المذكور محطة للزاد والذخائر والفحم اللازم للسفن الحربية الذاهبة إلى الشرق الأقصى أثناء حرب الصين سنة 1883 وألفت هناك حكومة للضبط والربط ، وقد ظهرت فائدة هذا المحل أثناء الحرب المذكورة ، وأخذت أهميته تزداد حتى أضحى ثغراً مهماً لجميع البواخر الذاهبة إلى الهند الصينية والآتية منها ، ولكن نقص عمق المياه هناك كان يضطر السفن أن ترسو على مسافة بعيدة جداً عن الساحل ، وفي هذا من الصعوبة في أخذ الذخائر وما يلزم السفن ما فيه ، كما أن وجود جبال شاهقة صعبة المرور بين هذه المحطة والبلاد الداخلية كان يعيق حركة التجارة على الداخل والخارج ، لذلك كله أخذت الحكومة الفرنسوية تبحث عن محل آخر أكثر ملاءمة وموافقة من اوبوك ، فاكتشف والي الصومال الفرنسوي حينذاك الموسيو لاغارد (سفير فرنسا في عاصمة الحبشة الآن) موقع جيبوتي الحالية الكائنة أمام (اوبوك) بواسطة بعض البحارة الوطنيين ، وقد وجدوا أن مياه ساحل جيبوتي أعمق من مياه الأولى (اوبوك)

وأن ميناءها صالحة لالتجاء السفن إليها عند الحاجة ، ولذلك تقرر نقل الثغر إلى هنا ، وبوشر في سنة ١٨٨٨ ميلادية بتشييد ما يلزم من الأرصفة والأبنية على هذه الأرض القاحلة الخالية من كل شيء . ولم تمضِ مدة حتى أنشئت هناك بلدة بتشويق الحكومة الفرنسوية وتنشيطها للناس وبهمة التجار ، وأخذت تكبر شيئاً فشيئاً حتى أصبحت اليوم مرسىً تجارياً مهماً . ومما زاد في أهمية الثغر المذكور الطريق المتفرع منه الذاهب إلى (هرر) التابعة للمملكة الحبشية ومنها إلى (أديس أبابا) وهو الطريق الذي تسلكه القوافل التجارية في ذهابها إلى داخل الحبشة وفي إيابها منها .

وكان الموسيو ايلج السويسري المستخدم منذ زمن بعيد عند النجاشي منليك نال من جلالته امتيازاً بمد سكة حديدية في البلاد الحبشية تنتهي في جيبوتي لمدة ٩٩ سنة ، وعقد شركة مع الموسيو شفنو المقيم في الحبشة منذ مدة مديدة الواقف على الأحوال التجارية في الحبشة المطلع على كيفية تأليف الشركات ، فذهب المسيو شفنو إلى فرنسا وحصل ، بواسطة نظارة المستعمرات ، على امتياز مدّ خط حديدي طوله ٥٠٠ كيلو متراً من المحل المسمى (عالي صبح) الكائن على حدود الصومال الفرنسوية إلى جيبوتي وبوشر بأعمال مدّ الخط سنة ١٨٩٦ بعد أن عانى في الأعمال الابتدائية ، أي التخطيط ، غاية الصعوبة وأخذت بعد ذلك جيبوتي تتعاظم وتتزايد فعدل التجار الوافدون عليها عن السكنى في الأكواخ الأرضية وأنشؤوا يشيدون الأبنية الحجرية وتألفت شركة فرنسوية لتشييد المنازل لتأجيرها للأهالي والسكان وأعطيت الأراضي اللازمة لبناء المخازن والحوانيت والمنازل مجاناً لمن يريد ، حتى أن بعض الصوماليين الوطنيين قلدوا الأوروبيين والتجار المسلمين فبنوا بيوتاً من الحجر وهجروا أكواخهم المصنوعة من البوص والقش .

ويمتلك التجار المسلمون الوافدون على جيبوتي من اليمن وحضرموت كثيراً من الأرض والعقار ، وأشهر وجهاء الأهالي الوطنيين المسلمين رجل يسمى (الحاجّ ديده آيده لا) وقد حضر لزيارتي مع سائر التجار المسلمين ، وهو رجل في السبعين من عمره ولكنه لا يزال متمتعاً بصحة تامة وقوة جسم عظيمة ، وله واحد وأربعون ولداً ذكراً من أربع زوجات ، ولذا كان مغبوطاً لدى جميع أقرانه .

تأخذ المدينةُ المياه اللازمة لها من آبار حفرتها شركة على مجرى سيل يبعد سبعة

كيلو مترات عن جيبوتي ، وذلك بأن ترفع الماء بواسطة آلات بخارية إلى أحواض مرتفعة ومنها يوزع على المدينة بأقنية (مواسير) من حديد ، وكان انتهاء حفر الآبار ووضع الأقنية وتوزيع المياه منذ أربع سنين .

وقد أعطت الحكومة بعض الأراضي الكائنة في المحل المسمى (صحبولي) الواقعة على السيل المذكور لبعض العرب الوافدين من الخارج مجاناً ، فحفروا الآبار في حقولهم وغرسوا البساتين والجنّات ، وصاروا يزرعون الطماطم والخيار والباذنجان والرجلة (البقلة) والقرع والبطيخ والشمام (البطيخ الأصفر) فزاحموا بذلك بساتين الصفايح (لأن الأهالي الوطنيين يسمون علب الصفايح الواردة من أوروبا المحفوظ فيها الخضار والأثمار والبقول ببساتين الصفايح) .

تنقسم مدينة جيبوتي إلى أربعة أقسام : فالأول يسمى حي المرابط (Marabout) نسبة إلى رجل مبارك يسمى شيخ سراج كان أقام في هذا القسم ودفن بعد وفاته هناك . وفي هذا الحي محل توكيل شركة مساجري ماريتيم الفرنسوية ومخازن الفحم ومخازن الآلات والأدوات وورشة التعمير والتصليح . وقد رأيت هنا كثيراً من الفحم الذي اشترته الحكومة الروسية وأعدّته لأسطول البلطيك الذي عزمت الحكومة الروسية على إرساله إلى الشرق الأقصى ، وقد بوشر بتشييد رصيف في هذا القسم طوله 500 متر داخل في البحر لترسو البواخر عليه .

والقسم الثاني اسمه حي مسيطح (Plateau du serpent) ويوجد في هذا القسم محطة السكة الحديد وجميع المباني الخاصة بها ، ودير رهبان وراهبات الفرنسيسكانيين ، والمستشفى البلدي وسائر المباني الفخمة .

والقسم الثالث هو حي جيبوتي وقد كان بوشر بتأسيس المدينة من هذا القسم ، ويوجد بهذا الحي دائرة الحكومة والجمارك ومحل الشرطة ومخازن التجار الأوروبيين والعرب ومكاتبهم ، وسائر الأبنية ذات البال مثل الفنادق وغيرها ، ويتصل هذا القسم بحي مسيطح بشارع منتظم عريض طوله كيلو متر واحد ، وفي وسط هذا الشارع توجد دوائر الحكومة مثل ديوان الأشغال والبوستة والحقانية ، ويتنزه سكان جيبوتي في الشارع المذكور .

أما القسم الرابع فهو حي الصوماليين الوطنيين ومنازل هذا الحي عبارة عن أكواخ

من البوص والأغصان و (العليق) ولكن شوارعه مستقيمة ومستوية ، وقد كانت الحكومة صرّحت قبلاً ببناء أكواخ في هذا القسم ، والآن منعت بناء الأكواخ ، وإذا انهدم كوخ فإن صاحبه مضطر أن يشيد بدله بناءً من الحجر .

يوجد في جيبوتي مسجدان واسعان أنشأ الواحد الحاج (ديده آيده لا) الصومالي المار ذكره ، والثاني أنشأه المرحوم السيد حسن الباز المصوعي ، وقد زرت هذين المسجدين فوجدت الأئمة يعلمون الصبيان القرآن الكريم .

وقد كان سكان جيبوتي تزايدوا جداً في أثناء مدّ الخط الحديدي حتى بلغ عددهم سنة 1900 عشرين ألفاً ، ولكن لما وقف العمل في (ده ريدوا) سافر المهندسون والمتعهدون والعمال والفعلة إلى بلادهم وانصرف الباائعون الذين كانوا يتكسبون من بيع بضائعهم وسلعهم لهؤلاء العمال وأصحاب الفنادق والآن يبلغ عدد سكان المدينة المذكورة ثمانية آلاف بما فيها العرب والصوماليون والفرنسويون .

يوجد وراء خليج (تاجورا) ملاحة غنيّة بملحها تسمى بحيرة عسب أو عسال بينها وبين الساحل ثلاثون كيلو متراً ، وهي واقعة في محل شديد الحر كثير الحيّات ، لهذا كانت الاستفادة منها في الحال الحاضرة قليلة جداً .

وقد رأيت ترغيباً للتجار العثمانيين أن أُدرج هنا ما علمته من أحوال جيبوتي التجارية والبواخر التي تمرّ عليها فأقول :

يمر على جيبوتي كل شهر ست بواخر من شركة (مساجري ماريتيم) الثلاث منها في الذهاب من بورت سعيد إلى الجنوب والثلاث الأُخر في الإياب إلى الشمال ، فاثنتان من الآتيات من الجنوب إلى الشمال تنتسبان إلى خط ماداغسقار والواحدة تنتسب لخط الهند الصينية ، ويمرّ على الثغر المذكور باخرة من شركة الناسيونال مرة فقط وهي ذاهبة إلى الهند الصينية ، كما أن للشركة (هاوره زيننسولر) الفرنسوية باخرة تمر بثغر جيبوتي كل شهر مرة في الذهاب إلى ماداغسقار وجزائر (ره اونيون) ومرة في الإياب منهما ، ولشركة إنكليزية باخرة تمر عليها في الشهر مرة واحدة وهي ذاهبة من بلاد الإنكليز إلى الخليج الفارسي وإلى البصرة . وعدا ذلك يوجد باخرة روسية تقوم من اودسا كل شهرين مرة قاصدة البصرة ومارة بثغور الآستانة وأزمير وبيروت ويافا وبورت سعيد وجيبوتي والبصرة وتعود إلى اودسا مارة بهذه الثغور

المذكورة ، فيلتفت تجار أزمير وسورية لهذه الباخرة التي يمكنهم أن يستفيدوا منها كثيراً . وهذه البواخر متقنة تسافر وتعود في مواقيت معلومة ولا يدخل في هذا الحساب البواخر الظهورات التي تنقل الفحم إلى مخازن شركة المساجري مارتييم وشركة أفريقيا الشرقية وغيرهما من الشركات . ويوجد باخرة فرنسوية صغيرة محمولها 300 طونيلاتة تنقل الركاب والبوستة والبضائع بين جيبوتي وعدن ، ولكنها كانت عند وصولي إلى جيبوتي أُخذت لورشة التصليح والترميم .

ويأتي إلى جيبوتي جميع أنواع البضائع لبيعها في داخل البلاد وأكثر ما يباع للقبائل الصوماليين والدانغاليين هو الأرز الهندي والذرة والتنباك والذرة البيضاء الواردة من البلاد العربية والبفتة البيضاء وسائر الأقمشة الواردة من إنكلترا ، ويأتي بكثرة من أمريكا نوع من البفتة يسمونه في البلاد الحبشية وفي ساحل الصومال أبو جديد ويباع منه مقادير كثيرة ، وأكثر البضائع التي ترسل من الساحل إلى داخل الحبشة هي أنواع الأقمشة القطنية والحريرية والأجواخ والآلات والأدوات الحديدية والبسط العجمية وتقليدها والبسط الأوروبية وأنواع الأسلحة النارية والأشياء المصنوعة من الفضة والنحاس ، وأما ما يرد من البلاد العثمانية ، فالستائر والطنافس المشغولة خاصة بالآستانة وعطر الورد يرد منها والأقمشة الحريرية المسماة بالقطني المصنوعة من الحرير والقطن معاً وسائر الأقمشة القطنية ترد من سورية ، والبن والملح وأنواع الحبوب والحصر ترد من اليمن ، ويبيع التجار سلعهم هذه ويشترون بضائع مختلفة محلية وترد البضائع على الساحل الصومالي بواسطة السفن الشراعية ، ويبلغ عدد هذه السفن التي تمخر بين ساحل اليمن وبين جيبوتي من جهة وبين عدن وزيلع وجيبوتي وبربره من جهة أخرى أكثر من مائة وكلها مستظلة بالراية العثمانية ، أما البضائع التي ترد من الحبشة بطريق (هرر) فإنها من الحاصلات الطبيعية مثل بن (نعا) وسن الفيل (العاج) والذهب الأصفر (التبر) والشمع العسلي و(القاقوله) ومن الحيوانات الأهلية مثل العجول والغنم والمعز وغيرها من الماشية ، وقليل من جلود الحيوانات الوحشية ، والزباد المستخرج من قط المسك ويسميه الإفرنج (Sivete).

والفالالليون يستخرجون التبر بتصفية رمال الأنهار والغدران ويرسلون منه في السنة إلى جيبوتي ما تحزر قيمته بمليوني فرنك ، وأما الزباد فإنه يباع الكيلو منه

بثلاثمائة فرنك . ويوجد في جيبوتي أكثر من مائتين من رعايا العثمانيين مثل السوريين واليمانيين والحجازيين والأرمن فالبعض منهم يشتغل بالتجارة والبعض أصحاب دكاكين صغيرة ولبعضهم علاقات بمدينة (هرر) فيترددون إليها كثيراً .

وما انتهيت من كتابة هذه السطور إلاّ وقد مضى الزمن وآن وقت العصر وأنا أكثر من شرب القهوة الباردة المثلجة من شدة الحر ومناخ جيبوتي في غاية الحرارة وشمسها محرقة جداً ، وإذا وقف الأبيض مدة عشر دقائق في الشمس من غير مظلة يموت حالاً من ضربتها ، والموت بضربة الشمس هناك يعد من الحوادث المألوفة .

وفي الساعة العاشرة على الحساب الشرقي سمعت أنغاماً وأصواتاً آتية من بعيد ، وبينما أنا أتفكر في ما عسى أن يكون ذلك إذ أُخبرت بورود وفد قبائل عبسسا فخرجت إلى شرفة الفندق فرأيت جمهوراً من الناس نحواً من خمسمائة ذوي ألوان نحاسية كبيري الأجسام متناسبي الأعضاء مسلحين بالحراب والهراوات وكانت أنصاف أجسامهم العليا عاريةً من اللباس وكانوا وهم مقبلون علينا يهللون ويكبرون مرة وينشدون الأناشيد الحربية مرة أخرى ، وجماهير الناس تمشي معهم محتاطين بهم للتفرج عليهم . وبعد أن وصلوا أمام الفندق أخذوا يسلّمون علينا بلسانهم ، ولما انتهوا من السلام تحلّقوا وصاروا يغنون ويرقصون والبعض منهم كانوا يتبارزون داخل تلك الحلقة ويمثلون حروبهم بأصوات خشنة مدهشة وبأوضاع خفيفة وسرعة عجيبة ، مما يدل على أنهم أقوام حربيون أولو بأسٍ شديد وميل للحرب والطعان . وبعد ذهاب هذا الوفد أتى وفد الدانغاليين ، وبعدهم وصلت وفود العرب الوطنيين بطبولهم وزمورهم ثم انصرف الجميع شاكرين لما لقوه منا من الإكرام ، وكانت قد دنت الساعة الثامنة على الحساب الإفرنجي فارتديت الكسوة الرسمية البيضاء وذهبت أنا ورفيقي إلى دار الحكومة لحضور المأدبة التي دعينا إليها .

ولما وصلنا إلى دار الحكومة وجدنا كوكبة من جنود الشرطة واقفة أمام المدخل لأداء التحية ، ويكتسي هؤلاء الجنود جاكيت وبنطلون قصير إلى الركب مصنوع من قماش أبيض وعلى رأسهم طربوش عليه نجمة ، وهم عراة الأفخاذ حفاة الأقدام لأن الوطنيين هنا يمكن أن يتعودوا لبس الثياب ، ولكن لا يمكن تعويدهم الاحتذاء ، لأنهم يجدون السير من غير حذاء أسهل عليهم .

وقد استقبلنا الوالي بكل احترام وتعظيم وأوصلنا إلى الشرفة الواقعة باتصال بهو الاستقبال ، وبعد ذلك أخذ المدعوّون يفدون فيجتمعون في تلك الشرفة ، وكان كلما دخل شخص يعرِّفنا الوالي به وبزوجه ، وكانت أبواب دار الحكومة ودهاليزها وبهواتها مزينة جداً بالفوانيس الجميلة المختلفة الألوان والأعلام وبالزهور الطبيعية والصناعية ، وكان العلم العثماني يزين باب البهو الكبير بإزائه العلم الفرنسوي . ولما آن وقت الطعام جلسنا على المائدة التي كانت مزينة جداً ومرتبة أحسن ترتيب . ولما جلسنا أخذت المراوح الكبيرة المسماة (بانكار) تروح لتعديل الحرارة وتلطيفها ، وهذه المراوح معلقة بالسقف على طول المائدة وتتصل بواسطة الحبال واللوالب بالخارج حيث يوجد الخَدَمَةُ الذين يشدون تلك الحبال أخذاً ورداً فتتحرك المروحة وبذلك يحصل في الغرفة هواء لطيف ، ولولا هذه المروحة لكان الأكل من رابع المستحيلات من شدة الحر . ويوجد من المراوح المذكورة في أكثر المنازل والمخازن لأن البيض لا يقدرون على تحمل حر تلك البلاد .

وقد كانوا ألبسوا رؤوس الكرات المصنوعة من البلّور الموضوعة على الشموع بنوع من الغطاء مصنوع من المعدن حتى لا تنطفئ الشموع من الريح أثناء الطعام ، وقيل لي أن هذه الأغطية تعمل في الهند لأجل ذلك خاصة .

أما طعامنا فإنه كان من السمك ولحم الخرفان والعجول والطيور والخضار والحلويات وغيرها . وقد علمت أن السمك في جيبوتي كثير ومتنوع جداً وإنما لم أجد الطعم اللذيذ الموجود بأسماك الآستانة .

ولما انتهى الطعام انتصب الوالي واقفاً وخطب ودعا للحضرة العلية السلطانية وشرب نخب جلالته وهتف الحضور بالدعاء ، وبعد ذلك قمت وخطبت خطبةً وجيزةً جواباً عن خطبة الوالي بما يناسب المكان ، ثم قمنا عن المائدة وجلسنا بالشرفة حيث أديرت على المدعوين أطباق المرطبات والحلويات المثلجة والدخان والقهوة وانصرفنا بعد ذلك جميعاً شاكرين لطف الوالي وإنسانيته .

القيام من جيبوتي
يوم السبت 8 مايو / أيار

القيام من جيبوتي - وصف الممر - الحديث مع الصوماليين في المحطات - أكواخ الصوماليين - إخلاص الصوماليين للحضرة السلطانية - الهباب بدل الصابون - مسواك بدل السجاير - الوصول إلى حدود الحبشة.

توجهنا صباح هذا اليوم في منتصف الساعة الخامسة إلى المحطة ووجدنا هناك عدداً كبيراً جاءوا لوداعنا فودعناهم وركبنا القطار الذي قام في الساعة السادسة ، ولكون الأرض التي حول جيبوتي قاحلة رملية لا زرع فيها ولا ضرع ، كنت ظننت أن الحال سيستمر كذلك ، ولكن لم يصدق الظن إذ بعد أن بعدنا عن المدينة مقدار خمسة كيلومترات أخذنا نشاهد الأعشاب والنباتات الخضراء والشجيرات التي تقوم مقام حطب الوقود عندهم وهو ما تصلح أن تكون مرعىً خصيباً لكثير من قطعان المواشي السائمة .

ولما وصلنا إلى محطة (حمبولي) المار ذكرها البعيدة مسافة سبعة كيلو مترات عن البلد ، رأينا الآبار والآلات الرافعة وأحواض المياه ، وقد كنت ذكرت آنفاً أن المياه تتوزع على المدينة من هنا ، وسار القطار بعد وقوفه قليلاً في هذه المحطة لأخذ الماء اللازم للقاطرة . والأراضي التي كنا نمر عليها بعد هذه المحطة مع كونها بركانية كان يوجد بها قليل من الأعشاب والنباتات ، والبعض منها صالحة للزرع ، وبعد أن قطعنا مسافةً تغيرت المناظر بغتة وظهرت على أطرافنا الهضاب والمراعي وهي لابسة حلة خضراء كالزمرد ، وكنا نرى لون الأرض أحمر كأراضي حوران (من أعمال دمشق) وطري كأنه الحناء ، فلا بدع أن تكون هذه الأراضي من أخصب ما يكون لو اعتني بتنظيفها من الأحجار الموجودة على سطحها ، وحينئذ تذكرت ما كنت سمعته من الوالي عندما كنا في جيبوتي من أنه ينوي حفر آبار ارتوازية في الأراضي والحقول المحيطة بجيبوتي الصالحة للزراعة لإنشاء قرى ودساكر ثمة وذلك حينما تسمح مالية

المستعمرة بذلك . وعلمت أنه إذا أخرج هذا المشروع من القول إلى الفعل تؤخذ غلة كثيرة من هذه الأراضي الخصبة التي لم تُزرع أصلاً ، والتي تسبخ منذ قرون بفضلات الحيوانات الأهلية والمواشي التي ترعى فيها .

وفي الكيلومتر التاسع عشر رأينا قبر أحد المهندسين الأجانب وقد قتله الوطنيون أثناء العمل في السكة الحديد ، وبعد ذلك مررنا على قنطرة عظيمة من حديد قائمة على واد كبير بعد أن وقف القطار هنيهة قبل اجتيازه القنطرة . ولما وقف القطار رأى بعض الصوماليين طربوشي فانكفؤوا على المركبة من كل جهة والفرح بادٍ على وجوههم وأخذوا يكلّموننا ، وسألْنا الذين يعرفون اللغة العربية عن أحوالهم فشكوا من السكة الحديدية ، فقلت لهم : لم تشكون من السكة الحديدية ، أليست أحسن من جِمالكم؟ فتقدم حينئذ أقدرهم على التكلم ، وأجابني قائلاً : كلا ليست بأحسن من جِمالنا فإن الجمل إذا لمس الإنسان لا يؤذيه ، وإذا هاج لا يمسه بضرر ويقتصر هياجه على إخراج الزبد من فمه ، ولكن هذا (وأشار بيده إلى قاطرة القطار) إذا صادف إنساناً أو حيواناً أثناء سيره يجعله إرباً ، وإذا هاج يزعج صوته جِمالنا ومواشينا فيشردهم في الفلاة ، وجمالنا تلقي بأحمالها على الأرض ، وهذه (وأشار بيده على مدخنة القاطرة) إذا هاجت تخرج من ضمنها الدخان والنار وتغطي الحقول بطبقة من الرماد ، ولحم الجمل يؤكل ثم هو يتناسل ويكثر نوعه وأما هذا فكيف تذبحه وتأكله؟ فأجبته : إن السكك الحديدية موجودة في بلاد الدولة العثمانية ، وإن القطر الحجازي سيتصل عما قريب بسائر البلاد بسكة حديدية ، فقال : إذن السكك الحديدية الموجودة عندكم ليست بدعة إفرنجية .

وبذلك فهم هذا الصومالي أن سككنا الحديدية ليست بدعة إفرنجية . ولما انتهينا إلى هنا من الكلام تحرك القطار فكانوا يحيوننا بأيديهم ، وقد قال لي مفتش القطار إن الأهالي الوطنيين كانوا يضعون العقبات في سبيل مدّ السكة أثناء العمل ، وإنه كثيراً ما أدى الأمر إلى الضرب والطعان ووقوع بعض القتلى من الطرفين وإن الفَعَلَةَ كانوا مضطرين للتسلح في أثناء الشغل ، والسبب في ذلك أن القوافل كانت تذهب وتجيء بين جيبوتي وهرر على جمال الأهالي الوطنيين ، فلما شرع في مد السكة الحديدية أخذوا يناوئونها مناوأة شديدة .

وفي الساعة السابعة تغير لون الأعشاب والنبات شيئاً فشيئاً حتى أشبه لون الفضة ، وفي منتصف الساعة السابعة وصلنا إلى محل يسمى(اليلا) ووقفنا هناك ريثما وضع المستخدمون الزيت في عجلات القطار وآلاته ، ويوجد في (اليلا) بضعة من الأكواخ المبنية من الحصى (الظلط) غير منتظمة الجدران مسقوفة بالقش والبوص (القصب) ، وهنا أردت أن أرسم بعض أولاد الصوماليين بالعدة الفوتوغرافية ، ولكن توسل إليّ آباؤهم أن لا أفعل خوفاً من أن يموتوا ؟؟؟؟ وبما أنه يعز عليّ موتهم عدلت عن تصويرهم !!!!! . . . .

وبعد أن قمنا من هذه المحطة بقليل صادفنا قطعاناً من الجمال ترعى بيض الألوان نحاف الأجسام جميلة المنظر سريعة السير ، ورأينا أيضاً قطعاناً من المعز الأبيض تشبه الغزلان ، وقد كنت رأيت فيما مضى في صحارى برقة التابعة لبني غازي نوعاً من الجمال يشبه هذه الجمال التي رأيناها من القطار .

وفي الساعة الثامنة وصلنا إلى محطة (هلهل) وهي ثلاثة أكواخ كبيرة خشبية منفصلة عن بعضها ، ويوجد على أطراف المحطة قرية صومالية فيها خمسون كوخاً ، ويتعيّش الصوماليون كسائر عربان البادية من ألبان مواشيهم ونتاجها ومن كراء جمالهم وينزلون حيثُ وجدوا الكلأ والمرعى ، ويمكثون هناك حتى ينفد الكلأ ، وتجول كل قبيلة في حلّها وترحالها في دائرة حدود منازلها ، فسكان هذه الجهات هم عرب رحّل ولكن ليس لهم بيوت شعر كعربان الشام وبغداد وحلب والحجاز وطرابلس الغرب وبني غازي ، بل هم يبنون مساكن لهم حيثما نزلوا ، والبناء بالحجارة والطين إذا وجدوا حجارة ، وأغلبهم يرفعون الجدران بغير طين وبدون انتظام ، ومساحة المسكن متران تقريباً وارتفاعه متر ونصف المتر ، ويغطون سقفه بأغصان الأشجار وبالنباتات ، وبهذه الوسيلة تتمكن العائلة من بناء مسكن لها في يوم واحد . وفي الأماكن التي لا يوجد فيها أحجار يبني الصومالي جدران منزله من الأغصان ويرفع فوقه قبة في شكل نصف كرة ويغطيها بالنباتات ، وإذا تعذر وجود الأشجار واستعمال أغصانها لجأ إلى أربع عصي توجد عنده دائماً لهذه الغاية طول الواحدة منها متران ونصف فيركز هذه العصي في الأرض ويربط رؤوسها بعضا ببعض ثم يشد الأطراف الأربعة بالحشايش والنباتات ، ويوم ترحل القبيلة يحمل كل واحد منهم بيته هذا المؤلف من

بضع عصي ، ولكون الأراضي التي في أطراف هذه المحطة دائمة الخصب ترك صوماليو هذه الجهة الترحال وتحضروا وأنشؤوا قرية لهم وبنوا أكواخاً متينة بالنسبة لأكواخ غيرهم ، وأخذوا يبيعون اللبن وما أشبهه لركاب السكة الحديدية .

فلما وقف بنا القطار في المحطة المذكورة هرع البنات الصوماليات لبيع ما استحضروه من اللبن الصريح وهم يضعونه في مقاطف ، أما اللبن المشوب بالماء فيضعونه في القرب ، فاشتريت مقطف لبن من إحدى البائعات ، والقارئ يستغرب وضع اللبن ضمن مقطف فلبيان ذلك أقول : إن الذين قرؤوا رحلتي إلى صحراء أفريقيا الكبرى يتذكرون ما شرحته في الرحلة المذكورة عن كيفية عمل بعض الأواني من سعف النخل ، ولنذكر ذلك هنا أيضاً فائدة للقراء : يعمد سكان واحات أوجله وجالو إلى النخل ويقطعونه ويحيكونه بعد ذلك كحياكة الحبل الدقيق ومن هذه الحبال الدقيقة يصنعون علباً ذوات أغطية مختلفة الحجم والشكل وموائد كبيرة كالصواني النحاسية التي يؤكل عليها ، والأغرب من ذلك أنهم يحيكون من هذه الحبال قلالاً لوضع الماء والألبان وجميع السوائل ، وقد تستعمل هذه الأواني الليفية لتبريد الماء لأنه يرشح منها رشحا قليلاً .

أما الصوماليون هنا فإنهم يستعملون نباتاً ناعماً قوياً بدلاً من أوراق النخل وسعفه في صناعة الأواني والقصاع والجرار ويسوّدون داخل الأواني الخاصة بالألبان أو السوائل التي يجب حفظها من الترشح بطبقة من هباب الدخان فيسد مسامّها ويقوم مقام الطلاء ويمنع السائل من الترشح ، ولا يغسلون هذه الأواني بالماء بل إذا أرادوا وضع شيء آخر في قصعة اللبن عرضوا باطنها للدخان فيطليها بالسواد ويزيل الزفر والفضلات منها ثم يعيدون ذلك كلما أرادوا تنظيفها .

قلت إني اشتريت في المحطة المذكورة قصعة لبن رايب فلما ذقته وجدته حامضاً جداً مائلاً للمرارة فسألت كيف يصنعونه فقيل إنهم يضعون اللبن المحلوب هذا اليوم مثلاً في قصعة مدخنة بالهباب كما ذكر آنفاً من غير أن يغلوا اللبن أو يضعوا فيه الروبة اللازمة لترويبه ، وفي اليوم الثاني يضيفون عليه ما زاد عن غذائهم من اللبن وما حلبوه من جديد وهكذا يأخذون اللبن القديم ويبيعونه ، ولذلك لا يمكننا نحن أن نشرب أو نأكل ألبانهم ، ولكن الضرورات تبيح المحظورات ، فإننا لشدة الحرارة اضطررنا

لشرب اللبن الرايب بعد وضع الماء فيه .

وقد أحاط الناس بمركبنا هنا أيضاً وصاروا يكلموننا وعلامات السرور والارتياح بادية على وجوههم ، وليس على رجالهم سوى (فوطة) لستر العورة كما أن نساءهم كن مكشوفات بحيث كان القسم الأعلى منهن باديا أما الأولاد فإنهم عراة الأبدان بالمرة ، وأكثرهم يتكلمون باللغة العربية وأعضاؤهم متناسبة وسحنهم جميلة جداً .

وبعد أن فارق القطار هذه المحطة وأخذ يقطع الفيافي جعلنا نشاهد قطعان المعز الأبيض الجميل الشكل سارحة في الأراضي بين الأعشاب والنباتات ، وبعد هذه المحطة أخذ الطقس يعتدل قليلاً لأن القطار كان آخذاً في الصعود ، وقرب الساعة التاسعة مررنا في أراضٍ قليلة العشب وقد غلبت الطبيعة البركانية على قوتها الإنباتية فصرنا لا نرى في كل بضع ثوان إلاّ الأحجار والصخور السود .

وفي الساعة التاسعة بالتمام وقف القطار في محطة (تعسبيه) وأخذت القاطرةُ الماءَ اللازم لها منها ، وفي هذه المحطة وما جاورها أيضاً كثير من الصوماليين وأكواخهم مبنية على أطراف المحطة ، ورأينا هنا غلاماً صومالياً يبيع القهوة للركاب وقد أحسن صنعته إذ يجهز القهوة قبل وصول القطار فلما أشرفنا على المحطة بادر بتقديم القهوة للمسافرين ضمن فناجين ، ولما سار بنا القطار من هذه المحطة راقت في عيني مناظر أشجار جميلة قائمة على جوانبنا تشبه (الدفلي) فسألت عن اسم هذا الشجر فقيل لي أنه يسمى (فرحى) وأنه ينبت من نفسه كسائر أعشاب هذه الصحارى ، وأنه يعمل من أغصانه نوع من السواك وقد كنت رأيت الصوماليين يضعون في أفواههم قطعاً يعبثون بها بأسنانهم تارة ويمتصونها أخرى فإذا هي من هذا الشجر ، وعلمت أن الصوماليين كبيرهم وصغيرهم مغرمون باستعمال هذه الأغصان ، فلا ترى صومالياً إلاّ وفي فمه قطعة منه شبه السواك يمسكها في فمه فإذا أراد التكلم أخذها بيده وإذا انتهى كلامه أرجعها إلى فمه وأمسكها بين شفتيه كسجاير الدخان ، فيمتصها أو يديرها بين أسنانه من غير أن يمسكها بيده ، وقد ظهر لي أن استعمال هذا السواك خرج عن طور الفائدة المطلوبة منه إلى طور المكيفات . وهذا السواك ليس باليابس كالذي نستعمله نحن بل هو أخضر وقشره عليه وأظن أن عصارة هذا الشجر فيها مادة مكيفة .

وقد وصلنا قبل الساعة العاشرة إلى محطة (علي صبح) وهي واقعة بين ولاية (هرر) التابعةللحبش وبين الصومال الفرنسوي ، ويوجد فيها ما عدا المحطة أبنية تشبه القلاع مبنية على هضبة تشرف على الأطراف حيث يقيم أحد المستخدمين الفرنسويين مع رجاله ورفاقه ، وهذه المحطة وأطرافها خالية من السكان ومن الأكواخ بسبب جدب الأرض وعدم وجود الكلأ فيها .

وفي الساعة السادسة والدقيقة 10 وصلنا إلى محطة (دادانلي) الكائنة في الكيلومتر 106 وقد شيّد الصوماليون قرية حول هذه المحطة ووجدنا هنا مخفراً للجنود يخفق عليه العلم الحبشي وقد صنع هذا العلم من ثلاثة ألوان كألوان قوس قزح ، فالأول من الأعلى لونه أخضر والثاني أصفر والثالث أحمر وقد رفع العلم عمودياً على السارية ، ولما وصلنا إلى المحطة خرج الجنود من المخفر لأداء التحية العسكرية للوفد السلطاني وسلاح هذا الجند من نوع البنادق الفرنسوية المسماة (غرا) وقد اشترت الحكومة الحبشية هذه الأسلحة من الفرنسويين ، أما كسوة الجنود فهي عبارة عن سراويل وقميص ورداء ويرتدون فوقهما برداء أبيض كالذي يرتديه أهل طرابلس الغرب وهم عراة الرؤوس حفاة الأقدام .

ويقف القطار في ذهابه من جيبوتي إلى الداخول في هذه المحطة ثلاثة أرباع الساعة للطعام ، ولما عرف الصوماليون الموجودون هنا أني موفد من قبل الحضرة السلطانية أسرعوا إليّ وأخذوا يدعون للحضرة العلية السلطانية ويهنئونني بالوصول سالماً وأكرمونا غاية الإكرام كما حصل في كل المحلات التي مررنا بها ، وقد زاد عددهم في برهة قليلة حتى صارت المحطة تموج بالناس كأنهم وجدوا ورود الوفد السلطاني فرصة انتهزوها لإظهار إخلاصهم وصدق ولائهم للحضرة المعظمة السلطانية ، وقد تذكرت هنا ما قاله لي والي الصومال الفرنسوي عندما كنت في جيبوتي من أن أهالي هذه الجهات سيكونون في غاية الانشراح والسرور من رؤية الوفد العثماني في بلادهم لشدة تعلقهم بالعرش الأسمى السلطاني .

وقمنا من محطة (دادانلي) في الساعة الحادية عشرة وعند تحرك القطار طلب الصوماليون إليّ أن أخبرهم بوقت رجوعي ووصولي في العودة .

وبعد أن مررنا على كوبري قائم على واد وصلنا في الساعة الثانية عشرة إلاّ بضع

عشرة دقيقة إلى محطة (عدالي) الكائنة في الكيلومتر 132 وهذه المحطة صغيرة ليس فيها إلا بضعة أكواخ ، وفي منتصف الساعة الثانية عشرة قطعنا صحارى واسعة جداً ومراعي عظيمة ممتلئة بجمال الصوماليين وحميرهم ومعزهم ، وكنا نرى أكواخ أصحاب تلك المواشي تلوح بين البهائم ، وفي الساعة الحادية عشرة وصلنا إلى محطة (عائشة) وليس في هذه المحطة سوى ثلاثة أبنية خشبية صغيرة تشبه الأكواخ وحيالها قرية صومالية صغيرة تسمى (سالاري) فيها ثلاثون كوخاً ، والأراضي هنا مستوية مخصبة خصباً يجعلها مرعى جيداً للخرفان الصومالية ، وفي الساعة الثانية وصلنا إلى محطة (عد الفلا) الواقعة في الكيلومتر 201 ويوجد هنا ورشة تصليح لشركة السكة الحديدية وبضعة أكواخ صومالية .

وفي الساعة الثالثة ، بينما كنا نقطع صحراء مستوية ، رأينا من بعد أكواخاً كثيرة من الطين لا يمكن عدها لكثرتها تشبه أكواخ الصوماليين ، فسألت عنها مأمور القطار فقال إنها بيوت لصنف من النمل الأبيض ، وقد صنع هذا النمل بيوته بطريقة متينة للغاية فهي متحجرة حتى أن الإنسان ليعجز عن هدمها إلا بالمعول ، وبين البيت الواحد والآخر (50) متراً أو أكثر وارتفاع كل بيت نحو متر ونصف ومنها ما هو نحو مترين وقطره يقرب من ذلك أيضاً . ما أعظم همة هذا المخلوق الصغير ! ما هي الأبنية التي يبنيها الإنسان في هذا الزمان وما هو حجمها بالنسبة إلى حجمه وارتفاعها بالنسبة إلى ارتفاعه ! فإنا لو قسنا ما يبنيه هذا الحيوان من البيوت التي هي أكبر من جسمه على هذه النسبة بما يبنيه الإنسان لنفسه لوجدنا هذا متأخراً جداً بالنسبة إليه ، والغالب على الظن أن هذا النمل هو من صنف النمل الأبيض الموجود بصحارى الحجاز وفي مكة المكرمة والمدينة المنورة ، ولكن النمل الحجازي لا يبني مساكنه فوق الأرض بل يبنيها تحت الأرض ، ولكن فعلها لا يكون أقل من فعل النمل الصومالي . والنمل الحجازي هو من الحشرات المضرة المخربة جداً فإنها تقرض الأشجار والأخشاب وإذا مكثت تحت صندوق أحد المسافرين أو السياح تأكل أسفل الصندوق وتتلف ما فيه ، وإذا نظر الإنسان في المدينة المنورة إلى سقف الغرفة يرى خطاً من الطين يعمله النمل ويختفي تحته للقيام بعمله دون أن يراه أحد ، وقد كان هذا النمل قرض أسفل بعض العواميد التي كنا وضعناها لأجل السلك البرقي

الحجازي فاضطررنا إلى قلعها وقطع المحل المقروض ووضعه ثانياً وقد كان القسم الفني قرر قبلاً أن تكون أعمدة الخط البرقي المذكور من الحديد ولكن لبعد المسافة وصعوبة النقل بقيت الأعمدة خشبية وإذا أخذت السكة الحديد الحجازية الآن تتقدم في ظل الحضرة السلطانية إلى القطر الحجازي فستبدل أعمدة السلك البرقي بعواميد من حديد .

ولنرجع الآن إلى حديثنا أي لما كنا فيه : في منتصف الساعة الثالثة بعد أن مررنا على كوبري من حديد طوله (20) متراً دخلنا في أراضٍ مستوية واسعة مستورة بكثير من شجيرات السواك الأخضر محاطة من اليسار بالجبال فتذكرت حينئذ صحراء ليبيا والصحراء الكبيرة ، ورأيت أن صحارى الحبشة كالجنة بالنسبة للصحارى المذكورة . وفي الساعة الثالثة و 54 دقيقة وصلنا إلى محطة (مللو) الكائنة في الكيلومتر 241 حيث يوجد أيضاً بعض أكواخ صومالية ، وفي منتصف الساعة الرابعة وصلنا إلى محطة (هروا) والأكواخ الموجودة هنا هي أجسم وأكثر من الأكواخ الأخرى التي رأيناها على طريقنا وهي على شكل قرية كبيرة ، ورأينا في هذه المحطة النساء الصوماليات مكشوفات الأكتاف والصدور والسواعد يحلبن الماعز اللطيف الناصع البياض ، أما الرجال فكان البعض منهم مشتغلاً بحك سواكه بشفتيه على أسنانه والبعض منهمكاً باستعمال المضغة وهذه المضغة مركبة من التبغ مع قليل من الرماد ، يعملون من هذا الخليط معجوناً يقطعونه قطعاً أو حبوباً بقدر قطع اللبان التي يمضغها الأولاد ويضع أحدهم حبة منه في الفك الأسفل بين الأسنان والشفة ويمصه من غير أن يفتح فاه وإذا ملّ من المص يخرج هذه المضغة ويلصقها فوق أذنه أي بين الرأس والأذن ، كذلك إذا ملّ أحدهم من مص السواك يدخله بين ثنايا شعر رأسه الكث .

وفي الساعة الخامسة والربع وصلنا إلى محطة (الباحة) الكائنة في الكيلومتر 280 حيث لا يوجد أحد من السكان ، مع أن الأراضي هنا منبتة ذات شجر ، أي أنها مناسبة لسكنى الصوماليين أكثر من سواها ، وأظن أن السبب في عدم إقبال الصوماليين على السكنى بجوار هذه المحطة هو أنهم لا يحبون الاستظلال بالظل ، بل تعودوا أن يكونوا معرضين دائماً لأشعة الشمس ، حتى أن أحدهم إذا أراد أن ينام

ليستريح قليلاً يترك ظلال الأشجار والبيوت والجدران ويذهب فينام تحت أشعة الشمس كأن الظل يضرهم .

وبعد هذه المحطة أخذت الشجيرات الواقعة على ممر السكة الحديدية تكبر بالتدريج حتى صارت في شكل غابات جميلة ، ويوجد في هذه الأشجار غير شجيرات السواك الشديد الاخضرار أجناس أخرى كثيرة من الأشجار التي لا أعرف اسمها ، وكلها تنمو من نفسها بغير عناية الإنسان ، ورأينا كثيراً من الأشجار المقطوعة ملقاة على حافتي ممر السكة الحديدية قطعها المهندسون لفتح الطريق ، وأما الأرض فإنها مستورة بصنوف النبات وتوجد كروم العنب بكثرة والياسمين العراتيلي والنباتات المتعرشة متسلقة على الأشجار ومؤلفة أنفاقاً ونوافذ طبيعية ، وصواوين زمردية بحيث يعجز أعظم مهندس بستاني عن عمل مثلها ويحار في أمر هذه الطبيعة البديعة ، وكانت هذه المناظر البديعة الرائقة تتنوع أمامنا كلما تقدم القطار إلى الأمام ، وإليك ما يستطيعه قلمي من وصف هذه المباني الخضراء المصنوعة بقدرة الخالق جلت قدرته .

تصوّر أيها القارئ شجرة تدلت أغصانها ، وانبسطت أفنانها انبساطاً منتظماً واسعاً بنسبة جذعها حتى صارت كدائرة متحدبة تشبه الشمسية أي المظلة وقد تسلقت على جذعها النباتات حتى إذا بلغت الأغصان عادت فتدلت من الأطراف بهيئة عمود إلى الأرض وهناك غرزت في التراب ثم نبت منها فرع آخر وتسلق على أصله وهكذا حتى تكون من هذه الشجرة غرفة طبيعية ذات جدران دائرة بها من تلك النباتات الزمردية اللون لا تنفذ منها أشعة الشمس إلى الداخل ، وهناك منظر آخر أيضاً وهو أن تلك النباتات البديعة قد تسلقت على جذوع الأشجار الكبيرة المقطوعة وأحاطتها بنسيج أخضر نتج منه ظلال جميلة حسب وضع الجذع وجسامته ، ثم إن النباتات التي تنمو داخل هذه الغرف الطبيعية ليست مثل الموجود خارجها كبيرة وخشنة الملمس بل هي قصيرة ناعمة جداً تشبه الطنافس النفيسة الخضراء ، وهذه أول مرة صادفت فيها في البر الأفريقي مناظر جميلة كهذه حتى نسيت نفسي أني موجود في أفريقيا ، وهي أول مرة أيضاً سمعت فيها تغريد الطيور التي تشبه السماني والقماري والحمام مما لا أعرف أسماءها وهي تنتقل من شجرة إلى شجرة في أبدع الأشكال .

وبينما كان قطارنا سائراً بين تلك المناظر الطبيعية اللطيفة وأنا مشتغل بضبط ما يجب قيده لكتابة الرحلة إذ وقف القطار فأشرفت من النافذة فرأيت كثيراً من الجنود والمستخدمين الحبشيين ، وعرفت أننا وصلنا إلى محطة (دريدوه) التي هي آخر محطة من السكة الحديد واقعة على الكيلومتر (310) وقد كانت الساعة حينئذ السادسة مساءً وعلى ذلك نكون قطعنا المسافة من جيبوتي إلى (دريدوه) وقدرها 310 كيلومترات في اثنتي عشرة ساعة بما فيها زمن وقوف القطار في المحطات .

وقد استوقفت نظري في هذه الجهة مساكن النمل الأبيض الموجودة بكثرة في الأحراش والغابات مع أنه لا يوجد فيها كوخ واحد للصوماليين ، فيا للعجب إن النمل هذا ليس كأهل الصومال الذين لا يألفون الظلال بل منه ما يميل إلى السكنى في الظل ومنه ما يميل إلى السكنى في الشمس .

وقد رأينا المحطة مزدحمة بالناس وكوكبة من الجنود الحبشية فيها 200 جندي مصطفة على الرصيف لأداء التحية العسكرية للوفد السلطاني ، وبينما نحن كذلك إذ فتح باب العربة ودخل شاب مهذب جميل الوجه والهيأة ، وبعد أن سلم عليّ بأدب كلمني باللغة الإفرنسية فعرفني أنه (آتوبيانا) نجل (آتو مارشا) مدير دريدوه وأنه حضر مع الجند والمستخدمين ليقوم بالاستقبال مقام والده الغائب عن مركز وظيفته ، وبعد ذلك عرفني برجال حاشيته وسائر المأمورين ووجدنا صاحب الأوتيل الذي سننزل فيه وهو رجل رومي بين المستقبلين وقد علم بوصولنا فحضر لمقابلة الوفد ، وبعد إتمام هذه المراسيم ذهبنا إلى الأوتيل وهو واقع أمام المحطة وليس ثمة غيره وأقام (آتوبيانا) الخفراء من الجنود على الأبواب الخارجية احتراماً للوفد السلطاني ، وهنا يجب أن أصف الأوتيل قليلاً لنفهم ما هي الأبواب الخارجية : إن هذا النزل مبني بالحجر على دور واحد وله ضلعان قائمان عمودياً على بعضهما وفي الوسط الخالي من الأبنية يوجد جنينة أمامها درابزين والغرف والبهوات يحيط بها الطريق ولها أبواب للطريق كما للرواق الداخلي ، وقد وجدت هذا الفندق أحسن من فندق (ده زاركاد) الكائن في جيبوتي أو أنه تراءى لي ذلك لجمال المناظر الطبيعية المحيطة بهذا النزل ووجود الأشجار وبرد الهواء والطقس ، وأخبرني صاحبه أنه هيأ لنا الغرف اللازمة كما أنه جهز بهواً للطعام ، والحق يقال : إن هذا النزل بالنسبة لدريدوه في غاية النظافة

والترتيب . وبعد أن تناولنا الطعام واسترحنا قليلاً من وعثاء السفر ذهب كل منا لغرفته ونمنا نومة هنيئة لاعتدال الهواء ولما نالنا من التعب في السفر .

التهيؤ لسفر البر

دريدوه 9 مايو / أيار

دريدوه - سفر البر - إخلاص الصوماليين الوطنيين للحضرة السلطانية - الصومال والصوماليون - (توالت) بالتراب والسمن - الترضية الكبرى

انتهى هنا في (دريدوه) القسم السهل من سفرنا ، وأتى القسم الذي نقطعه على الجبال والبغال فأخذنا في إعداد ما يلزم بما يمكن من السرعة من غير أن نضيع ساعة واحدة وذلك لقرب موسم المطر الغزير في هذه البلاد ، وقد كنا في مساء اليوم الماضي نقلنا إلى الفندق حقائبنا الصغيرة التي كانت معنا في مركبات السكة الحديدية ، واليوم اشتغلنا قبل كل شيء بجلب الصناديق المحفوظة فيها الهدايا السلطانية وما بقي من متاعنا من الجمرك ، وقد اضطرُرنا أن نصغر هذه الصناديق لأنها كانت صنعت في الآستانة كبيرة جداً بحيث يصعب تحميلها على الجمال فضلاً عن البغال ، وجعلنا كل صندوق اثنين ، وقام لنا بهذا العمل أربعة نجارين أوربيين ولم يقبلوا أن يشتغلوا إلاّ بأجرة زائدة جداً لمصادفة ذاك اليوم عيدهم ، وقد راقبتهم بنفسي طول ذاك النهار حتى تمكنا من تصغير الصناديق على قدر الإمكان ، وبعد أن وضعنا ضمنها الأشياء لففنا كل صندوق بصفائح الزنك اتقاء المطر .

أما (دريدوه) هذه فهي آخر محطة من سكة الحديد وآخذة في التقدم والعمران يوجدفيها ورشة السكة الحديد وصناع ونجارون وحدادون .

ولما أقبل المساء ورأيت الصناديق عملت على ما أريد ولم يبقَ هناك مانع من السفر . في اليوم التالي فرحت كثيراً لما كنت أسمعه من بعض الناس في جيبوتي وعند وصولنا إلى (دريدوه) من عدم وجود قيمة للوقت في نظر الأهالي الوطنيين في هذه الربوع ، حتى أنني عندما وصلت إلى (دريدوه) سألني بعض الناس عن المدة

التي أقضيها في (دريدوه) فلما أجبتهم بأني سأقوم من هنا بعد يومين ضحكوا من كلامي وقالوا : إنك تكون سعيداً إذا استطعت السفر من هنا بعد أسبوع . على أني لما كان الصناع والنجارون يشتغلون كنت أضطر إلى الذهاب لمقابلة الذين كانوا يأتون للزيارة وأترك طالب بك ويس جاويش يناظران الشغل ، وكان الزائرون من العرب يأتون كل خمسة أو ستة معاً ولكن الصوماليين كانوا يأتون أفواجاً أفواجاً كل فوج لا يقل عدده عن ستمائة ، فكنا نسمع ضجيجهم وأصوات التهليل والتكبير والأناشيد الحربية من نصف كيلو متر ، ولما اكتمل جمعهم وقفوا أمام الفندق ورفعوا أكف الدعاء للحضرة السلطانية ورحبوا بالوفد ثم أخذوا يرقصون على الأناشيد الحربية ، وكانت الساحة التي أمام الفندق تموج بالناس الذين أتوا ليتفرجوا على رقص الصوماليين ، وقد قال لي الأوربيون الذين كانوا هناك أن هذه أول مرة رأوا فيها اجتماع هذا العدد العظيم من الصوماليين للرقص ، وأنه لم يحصل قبل ذلك لهؤلاء الناس سرور كما حصل لهم الآن ، وأنه لم يحصل لأحد من الاستقبال البهيج كما حصل لنا .

وفي المساء خرجت متجولاً في المدينة ، وإليك ما علمته بخصوص هذه الجهة من الزائرين ومن تجوالي في المدينة .

إن (دريدوه) الأصلية هي قرية صغيرة واقعة على بعد عشر دقائق من المحطة وقبل وصول السكة الحديدية إليها كانت تجمع البضائع في هرر وتنقل منها على ظهر الجمال إلى جيبوتي عن طريق (جلدسا) ولكن بسبب قرب هرر إلى دريدوه أخذت البضائع بعد مد السكة الحديدية تأتي إلى هنا كما أن البضائع الآتية من الساحل صارت توزع من دريدوه إلى البلاد الداخلية ولذا صارت دريدوه مدينة ذات بال حتى أن الإفرنج وشركة السكة الحديد أطلقوا عيها اسم (آديسا هرر) ظناً بأنها ستقوم مقام هرر وقيدوا اسمها كذلك في خرطهم ، ولكن النجاشي لم يرضَ بتغيير الاسم فبقيت دريدوه كما كانت قبلاً ، وكلمة آديس باللغة الحبشية هي محرفة من الحديث العربية فيكون معنى (آديس هرر) هرر الجديدة .

أما سكان دريدوه فقد أخذوا في الازدياد بعد ما صار لها هذا الشأن وذلك بما يأتيها من الناس من الخارج ، حتى صار عدد أهلها الآن يربو على ألفين ، وأكثر هؤلاء السكان من المسلمين وهم ينتسبون إلى قبائل جورجورا وغاللا وصومال وبعض تجار

من اليمن والهند ، أما رؤساء مستخدمي السكة الحديد فيها فهم فرنسويون وأصاغر المستخدمين من المسلمين ، وسكان الضواحي والكفور الكائنة على أطراف دريدوه هم من فرع (ايسسا) المنتسبين إلى الصوماليين المنتشرين بين دريدوه وجيبوتي ، وأما بقية سكان دريدوه وسكان جهة (اورسو) التي تبعد عشرين كيلومتراً إلى الغرب من دريدوه فهم من قبيلة جورجورا المؤلفة من أخلاط الصوماليين والغاللا ولكثرة عدد الصوماليين وترداد ذكرهم كثيراً في هذه الرحلة رأيت أن أفرد فصلاً مخصوصاً بما علمته من أخبار هؤلاء القوم .

الصومال

إن الأقوام الصومالية يقطنون في الأراضي الساحلية الواسعة الممتدة من شمال خليج تاجورا الكائن خارج مضيق باب المندب إلى قرب حدود زنجبار ، وجزء من هذه السواحل مع قسم صغير من الأراضي الواقعة خلفها واقعان تحت حكم الفرنسويين ، والقسم الذي يلي ذلك حتى تصل إلى قرب انتهاء ساحل عدن يتبع الإنكليز ، وقسم آخر منه وهو الواصل إلى انتهاء خليج عدن مع ما بقي من الأراضي الواسعة المتجهة إلى حدود زنجبار يتبع إيطاليا . سمي كل قسم منه باسم الدولة التي تحكمه ورسمت هذه الأقسام على الخريطة الجغرافية بالصومال الإنكليزي ، والصومال الفرنسوي ، والصومال الإيطالي ، كما أنه يوجد قسم من الصوماليين داخل الأراضي الحبشية كما مر ذكره آنفاً ، وتنقسم الأقوام الصومالية إلى قبائل أعظمها قبائل (ايسسا) و(دانقالي) و (غاللا) ، وأكثر القبائل متعادية وكثيراً ما تؤدي العداوة والضغائن الشديدة الموجودة بينهم إلى مواقع دموية تحصل من هجوم بعضهم على بعض بقصد الغزو والسلب ، أما عدد نفوسهم فيبلغ على وجه التقريب مليوناً ونصف المليون . وأصل هؤلاء الأقوام ليس من أفريقيا بل هم هنود : كان في القرن الحادي عشر الميلادي قد جاء أحد رجاوات الهند بحراً بجيش عظيم على مضيق باب المندب وغلب ساحل جزيرة العرب ومرّ من هناك على البر الغربي واستولى على ساحل أفريقيا واستوطن هناك هو وجنوده ، فالصوماليون هم من سلالة هؤلاء الجنود . وقد استمر حكم الهنود حتى

القرن الثالث عشر الميلادي حيث امتنع عندئذ أمير مسقط من أداء الجزية للهنود واجتاز إلى ساحل الصومال بجيش كبير واستولى على تلك البلاد باسم الإسلام وخرب المعالم والمعابد الوثنية وقلب بعض المعابد إلى مساجد ، ومن ثم أخذ الصوماليون يدخلون في الإسلام حتى صاروا كلهم مسلمين . وقد وجد بعض ضباط الإنكليز الذين كانوا يشتغلون برسم خريطة الصومال بعض آثار المعابد الهندية كما أن العلماء المتخصصين باللغات قد وجدوا مشابهة عظيمة بين لغة هؤلاء الصوماليين وبين لغة دكن الهندية ، ولهم على ذلك أدلة يوردونها في المقابلة بين بعض الألفاظ في اللغتين .

والإسلام الآن هو دين الصوماليين وجلّهم يثابرون على أداء الصلوات الخمس ولكن لعدم معرفتهم الدين معرفةً جيدةً اشتهر البعض منهم بسفك الدماء وقتل النفوس ، ومن عاداتهم الوحشية أن يضع الواحد منهم على رأسه من الريش بعدد ما قتل من الناس أو أن يجعل على معصمه أسورة أو يعلق قرطاً بأذنه علامة على القتل ، وإذا تزوّج أحدهم يضرب زوجته ليلة زفافه بسوط غليظ ضرباً مبرحاً حتى يدميها ، زاعماً أن هذه القساوة تجعلها في المستقبل مطيعة له ، وكان الصوماليون يشتغلون قبلاً بتجارة الرقيق أما الآن فإنهم لا يجرؤون على ذلك .

وكان الذين يسافرون قبل إنشاء السكة الحديد من جيبوتي أو من زيلع إلى حدود الحبشة يضطرون أن يذهبوا بدلالة هؤلاء الصوماليين وحمايتهم ويمروا من أراضٍ شديدة الحر جداً ، والمسافة بين الحدود الحبشية والثغرين المذكورين خمسة عشر يوماً ، وإذا طلب السائح أو التاجر جواز السفر من الساحل إلى الداخل كانت الحكومة تأذن له بالسفر على شرط أن لا تكون مسؤولة عن حياته وعما يلحق تجارته وأمواله من الضرر ، لذلك كان المسافر مضطراً لتقديم بعض هدايا لمشايخ القبائل التي يمر من أراضيها ، كما أنه كان يحتاج لحماية جمّال يسمى (ابان) ويستصحب معه محافظين يرافقونه ليقوموا بحراسته في الطريق ، وإذا لقي المسافر (لا سيما إذا كان من البيض وعلى الأخص إذا كان إفرنجياً) في الليل أو في محلٍ خالٍ صومالياً خاطباً بنتاً للزواج فإنه يكون معرضاً لخطر القتل لا محالة ، والسبب في ذلك أن الصومالي إذا عزم على الزواج يتحتم عليه قتل رجل وأن يبعث بعضو من أعضاء المقتول إلى أهل البنت التي

يريد الاقتران بها إثباتاً لفعلته الشنعاء ، وبغير تقديم هذه الضحية البشرية لا يجوز له خطبة البنت ولا يتأتى له الزواج .

والصومالي كسائر الأقوام البدوية متعظم مغرور ، وبسبب تحمله المشاق والمتاعب وتعوده خشونة البداوة تراه دائماً شديد المحافظة على كبريائه أمام سكان المدن المتنعمين بلذّات المدينة وينظر إليهم وإلى انغماسهم في الراحة والترف بنظر الاستخفاف والاحتقار . وأضرب لك مثلاً بالصوماليين الذين يشتغلون في مهن حقيرة كالشيّال والخادم والوقّاد في البواخر فإنهم مع ضعتهم واختلاطهم بالإفرنج ورؤيتهم كل يوم آثار ذلك التمدن وقوة الغربيين ورقيهم لا يزالون ينظرون أهل المدن وبالأخص الإفرنج منهم بنظر الأعلى إلى الأدنى ويتظاهرون بالغرور والعظمة أمامهم .

والصومالي شجاع باسل للغاية جريء حمول للعطش والجوع ، أما سلاحه فهو رمح طول قامة الرجل وترس وخنجر يضعه في وسطه ولهم مهارة كبيرة في استعمال السلاح حتى أن أحدهم ليصيب عدوه في أي عضو شاء من أعضائه إذا صوّب رمحه نحوه ولو من مسافة بعيدة . والصومالي يخرج وحده ليصيد الأسد والنمر والفيل والغزلان والأرنب وليس معه من السلاح سوى رمحه الذي يتخذه في سائر الأوقات عكازاً يتوكأ عليه في سيره وقد جرى ذلك عند الصوماليين مجرى العادة حتى أن أحدهم إذا لم يحمل الرمح لسبب من الأسباب حمل عصاً يتوكأ عليها في طول الرمح ، وهم لا يعرفون الفلاحة والزراعة بل يتعيّشون من الماشية ، وإذا لم يجدوا بضائع للحمل على الجمال إلى الداخل بقوا عطلاً من الشغل ، ولهم اعتناء كبير وولع شديد بأخذ الأخبار والحوادث من كل من يأتي من محل أو يذهب إلى محل ، ويحمل البعض في رقابهم سبحاً ذات حبات كبيرة وأكثر من يفعلون ذلك من الرجال ، وهم يدهنون رؤوسهم بالزبدة والسمن بدلاً من الروائح الطيبة والرجال يزيدون على السمن والزبدة الكثيرة المقدار طلاء من التراب الناعم فيأخذ الرأس لون التربة التي أخذ منها التراب ، لذا ترى لون رؤوس الصوماليين مختلف بين الحمرة والسواد ، وقد تكون التربة المأخوذ منها التراب كلسية تبيض رأس الصومالي فيشبه رأس تمثال من رخام ناصع البياض أو الشعر المستعار الأبيض الذي كان يستعمله قديماً الأوروبيون ، والشعر وإن يكن متجعداً بالطبع يصير بكثرة استعمال التراب والسمن

والزبدة متدلياً بتجعد إذا مشط يأخذ هيأة الشعر المستعار المسمى في أوروبا (بروك) .

واذا دعا الصومالي أحد أصحابه أو أحبائه إلى كوخه فإنه قبل كل إكرام يجلس المدعو أمامه فيطلي رأسه بالسمن والزبدة كلما زاد من هذا الدهن كان زيادة في الإكرام وقياماً بما يجب عليه من تعظيم الضيف ، وإذا مس أحدهم شرف الآخر أو تعدى عليه بقول أو فعل فسبيله أن يأخذ المعتدى عليه إلى كوخه ويطلي رأسه بكثير من السمن وهذه أكبر ترضية لرد الشرف عندهم .

وألوان الصوماليين تختلف من لون السمرة الحبشية إلى اللون الحالك السواد وعيونهم كبيرة جميلة جداً وهم عراض الجباه .

القيام من دريدوه

يوم الاثنين 10 مايو / أيار

رحل وكوخ - ركابات للإصبع - التعظيم - مهارة النساء - شجرة اللستيك - المعاول الخشبية - بحيرة هراما - الطيور البرية - البرد القارص - المستقبلين.

كان من المقرر أن نسافر هذا اليوم من دريدوه لذلك استأجرنا بمعرفة (آتو بينا) البغال والجمال اللازمة لركوبنا ولأحمالنا ، وقد جاء صباح هذا اليوم الرجال ومعهم البغال والجمال وأخذوا في تحميل الأثقال والجمّالة كلهم صوماليون ولهم إلمام ومهارة في صنع ما يلزم لهم ولجمالهم من غير أن يحتاجوا إلى استحضارها من الخارج .

إن الصوماليين لا يستخدمون في عمل هذه الرحال لا السروجي ولا الحبال . يتألف القسم الليّن من الرحل من حصر خشنة يحيكونها بأيديهم من ألياف النبات ويضعون ثلاث حصر أو أربعاً بعضها فوق بعض حتى لا يجرح ثقل الحمل الجمل .

وأما القسم الخشبي من الرحل فهو عبارة عن أربعة عصي طوال يربطون كل اثنتين منها ببعض في شكل زاوية ، وهاتان الزاويتان المؤلفتان من العصي الأربع مرتبطتان ببعضهما أيضاً من رؤوس الزاويتين ، وبعد وضع هذا الرحل فوق الحصر الموضوعة على ظهر الجمل تُربطان بواسطة حبل من بطن الجمل ربطاً محكماً ، فهذا الرحل في غاية

البساطة والخفة والمتانة ، وإذ يحملون الأثقال يربطون حبل كل شقة من الحمل بالزاوية التي في الجانب الآخر ، وبالعكس فيكون الحمل بهذا الرباط في غاية المتانة لا يخشى عليه من السقوط قطعاً ولا يؤذي الجمل بسبب اتكاء الأحمال على الزوايا ، وأما الحبال التي يستعملونها لهذا القصد فهي من نبات ناعم ينسجه الصومالي بيده ، وللرحل الآنفة الذكر فائدة أخرى في غاية الأهمية وهي أن القافلة حين تحط رحالها عند المساء تأخذ العصي من الرحل وتركز بعضها على بعض كما تركز الجنود بنادقها وتضع فوقها الحصر السابق ذكرها فيؤلف من ذلك أكواخ للجمّالة يأوون إليها وإذا زاد شيء من الحصر يفرشونه على الأرض للجلوس عليه وبالجملة إن هؤلاء الناس يصيدون بحجر عصفورين .

ولو كنت أعلم هذه الطريقة لكنت استعملتها في أسفاري بين المدينة المنورة وسورية حينما كنت قائماً بوظيفة مد الخط البرقي الحجازي إذ أن رحال الأقطار الحجازية بين المدينة المنورة وسورية تؤلف من مخدتين بسيطتين مملوئتين بالقش مرتبطتين ببعضهما لا شيء من الخشب عليهما لهذا كان من الصعب نقل العواميد اللازمة للخط على هذه الرحال فاضطرنا الحال إلى أن نلتمس من ولاية سورية إسعافنا برحال مناسبة فبعثت بها إلينا من دمشق الشام بعد نفقات كبيرة وزمن طويل .

انتهينا من تحميل الصناديق والمتاع في الساعة الثامنة ووضعنا السُّروج التي حضرناها معنا من الآستانة على ظهر البغال ، وبعد قليل وصل (آتو مارشا) المتصرف (المدير) الذي كان عاد إلى المدينة ليلاً ومعه ولده (آتو بينا) وبعض مستخدمي المديرية وكوكبة من الجنود لوداعنا ، وقد كانت بغال المدير ومن معه مهيأة أيضا . أما السروج الموضوعة على البغال الحبشية فإنها تشبه سروج العثمانيين القديمة ، وإنما الركابات صغيرة جداً بحيث تسع رجل طفل صغير ، فعجبت من ذلك وصرت أنظر إلى الركاب مرة وإلى أرجل المدير ومن معه مرة أخرى ، ولا أعلم كيف تدخل هذه الأقدام الكبيرة في تلك الركابات الصغيرة ، ولما آن وقت الرحيل ركبنا وركب أيضاً المدير وسائر الأحباش فأرسلت نظري إلى أرجلهم فرأيتهم قد خلعوا الأحذية وألقوها إلى الخدم وأخذ كل منهم بوضع الإبهام في الركاب فقط ، والركوب من جهة

اليمين ، وقد علمت فيما بعد أن عادة الأحباش أن لا يضعوا في الركاب إلا الإبهام ، وأما سبب ركوبهم من جهة اليمين فهو أن الأحباش يتقلدون سيوفهم على اليمين ويشدونها بقطعة من جلد على أوساطهم شداً محكماً بحيث يكون السيف والجسم كأنهما قطعة واحدة ، وفي هذه الحالة لا يتمكن الرجل من الركوب من اليسار فيضطر إلى الركوب من اليمين ، وقد اعتادت بغالهم أن تُركب من يسارها حتى أننا لما هممنا بالركوب من اليمين استغربت ذلك وخافت فاضطررنا إلى أن ندعو الخدام لمسك أزمتها .

قمنا من دريدوه في الساعة الثانية وكنا قافلة مؤلفة من نحو خمسين رجلاً وأخذنا نسير على الطريق المرصوص (شوسه) الذي أنشأته شركة السكة الحديد ، وتمتد هذه الطريق إلى مسافة بضع ساعات من (دريدوه) وكان يمشي وراءنا كل من (آتو مارشا) وابنه وخادم واضع يده من وراء سيده محتضن له بيده مما يلي كفل البغل ، وكان أمامنا وخلفنا كثير من الجنود الحبشية سائرين من غير انتظام مكشوفي الرؤوس حفاة الأقدام يحملون بنادقهم على أكتافهم ، وكنا نصادف الأحباش في طريقنا فالمسلمون منهم يسلِّمون علينا حسب العادة المتبعة عند المسلمين ، وأما المسيحيون فإنهم يقفون على حافة الطريق ويضعون الرجل اليسار أمام الرجل اليمين ثم يضعون أيديهم الواحدة فوق الأخرى على صدرهم وينحنون حتى تحاذي رؤوسهم أفخاذهم وبهذه الصورة كانوا يؤدون السلام . وكان بين الرجال المارِّين كثير من النساء يحملن أحمالاً من الحطب أو الحشائش مربوطة على ظهورهن بجلد طويل وبأيديهن أوانٍ من الزجاج أو القرع وفيها الألبان أو العسل أو الزبدة وما أشبه ، وهؤلاء النسوة معفيات من أداء السلام لنا أو لغيرنا ، وكن ذاهبات إلى المدن لبيع ما بأيديهنّ حفايا عرايا وقد رثيت لحال هؤلاء النسوة ولا يستطيع إنسان أن لا يرقّ قلبه لهنّ لما هنّ عليه من التعاسة وما يتحملنه من المشاق والمتاعب وقد كان في صحبتنا رجل ألباني يسمى إبراهيم بكر أفندي من حاشية الإمبراطور منليك أقام في أديس أبابا بضع سنين وكثيراً ما ساح في هذه البلاد فأظهرت له أسفي مما تقاسيه النساء من المشاق فقال لي : نعم إن هذا هو الحال هنا وفوق كل ذلك تجبر المرأة على إعطاء ما تكسبه من الدراهم إلى زوجها أو إلى أبيها أو أخيها فيذهب هذا ويشتري قبل كل شيء قراطيس (خرطوش) للبندقية

ليطلقها في الهواء كلما أراد أن يسلّي نفسه وعلى هذه الصورة تذهب أتعاب هذه المرأة التعيسة في الهواء من غير أن تنتفع هي أو ينتفع هو مما اكتسبته بكد يمينها ، فتأمل !

وبعد أن تركنا المدينة وراءنا وعبرنا النهر الصغير الجاري إلى البلد طلبت إلى آتومارشا وابنه ومن معهما أن يعودا إلى المدينة ولكنهم لم يفعلوا بل رافقونا جميعاً إلى محل يبعد ساعة واحدة عن دريدوه وهناك ودّعونا وعادوا إلى المدينة بعد أن تركوا خمسة من الجنود الحبشية تحت أمرة (آتو يومرو) مأمور بوليس دريدوه ليرافقونا ، واستمر بنا السير داخل غابة كبيرة صاعدين بالتدريج إلى الأعلى والنساء المحملات تمر بنا ، وبعد أن سرنا على الطريق المرصوص (شوسه) ساعتين تركنا الطريق ودخلنا في السكة القديمة لنقتصر من السير ، وهذه السكة القديمة هي عبارة عن طريق ضيق ذي صعود وهبوط وكنا في أثناء سيرنا نرى على الأشجار التي هي من النوع السرو والسنديان كثيراً من أنواع الطيور مثل الحمام واليمام والطرغل والسمان والعصافير على اختلاف أجناسها ، وكثيراً من الطيور التي لا أعرف لها اسماً ولم أرها قط ، وقد استوقف نظري بصفة مخصوصة منظر شجرة شكلها يشبه جنس نبات من فصيلة الصبار (تين برشومي) يوجد بكثرة في جنائن الزهور بالآستانة أغصانه مخرمة تخريماً حلزونياً يشبه الأداة التي يفتح بها القناني (تيربون) ولكن هذه التي رأيتها هنا هي أضخم وجذعها أقوى وأكبر وتشبه جذع الحور وأغصانها من جنس أغصان الصبار ولكن ليست عريضة مثلها بل هي رفيعة طويلة ورؤوسها متجهة إلى السماء ، وليس لها زهر ولا ورق وحين يراها الإنسان لأول وهلة يحكم أنها شجرة مصنوعة بيد الإنسان من قطع الخشب ومدهونة بالدهان الأخضر . وسألت آتو يومرو عن اسم هذه الشجرة فأخبرني أنها تسمى بالحبشية (قول قوال) وأننا سنرى كثيراً من نوعها في طريقنا ، وقد علمت منه أن الإفرنج يستخرجون من عصارتها المادة المسماة (كاوتشوك) فإذا كسرت غصناً من أغصان هذه الشجرة ترى سائلاً لزجاً جداً يسيل بكثرة لونه أبيض كاللبن هو الكاوتشوك .

كنا في دريدوه على علو 1193 متراً عن سطح البحر فظننا وقتئذ أن الحر يبقى معتدلاً حتى نصل إلى أديس أبابا ولذلك سافرنا منها بالأكسية البيضاء ، ولكن لم نسر مسافة ثلاث ساعات حتى صرنا على علو 2193 متراً عن سطح البحر فأخذنا

نشعر بالبرد ، وبعد أن مررنا بعدة قرى حبشية صغيرة وصلنا إلى محل وجدنا فيه خيمة صغيرة لبائع يبيع ما عنده فنزلنا لنستريح قليلاً وننتظر وصول جمالنا ، وقبل الوصول إلى خيمة الرجل البائع كانت بغالنا تمشي مسرعة فيضطر جنود الأحباش المشاة المرافقون لنا إلى الجري معها فلما رأيت ذلك قلت لآتو يومرو إنما ترحم الجنود بتنقيص سرعة سيرنا ، فأجاب ضاحكاً إن هؤلاء قد اعتادوا أن يمشوا من الصبح إلى المساء دون أن يصيبهم تعب ، ثم التفت إلى رجاله وقال لهم يجب علينا أن نصل إلى الخيمة قبل وصول الوفد حتى نتمكن من تنظيفها فهلموا بنا نسرع بالسير ، قال ذلك وهمز بغلته التي أخذت تنهب الأرض نهباً ووراءها الجنود فكان يلتفت إليّ ويشير أن انظر إلى الجنود ، أما قلت لك إنهم معتادون على تحمل المشي السريع .

ولما وصلنا إلى الخيمة ونزلنا فيها أتى صاحبها بعدة صناديق من صناديق غاز البترول الفارغة ووضعهم أمامنا لتقوم مقام الكراسي والموائد ، وكان قرب الخيمة شجرة فجلسنا بينها وبين الخيمة وكان مكاننا مرتفعاً في الجبل ومشرفاً على ما دونه فأخذنا نسرّح الطرف في تلك الوهاد والفيافي والغابات والأنهار التي قطعناها ولولا وجود الأحباش حولي تخيلت أني في جبال سويسرا أو في جهة (ادابازاري) من آسيا الصغرى أو أني في الجبال والغابات التي بين طرابزون وأرضروم . وكان في الخيمة مع الرجل البائع امرأة جميلة ذات لطف فقامت هي والرجل وطحنت القهوة وقدماها لنا مع اللبن وشراب الرمان فجلسنا نتناول فطورنا وقهوتنا .

قلت إن المرأة طحنت القهوة ولم أقل أنها طبختها ، ولذلك سبب : أني كنت رأيت في جيبوتي (كما مرّ ذكره آنفاً) الأحجار التي يسحقون بها الحنطة وهنا أرى الآن الأحجار التي يسحق بها البن ، فإن سكان هذه البلاد يطحنون الحبوب بهذه الأحجار لعدم وجود الأرحية الكبيرة عندهم فتتألف طواحينهم من حجر مستدير أو مستطيل الشكل ومستوي السطح فتوضع الحبوب عليه ويؤتى بحجر آخر كالنشاب الخاص بفتح رقائق العجين ويضغط به على الحجر الأول ذهاباً وجيئة حتى يطحن ما عليه من الحبوب وكذلك الحال في سحق البن عندهم .

بعد أن مكثنا هنا ساعتين وتناولنا الفطور الذي كان فيه نوع من الحمام صدناه بالبندق استأنفنا السير في طريقنا ، وكنا كلما تدرجنا في الصعود على الجبل يزداد

أمامنا رواء الطبيعة ومناظر الغابات البديعة ونرى الأشجار الضخمة الكبيرة ، ولما انتهينا إلى قمة الجبل انتهت هناك الغابات وظهرت أمامنا أراض واسعة ممتدة على قدر ما يصل إليه النظر معمورة بالقرى والمزارع فعلمنا أن هذا الجبل الذي صعدناه ما كان إلا هضبة لهذه المروج العالية ، وقد تغيرت المناظر أمامنا فظننت أني في بلاد الروم يلي (تركية أوربا) أو أني في أحسن بقعة من الأناضول (آسيا الصغرى) بكثرة سكانها وزهو عمرانها .

والقرى في هذه الأراضي الواسعة متقاربة متماسكة الأطراف ومساكنها مبنية بانتظام وسكانها من نساء ورجال كبار وصغار منتشرون في الحقول والغيطان يشتغلون في زراعتهم والأطفال يجرون وراء الخرفان والماعز ويلعبون بصغار البهائم ، والماشية من البقر والغنم والمعز تسرح في تلك المروج الخضراء وترعى والحمام البري تطير أسرابه ألوفاً ألوفاً من حقل إلى حقل لالتقاط الحَبّ وقد اصطدنا منها بضعة عشر طائراً ، ورأينا الزرّاع يعزقون أراضي الذرة المرتفعة نحو نصف ذراع بمعازق من الخشب ، كما أن جميع سكان تلك البلاد الذين هم على جانب عظيم من النشاط والاجتهاد يستعملون من الخشب كل المعاول والأدوات اللازمة لحفر الأراضي حتى محاريثهم فإنها مصنوعة من الخشب ، ويشتغل الرجل وهو مكشوف الجسم لحد وسطه والمرأة تستر كل جسمها ما عدا صدرها ويديها إلى أكتافها .

أما سكان هذه البلاد فكلهم مسلمون من جنس الفاللا ويظهر أنهم مستفيدون من الثروة الطبيعية التي أنعم الله بها عليهم لأن آثار السعادة بادية على وجوههم .

وفي الساعة الثانية ونصف بعد الظهر وصلنا إلى نقطة تلاقي الطرق الذاهب أحدها إلى هرر والآخر إلى أديس أبابا فسلكنا الطريق الموصل إلى هرر لأننا كنا اكترينا الدواب والبغال إلى هرر فقط لكي نتمم بعض نقائصنا السفرية في المدينة المشار إليها ومنها نقصد عاصمة الحبشة عن طريق (جرجر) .

يوجد ثلاثة طرق مختلفة توصل إلى أديس أبابا وأحسن هذه الطرق في هذا الموسم هو طريق (جرجر) الآنف الذكر وإنما لا تسير الجمال علي هذا الطريق كثير الوعورة كثير الصعود والنزول ، أما الطريقان الآخران فإنهما شديدا الحرارة وماؤهما قليل جداً تنتاب طارقهما الحميات . وسنفرد فصلاً مخصوصاً للطرق في بلاد الحبشة

فيما يلي .

وقد كنا نرى أعمدة السلك البرقي إلى ملتقى الطرق من الحديد ولكن بعد نقطة ملتقى الطرق المذكورة أخذنا نراها من الخشب ، هذا وبعد قليل من السير أخذنا في الانحدار الخفيف حتى إذا بلغنا نهاية الانحدار ظهرت أمامنا بحيرة كالمرآة الصقيلة في غاية الجمال واللطافة ، هذه البحيرة هي بحيرة (هرمايا) وكنا كلما اقتربنا منها وظهرت لنا أطرافها يأخذ منظرها بمجامع قلوبنا ويحيط بهذه البحيرة من كل الجوانب أكمات خضراء كالزمرد ومياهها حلوة عذبة تجتمع من سيول الأمطار وطول هذه البحيرة كيلومتران ونصف تقريباً (2000 متر) وعرضها كيلو متر واحد وبها ألوف من الإوز والبط البري يقوم على وجه الماء ويطير من جهة إلى أخرى ، وكنا نرى أعشاشها على ساحل البحيرة بين الحشائش والنباتات وفيها صغارها ، وموقع هذه البحيرة يرتفع (2250 متراً عن سطح البحر لذلك أخذت درجة الحرارة تهبط وبرد الطقس بعد العصر ، وكان معنا شاب ألباني يسمى شوكت أفندي ذاهباً مع بكر إبراهيم أفندي إلى أديس أبابا فأطلق على أسراب البط والإوز بضع طلقات من بندقيته فكان يصيب في كل طلقة عدداً وافراً منها فتمكن من الوصول إلى بعضها في البحيرة ودخل غلام من قبيلة الفاللا وأتى بها من مسافة بعيدة عن الساحل وأطلقت أنا أيضاً بعض طلقات على هذه الطيور البرية فكان لنا منها عدد وافر ، والطير هنا لا يخاف من صوت البنادق لأنه لم يألفه قط . يطلق الإنسان عليها النار فلا تطير بل تكتفي بالتصويت وسبب ذلك عدم اصطياد الناس لها لرخص ثمن اللحوم وكثرتها ولغلاء ثمن قراطيس البارود ، وترى الحبشي يحرص على قراطيسه أشد الحرص فلا يرمي بها الطيور وإنما يرميهم الأجانب الذين يندر مرورهم من هذه الجهات .

يحفر الفالليون حفراً كبيرة في حقولهم بين الحفرة والأخرى مئات الأمتار فتملأ هذه الحفر بماء الأمطار فيسقي الفاللي ماشيته ويأخذ منها ما يلزم له من المياه .

وبعد قليل أقبل علينا بعض العثمانيين من أتراك وألبانيين وأكراد وهم من المقيمين في هرر وكانوا عالمين بخبر وصولنا فجاءونا ممتطين صهوات الخيول واستقبلونا بغاية الاحترام وقد علمنا من هؤلاء المستقبلين أن الحكومة المحلية في هرر تستعد لاستقبالنا استقبالاً باهراً وأن سكان المدينة الذين هم كلهم من المسلمين على غاية

من السرور بمجيئنا وأنهم سيخرجون لاستقبالنا بأجمعهم ، هذا وقد سرنا مع المستقبلين بضع ساعات ثم نزلنا للمبيت بسفح أكمة مرتفعة تشرف على نهر جارٍ ، وكانت الخيم والصواوين لم تصل بعد فاضطررنا أن ننتظر وصول البغال في العراء بردنا جداً من هبوب الريح الباردة وبعد وصول البغال أشعلت النيران في محل نزولنا وأخذ البعض منا يشتغل بتدفئة نفسه والبعض يهتم بتحضير الطعام ، ولما أقبل الليل نزل المطر منهمراً فزاد الرطوبة والبرد حتى عدنا في الغد إلى لبس القمصان الصوف والملابس الشتوية .

الوصول إلى هرر

يوم الثلاثاء 11 مايو / أيار

الوصول إلى هرر - الاستعداد للسفر - وصف هرر - من أين يشتق اسم القهوة - الخرز - شمسية بألوان قوس قزح - قصر رأس ماكونن - شعار من الذنب - صلاة الجمعة

لما استيقظنا هذا الصباح من النوم بادرنا بالاستعداد للسفر وبعد بضع دقائق كنا سائرين على الطريق على أني كنت متألماً من الروماتيزم الذي اشتدّ عليّ مساء البارحة من البرد وكثرة الرطوبة المتأتية من الأمطار ، ومع ذلك تحملت وتجلدت ، وكنت في أثناء السير أسرّح الطرف بتلك الأطراف والأكتاف وأستعلم عن أحوال المدينة من المستقبلين السائرين معنا وسأبين ذلك بعد وصولنا إلى هرر ، ولما اقتربنا من هرر ولم يبقَ بيننا وبينها سوى ساعة ونصف أخذ الناس المستقبلون يردون أفواجاً أفواجاً وبينهم كثير من أشراف مكة والمدينة ، ومن أهالي تركية آسيا والهنود ، ومن أهالي جزيرة العرب ، وكلهم يشتغلون بالتجارة هناك ، فكان جلّ هذا الجمع راكبين خيولهم وبعضهم مشاة على أقدامهم ، وكانوا يطلقون مسدساتهم وبنادقهم في الهواء ، والشبان منهم ينشدون الأناشيد الحماسية احتفالاً بالوفد ، وقد ضاق السهل على رحبه وسعته بالناس حتى خيِّل لي أنه لم يبقَ في المدينة سوى العجائز والأطفال

والنساء ، وكانت تلك الأفواج عند اقترابها منا تنزل عن خيولها للتسليم علينا فكنت أضطر في كل مرة إلى النزول عن الحصان للتسليم عليهم ، وبالجملة كان الاستقبال هنا حافلاً باهراً تظهر منه دلائل الحب والود لأن احتفال الناس هذا كان من تلقاء أنفسهم وكان بين المستقبلين مفتي هرر وقاضيها الشرعي وأئمة الجوامع والمساجد ، وقد سررت جداً باستقبال الهنود واحتفائهم بنا فإنهم كانوا يقدمون لنا المناديل الحريرية ذات الروائح العطرية وصحاف الورد والزهور المختلفة الأشكال ، ويرشّون علينا من كل جانب المياه المعطرة مثل ماء الملكة واللاوندا وما أشبه .

أخذنا نقترب من هرر بهذه الهيأة الحافلة والجمع الغفير وكنا كلما تقدمنا خمس عشرة دقيقة نرى كوكبة من الجنود الحبشية بقيادة ضابط حبشي وبعد أن يؤدوا التحية العسكرية للوفد السلطاني يلتحقون بنا ويسيرون معنا ، ولما صرنا على بعد ساعة واحدة من البلد وجدنا جنداً حبشياً يقربون من ألفين واقفين في سهل متسع لأداء التحية للوفد ، ولما اقتربنا منهم ترجّلنا وقصدنا الموظفين المأمورين باستقبالنا وقواد الجيش الواقفين أمام جنودهم ، فلما رأونا توجهوا هم أيضاً نحونا فالتقينا في وسط تلك الساحة المتّسعة ، وكان جماعة المستقبلين من قبل الحكومة مؤلفين من قينازماج جنمي وكيل رأس ماكونن وبالمبراس شتى نائبه الثاني وكثير من كبار المستخدمين ، وبعد السلام والتحية بلغني قينازماج جنمي أن الرأس ماكونن الموجود الآن في أديس أبابا أنابه قبل سفره باستقبال الوفد بدلاً عنه وأنه يهدي رئيس الوفد السلطاني وسائر أعضائه تحياته وسلامه ثم أخذ يعرفني برجال حاشيته والمستقبلين والموظفين الآتين معه ، وبعد الانتهاء من هذه الرسوم سرنا قاصدين المدينة ولما دخلناها من باب السور أخذوا يطلقون المدافع من الأبراج إيذاناً بقدوم الوفد ، وكانت الطرق مزدحمة ازدحاماً شديداً بالناس حتى خيل لي أن هذا اليوم هو يوم الحشر ، وكذلك أسطح الحوانيت والمنازل مملوءة بالنساء والأطفال وهم يرحبون بالوفد العثماني بالزغاريت (لولولولو) الواصل دويّها مع دوي المدافع إلى عنان السماء ، سرنا هكذا حتى وصلنا إلى قصر رأس ماكونن الكائن في بقعة مرتفعة تشرف على البلد كانت الحكومة خصصته لنزولنا فيه ، وهنا أعاد قينازماج جنمي وسائر المستقبلين ورجال الحكومة عبارات الترحيب وانصرفوا بعد أن عرفونا بالرجال الذين خصصوا لمرافقتنا

وخدمتنا وقبل ذهاب القينازماج أظهرت له رغبتي في مقابلة المدير النائب عن الحكومة في دار الحكومة فأجاب (إنكم الآن في تعب من مشاق الطريق فليكن هذا في يوم آخر) ، وبعد وصولنا بقليل وفد قنصل إنكلترا وفرنسا وإيطاليا للزيارة فأفادوني جداً بما يعلمونه من أحوال هذه الجهات ، وبعد ذهابهم جاء المهماندار (المصاحب الذي اختير لمرافقتي) وأخبرني أن قد جاء لمطبخنا من منزل رأس ماكونين ثور كبير وبعض خرفان وبضع سلال من العنب والموز فأمرت بهم جميعهم للجنود والخدمة المرافقين لنا من دريدوه فذبحوا الثور حالاً وسلخوه وجلسوا يأكلونه نيئاً وتكاد الروح لم تفارقه بعد وكنت أشاهدهم من النافذة فلما رأيت هذا المنظر قفلت راجعاً متعجباً مما رأيت .

أما المهماندار المخصص لمرافقتنا فإنه رجل من أعيان هرر يسمى سيد محمد النقيب وهو شاب مليح الوجه أديب مهذب نشيط ، ولما أخذنا نستعد للسفر إلى (أديس أبابا) فوّضنا إليه أمر ابتياع ما يلزم لنا من الزاد والمؤن وكراء البغال للأحمال والركوب وتقرر أن يكون القيام من هرر يوم السبت .

ومن عادات هذه البلاد إذا أراد الإنسان السفر من بلد إلى بلد أن ينوط الأمر برجل يسمى (نجادي) وهو الذي يوجد البغال اللازمة للسفر ، وإذا كانت البغال عائدة حديثاً من سفر بعيد لا يؤجرونها ثانياً ولا يسافرون بها إلا بعد أن يريحوها الراحة اللازمة ويتركونها ترعى في المراعي زمناً كافياً إذ أن البغال والخيل هنا لا تعطى شعيراً بل تقتات بالكلأ في السفر والإقامة .

ويجب على المسافر أن يأخذ معه غير أصحاب البغال (المكارين) طاهياً لمعالجة الطعام ومساعداً له وعدداً من الخدم لنقل الماء ولجمع الحطب اللازم وقت النزول ولنصب الخيام ورفعها ويجب أن يكون هؤلاء الخدام من الذين تعودوا الأسفار في صحبة السياح ، وكثيراً ما تحدث للسياح والمسافرين عوائق بسبب هؤلاء الناس فلا يتمكنون من تجهيز قافلتهم إلا في برهة 15 يوماً .

وكان قبل إنشاء السكة الحديد يستعد المسافر للسفر من الساحل ولكن الآن يستعدون لذلك في دريدوه أو في هرر وهذه الأخيرة هي أحسن لأنها مدينة كبيرة تجارية كما سنصفها في فصل مخصوص لأنها محطة لجميع القوافل الذاهبة والآتية

فإذا ورد على هذه المدينة سائح أو مندوب مثلنا يأتيه من يرغب أن يكون في خدمته أثناء سفره ويبرز له شهادة من الذي ساح معه قبل ذلك، ويطلق على هؤلاء الخدام (أسكري)، ويدل هذا الاسم على أنه محرف من كلمة (عسكري) ذلك لأنهم يكونون كالجنود طوع أوامر مخدومهم منذ يوم دخولهم في خدمته ولا يبالون باقتحام المهالك حتى الموت في سبيل طاعته وخدمته ويقومون بحراسته ليلاً بالمناوبة والمخدوم يعطيهم الأسلحة اللازمة لهم، والسياح الذين يقصدون الجهات القاصية من أفريقيا ذات المخاطر والمهالك لا يستغنون عن هؤلاء الأسكريين، ويمكن للإنسان أن يأخذ لخدمته العدد الذي يريده من هؤلاء والحكومة لا تمانع بذلك أبداً، ولنصف الآن مدينة هرر.

هرر

إن الإنسان الذي يقترب من هرر آتياً من الشمال أي من الطريق الذي أتينا منه لا يتأتى له رؤية المدينة بسبب وقوعها وراء أكمات هي أكثر ارتفاعاً من المدينة نفسها، والمدينة قائمة على أكمة من هذه الأكمات بيضاوية الشكل مستطيلة لذلك ترى منازلها مشرفة بعضها على بعض ويحيط بالمدينة سور قديم يجعل الدفاع عنها سهلاً والمنزل الذي تخصص لنا واقع في أعلى نقطة من المدينة فيشرف الناظر منه على أطراف المدينة وأكنافها لا سيّما إذا كان في الدور الأعلى حيث يظن نفسه أنه في البلاد العربية لما يرى أمامه من المنازل المشيدة من الحجر والطوب النيئ والسطوح المسطحة، وعليها النساء المعصبات رؤوسهن يشتغلن إما بتجفيف الحنطة وتنقيتها وجمعها أو بنشر الملابس المغسولة، وأكثرهن يستعملن الخمار الأحمر.

أما طرق المدينة فإنها غير منظمة وهي صاعدة هابطة ذات تعاريج وضيق، وذلك لأنها لم تخطط حين تأسيسها على أصول هندسية، لذا كانت ممراتها ضيقة جداً كما أنها في غاية من القذارة، ولكون هذه المدينة محاطة من كل جوانبها بالرياض الغناء والأكمات الخضراء فهي تشبه دمشق الشام أو تشبه قصراً كبيراً قائماً في وسط حديقة واسعة الأطراف، ويزرع في حدائقها من الفواكه قصب السكر والموز والبن

(القهوة) والعنب والليمون والبرتقال ، ومن الخضار القرع والخيار والباذنجان والقوطة والفاصولية وما أشبه ذلك ، ولكل منزل فناء (حوش أو ديار) واسع مكشوف وفيه الأشجار الباسقة التي تتجاوز بعلوها سطوح المنازل فتزين منظر البلد وتزيد في رونقها ، وسبب ضيق طرق هذه المدينة ما كنا نرى داخلها من أعلى منزلنا ولو لم نرَ بعض النساء على السطوح أو نسمع من حين إلى حين صوت الكلاب تنبح أو أصوات الجمال ترغوا لظننا أن هذا البلد خالٍ من السكان .

وبلغ سكان المدينة (40000) نسمة منهـا (35000) مسلمون وخمسة الآلاف الباقية هم خليط من الأحباش والإفرنج والأرمن والروم ، ويظن الإنسان لأول وهلة أن الحر في مدينة (هرر) شديد جداً لوقوعها قرب الدرجة العاشرة من العرض الشمالي لخط الاستواء ، ولكن ارتفاعها البالغ 1856 متراً عن سطح البحر والرياض والحقول المحيطة بها تجعل طقسها معتدلاً لطيفاً جداً ، وقد قال لي القناصل الذين هنا إن درجة الحرارة في هرر لا تتجاوز الستة والعشرين في موسم الصيف الذي يعتدل فيه الهواء لسقوط الأمطار الغزيرة ، وفي الشتاء يكون معتدلاً بواسطة حرارة الشمس ، وموسم المطر في هذه البلاد وفي سائر الأقطار الحبشية والسودانية هو في الصيف أما في الشتاء فإنه لا يسقط المطر ويبتدئ نزول الأمطار من مايس (مايو) وينتهي في أواخر سبتمبر (أيلول) ويبلغ سقوط المطر أشده في شهر يونيو (تموز) ويوليو(حزيران) وأغسطس ، وسبتمبر . واعتدال هذه البلاد مما يساعد على زرع البن (القهوة) في جوار وضواحي هرر وفي البلاد الحبشية الأخرى ، حتى أن الجهات الجنوبية الغربية من الحبشة خصوصاً في جهات بلاد (كافا) ينمو فيها شجر البن نمواً عجيباً بحيث يصير كالغياض والغابات الطبيعية ، ولعل الناس أخذوا اسم القهوة من اسم بلاد (كافا) الآنفة الذكر التي تنبت فيها أشجار البن في حالة طبيعية ، وتوجد أشجار البن في هرر وضواحيها بكثرة .

يمر من هرر نهير يسمى (ارر) وبعد أن يقطع مسافة ألف كيلو متر بأراضي الصومال وأوجاده يغور في الرمال قبل أن يصل إلى البحر . وتأتي النساء كل يوم أفواجاً أفواجاً من القرى والمزارع المجاورة لهرر بالحَبِّ والدجاج والعسل والزبدة ويجلسن في ساحة خاصّة للسوق ويبعن ما معهن من السلع ، والمأذون لها من وليها بصرف قسم من

الدراهم ترى من الواجب عليها أن تشتري قبل إيابها إلى القرية حلياً تزين بها نفسها وتجعلها محبوبة في عين الناظر إليها فتذهب بعد بيع سلعها إلى الصائغ وهو بائع الخرز فتقف أمامه وتأخذ في تقليب العقود والأساور والخواتم فتغير وتبدل وتلبس عقداً وتنزعه ثم تلبس خاتماً ثم تنزعه ثم أسورة كذلك وهكذا تبقى بين تردد واحتياط حتى يستقر رأيها على شيء ، وربما استشارت رفيقاتها عدة مرات وفي النهاية تنتخب أسورة مثلاً وتأخذ المرآة بيدها لترى نفسها فتطيل النظر في المرآة وبعد أن تبتسم عن أسنانها البيضاء تدفع الثمن وإذا لم يكن عندها مرآة فإنها تبتاع واحدة إذ من الضروري أن ترى نفسها هي أيضاً كما يراها الآخرون وهي بحليها ومصاغها . لذلك يروج الخرز (وهو مصنوع تقليداً للأحجار الكريمة) والمرايا رواجاً عظيماً في هذه الأقطار فعلب الخرز التي في أسواق هرر كل سنة يبلغ عددها (100,000) علبة في كل علبة (6000) خرزة والمرايا يبلغ عددها (300,000) وهذه الأصناف تأتي إلى الحبشة من تريستا وألمانيا . ومن الأصناف الرائجة في التجارة بعد الخرز الأقمشة الإفرنجية ، والأكثر رواجاً من هذه الأقمشة هي ذات اللون الأحمر والأزرق لأن نساء هرر يرغبن الأقمشة الملوّنة بهذين اللونين ويلبسن الكساوي المعمولة منها ، أما التجارة فإن القسم الأعظم منها في يد فرعي التاجرين الهنديين محمد علي وطبيب علي أكبر ، ومركز تجارة هذين التاجرين المسلمين هي في (بومباي) وتجارتهما واسعة ومحلهما كبير جداً ، ويوجد غير ذلك تجار من الأرمن والأروام والفرنسويين والطليان وغيرهم وكل هؤلاء التجار يعترفون بعدم استطاعتهم لمجاراة التاجرين الهنديين السابق ذكرهما في التجارة لأن معيشتهما المبنية على الزهد والقناعة تمكنهما من بيع سلعهما بأرخص ثمن وبأقل ربح ، وهذا مما لا يقدر عليه الأوروبي أبداً . وقد ابتعنا كل ما يلزم لقافلتنا من هذين التاجرين ، وتجارة الهنود في هذه الأقطار قديمة جداً ، والمصنوعات الأوروبية لم تأتِ إلى هذه البلاد بكثرة إلا بعد فتح ترعة السويس ، أما البضائع الهندية فإنها كنت تأتي إلى أفريقيا من قديم الزمان عن طريق زيلع قبل تأسيس ثغر جيبوتي ، ولما كنا في جيبوتي بحثنا عن أرز مصري لنبتاع منه فلم نجد له أثراً فيها فارتضينا بالأرز الهندي وهنا كذلك لم نجد الأرز المصري على أن المسافة بين مصر وبين جيبوتي ليست إلا بضعة أيام ، أليس بعجيب أن لا يرد إليها الأرز المصري ؟

يُرى من دور منزلنا الأعلى أكبر أسواق المدينة وهو ساحة متّسعة تزدحم كل يوم بالبائعين والمشترين ، والحوانيت الشبيهة بالأكواخ مبنية إما في وسط الساحة أو على أطرافها ويوجد بهذا السوق كل ما يوجد في المدن مثل الجمال والبغال والحمير والبقر والخراف والماعز والدجاج والذرة والبصل واللحم ، ويؤتى بكل هذه الأشياء من القرى المجاورة ، ويرى الناظر أمامه في السوق منظراً جميلاً بسبب شدة الازدحام وتنوع ملابس الناس المختلفة الأشكال فالأحباش عامّة يرتدون ثوباً يسمى (شما) مصنوعاً من القماش الأبيض ، والشما التي يرتدونها هي ثلاث قطع فالطرفان أبيضا اللون والأوسط أحمر اللون فيخيل لمن يرى الرجل في ردائه أنه علم يمشي أو شخص مرتدٍ بعلم ، وكثيراً ما يُرى بعض أكابر الأحباش وفي أيديهم أنواع من المظلات الغريبة الأشكال التي تليق أن تعلق فوق حوانيت بائعي الشمسيات لتقوم مقام إعلان أو دليل (يافته) على المحل ، فقد جرت العادة أن تكون الشمسيات ذات لون واحد أما هؤلاء فيحملون شمسيات ذات لون فضي زاوية من زوايا الشمسية القائمة قطعة بلون يخالف الآخر بحيث تصير التسمية جامعة لكل ألوان قوس قزح ، وهذه الشمسيات تصنع لهذه البلاد خاصة لأنها مقبولة ورائجة عند القوم والحبشي يحمل الشمسية لإظهار التأنق لا لاتقاء حرِّ الشمس لأن أغلب الأحباش رؤوسهم عارية ، وقد أخذ منذ مدة يتفشى لبس القبعة بين الأكابر من مسيحيي الأحباش .

يرى من هرر جبل يسمى (غوندور) يرتفع على سطح البحر 3200 متراً ، وكان قديماً يرسل محصول البن من هذه البلاد إلى (مخا) ومنها يُصَدَّر إلى الخارج فسمي البن باسم (موقا) وإلى يومنا هذا يباع في أوروبا تحت هذا الاسم ، ويظن الكثيرون أن (مخا) هي بلاد البن ومحل زرعه على أنه من محصولات هرر وضواحيها ، وقد قامت الآن عدن بدل (مخا) ومع ذلك فإن اسم موقا لم يزل إلى الآن يطلق على البن الآتي من هرر عن طريق عدن ، وقد كان رؤوف باشا أحد القواد المصريين احتل هرر وما يتبعها بالجنود التي كانت تحت إمرته عام 1875 وذلك بعد تفويض أمر إدارة ساحل البحر الأحمر الأفريقي للخديوية المصرية ، وفي أثناء فتنة المهدي سنة 1884 أخلى المصريون هرر من جنودهم وتركوا المدينة لرجل يسمى عبد الله كان أمير المدينة قبل احتلال المصريين لها ، فقام هذا المغرور ببضع مئات من البنادق كانت تحت إمرته

وأنزل العلم العثماني ورفع بدلاً عنه علماً خاصاً به ، وأوصله الجهل إلى أن تجرّأ وانتحل لنفسه لقب أمير المؤمنين وأمر بقراءة الخطبة باسمه ، ولم يكتفِ بذلك بل أرسل إلى منليك سجادة صلاة وكوزاً وطستاً للوضوء فدعاه إلى اعتناق الإسلام وهدده بالمسير إليه إذا لم يجب طلبه ، وأما منليك فقد بعث إليه يلاطفه بكلام لين ، ولكن عبد الله لم يصغ لأقواله فنشبت الحرب بينهما سنة 1887 فدارت الدائرة فيها على عبد الله فوقع هذا الغر أسيراً بين يدي منليك ودخلت هرر في قبضة إمبراطور الأحباش ولا تزال كذلك إلى الآن ، وأما عبد الله فإن الإمبراطور منليك رتّب له راتباً من الحكومة وأمره أن يقيم في هرر ، وهو الآن منزوٍ فيها لا يقدر على مقابلة الناس خجلاً وحياءً مما صدر منه من الهفوات التي أذهبت بلاده ، ولما كنت في هرر جاء أخوه لزيارتي ، وأما حكاية عبد الله هذه فقد سمعتها من الألبانيين والأكراد الذي كانوا أتوا لاستقبالنا وهم من الذين حضروا كل الوقائع التي حدثت وعلموا بالأمور من أولها إلى آخرها ، وهؤلاء كانوا ممن وفدوا على هرر مع المصريين عند ما احتلتها جنود رؤوف باشا وتزوّجوا بها وأقاموا فيها إلى اليوم .

وفي عام 1900 تفشّت الكوليرا في مدينة هرر تفشياً مريعاً فأبادت ثلثي سكان المدينة ، أما هرر في القديم فقد كانت تابعة للحبش فأتى المسلمون سنة 1521 ميلادية فافتتحت على أيديهم وبقيت مستقلة في إدارتها استقلالاً نوعياً حتى ورود المصريين واحتلالها لهم ، ولكن لسوء عمل عبد الله السابق الذكر وطمعه الأشعبي عادت فدخلت تحت السيادة الحبشية .

إن القصر الذي نزلنا فيه هنا وهو قصر الرأس ماكونن مشيد في أعلى نقطة من المدينة وليس بين أبنية المدينة ما يماثله في الفخامة والانتظام والمتانة ، وهو مبني من الحجر وذو ثلاثة أدوار ، فيه كثير من الغرف والبهوات والشرفات يضاهي في شكله طرز منازل الآستانة وأوربا ، وغرفه متسعة وأرضها مفروشة بنوع من المونة المتينة المسماة في سوريا (زريقة) وفي الحجاز (طابطاب) ونوافذه صغيرة بالنسبة لاتساع الغرف ، صنعت كذلك كي لا يكون النور الداخل الغرف زائداً عن اللزوم ، ولأجل منع نفوذ النور للغرف وضع على كل نافذة (تكعيبة) ثابتة من الخشب شبيهة بالستائر التيلية البيضاء التي توضع عادة في الآستانة لحجب أشعة الشمس عن

النوافذ والدكاكين ، وقد طليت الغرف من الداخل بالنقوش والألوان غير الزاهية ، وفرشت الغرف بالطنافس الشرقية ووضعت في بهو الاستقبال الكراسي ذات الأيدي والمتكآت والموائد ، وفي صدر الغرفة رسم الإمبراطور منليك نجاشي الحبشة مرفوعاً تحيط به الأعلام الحبشية ، وعلى أطراف القصر فضاء واسع مسوّر جُعل قسم منه حديقةً والقسم الآخر أي الجهة الأمامية تركت كفناء للقصر ، ويدخل الإنسان إلى الفناء من مدخل عمومي ويرى الداخل ذَنَب فيل معلق على قوس الباب وعلى طرفيه من الأعمال تمثالا أسدين مصنوعان من الجبس وقد علمنا أن الذنب الذي رأيناه هو ذنب فيل كان الرأس ماكونن قتله في الصيد ، والصيد في الحبشة من ملاهي الكبار والأعيان والرؤوس حتى النجاشي نفسه ، وإذا صاد أحدهم حيواناً من الحيوانات الوحشية يعلق ذنبه على باب منزله وتقام لتعليقه احتفالات ومآدب مخصوصة ، ومن يقتل أسداً أو نمراً يعلق شعر الحيوان على رأسه في الأيام الرسمية والتشريفات وفي المواسم والأعياد كعلامة شرف أو إكليل فخار ، ولا يحق لمن لم يقتل من هذه الحيوانات الكاسرة وضع شعر على رأسه وإذا وضع يتهم بارتكاب التزوير والغش والتدليس .

وفي الرابع عشر من مايس (مايو) أعدت الزيارة لقينازماج جنمي وكيلاً لرأس ماكونن ولجميع القناصل ، ومنزل القينازماج مبني من دورين ، وأما دور القناصل فمن دور واحد فقط وليس بينها وبين منازل آحاد الناس فرق من الخارج ، وإنما متى دخل إليها الإنسان يرى الانتظام التام والنظافة والترتيب ويكاد ينسى نفسه أنه موجود في هرر ، وقد رأى الوفد السلطاني من القناصل لا سيّما المستر جون القنصل الإنكليزي والموسيو جابريل جينوتي القنصل الفرنسوي واليوز باشي سترني القنصل الطلياني غاية الإكرام والاحترام وكرم الأخلاق ، وقد أرادوا أن يعدّوا المآدب للوفد ، ولكن اعتذرت لهم بضيق الوقت فقبلوا عذري وقد بينوا غير مرة إستعدادهم لمعاونة الوفد السلطاني بكل ما يقتضي له فكنا نشكرهم على عنايتهم هذه أحسن الشكر ، وكذلك جاءنا الموسيو قارره وكيل الموسيو شفنو الذي له المقام السامي لدى بلاط النجاشي منليك ، والحائز على شهرة عظيمة في البلاد الحبشية والموسيو آدولف ميشل وكيل الموسيو ايلج ومدير التلغراف في هرر وبلّغانا السلام من قبل موكليهم ثم

عرضا أنفسهما للقيام بخدمتنا حتى نصل إلى أديس أبابا ، ولكن بسبب استكمالنا معداتنا لم أرَ لزوماً لمساعدتهما فشكرتهما أيضاً على ما أظهراه من الميل لنا وكلفتهما إبلاغ شكرنا وامتناننا إلى موكليهما ، وقد زارني أيضاً الدكتور جان كوزما مراراً لما ألمّ بي من المرض أثناء وجودنا في هرر ، وبالجملة إن الوفد حيثما حل في رحلته هذه كان يرى بظل الحضرة السلطانية ضروب الاحتفاء والاحتفال والإكرام والاحترام .

يوجد في هرر عدة مساجد جامعة ، أدّينا صلاة الجمعة في الجامع الكبير منها الكائن أمام القصر فكانت أنظار المصلين كلها متجهة إلى أعضاء الوفد حين وجودنا في الجامع ، وقد تأثرت تأثراً شديداً حتى دمعت عيناي لما سمعت الخطيب وهو يدعو للحضرة السلطانية ويؤمّن على دعائه قدر ألفين من المؤمنين الموحدين ، نعم إن هذه العادة جارية في كل الممالك الإسلامية ولكن العثماني الصادق لا يملك نفسه من التأثر عند سماع ذاك الاسم الفخيم يذكر بالتبجيل والتعظيم في ممالك شاسعة يقطع إليها الفيافي ويجوز البحار وهي غير مطروقة بالعثمانيين ، هذا وقد سمعت المصلين بينما هم يخرجون من المسجد بعد الصلاة يدعون أيضاً بحفظ صاحب الخلافة وبتوفيقه ، ومن هذا يظهر أن قلوب الموحدين أينما كانوا بعدوا أو قربوا مرتبطة بذاك المقام الأسمى ارتباطاً متيناً أساسه الدين ، فما أعظم هذه الرابطة وما أسمى هذا الدين الذي يجعل المؤمنين كلهم كجسم واحد .

السفر من هرر

السبت 15 مايو / أيار

المرافعة - رحل من البضائع - البغال الحبشية - القيام من هرر - عدد أفراد القافلة - الخدمات السفرية - صواويننا - دوراو - الحاج يوسف طباخنا - خبز سهل - الطعام مخفياً

كان أصحاب البغال الذين اكتريناهم يأتون كل يوم لمنزلنا ويرون الطرود واحداً واحداً ويزنون بأيديهم ثقلها فإذا وجدوا طرداً ثقيلاً أو تخيّل لهم أنه ثقيل عزلوه عن

باقي الطرود بحجة أن البغال لا تقدر على حمله فكنا نجاريهم على رأيهم فننقص من الأشياء الموجودة ضمن الطرود ، وفي هذا اليوم وهو يوم السفر أتى أصحاب البغال من غير بغالهم فأنزلوا كل الطرود ووضعوها في الفناء ، ولما كان أصحاب البغال عدّة أشخاص أراد كل منهم أن يأخذ الأخف من الطرود والصناديق ليحمله على بغله ، فلم يمضِ بضع دقائق حتى قامت قيامة هؤلاء المكارين واشتبك بينهم الخصام وعلا الصراخ والصياح دون أن يسمع بعضهم ما يقوله الآخرون ، وما كنت أفقه ما يقولون لعدم معرفتي باللغة الحبشية ولكن كنت أسال من المهماندار عن سبب هذا الخصام ، وكان معهم رئيسهم المسمى (بنجادي) فلم يستطع إسكاتهم ، وكيف يستطيع ذلك وأصواتهم العالية قد بلغت عنان السماء؟ فلما رأيت ذلك عيل صبري فأرسلت إلى القينازماج جنمي وأخبرته بالواقع فأرسل من قبله رجلاً يسمى (آتو جماناخ) ، فلم يكد هذا المأمور يضع رجله في الفناء حتى انقطعت الأصوات وخمدت الأنفاس ، فجاءني الآتو وبلغني سلام قينازماج جنمي ثم أخذ برؤية الطرود وتقدير ثقلها بيده وبعد أن أتم عمله صعد على أضخم طرد وأعلاه ووضع رجله اليمنى على اليسرى وأمال قبعته إلى الأمام وصار ينظر إلى المكارين بوجه عبوس يظهر منه الغضب فنظرت إلى أولئك المكارين فرأيتهم صامتين ساكتين لا يبدون حراكاً كأنما على رؤوسهم الطير ، وبسؤالي عن سر ذلك علمت أن رسول قينازماج جنمي تقلد بهذه الهيأة صفته الرسمية وأن المكارين قائمون الآن أمام المحكمة ، أما هؤلاء فإنهم لما رأوا أنفسهم أمام الحاكم أنكروا أن كلاً منهم يريد أخذ الأخف من الطرود ليحمله على بغله وادّعوا أن بعض الصناديق لا يمكن تحميلها على البغال ، على أنهم كانوا كل يوم يأتون ويرون الصناديق أمام المهماندار الذي ساوموه على ما سبق ذكره ودفعنا لهم الأجرة كلها مقدماً ، وبناءً على ادعائهم هذا صارت الدعوى بينهم وبين المهماندار فوقف النجادي والمهماندار أمام الآتو الواحد بصفة مدعي والآخر بصفة مدعى عليه ، فصرّح النجادي أنه يقدم قدرة عسل رسماً للقضية أما المهماندار الذي كان عالماً أن الحق من جانبه والحكم له زاد في قيمة الرسم إلى بغل واحد فلم يستطع النجادي الزيادة عليه لأن العادة أن من يحكم عليه يجبر على دفع قيمة الرسم ، أما نحن فإنا كنا واقفين نتفرج على هذه الرواية المضحكة ولا نفهم ما يقال فيها وقد علمنا من

التـرجـمـان أن النجـادي يدّعي إن بعض الصناديق ثقـيلة جـداً وإنه لـم يرها بين الصناديق من قبل أي لما ساومنا على الأجرة ودحض المهماندار ادعاء النجادي وأثبت ذلك بشهادة خدمة القصر .

وكانت المرافعة تجري في غاية الغرابة فكان المدعي عندما يسرد أدلته يتكلم مشيراً بيديه متقدماً مرة إلى الأمام متأخراً أخرى إلى الوراء ويأتي بحركات عجيبة كأنه على مرسح تشخيص ، يرفع تارة يديه إلى السماء وطوراً يمدها إلى الأمام ويرغي ويزبد بصوت عالٍ أو بعبارة أخرى بصراخ عظيم ، كل ذلك لإظهار بلاغته وفصاحته التي ستوصله إلى إثبات مدعاه على زعمه ، أما المدعى عليه فيمكث ساكتاً صامتاً طول هذه المدة فلا يحرك ساكناً ولا ينبس ببنت شفة ، وحين ينتهي المدعي من كلامه يبدأ المدعى عليه فيدافع كما فعل الأول الذي يلزم جانب الصمت طول مدة كلام المدعى عليه ، ولما تم إيراد أدلة المدعى عليه سمع الآتو الشهود وأتبعه بإصدار الحكم لصالحنا أي أن جميع الصناديق والطرود يمكن تحميلها على البغال ، ولما صدر هذا الحكم خرَّ النجادي ساجداً أمام الآتو ولم يفه بكلمة وقد كان قبل صدور الحكم كمن مسّه الشيطان من الحدة والغضب . وعقب ذلك قام أصحاب البغال وتقاسموا المتاع والصناديق بعد أن عدّلوا بين الثقيل والخفيف وبعض الطرود الصغيرة وذهبوا ليأتوا ببغالهم ، وبقي الآتو معنا حتى ساعة سفرنا ، وهنا يجب أن أقول بضع كلمات فيما علمته في شأن رسوم القضايا التي تؤخذ في هذه البلاد :

إن الرجل الذي يريد إقامة دعوى على آخر يهدده قبل الدخول بالدعوى بأنه سيقدم رسماً للقضية كذا درهماً أو كذا شيئاً لأنه إذا صدر الحكم فيما بعد لصالح المدعي فإن المحكوم عليه ربما يضطر أن يدفع أضعاف ثمن الشيء الذي تسبب عنه رفع الدعوى ، فعلى المدعى عليه أن يقبل هذا الرسم ويزيد عليه إذا رأى الحق من جانبه حتى يصل الرسم في بعض الأحيان إلى مبلغ عظيم ، فالذي يحكم عليه من المتقاضيين يضطر أن يدفع المبلغ المعين الذي تعهد بإعطائه .

بعد بضع دقائق وردت البغال فأخذ المكارون يحملون الأحمال ، وبغالهم ليس لها نعال ولا أرسن ، وقد وضع على ظهر كل بغل من الأمام ما يشبه رحلاً صغيراً مصنوعاً من الجلد مربوطاً بقطعة من الخشب على رسم 8 وقد وضعوا فوق هذا الرحل

العجيب الشكل ثوبين من البفتة ملفوفين لفاً طولياً ثم ملفوف فوقهما الخيش فيصير من هاتين اللفافتين رحل كبير وأما البفتة التي تستعمل لهذا الرحل فإن المكارين يشترونها لينتفعوا بها في الرحل ثم يبيعونها في أديس أبابا بثمن أغلى مما اشتروها به وبذلك يربحون من جهتين ، ويحملون على البغل كل اثنين من الطرود الصغيرة بوضع واحد كبير يقابله من الجهة الأخرى كالعادة المتبعة عند مكاري بلادنا ، وأما الأحمال الثقيلة والصناديق الكبيرة فإنهم يضعون الواحد منها على ظهر البغل كما يضعون الطرد على الأرض ويأتون بسيور من الجلد رفيعة طويلة غير مدبوغة فيلفونها على الصندوق وبطن البغل عدة لفات ثم يأتي اثنان من المكارين فيمسك كل منهما بطرف السير واضعاً رجله الواحدة على الأرض والأخرى على بطن البغل ويشدان السيور بكل قوتهما حتى يصغر بطن البغل المسكين وتلتصق السيور ويبرز جلده من خلال السيور بحيث لا تعود ترى تلك السيور ويصبح الحمل وجسم الحيوان كأنهما قطعة واحدة ، وقد اعتادت البغال مع التمادي على هذا العذاب وتكون في مكان السيور من جسمها طبقة خشنة ربما تقيه ولو قليلاً من هذه الآلام ، وكلما كانوا يحملون بغلاً يتركونه وشأنه ويذهبون لتحميل آخر فينام الأول ويتمرغ على الأرض ويقوم ويمشي ويرعى والحمل على ظهره لا يتزحزح من محله لأنه أضحى هو والبغل قطعة واحدة ، كما قلنا آنفاً . وفي الساعة الواحدة بعد الظهر انتهى تحميل البغال فقمنا مع القافلة من هرر وأرسلت الحكومة معنا نفراً من الجند تحت قيادة صف ضابط (جاويش) ومشى معنا القينازماج وسائر المأمورين لوداعنا .

وبعد سير ساعتين نزلت القافلة على سفح أكمة تسمى (قارصة) وكان معنا وقتئذ البغال المأخوذة احتياطاً ما عدا بغال الركوب وبغال الأحمال ، فبلغ عدد جميع بغال القافلة نحو أربعين بغلاً ، ولما نزلنا واسترحنا ضبطت عدد وأسماء النفوس الموجودة بالقافلة .

وها هي الأسماء أوردها هنا نموذجاً للأسماء الحبشية :

أعضاء الوفد

أنا ، البكباشي طالب بك ، الجاويش ياسين أفندي ، إبراهيم بكر أفندي ، شوكت أفندي .

الجنود الحبشية : أبو بكر (جاويش) ، عمر ، عثمان ، حسين ، أتمي (جنود) .

البغّالة : عيالـلا ، لممـا ، بوقولـلا ، شـفـاو ، بلاي ، آديس ، حيلو ، بوتفاس ، اغا ، بواط ، عيالـلا ، قبر مريم ، غوشو ، زكارترادا ، كزمو .

الأسكريين (الخدمة) :الحاج يوسف (طاهي) ، جمعه ، أحمد ، محمد ، محمد ، عبد الرحمن ، علامو ، محمد ، غرادو ، نورو ، دوغوبا ، واق غيرا ، بشرا ، علامو ، عبد الرحمن (مارمطون الطاهي) .

وقد انضم إلى قافلتنا بعض الفقراء من أهالي البلاد بكفالة الخدمة للذهاب إلى أديس أبابا من غير أن يكلفهم ذلك شيئاً من الدراهم فبلغ عدد القافلة 40 شخصاً و40 بغلاً ، ولما وضعت القافلة رحالها أخذ الخَدَمَةُ يؤدون وظائفهم فالبعض منهم كان يشتغل بنصب الخيم والبعض بوضع الصناديق والأحمال ضمن الصواوين وترتيبها والبعض ذهب ليحتطب والبعض اشتغل بنقل الماء إلى المطبخ .

ونقل الماء والحطب هي خدمة ذات أهمية في القوافل التي تسير في هذه الفيافي ، لأن القوافل مضطرة أن تنزل على بعد 800 متر من الينابيع أو الأنهار ابتعاداً عن أذى الحيوانات المفترسة كالأسد والنمر والذئب التي ترد على الماء ليلاً ، أما الحطب فإنه لازم جداً لطرد الحيوانات بإشعاله ليلاً على أطراف القافلة فلا تقرب من محل نزولها ، ويقوم الجنود والخدمة بالمناوبة بحراسة القافلة وبإيقاد النيران على أطرافها فتخافها الحيوانات الوحشية فتهرب منها ولولا ذلك لهاجمتنا الحيوانات المفترسة وأتلفت كثيراً من البغال والبهائم التي ترعى قربنا .

إن رحلتي هذه أكتبها بطريقة يمكن للسائح في تلك البلاد اتخاذها كدليل له لذلك أرى من الواجب أن أصف مساكننا في هذه القفار فأقول :

إن مساكننا هي خيم وصواوين ، عند نزول القافلة في محل تنصب خيمتي دائماً في وسط القافلة وتنصب على أطرافها باقي الخيم ، وقد كنت اشتريت صيواناً كبيراً ذا عمودين حتى أتمكن من استقبال الزوار الذين يفدون عليّ ويمكن جعل قسم منه غرفة للنوم بحاجز من نفس قماش الصيوان ، ولكون ذيول الصيوان الأربعة مربوطة به بواسطة نوع من العرى والأزرار الكبيرة أي أنها ليست مخيطة ، فيمكن للإنسان أن يقفل الجهة التي يريد سدها بالنسبة لاستقامة أشعة الشمس والأمطار أو الأرياح ، والقسم الأمامي منه يكون مفتوحاً دائماً ويرفع بواسطة عمودين صغيرين ليمنع أشعة الشمس من النفوذ إلى داخل الصيوان ، أما الداخل فإنه مفروش ببسط من صنع تركية آسيا ، ولا بدّ للمسافر في هذه البلاد من فرش البسط والطنافس داخل خيمته لدفع الرطوبة المتصاعدة من النباتات والحشائش ولاتقاء أضرار الهوام والحشرات المؤذية ، ويوجد ما عدا ذلك بضعة كراسٍ يمكن فتحها وإقفالها ليسهل نقلها ومائدة (تره بيزا) من جنس الكراسي وثلاثة كراسي من التيل المستعملة للجلوس في البواخر وحقائبنا المصنوعة من الجلد ذات غطاء تيلي ، ولا بدّ للسائح في هذه البلاد من صناديق وحقائب وأربطة تلف بها الفرش ضمنها لا ينفذ منها الماء ، إذ أن الأمطار في البلاد الحبشية تسقط بكثرة عظيمة ، وأما سكان البلاد فإنهم يحافظون على متاعهم بوضع جلود الحيوانات الكبيرة عليها ، هذا ويوجد في الصيوان غير ما ذكر في القسم المعد للنوم سرير خفيف الحمل مصنوع على هذا الشكل x يفتح ويغلق ليسهل حمله معنا ومائدة (طاولة) صغيرة وحقائب الملابس وما أشبه ، ويعلق الملابس والأسلحة والحقائب الصغيرة في المسامير الموجودة على عمدان الصواوين ، وأما صناديق الزاد والذخائر فإنها مستورة بطبقة من الزنكو لحفظ ما في داخلها من وصول الماء إليها .

بينما كنت مشتغلاً بكتابة وصف مساكننا إذ رأيت نساءً ورجالاً من الأحباش مقبلين على محلتنا يحملون على رؤوسهم سلالاً وأوعية حتى إذا بلغوا المحلة استقبلهم أبو بكر وأتى بهم إليّ ولما دخلوا الصيوان أدى الرجل الذي كان ماشياً أمام الجميع السلام بإحناء رأسه إلى الأرض فقال لي أبو بكر أن هذا الرجل شوم (عمدة القرى الكائنة قرب محل نزول القافلة ، وأنه أحضر (الدورغو) فقلت لأبي بكر وما هو الدورغو ، ولمن أتى به؟ فأجاب إن العادة في الحبشة أن يقوم الأهالي لتقديم ما يلزم من الزاد والذخائر لجنود وضيوف الإمبراطور عند مرورهم على كل بلد من بلادهم ، ولكونكم أنتم خير ضيوف النجاشي فقد أرسلت السعاة لكل الجهات لإخبار الأهالي بقدومكم ليؤدوا الواجب عليهم في مثل هذه الأحوال ، فقلت له : إننا والحمد لله في غنى عن ذلك لا سيّما وأن لدينا من الزاد والمؤن ما يكفينا ذهاباً وإياباً ثم امتنعت عن قبول الدورغو ، فقال أبو بكر : إن كل ما يأتي به الأهالي ليس هو تكرماً منهم بل إن كل ما يقدمونه لضيوف النجاشي يحتسبونه من أصل الضرائب التي يؤدونها للحكومة إذن الدورغو هو من أموال النجاشي والحكومة فلا يليق والحالة هذه رد إكرام الإمبراطور . فاضطررت حينئذ لقبول الدورغو ، وكان أبو بكر يتكلم معي وعيناه ترمق الدجاج وسلال المؤن والمأكولات الموجودة على رؤوس النساء والرجال ، ولما أفهم أبو بكر الشوم أنني قبلت الدورغو انحنى هذا أمامي فأخذ يقول (ازكرا اصطلي دهناي اصطلي دجنو) وقد فهمت من حركاته وكيفية كلامه بأنه يشكرني على قبول الدورغو ، واستلم أبو بكر السلال من الأحباش فأرسلنا قسماً منها إلى المطبخ والباقي فرقناه على الجنود والخدمة ، وأما الدورغو فإنه كان عبارة عن دجاج ونوع من الخبز المصنوع من حبوب رفيعة تسمى (دف) ومن البيض والعسل والسمن وكلها موضوعة ضمن سلال مستورة بأقمشة حمراء ، ولهم رسوم وعادات غريبة يجرونها عند تسليم الدورغو ، ولم أستطع أكل خبزهم لأنهم لا يضعون فيه ملحاً ، لذلك رجحت أكل البيسكوت الموجود معنا ، وأما الجنود والخدمة فإنهم أوقدوا ناراً وجلسوا على أطرافها فأكلوا الدورغو كله في أقل من ساعة فكان يكفيهم بضع دقائق لتجريد الدجاجة من ريشها وإدنائها من النار لحرق ما بقي على جسمها من الريش الصغير ثم أكلها والتهامها التهاماً ، وكان الحاج يوسف الطاهي أشد شرهاً أقوى معدةً من الجميع إذ

يأكل الشحم المستخرج من جوف الخاروف نيئاً كأنه يأكل الحلواء مع أنه أي الحاج يوسف كان سبق له السفر مراراً إلى داخل أفريقيا مع بعض السياح ورأى آثار الترقي والمدنية حتى صار يعبر بلفظة (الاكوكا) عن البيض البرشت (المسلوق) و (كوتلاتا) عن اللحم المشوي (ماقارونيا) عن المكارونا وغير ذلك من اصطلاحات المطابخ ، ولكن معدته التي ليس لها استعداد لقبول التمدن لم تقدر على ترك أكل اللحوم والشحوم النيئة .

هذا وكانت الأشغال آخذة في الاستمرار بعد نزول القافلة وكنت ترى بعض المكارين يشتغلون بتلميع جلود الأخشاب التي توضع على ظهور البغال بنوع من الحجر الطري ثم يطليها بالزيت حتى تستكسب شيئاً من اللذوقة ، والبعض منهم يخبز ، والبعض يحفر الخنادق على أطراف الخيم منعاً لدخول المياه إليها ليلاً ، أما خبزهم فإنه في غاية البساطة والسهولة فلا يعرفون تجهيز العجين وتخميره ولا يجعلونه قطعاً مستديرة بل يأخذ القائم بالخبز مقداراً من دقيق الدف السابق ذكره من كشكول ويضعها في قصعة خشبية أو غير خشبية ثم يضع الماء على هذا الدقيق بيد ويخلطه أو يعجنه مع الماء باليد الأخرى حتى يصير الدقيق كعجين الكنافة والقطائف وبعد ذلك يأخذ من هذا السائل مقداراً بيده ويلقيه على الصاج (الصاج قطعة كبيرة من الحديد مستديرة محدبة توضع على النار فتحمى ويشوى عليها الخبز) الموضوع على نار حامية ثم يجعل يطلي الصاج طلياً حتى لا يتجمع الدقيق السائل في وسط الصاج وهكذا يخبز خبزاً غليظاً بقدر قطع القطائف ذا مسام كثيرة وإذا لصق وجه العجين على الصاج يدخل الخابز عوداً من الشجر بين الرغيف والصاج ويرفع الوجه الملصوق ويقلبه على الوجه الآخر ، وعلى هذا المنوال لا يمضي قليل من الزمن إلا ويكون تحصل على كثير من الخبز من غير عناء ، والآن أصف لك كيف يأكل المكارون طعامهم :

يضعون أمامهم طعامهم وجلّه من الفلفل الأحمر ويجلسون القرفصاء حول هذه المائدة ويضعون عليهم العباءة أو الرداء الكبير المسمى (شحماً) حتى لا يراهم أحد ، ويأكلون بكل سكون وهدوء من غير أن يسمع لهم صوت مستترين تحت هذا الغطاء ، ولو لم أرهم بعيني وهم يستعدون للطعام لما كنت علمت أنهم يتناولون طعامهم ،

وكيف يتسنى لي أن أعلم ذلك وليس أمامي سوى غطاء كبير تحته أشباح تتحرك كأنهم حواة يقومون ببعض الألعاب الغريبة ، ولما سألت عن سبب ذلك قيل لي أن الأحباش يأكلون طعامهم تحت ستار حتى لا تراهم عين فيصيبهم مصيبة من جراء ذلك ، وكنت أرى الخادم عندما يقدم لي شيئاً مثل القهوة أو الماء أو الطعام يخفيها تحت ذيله حتى لا يراها أحد كأنه مال مسروق وعندما أتناولها ينشر رداءه أمامي منعاً لرؤية الغير .

ولما سئمت من تكرار هذا الأمر قلت للخادم يوماً إن العين لا تصيبني لأني أحمل في جيبي حجاباً ، وأن نظّارتي تقوم مقام الخرزة الزرقاء ، وأن بعض المشايخ كان قرأ عليّ رقية تحميني من إصابة العين ، فاقتنع حينئذ أني لا آختنق عند الأكل والشرب ومن ثم أصبحت حراً في أن آكل وأشرب دون أن أتستر بذلك الستر هذا مع طلب أولئك الخدام والجنود الأحباش أن نأكل ولو داخل الصيوان إن لم يكن تحت الستر مع أن تناول الطعام في تلك الحقول الزاهرة والبرية الواسعة في ذلك الطقس الجميل والهواء المعتدل البليل يزيد الإنسان نشاطاً ويفعم قلبه سروراً ويعطيه صحة وعافية ، فما أغرب عادات أولئك الناس ، وما أقبح بالعقل الاستسلام لمثل تلك الأوهام .

وبعد الفراغ من تناول الطعام أخذت الحركة في القافلة تقلّ شيئاً فشيئاً حتى نام الجميع ما عدا الديدبان (الخفراء) القائمين بحراسة القافلة وإيقاد النيران حولها ، وكنت كلما استيقظت أنهض لأتحقق بنفسي إن كان الحراس قائمين بواجباتهم أم لا .

مرحلة قارحة

يوم الأحد 16 مايو / أيار

بيو بيو بيو !. المطر الشديد في الطريق. رداء لاتقاء المطر عند الأحباش. زيارة الحيوانات الكاسرة ليلاً

ولما أصبح الصباح أخذ الرجال في نزع الصواوين وجمع الحقائب والصناديق

استعداداً للرحيل ، أما أنا فاجتمعت مع بعض رفاقي وذهبت إلى المطبخ وجلسنا إلى النار لشرب القهوة وتناول قليل من مرق اللحم ، وكان الطاهي مشغولاً بوضع آنية المطبخ في الصناديق ، وكانت بقية من الحساء (الشوربا) باقية في القدر فأراد الطاهي صبّها على الأرض فتقدم إليه أحد الخدم وأخذ منه القدر وصبّه في وعاء من القرع يستعملونه لحمل الماء بدل الجرة فالتفت عليه الخدم والجنود وأخذوا يشربون الماء من القرع كل واحد بدوره وهم يرقصون ويغنون ويضحكون حتى نفد ما في القرع .

إن الصغير في هؤلاء الخدام لا يقل عمره عن 19 سنة ومع هذا فهم كالأطفال ليس في قلوبهم أثر للغم ولا يزالون في ضحك ولعب بحيث لا يتركون من وقتهم ساعة تمر بدون إيجادهم سبباً للهزل ، وفي الساعة السابعة والنصف أتموا تحميل الأثقال وسارت القافلة قبيل الساعة الثامنة . ومن عادات المكارين هنا أن لا يركبوا بل يمشون ويحملون أيضاً شيئاً في أيديهم من متاع المسافرين أو السياح ، والناس المعروفون مثلنا لا يحملون أسلحتهم بل يحملها الخدام لهذا كان خدامنا يمشون أمامنا وواحد يحمل السيف والآخر يحمل البندقية وغيرهم يحملون الماء والكؤوس والآنية التي يحفظ فيها طعام المسافر الذي يحتاج إليه في الطريق (مطبقية) . وحامل السلاح يمشي قرب سيده ، فإذا لاح له شيء من الطير أو غيره مما يصاد من الحيوانات يقدم له البندقية في الحال ، فإذا أصاب طيراً أو غيره يهرع الخادم إليه هو والشبان المكارين فيأتون به .

هذا ومن لم يجد منهم شيئاً يأتي عمود الخيمة ويرفعه على كتفه ويعلق في رأسه كوز الماء ويسير كأنه حامل علماً والقصد من ذلك أن يعوّد نفسه على حمل الأثقال ويخفف جانباً من الحمل عن بغله .

وكانت الأراضي والحقول التي كنا نمر منها في غاية الخصوبة وقوة الإنبات وكذلك الضياع والمزارع التي كنا نراها بكثرة تدل على نمو العمران كما هو الحال في كل أراضي هرر .

وفي الساعة 11 والدقيقة 54 نزلنا تحت شجرة عظيمة وارفة الظل تشبه شجر الجوز وقشورها تشبه قشوره ، ولورقه رائحة كرائحة ورق الجوز لذلك حكمنا على أن هذه الشجرة هي شجرة جوز بريّة ، وكان عليها وعلى غيرها من الأشجار كثير من الطيور

كالعصفور الأصفر المسمى (كاناريا) والبلبل والشحرور وكلها تغرد بأصواتها الجميلة كما أننا سمعنا صوت طير غريب لم نسمع قط صوته قبلاً وكان يشبه نغم البيانو، ولم نرَ هذا الطير نفسه لأنه كان مستتراً بأغصان الشجرة الكثيفة وإنما بالنظر لصوته الذي كان يصل إلى مسامعنا كأنه يقول (بيو بيو بيو بيو) سميناه طير (بيو بيو).

بقينا في هذا المحل نستريح إلى الساعة الواحدة بعد الظهر ثم رحلنا بالبغال الحاملة للأثقال والصناديق تركناها وراءنا بالنظر لبطء سيرها وسرنا ومعنا الخدم والجنود فمرَّت البغال المذكورة بنا ونحن جلوس تحت الشجرة السابقة الذكر، وعزمنا أن نفعل هكذا من الآن وصاعداً.

وبينما نحن سائرون في هذه الجهات غيَّمت السماء ثم أخذ المطر يسحّ مدراراً ويكاد البرق يخطف الأبصارَ والرعد يصم الآذان ولم يلحق بنا ضرر من المطر لأن أكسيتنا مستعدة لمثل ذلك، ورأيت الخدام والعساكر تسيل مياه المطر من أطرافهم، فقلت لأحدهم أخشى أن تمرضوا من الرطوبة فأجابوا وهم يبتسمون إننا نبتل بالماء خمس مرات في اليوم وننشف خمس مرات إننا تعودنا هذا الحال، ينزل المطر فتبتل ملابسنا ثم تطلع الشمس فتنشفها، وصحيح ما قاله فإن المطر يأتي في هذه البلاد فجأة وينزل بشدة غريبة وبعد نصف ساعة من الزمن تنقشع السحب وتظهر الغزالة ومع ذلك كنا نرى بين المسافرين الأحباش من يستعدون بملابس خصوصية للمطر فالبعض يلبسون جوخاً ولباداً والبعض يلبسون مشمعاً والبعض واضع على رأسه الكوكولانه والبعض على رأسه وظهره جلد نمر أما الكساء المصنوع لديهم من اللباد فلا يشبه ما نستعمله نحن في بلادنا بل هو أشبه بشكل مخروطي كبير له شقٌّ يمر من الرأس في الأوقات غير الممطرة ويرفع قسم هذا الشق إلى الوراء ويكون كرأسية المشمع وعند نزول المطر تلبس هذه الرأسية في الرأس وينزل الشق أمام الوجه.

وأما الأكسية المصنوعة من الجوخ أو القماش الذي لا ينفذ منه الماء فهي أحسن انتظاماً من الأولى المار ذكرها ويلبسها الأكابر وقد رأيت في هرر فينازماج جنمي وغيره من الأكابر مرتدين بهذه الأكسية المانعة لنفوذ المطر إلى الداخل.

بعد أن سرنا نصف ساعة تحت المطر الشديد وصلنا إلى مراعٍ واسعة فوجدنا

مكارينا قد سبقونا إليها ونزلوا فيها ، فوبختهم على نزولهم قبل الأوان ، ولكن ما الفائدة وقد سبق السيف العذل ونُزعت الأحمال من على ظهور البغال ومن عادة هذه البلاد أن لا تعطي البغال وقت السفر عليقاً بل تأكل ما تجده في الطريق من الكلأ ولذلك سكت مضطراً .

وهذا المكان تحيط به هضاب جميلة ، ولكن كان كثير الرطوبة لذلك اضطررنا أن ننقل الخيام والصناديق إلى محل آخر واقع على سفح هضبة تبعد عن المحل الأول بمسافة 800 متر ، ونقل المكارون الخيام والأمتعة على ظهورهم حتى لا يمنعوا البغال من الرعي .

ولما أرخى الليل سدوله أخذت الحيوانات البرية كالذئاب وابن أوى والضباع تحوم حول القافلة من غير أن تقترب منها ، ولكنها أزعجتنا طول الليل بصراخها وعويلها ، وقد أعطينا لمحل نزولنا اسم مرحلة قارصة لقربها من ضيعة مسماة بهذا الاسم .

مرحلة بككا

يوم الاثنين 17 مايو / أيار

موكب الشروق - أنواع كثيرة من الشجر والطيور - المعز الذي يعزق الأرض - تلفون من غير سلك - الزهور البرية - مناظر بديعة - فائدة الدواء المسمى (آنتي ديسانتريكوم) - الزائرون في الليلة الماضية

قمنا اليوم من النوم باكراً ، وبينما كنا نشرب القهوة ونتناول المرق ونسرح الطرف في تلك الحقول البديعة الي تحاكي الجنان ونتأمل في طلوع الشمس ، إذ رأينا سرب نساء من الفاللا يبلغ عددهن العشرين سائرات في الحقول البعيدة وصوت غنائهن واصل إلينا ، وبعد السؤال علمنا أن هؤلاء النسوة ذاهبات إلى أشغالهن في الحقول ، وفي هذه الأثناء أشرقت الشمس من وراء الأكمة ونشرت أشعتها النيرة على نسيم الصباح الرطب ، فكان المنظر الحاصل من لطافة الهضاب والأكمات المخضرة كقطع الزمرد ومن شروق الشمس وغناء النسوة السائرات في الغيطان بهيجاً بديعاً للغاية

ليس في قدرة أحد وصفه ما لم يكن شاعراً بليغاً ومصوّراً ماهراً . ويرى الناظر إلى هؤلاء النساء المكتسيات بجلباب بسيط الحافيات الأقدام الماشيات على الحشائش الخضراء أن صحتهن أجود بكثير من صحة بنات الحضر المترفات المتنعمات بلذائذ التمدن ولا أخطئ إذا قلت أنهن أنعم بالاً وأسعد حالاً من هؤلاء المتمدنات المنغمسات بأنواع الملاذ والنعم .

وفي الساعة الواحدة تم تحميل الأثقال فقامت القافلة سائرة في طريقها ، وهنا يجب أن أشير إلى صعوبة تحميل ما معنا من بعض الصناديق على البغال فإنه كان يستغرق أكثر من ساعتين لأن المكارين كبقية أبناء جلدتهم لا يعرفون ما هو الاستعجال ، فليس للوقت والزمان قيمة عندهم ، فإذا قلت لهم (هلموا استعجلوا) تراهم يضحكون لهذه الكلمات ولا ينحرفون عما يعرفونه ، ولو تركناهم على حالهم وكسلهم ولم نجبرهم على تحميل الأثقال أمام أعيننا لقضي معظم النهار قبل أن نقوم من هذا المحل الذي أحبه المكارية لكثرة نباتاته وحشائشه .

بعد أن سرنا مدة في أراضٍ مزروعة أخذنا نتسلق أكمات جبل (قلوبي) فصرت أرى نفسي كأني في جبال سويسره أو جبال الأناضول (آسيا الصغرى) وغاباتها وكنا نرى من أشجار الراتينج والصنوبر ما يزيد طولها عن 25 متراً ، ومن أشجار العفص ما ينيف طولها على 15 متراً ، ومن أشجار الزيتون والجوز ما يزيد جسامة عن جسامة الدلب ، والأرض تحت هذه الأشجار مستورة بطبقة خضراء من الحشائش كالزمرد ، هذا غير الأشجار الغريبة الجنس التي ما كنا لنعلم أسماءها ، وأصناف الطيور التي تتطاير على أغصان هذه الأشجار كثيرة كأصناف الأشجار وكلها تغرد بأصواتها اللطيفة ، وبالجملة فكأن يد القدرة خلقت هذه الغابات لتكون معرضاً أو أنموذجاً للأشجار والطيور .

وما كنا نحتاج لفتح المظلة بالنظر لعدم نفوذ أشعة الشمس التي كنا لا نراها إلا من خلال الأغصان من حين إلى حين .

وبعد أن سرنا ثلاث ساعات ونصف ، وكنا قد خرجنا في طريقنا من الغابات قليلاً ودخلنا بين حقول ذرة ، نزلنا تحت بعض أشجار الراتينج وجلسنا على الطنافس التي كانت معنا فتناولنا طعامنا في هذه الروضة الطبيعية ، وكنا نرى كثيراً من المعز

ترعى بين هذه الحقول ، والغريب من هذه المعز أنها لا تمس الذرة وعيدانها بل تأكل كل ما تجده من الحشائش الطفيلية النامية من نفسها بين الذرة ، وبذلك ترعى وتتغذى من جهة وتخدم الحقل والزرع من جهة أخرى ، وقد علمت أن هذا الجنس من الماشية قد تعوّد ذلك . كنا نتناول طعامنا ونتأمل أسراب المعز بين حقول الذرة وقطعان البقر والغنم والحمير التي كانت ترعى في المراعي الطبيعية ونسرّح الطرف في الأشجار وما عليها من الطيور الغريبة الأصناف ونتفرج على نفر من أولاد الفاللا كانوا يسبحون في بركة ماء قريبة منا .

وبينما نحن كذلك إذ مرّ بنا قافلتان الواحدة آتية من أديس أبابا وذاهبة إلى الساحل والأخرى آتية من هرر وذاهبة إلى العاصمة ، وكان محمول القافلة الذاهبة إلى أديس أبابا عبارة عن ألواح من معدن الزنكو ذات تكاسير يصنع في أوروبا لتغطية سطوح المنازل مع كثير من القضبان الحديد ، لأن الناس في أديس أبابا أخذوا يبنون المنازل على الطراز الحديث ، فصاروا يغطون سقوف المباني بالألواح المعدنية بدلاً من الحشائش والأغصان اليابسة ، وقد رجحوا هذا المعدن لخفته ، أما القافلة الآتية من العاصمة فإنها كانت تحمل حاصلات وطنية مثل العاج وجلود الحيوانات وشمع العسل وما أشبه ، وسمعنا شخصين يتكلمان بأعلى أصواتهما الواحد من أكمة والآخر من أكمة أخرى وكان بين الأكمتين مساحة لا تقل عن الساعة ، وتوجد هذه العادة في جبل لبنان أيضاً حتى أن سكان هذا الجبل يكلم بعضهم بعضاً من مسافات أبعد فالأحباش بواسطة هذا التلفون اللاسلكي ينقلون الأخبار من أكمة إلى أكمة ويوصلونها إلى مسافات بعيدة .

مكثنا هنا مقدار ساعة ونصف الساعة تناولنا في خلالها طعامنا وسرّحنا الطرف في مناظر الأطراف البعيدة واسترحنا ثم استأنفنا السير وعدنا للتسلق على الأكمات وكانت الأشجار تكبر وتتكاثف كلما تقدمنا إلى الأمام ، حتى أن الأغصان وأوراق الشجر الكثيف منعت نفوذ أشعة الشمس فاحتجبت عنا ، وبعد قليل مررنا من شمال ذروة جبل قلوبي الشاهق وعلى حذائه ورأينا منزلاً مشيداً على القمة هو للرأس ماكونن ، ولهذا الرأس كثير من هذه المنازل بناها في المحلات الجميلة الواقعة تحت إدارته بين عاصمة الحبشة وبين هرر حاضرة ولايته لتكون معدة لنزوله فيها في أسفاره

إلى أديس أبابا أو وقت خروجه إلى الصيد والقنص أو عند تجواله في ولايته ليستطلع أحوالها ويحقق أمورها ، ويوجد في كل منزل من هذه المنازل بضعة خفراء لحراسة المحل وفي بعض المحلات المساعدة يتبع المنزل مزرعة الرأس أيضاً .

وقد بلغنا في صعودنا هذا 2500 متر من الارتفاع عن سطح البحر فكنا عندما يقل تكاثف الأشجار وننظر من جهة يميننا نرى على مد البصر صحارى عبسسا ودانفالي المنتهية لسفح جبل قلوب الذي نحن عليه ، وكلما شاهدنا هذه المراعي المنحطة كنا نعلم أننا ارتفعنا جداً عن سطح البحر ، وكان طريقنا عن اليمين وعن الشمال مزينا ًبالأزهار البرية على الأخص نوع من الياسمين البري المتسلق وله رائحة حادة مسكيّة يعطر مشامنا .

وما كنا نراه على طريقنا من بقع من الغابات التي أكلتها النيران وأتلفت ما فيها من الأشجار يدل على أن سكان هذه الأرجاء لا يعرفون مقدار قيمة الثروة الطبيعية التي يملكونها ، وكنا نصادف في طريقنا أسراب طيور تسمى (بيج) وهو بجسامة ديك الرومي فاصطدنا منها جملة .

وصلنا إلى بقعة خضراء محاطة بهضاب مستورة بأشجار الراتينج وعلى أطرافها كثير من الحقول المزروعة ذات منظر بهيج وكانت الأكمات المغطاة بأشجار الراتينج قائمة الواحدة تلو الأخرى كدرجات سلم ترتفع كلما بعدت عنا ، نزلنا في هذا المحل وبعد ترتيب محل القافلة بساعةوصل (الدورغو) فاستلمها أبو بكر بكل عظمة من غير أن يخبرني هذه المرة وبعد أن عاين ما ورد من المأكولات توجّه إلى الشوم (العمدة) فتعطف بملاطفته ، وفي هذا المحل أصيب أحد مكاريتنا بآلام شديدة في معدته لكثرة ما أكله من اللحم أو الشحم النيئ على ما أظن ، وصار يتمرغ فوق التراب من شدة الأوجاع ، فذهبت وأحضرت له قدحاً من الأدوية التي كانت موجودة في أجزاخانتي النقالة فشربها وبعد قليل زالت عنه الآلام واستراح ، ولكن أصابه إسهال شديد ما قدرت على قطعه إلاّ بواسطة حبوب (ديسانتريكوم) التي كنت أحضرتها معي ، وقدر جرّبنا هذا الدواء في كثير من أنواع الإسهال الشديد والديسانتري فرأينا منها خاصية شافية خارقة للعادة فأوصي كل من يصاب بهذه الأمراض أن يستعمل الحبوب المار ذكرها .

إذا أصيب أحد أهالي هذه البلاد بمرض يرجع على عناية الرجل الأبيض ، لأن الأبيض في نظرهم طبيب وجراح ومقتدر على كل شيء ، ومع ذلك كله فإنهم يكرهون لونه وإذا غضبوا عليه يسبونه قائلين (تاج اولاج) أي المملوك الأبيض ، وبالجملة إن لون الأبيض مكروه جداً ، خصوصاً عند السود أهالي أواسط أفريقيا لعدم إلفة أبصارهم هذا اللون فيظن البعض منهم أن الإنسان الأبيض إنما ابيضّ لأنه ولد من غير أوانه ، أي قبل أن ينضج في بطن أمه ، والبعض منهم يذهب إلى أن البياض في الرجل الأبيض ليس هو إلا نتيجة مرض أصابه فغير لونه الأسود الطبيعي .

هذا وقد زادت جراءة الضباع هذا المساء حتى صارت تحوم حول منزل القافلة ونحن جلوس على المائدة ، واقتربت من القافلة جداً حتى لم يبقَ بيننا وبينهم إلاّ قدر عشرين متراً فقط ، وكانت أصواتها المزعجة واصلة إلى السماء ، كل ذلك مع وجود النيران الموقدة على أطراف منزل القافلة ، وأخذ الحراس طول الليل يطردونها بالعصي كما يطردون الكلاب ، ولما طال هذا الحال خرجت من خيمتي وأطلقت البندقية مراراً فابتعدت عن القافلة ، ولكننا كنا نسمع طول الليل أصواتها حتى مطلع الفجر ، ويظهر أنها كانت تنتظر رحيلنا من هذا المحل حتى تأكل ما تجده من فضلات القافلة .

مرحلة جالنقو

يوم الثلاثاء 18 مايو / أيار

القرود ـ حمل الأولاد في الكيس

بينما كنا في الصباح نتهيأ للرحيل إذ وفد علينا رجل ممتطياً بغلة وعلى جنبه سيف قرابة من القطيفة ووراءه خادمان ووقف أمامنا وبعد أن انحنى مراراً للتسليم علينا قال أنه هو الأتومجي وأنه يرجونا الذهاب لعنده لننزل ضيوفاً عليه هذا المساء ، فشكرناه على إنسانيته هذه واعتذرنا إليه وبعد أن ودعناه استأنفنا السير في الساعة الأولى ، وأخذنا نصعد جبل (ايللاتككي) ونسير بين أدغال وغابات كثيفة جسيمة جميلة جداً مهما وصفها الإنسان لا يقدر على وصفها حق الوصف ، ورأينا في هذه

الغابات قطعاناً كثيرة من القرود تثب من شجرة إلى أخرى وتصوت بأصوات عجيبة وتنظر إلينا بنظر غريب ، والحاصل أننا قطعنا المسافة من هرر إلى هنا كأننا سائرون في بستان واحد أو مزرعة كبيرة ، ولو لم تكن وعورة المسالك وطلوعها ونزولها لما كان هناك شيء يشكو منه المسافر ، وكلُّ البلاد التي مررنا بها آهلة بالعالم وزاهية بآثار العمران .

ومع نظافة غابة (ايللاتككا) هذه وجمالها ، فإن لها من الأخطار ما يدهش الإنسان ، فإن الإنسان إذا حاد عن الطريق يمنة أو يسرة ودخل بين الأدغال يقع في تهلكة الحيوانات الكاسرة كالأسود والنمور وما أشبه .

أما الأسود والنمور فكأنها تعرف أن جلودها مما يرغب فيه لذلك تراها لا تخرج كما تخرج الحيوانات الصغيرة الأخرى إلاّ نادراً ، بل تكمن في نقطة من الطريق بين الأدغال والأغصان والنباتات ، حتى إذا مرّ شخص وحده تهجم عليه وتفترسه ، ثم لأنها تذهب إلى موارد الماء ليلاً تبتعد القوافل دائماً في منازلها عن ينابيع الماء أو الأنهار . وصادفنا في هذه الغابة قافلة ذاهبة إلى هرر حاملة كثيراً من البن .

وبعد أن سرنا ساعتين نزلنا في بقعة تشرف على مراعٍ واسعة ومروج زمردية اللون من كثرة الأعشاب والحشائش وجلسنا على الطنافس الّتي فرشت تحت الأشجار الجسيمة نستريح قليلاً وبينما كنا نتناول طعامنا إذ مر بضع نسوة فاستوقفت نظري مخلاة معلقة على ظهر إحداهن وفيها طفل صغير فعلمت أن النساء الحبشيات يحملن صغارهن على ظهورهن ضمن مخلاة ولا يفارقنهم قط في ذهابهن وإيابهن وقيامهن وجلوسهن .

وعلى هذا المنوال ينمو الطفل على جسم والدته كما ينمو الغصن الصغير على الشجرة . والناظر لا يرى من الطفل سوى الرأس الذي لا تؤثر الشمس عليه قط مع أنّ الأبيض لا يقدر على الوقوف في الشمس خمس دقائق من غير مظلة ، لأن شمس هذه البلاد مؤثرة جداً فإذا أصابت الإنسان بضربة منها يلتهب الدماغ ويقضي على المصاب في الحال ، وإذا بكى الطفل أثناء سير الأم فإنها تسحب المخلاة إما على اليمين أو على الشمال وترضعه وهو في كيسه وبعد الفراغ من إرضاعه تنتفض فتذهب المخلاة إلى محلها القديم على ظهر المرأة .

سرنا بعد الطام مسافة ساعة ثم وصلنا إلى مرجة خضراء واسعة تدعى جالنقو

تحيط بها هضاب ذات أشجار كثيرة ونزلنا بها وقد كان عبد الله الذي مر ذكره انهزم في حربه مع الأحباش في هذا المحل ، ورأينا طابية حربية باقية من زمن المصريين مبنية على أكمة واقعة إزاء هذا المحل ، وهنا قام الأتومجي بإكرامنا غاية الإكرام ، وقد أخذ البرد يشتد ليلاً يوماً عن يوم حتى أني اضطررت أن أُدفئ داخل الخيمة بالنار لأزيل الرطوبة ، فكنا نشعل الحطب خارج الخيمة حتى إذا صار جمراً ندخله إلى الخيمة ، وقد أزعجتنا الذئاب والضباع بصراخها وعوائها طول الليل ولكن أخذنا نتعود كما يعتاد الإنسان عواء الكلاب .

مرحلة دررو

يوم الأربعاء 19 مايو / أيار

بوركا - فتك الوباء البقري - التلفون والتلغراف - طعامنا

ولما أصبحنا أخذنا في الاستعداد للرحيل وسلّمنا الصناديق والحقائب للمكارية وقمنا في الساعة الثانية عشرة عربية وصرنا نسير تارة بصعود وطوراً بنزول إلى أن قطعنا مرجة واسعة وكانت المناظر جميلة جداً كالسابقة من حيث الأشجار الجسيمة ذوات الظل اللطيف والمراعي الواسعة والسفوح المزروعة وما فيها من الحيوانات الأهلية والقوافل السائرة ذهاباً وإياباً .

وتسمى هذه الأرض التي نقطعها الآن (بوركا) وكانت قبلاً أكثر عمراناً وسكاناً ولكنها فقدت جانباً عظيماً من عمرانها وسكانها من فتك الوباء البقري الذي كان تفشى في البلاد الحبشية عام 1890 وأورث البلاد خسائر جمة ، وكان أول ظهور هذا الوباء القتّال في ولاية تيفري وسرى إلى جميع الأقطار الحبشية ما عدا بعض المحلات (وبوركا) هذه هي المقاطعات التي فتك فيها فتكاً ذريعاً وأباد جميع أبقارها فلم يجد الإنسان المواشي اللازمة لحرث حقولهم وزرعها ، فقامت الحكومة في السنة الأولى ببعض ما يلزم من الحبوب لمعيشة الناس ، ولكنها لم تقدر في السنة الثانية على مد يد المساعدة لهم فلذلك أصابهم القحط ، وبسبب الجوع تفشى مرض التيفوس

والجدري والكوليرا فأبادت كثيراً من السكان حتى أنني سمعت من بعضهم بأن الذين سلموا من الأمراض كانوا ضعافاً نحافاً حتى أن الأسود والنمور والذئاب كانت تهجم على القرى وتفترس الرجل أمام بقية السكان ولا يقدر أحد من هؤلاء على المدافعة لعجزهم . وبعد أن سرنا ثلاث ساعات نزلنا تحت ظل بعض الأشجار وتناولنا طعامنا والطيور تشنف أسماعنا بألحانها حسب المعتاد ، واسترحنا مقدار ساعة ثم استأنفنا السير إلى أن وصلنا إلى (دررو) ، وهذا المحل واقع على أكمة خضراء كسائر الهضاب التي مررنا بها مستورة بالأشجار ، وقد وجدنا هنا مركزاً للتلفون وترتبط هرر بثغر جيبوتي بواسطة سلك برقي (تلغراف) من جهة وبعاصمة الحبشة بسلك آخر من جهة أخرى ، ويوجد في مكاتب أديس أبابا وهرر وجيبوتي البرقية عدد للتلفون غير عدد التلغراف وبذلك يتسنى للأهالي وخصوصاً للتجار أن يكلم بعضهم بعضاً عند ما يكون الجو صافياً والطقس مساعداً ، وأما المراكز الصغيرة الموجودة بين المدن الثلاث المذكورة فليس فيها سوى عدة تلفون فقط وفي كل مركز يوجد موظف ، ومن شاء أن يكلم أي مركز من مراكز التليفون فما عليه إلاّ أن يدفع ريالاً واحداً لمدة عشر دقائق .

وإذا لزمت المخابرة بالتلغراف بين المدن الثلاث المار ذكرها فإن المأمورين الموجودين بمراكز التليفون المتوسطة تفتح لها طريق المخابرة ومع ذلك فإن المخابرات ليست على ما يرام من السهولة لبعد المسافة ولعدم اطراد الطقس والجو قرب أديس أبابا وكثرة حدوث الأنواء الشديدة ، وسأذكر مكتب التلغراف وأصفه بإسهاب بعد وصولنا إلى أديس أبابا وزيارة هذا المكتب .

أما مركز التلفون في هذا المحل فإنه عبارة عن كوخ مثل سائر أكواخ الأحباش جدرانه الأربعة البالغ ارتفاعها أربعة أمتار مبنية من أشجار شائكة (سياج) على شكل دائرة وأركز عمود في وسط الكوخ كعمود الخيام ومدد من هذا العمود عواميد أخرى واصلة إلى الحائط وربطت مع بعضها بخيوط من النباتات المعرّشة وغطي هذا السقف بالنباتات والحشائش الرفيعة ويشبه هذا الكوخ في شكله خيمة ذات أطراف واسعة ، وللكوخ أطراف بارزة من الأعلى لمحافظة الحيطان وباب يغلق ويفتح ، والأرض في داخل الكوخ مفروشة بالنباتات والحشائش اليابسة حيث يوجد مقعدان الواحد

لجلوس الشخص الذي يريد التكلم والآخر لمستخدم المحل ، ويرى الداخل إلى الكوخ في ركن من أركانه كثيراً من الأسلاك والفناجين المصنوعة من الخزف الأبيض لوضعها على رؤوس العواميد لإبعاد التيار الكهربائي عن كل ما يلامسه .

وبعد أن قضينا ردحاً من الزمن بالكلام وتناولنا عشاءنا انسحبنا إلى خيمتنا للراحة والمنام . ربما يوجد بين القراء من يسأل عما كنا نأكله في طريقنا لذلك رأيت أن أدرج هنا أسماء الأطعمة التي كنا نتناولها :

كان طعامنا وقت الظهر يؤخذ من طعام المساء ويوضع في المطبقيات (طاسات) وهكذا يحفظ لليوم الثاني ، أما طعامنا هذا فكان مؤلفاً من شوربة عدس وكستلتا من لحم الضاني بالبطاطس ودجاج محمر وكفته شامية (كبيبة) محمرة وخشاف البرقوق وزيتون وجبنه .

مرحلة (طوللو)

يوم الخميس 20 مايو / أيار

حفظ المواقع في الطريق ـ الآنية الموضوع فيها الذخائر ـ القرى في هذه الجهات ـ المطر الشديد ـ رحلة الرأس من محل إلى محل ـ الأكواخ الوقتية

لم يمر من الليل قليل حتى علمنا من شدة البرد أننا في ارتفاع زائد جداً عن سطح البحر ، ولما أصبحنا وجدنا ضباباً كثيفاً غطى كل الأطراف حتى أن الإنسان يستحيل عليه أن يرى أمامه من مسافة عشرين متراً ، وقام المكارية الذين كانوا عكوفاً أمام النيران المشتعلة يديرون تارة وجوههم إلى النار وطوراً ظهورهم ليدفئوا أنفسهم ، وأخذوا يحملون الأثقال ولما كملوا تحميلها سارت القافلة وكان وقتئذ قد انقشع الضباب قليلاً ، وانحدرنا من الجبل الواقع عليه (دررو) ومشينا في صحراء (بوركا) مدة ساعتين ، وهذه الصحراء مستورة كلها بالخضرة والأكمات والجبال المحيطة بها وكانت مزينة بالأشجار ، وفي منتصف الساعة الرابعة وصلنا إلى نبع ماء يسمى (بوركا ماجللا) وقد وجدنا هذا المحل من ألطف ما يكون وهو واقع على سفح جبل وينابيع

الماء الصافي تحت ظل الأشجار الكبيرة تشكل حوضاً طبيعياً ، ولكن ويا للأسف لم نقدر على النزول أو الوقوف هنا لأننا وجدنا الماء معكّراً تعكيراً شديداً من كثرة الجواميس النازلة تستحم فيه والنساء الحبشيات اللاتي يغسلن ملابسهنّ وحوائجهنّ وصار الحوض كأنه بركة من طين فاضطررنا أن نبتعد وننزل تحت أشجار واقعة على بعد ٣٠٠ متر من هذه الينابيع ، ولم تكن المراعي التي أمامنا عارية من الشجر بالمرة بل كانت الأشجار ترى فيها متفرقة هنا وهناك وفي بعض المحلات كانت آخذة هيأة غيضة كبيرة ، وكان على الشجرة التي نزلنا تحتها سرب من النسور العظيمة يبلغ عددها عشرين أو ثلاثين وتناولنا طعامنا واسترحنا قليلاً وكان في مائدتنا زيادة على المأخوذ من طعام مساء البارحة عجة لطيفة عملها الحاج يوسف ، وهذا الطاهي ما كان يذهب معنا كسائر الخدم بل كان يسير وراءنا راكباً بغلة وإذا نزل لأجل الغداء ينزل حالاً ويضرم النار ويقوم بكل ما يلزم لإحضار طعام الغداء لنا .

وكلما نزلنا للغداء ندع البغال تسرح في تلك المراعي التي لم تنقطع إلى الآن على طول الطريق ، وبعد استراحة ساعة واحدة استأنفنا السير ووصلنا إلى نهير آخر يسمى كسابقه (بوركا) أيضاً ، وكان لجريان ماء هذا النهر خرير عظيم لشدة ميل مجراه وانحدار المياه منه وهي تكفي لإدارة بضع أحجار طاحون وتتبعنا مجرى الماء المذكور مدة نصف ساعة ثم قطعناه عرضاً إلى الضفة الأخرى وأخذنا نصعد إلى أكمة (طوللو) التي ستكون مقر القافلة في مرحلتنا هذه وبلغناها في الساعة السابعة ونصف وكان ارتفاعها عن سطح البحر (2200) متر ، وبعد أن ضربنا المضارب أخذنا نتفرّج على الأطراف ، ونسرّح الطرف في الأكناف ، التي كانت عبارة عن زمردة خضراء والمراعي الجميلة تمرح فيها قطعان مواشي الضياع القريبة منها وتسرح ، ولم تكن منازل القرى هنا ملتصقة بعضها ببعض بل كانت الأكواخ متبعثرة ضمن الأشجار بين الواحد منها والآخر مسافة كبيرة ، وأكواخ قرية (طوللو) ليست كسائر الأكواخ ترى من بعيد بل لا تظهر للعين إلا بعد أن يصير المسافر بجانبها وذلك لاختفائها بين الأشجار .

كان طول النهار يوجد ثقل شديد في الطقس والجو مما يدل على قرب سقوط المطر وفي الواقع قرب الساعة التاسعة سحّ المطر والبَرَدُ مدراراً ، وكانت الخيام الموجودة عندنا

التي اشتريناها من الآستانة مبطنة من الداخل ببطانة قوية وغليظة وقد كنا أخذناها على شرط ألا ينفذ الماء منها ولكن لشدة أمطار هذه البلاد لم تكن تكفي لمنع دخول الماء إلى داخل الخيمة ، بل في برهة قليلة أضحت كبركة ماء ، ويجب علينا أن نتحمل جفاء الطبيعة هذا كما كنا نتمتع بصفائها ولطافة مناظرها .

كنا نرى قطيعاً من الغزلان يرعى على الجبل الواقع أمامنا وكانت هذه الحيوانات على غاية من الخوف والوجل لأنه كان الرأس ماكونن قد مرّ من هنا قبل أسبوعين فأحاطت رجال حاشيته بهذا الجبل وطردوا الغزلان منها إلى السهل واصطادوا 150 منها فالباقي كان لذلك وجلاً جداً ، وعند ما يقوم أحد الرؤوس في البلاد الحبشية راحلاً من محل إلى محل ينضم إليه سكان البلاد التي يمر منها نساءً ورجالاً كباراً وصغاراً وعلى هذا المنوال يجتمع بمعيته ألوف من الناس وزد على ذلك الذين يأتون إلى قافلة الرأس كل يوم مساء (بالدورجو) أي الأتاوة بقطعانهم وحيواناتهم وذخائرهم فمن ذلك يكون محل نزول الرأس كمحشر ، وليس لهؤلاء الناس خيام سوى بعض أفراد من أكابر رجال الرأس وأما الباقون فإنهم يصنعون لأنفسهم أكواخاً في غاية البساطة من بعض أغصان الأشجار يغرزون أسفلها في الأرض على شكل دائرة صغيرة ، ثم يوصلون القسم الأعلى من الأغصان مع بعضها فيربطونها معاً ثم يغطون أطراف الكوخ وأعلاه بالنباتات المجففة ، ويسهل جداً لكل واحد صنع كوخ في الحال لكثرة الغابات والأحراش ، وعند قيام القافلة وتحركها تبقى تلك الأكواخ على حالها ، لذلك كنا نرى على طريقنا كثيراً من هذه الأكواخ الخالية المتروكة في المحلات التي نزل بها الرأس المشار إليه .

هنا وقف أحد المكارين وأخذ ينادي بأعلى صوته رجلاً كان على مسافة بعيدة قائلاً (بوغاكي بوغاكي بوغاكي هو) وكلما كرر الاسم ثلاث مرات يأتي بكلمة هو مرة فذكرني هذا النداء العادة المتبعة عند نساء الآستانة حيث تقول إحداهن عندما تنادي جارتها (فلان هانم هو) وأظن أن هذه القاعدة أتى بها الجواري الحبشيات ولقنتها السيدات في الآستانة .

استمر نزول المطر ساعة ونصف ثم انقطع فتمكنا حينئذ من القيام بأمور المطبخ وكان هذا المساء طعامنا شوربة أرز ودجاجاً بالبسلة ومحمر الطير المعروف باسم

(طرغل) ومقارونا مصنوعة مع البطاطس وكبد الدجاج ومنقوع القمر الدين ، وقد ورد لنا هذا المساء قصب سكر مع الدورغو .

وكانت الرطوبة شديدة جداً حتى أني اضطررت أن أدخل لخيمتي من جمر النار لإزالة الرطوبة والتدفئة من شدة البرد ، وقد زدنا هذه الليلة إضرام النيران لكثرة الوحوش الكاسرة في هذه الأرجاء وكنت كلما أصحو من النوم ليلاً وأتحقق بنفسي هل النوبتجية قائمون بوظائفهم أم لا .

مرحلة ديبه سو

يوم الجمعة 21 مايو / أيار

قرود ذات شعر ـ سقوط الخيمة عليّ

ولما أصبحنا أخذنا نستعد للرحيل وسلمنا الصناديق إلى المكارية الذين كانوا يحملون الأثقال بين ضجيجهم الذي لا نهاية له ، وبعد إتمام التحميل أخذنا في السير وكنا نلاحظ أن القرى والأراضي المزروعة كانت تقل شيئاً فشيئاً اعتباراً من (دررو) وكنا نسير كالسابق بين الأدغال والغابات والوديان والهضاب والحزون .

ووصلنا الساعة الثانية إلى غابة كثيفة جداً ذات أشجار مرتفعة وفيها صادفنا صنفاً من القرود غريب الشكل له شعر كشعر المعزى ولذلك يسميه سكان هذه الجهات أبو شعر وأما اسمه بالحبشية فهو (وانى) وقد ضرب يس جاويش قرداً ببندقيته ولكن لم نقدر على الوصول إلى المحل الذي وقع فيه لكثرة الشوك ولما سمع القرود صوت الطلق الناري أخذت تهرب وتقفز من شجرة إلى شجرة وهي تنظر إلينا ، وصادفنا أثناء سيرنا في الغابة قوافل تحمل العاج وشمع العسل والجلود . وبعد سير أربع ساعات قطعنا فيها التلال والوديان والغابات وصلنا إلى صحراء واسعة تسمى هرنا تحيط بها هضاب ويمر منها نهير يسمى باسم المحل نفسه يكفي لإدارة حجر طاحون ، وكان يرى منها بحيرة (هرنا) الواقعة على طرف من أطراف الصحراء ، وهذا المحل يعلو 1830 متراً عن سطح البحر .

نزلنا تحت شجرة وتناولنا طعام الغداء وبعد أن استرحنا ساعة استأنفنا السير مصعدين على هضاب مرتفعة وقد بلغنا في الساعة الثامنة محلاً مرتفعاً جداً يسمى (ديه سو) ، والناظر من هذا المحل يرى أمامه منظراً واسعاً ولطيفاً جداً ، فكان على الشرق جبل فوقه المستور بالغابات والأحراش الخضراء ، وعلى الغرب صحارى واسعة ذات تلال منحطة ووديان ، ويرى من هذه الجهة بالأفق جبل (عصبوت) الأكثر ارتفاعاً في هذه البلاد بعظمته الكاملة .

كان طعامنا هذا المساء شوربة الأرز ومشوي لحم العجل بالبسلة وكفتة البرغل وأرز مفلفل ونوع من الحلوى يصنع من العجين والعسل والبيض .

وفي الليل هبّت زوبعة شديدة ونفخت الخيام كما ينفخ الريح قلوع السفن ولم يمضِ إلا قليل حتى سقطت خيمتي علي وأنا فيها فأزعجت طول الليل ولكن من حسن الحظ أن المطر الذي كان مصاحباً للزوبعة لم يكن شديداً كهبوب الرياح .

مرحلة قونني

يوم السبت 22 مايو / أيار

صاعقة خفيفة كضربة كرباج - المطر والطين والبرد - على ارتفاع 3000 متر عن سطح البحر

قمنا في الصباح في الساعة الثانية عشرة نسير في طريقنا وبعد أن انحدرنا من هضبة وتسلقنا أخرى أكبر من الأولى نزلنا تحت شجرة جميز للاستراحة قليلاً وتناول الطعام ، وهنا علمت سر ربط الأحمال ربطاً محكماً يلتصق في جسم البغل حتى يكون كقطعة منه ، وسبب ذلك كثرة الصعود والنزول وشدة ميلانها ومرونة الأراضي المار منها الطريق ، حتى أن البغل بعد سير أربع أو خمس ساعات في اليوم تنتهك قواه فلا يعود يقدر أن يستمر على السير وكثيراً ما رأيت البغال تصعد أو تنزل من انحدار يكاد يكون أصعب من صعود أو نزول سلم .

استرحنا هنا تحت الشجرة ساعة ونصف وعدنا لقطع التلال والأكمات صعوداً

وانحداراً إلى أن وصلنا إلى قرية (قوني) الكائنة على ذروة جبل شامخ ، ويرتفع هذا المحل عن سطح البحر 3000 متر ولكن الأشجار على أطراف وأكناف العزبة كانت تكسر شدة الهواء البارد ، واستمر المطر الذي كان آخذاً في النزول ونحن في الطريق مدة ثلاث ساعات مع صواعق كثيرة فلم نتمكن من إدارة المطبخ ، وقد أصابتني صاعقة خفيفة على رأسي أثرت على رأسي كضربة كرباج واستولى على جسمي رعشة شديدة وهي أشد من صدمة كهربائية تلقى على التلامذة أثناء دروس الحكمة الطبيعية ، وكانت بيدي المظلة فأظن أن هذه الشرارة الكهربائية جذبت إلي بواسطة الحديدة الرفيعة الموجودة على قضيب المظلة ، وبعد انقطاع المطر أخذت الحياة تدب في القافلة حيث تمكنا من إدارة أمور المطبخ وغيره وأضرمنا النيران وصار كل منا يؤدي وظيفته .

وكانت الخيام مبللة بالماء والنباتات غارقة بسيول الأمطار ، وكان شوكت أفندي الأكثر اشتغالاً بيننا فإنه مع كثرة الوحول والسيول والأمطار ذهب واصطاد بضعة من الطيور فأوجد بذلك بين طعام المساء من لحوم الصفاري والسمان والدجاج البري ، وكان داخل الخيام في الليل رطباً وبارداً حتى أني اضطررت أن أضع الماء الغالي ضمن قناني وأدخلها معي في الفراش لتدفئتها .

نحن الآن على ارتفاع 3000 متراً من سطح البحر .

مرحلة بددسا

يوم الأحد 23 مايو / أيار

تفاوت طلوع الشمس - الطيور الموسيقية - والقرود البلهلوانية - صداقة الأرقاء - البغال تخدمها الطبيعة - الكي - دلك الحيوانات - أنابيب - أجناس من الفراش - تعدي الطيور الجارحة على البغال المجروحة - خفة الأحباش

وعند الصباح أعطينا أمتعتنا للمكارية وقمنا نسير في الساعة الثانية عشرة وإلى يومنا هذا ما تمكنا من القيام قبل هذا الميعاد ، وربما من يرى قيامنا في الساعة المذكورة

في شهر مايس (مايو) متأخراً جداً ، إذ أن اليوم تشرق الشمس في الآستانة في الساعة 8 والدقيقة 54 على أنها تشرق هنا في الساعة 11 ونصف ، وهذا الفرق ناشئ من كوننا موجودين في جنوب القسم الشمالي من الكرة الأرضية لذلك ترى هنا الليل والنهار متساويين تقريباً .

أخذنا عقب قيامنا نسير بانحدار من جبل (قوني) وقطعنا غابة عظيمة طبيعية (أي أنها نمت من نفسها) في مسافة ساعتين وكانت أشجار هذه الغابة المؤلفة من أجناس مختلفة تمنع نفوذ أشعة الشمس من الوصول إلينا لكثافة الأشجار والأغصان ، وكنا نرى على طريقنا دائماً أسلاك التلغراف والفناجين البيضاء المصنوعة من الصيني لإبعاد التيار الكهربائي مربوطة بالأشجار بدلاً من الأعمدة ، وكنا نسمع طول طريقنا تغريد ألوف من الطيور المختلفة الأصناف كما أننا كنا نرى كثيراً من القرود ذوات الشعر الطويل المار ذكرها تقفز من شجرة إلى أخرى كأن الطبيعة جعلت تغريد الطيور مقام جوق موسيقى والقرود جوق ألعاب بهلوانية ، والطيور التي كنا نراها أكثر من غيرها هي صنف منقارها وطرف عينها أحمر ونصف جناحها أسود والنصف الآخر بلون الأحمر القاني وهي بجسامة الحمام تشبه الببغاء تطير بأسراب من شجرة إلى شجرة ، وقد ضرب شوكت أفندي واحدة منها ببندقيته ولحم هذا الطير لا يؤكل لذلك منعت شوكت أفندي من صيد هؤلاء الطيور ثانياً وقد حفظ هو أجنحة الطير المضروب الذي كان في غاية الجمال ويليق أن يوضع على برانيط السيدات للزينة .

وفي الساعة الثانية أخذت الأشجار تقل بنسبة تقربنا إلى سفح الجبل وفي الساعة الثالثة وصلنا إلى الوادي القائم بمنتهى الجبل من هذه الجهة ، ويوجد هنا نهير تكفي مياهه لإدارة حجري طاحون ويسمى (بوراما) باسم المحل الجاري فيه ، وصادفنا في طريقنا امرأة ذاهبة من قرية إلى قرية أخرى وقد وقف بغلها الحرون بها لا يخطو خطوة إلى الأمام ويظهر أنه جفل من شيء رآه في طريقه ، وكانت المرأة تكلم البغل وتقول له بعض كلمات بلسانها ، ولدى السؤال عما تقوله علمت أنها تستعطف البغل مخاطبة إياه بهذه الكلمات (برأس أبيك وأمك لا تتعبني ، بربك أيها البغل امش) لذلك وقفنا قليلاً وساعدناها على إكراه البغل على السير فسار ، وبعد هذه المرأة رأينا عبداً مغلولاً بالحديد أبق من عند سيده فأخذ ثانياً ليعاد إلى منزل سيده ، والرقيق

في هذه البلاد ممنوع رسماً ولكن قلما يعملون بهذا المنع ولكن إخراج الرقيق إلى البلاد الأجنبية ممنوع حقيقة بالفعل ، ولا يوجد في داخل البلاد الحبشية من لم يكن عنده عبيد أرقاء حتى ولو كان من المتوسطين إذ أن أشغال الجميع من تاجر وزارع ومكاري تقضى بواسطة هؤلاء الأرقاء وإذا ألغي بيع الرقيق من هذه البلاد بالمرة تقف حركة الأشغال والأعمال لأن الناس هنا لا تعلم استخدام العمال بالأجرة ، ويرى الرقيق هنا الإطاعة والانقياد لسيده أمراً طبيعياً فتراهم غاية في الصداقة والإطاعة لأسيادهم حتى أنه كثيراً ما يسلم السيد ماله وجميع ممتلكاته لرقيقه ويأمن له أكثر مما يأمن لأولاده ، وليست هذه الحالة هنا فقط بل إنها موجودة أيضاً في البلاد اليمنية والحجازية وعلى الأخص بين العربان الضاربين في البوادي ، حتى أن أمراء العشائر لا يعتمدون إلا على أرقائهم فتراهم يحترزون من أولادهم وإخوانهم ويسلمون أرواحهم إلى الأرقاء الذين يفدون حياتهم في سبيل كلمة سيدهم ، ويعد الرجل رقيقه واحداً وعضواً من أعضاء عائلته .

فرشنا البسط تحت شجرة جميز وجلسنا تحت ظلها ساعة تناولنا فيها الطعام ورعت البغال ، وبعد ذلك قمنا نسير في سبيلنا فقطعنا نهيراً آخر يبعد عن الأول خمس دقائق فقط وهو بجسامته وفي الساعة الخامسة قطعنا نهيراً آخر ودخلنا في صحارى ومراع تحيط بها الجبال والتلال ، وهنا تنتهي حدود ولاية هرر وتبتدئ أراضي شرشر ، وشدةً نمو النباتات البرية هنا تدل على خصوبة الأراضي وقوة إنباتها ، والأشجار فيها ليست بحالة غابات أو أحراش وإنما يوجد هنا وهناك أشجار برية صغيرة وكبيرة قريب بعضها من بعض وسفوح الهضاب والأكمات عامرة بالقرى وأكثر سكانها من الفاللا والأينو المسلمين ومنها ما يسكن فيها الأمحريون المسيحيون .

وكان سكان هذه الجهات من قبل أكثر مما هم الآن فقلل عددهم فتك الأوبئة وتوالي الحروب الداخلية .

مررنا الساعة السادسة على نهير ونزلنا إزاء جبل (هلفتا) ويسمى المحل الذي نزلت فيه قافلتنا (بددسا) وقد تعب جداً رجالنا وبغالنا من حزونة الطريق في هذه المرحلة وكثرة النزول والطلوع في جبال وعرة ، فلذلك ما نزلنا في المحل المذكور حتى أخذ الرجال الذين ليس لديهم ما يشغلهم مثل نصب الخيام وغيره يتمددون تحت ظل

الأشجار طلباً للراحة ، والبغال صارت تتمرغ في التراب على عادتها بعد أخذ ما عليها من الأحمال ، والمجاريح منها كانت تنظر إلى النيران التي كان المكارية يشعلونها نظر الحزن والكآبة وترفع أذنيها وتظهر بعض حركات وأصوات كأنها تريد تتأوه وسبب ذلك أن سكان هذه البلاد يهملون خدمة البغال الخدمة اللازمة فيرى الإنسان حوافرها طويلة بارزة ولا ينظفونها ولا يعطونها العلف اللازم لها بل يتركونها بحالتها الطبيعية فينزل المطر الشديد ويغسلها عندما تكون هذه الحيوانات خالية من الحمل والشغل إذ تترك دائماً في العراء ، وبعد قليل تظهر الشمس الشديدة فتنشفها حالاً وعلى هذا المنوال تخدمها يد الطبيعة والقدرة من نفسها ، ولكن لا بدّ من كي البغال المجروحة وذلك أنهم يشعلون ناراً حامية يضعون فيها حدائد منحنية ذات أيدٍ خشبية طويلة وتؤخذ البغال الجريحة من بين السليمة وتشد في رجلها سيور من الجلد وتلقى على الأرض ويجلس المكارية على رأس البغال وعلى سائر أطراف جسمه ويمسكونه كيلا يتحرك ويأتي آخر بالحديدة المحماة لدرجة الاحمرار ويكوي بها الجرح فيمزق الشعر والجلد الذي على أطراف الجرح ويدخل الحديد المحمى حتى يصل إلى اللحم وتتصاعد روائح كريهة والبغل يجأر من شدة الألم والبغال المنتظرة دورها تنظر هذه الحال بنظر الاندهاش واليأس آخذ منها مأخذه ، وفي الغالب لا يحملون البغل عقب الكي بل يتركونه يستريح بضعة أيام ، هذه هي الخدمة الوحيدة التي يخدم المكارية بها بغالهم ولقد كنت أسخط على هذا وآمرهم أن يكونوا بعيداً عنا وبالجملة إن هذه الحيوانات تعيش في هذه البلاد بيد الطبيعة ولا يعتني أحد بخدمتها قط . على أن الاعتناء بالدواب في الأقطار الحجازية الواقعة إزاء هذه البلاد عظيم جداً حتى أن سائق المركبة في المدينة المنورة ينظفها ويخدمها ويكبسها كل يوم مساء وهو ما يعبر عنه الغربيون بالمساج (Massage) والتكبيس في الحجاز مرغوب جداً فتجد أغلب الناس في الحمامات والمنازل يكبسون أنفسهم من غير أن يكون هناك مرض يستلزم ذلك ، بل يعملون التكبيس طلباً لراحة البدن فقط ، حتى إن الإنسان ليرى كثيراً من الناس يتمددون على حصيرة في القهاوي أو الساحات العمومية من غير مبالاة بالناس الرايحين والغادين والمكبس يكبسهم .

وأغلب المكبسين في الحجاز من الهنود ويكبسون من أراد بأجرة نحو عشرين

فضة ، وهذه القاعدة نفسها جارية في الحيوانات أيضاً ، وقد اندهشت عندما رأيتهم يكبسون الحيوانات لأول مرة وكنت راجعاً ليلاً من مكتب التلغراف في ساحة المناخة إلى منزلي فرأيت حماراً كبير الجثة ملقى على الأرض وصاحبه جالس عليه يكبسه وكان الحيوان يظهر إمارات الراحة والاستحسان بتشخيره الخفيف ويمد رجله الثانية عندما يتم تكبيس الأولى فقلت لصاحب الحمار ماذا تفعل أيها الرجل فأجابني إن هذا البهيم المسكين تعب جداً هذا اليوم فأنا أكبسه حتى يستريح .

هذا والمكارية هنا يداوون بغالهم بأنفسهم أما إذا مرض الواحد منهم فقد كانوا يأتون لعندي ليستمدوا من مهارتي الطبية على زعمهم ، فكنت أعالجهم حسب ما تدلني تلك المهارة المزعومة فأعطي مسهلاً لمن يشكو معدته أو بطنه أو روح النعنع وحبوب (آنتي ديسانتريكوم) للذي يشكو من الإسهال ، وفن آستين أو انتيبيرين للذي يتألم من وجع الرأس ، وقد حضر اليوم لعندي أحد المكارية وهو يعرج فمد رجله ونظر في وجهي نظر الاستمداد فوجدت في رجله ورماً شديداً من الأصابع إلى نصف أخمص القدم وبين الأصابع جروح ملتهبة يكاد يظهر فيها الدود ، فلما رأيت حال هذا الرجل حرت فيما أعمله لأني لست بطبيب ولا علم لي بفن الجراحة وليس عندي شيء من المراهم ، فخطر في بالي حمض البوريك فقلت له اغلِ ماءً صافياً في حلة نظيفة وسأعطيك دواءً تضعه في الماء المغلي فتغسل به رجلك وبعد ذلك اربطها وداوم على هذا الدواء بضعة أيام مساءً وصباحاً فتبرأ إن شاء الله ، ولكن الرجل أخذ يطلب مني بواسطة الترجمان الإسراع بعلاجه فأخرجت من جيبي حقة ماء كولونيا فحقنت محل الجرح بهذا الماء الذي آلم الرجل جداً حتى احمرت عيناه وصار يتمرغ على الأرض ويئن وبعد نصف ساعة خف الألم فأحضرت قليلاً من ماء البوريك لغسل الجرح به ثم وضعت السمن ليطري الجرح ويقوم مقام المرهم فليحكم الأطباء إن كنت فعلت حسناً أم لا ، وأما رفقاء الرجل المجروح فلما رأوا رفيقهم وهو يتمرغ على التراب ويئن ويتألم أخذوا ينظرون إليّ بطرف عجيب يستر تحته الريب والشك مما أعطيته لرفيقهم ففهمت ذلك في الحال وأدرتُ الحقنة عليّ وصرت ألقي ماء الكولونيا على وجهي فزال ما كان دخل في قلوبهم من الشك والارتياب واقتنعوا بأن ألم الرجل ناشئ من جرحه ، وأن الدواء الذي أعطيته إياه ليس مسموماً .

كان محل نزول قافلتنا هنا كثير الصيد كالطيور والأرانب والغزلان كما إنه كان كثير الحشرات والهوام مثل النمل وأبو دقيق (فراش) وما أشبه حتى إنه إذا أراد الإنسان أن يأخذ من أنواع أبو دقيق ويلصقها في دفتر يجمع مجموعة من أجمل ما يمكن من الجاميع .

كان طباخنا ومساعده كافيين لإحضار الطعام لنا ومع ذلك كان كل واحد منا يريد أن يخدم المطبخ فكنت ترى البعض منا يصطاد الطيور والبعض منا يقوم بعمل الحلويات مثل شوكت أفندي الألباني الذي كان يهتم بالمأكل اهتماماً خصوصياً ، ولكوننا نحن الثلاثة أعضاء الوفد سوريين ما كانت الكبيبة الشامية لتغيب من المائدة قط ، وقد علّمنا الطاهي عمل الكبيبة المذكورة من أول يوم فكان يستعمل لذلك في غالب الأوقات لحم الدجاج الموجود بكثرة عظيمة في هذه الجهات وبالجملة لم نكن لنشكو من الطعام .

وقد تعوّد الجنود والخدم الذين كانوا مسلمين تناول الطعام من غير ستار لعدم تعصبهم ، وأما البغالة المسيحيون فإنهم ما قدروا على ترك عادة الأكل تحت الستار وكان طعامهم على الغالب من الخبز المصنوع من دقيق الدف والقهوة الكثيرة والفلفل الأحمر واللحم النيىء ، ولا أدري كيف تصيب العين هذا الطعام البسيط؟

ولما كنت في طريق الحجاز كنت أرى جمالنا الجريحة تتعذب وتتألم من سقوط الطيور الجارحة كالعقبان والغربان وما أشبه على ظهورها لتأكل قطع اللحم من الجرح فيصير الجمل يهدر ويزد ثم يلقي بنفسه على الأرض تخلصاً من أذى الطيور الجارحة وقد رأيت بغالنا الجريحة تتعذب من هذه الحالة نفسها فكأنه لا يكفي ما تقاسيه من شد السيور والجلود على بطونها وكي جروحها حتى تتسلط عليها الطيور الجارحة وتدمي جروحها فترى الطير ينقضّ على ظهر البغل وقبل أن يتمكن البغل من طرد العقاب بذيله يخطف قطعة من لحم الجرح ويطير ثانياً .

هرب اليوم بغل من البغال المجروحة قبل أن يأتيه دور الكي ، وأخذ يجري من غير لجام وبردعة في هذه الصحارى كغزال شارد وقام ثلاثة من البغّالة للجري وراءه وكان بيد اثنين منهم سير طويل يمسك كل منهما بطرفه فصارا يعدوان خلفه ككلاب الصيد ، وكان الثالث يسعى لتحويل البغل نحو رفيقيه القابضين على الجلد ، وبعد أن

ركضنا مقدار نصف ساعة نفدت قوى البغل فوقع بالجلد وأدركه المكارية الذين كانوا يعدون عدواً حثيثاً من غير أن يظهر عليهم علامة من علامات التعب ، وهذه أيضاً هي حالة أهل البادية الذين وصفتهم في رحلتي إلى صحراء أفريقيا الكبرى .

هنا أصيب أحد جنودنا المسمى (انحى) بألم شديد في بطنه فمسّده أحد رفاقه بكل قوته وهذا يدل على أن التكبيس معروف في هذه البلاد أيضاً ، ومع ذلك فإن الألم لم يفارقه فاضطررت أن أداويه بروح النعنع وببعض أدوية أخرى .

أما طعامنا هذا المساء فشوربا بالبيض وشواء اليمام البري وكبد الخروف ومحمر اللحم وكبيبة ولقمة القاضي .

مرحلة قالمو

يوم الاثنين 24 مايو / أيار

بحيرة (جرجر) - أعشاب بطول القصب - الأعشاش المتدلية

قمنا اليوم من محل نزولنا في منتصف الساعة الثانية عشرة وأخذنا نقطع أراضي تعد مستوية بالنسبة للتلال والجبال ، وخصوبة الأراضي هنا وقوة نمائها عظيمة جداً ويوجد فيها طيور الصيد والحيوانات بكثرة وإنما سكان هذا القطر المسمى (جرجر) قليلون جداً على نسبة سعته . وفي الساعة الثانية نظرنا بحيرة (جرجر) عن يسارنا وكانت المسافة بيننا وبينها كيلومترين ، وكان سيرنا محاذياً لهذه البحيرة فلذلك كنا نراها عندما نكون سائرين في الأرض المستوية وتخفى علينا عندما نسير بين الجبال والهضاب ، وهذه البحيرة أكبر من بحيرة (هرمايا) السابق ذكرها بثلاث مرات وعلوها عن سطح البحر 1750 متراً وفيها كثير من الطيور مثل الإوز البري والبط البري وغيرها من الطيور كما إنه يوجد في مائها بقر الماء (Hippopotam).

وتخرج هذه الحيوانات من الماء ليلاً فترعى بالأرض الواقعة على أطراف البحيرة وتختفي نهاراً في الماء ، وبعد أن سرنا ساعتين سيراً موازياً للبحيرة غابت عن أنظارنا ، وفي الساعة الخامسة وصلنا لقرب بحيرة (جغا انياني) ونزلنا تحت شجرات جسيمة

بالقرب من العزبة ، وفرشنا طنافسنا على قاع غير واسع وقد كانت إحدى القوافل المارّة قبلنا من هنا قد قلعت كل ما فيها من الحشائش والنبات وأعدته للنزول فيه ، وأما ما بقي من الأراضي التي على أطراف محل نزولنا فإنها كانت مستورة بالحشائش والنباتات الواصلة إلى كتف الإنسان والناظر إليها من بعيد يظنها غابة من القصب ، وإلى يومنا هذا من رحلتنا لم نرَ قط محلاً خالياً من الحشائش والنباتات حتى نضرب الخيام فيه ، والمحلات الخالية فيها هي الأراضي المحروثة أو المزروعة حديثاً .

استرحنا مقدار ساعة وتناولنا طعامنا ورعت بغالنا من غير أن نخرج خطوة واحدة من محل نزولنا ثم استأنفنا السير وبعد قليل وصلنا إلى نهر (جغا انياني) ، وقوة هذا النهير هي بقدر ما يكفي لإدارة حجر طاحون وماؤه عذب كسائر المياه التي كنا نصادفها في طريقنا ، وهذه الأراضي التي كنا نسير فيها من الصباح كلها خضرة كالزمرد ولكنها كانت قليلة الأشجار حيث تشبه الأراضي والكروم الواقعة على الضفة الآسيوية من البوسفور ، ولما رأينا هذه الأشجار على بعد ظننا بعضها شجر برتقال أو كباد لأن أغصانها مزينة بكرات كثيرة كالبرتقال ، فلما دنونا منها علمنا أن هذه الكرات المعلقة على الأغصان هي عبارة عن مئات من أعشاش لطيور صغيرة من صنف العصافير المسماة (قناريا) ذوات اللون الأصفر والتغريد الجميل وكانت هذه الأعشاش مصنوعة من ألياف النبات الرفيعة القوية بشكل دقيق جداً ومعلقة بالغصن بواسطة حبل مصنوع من ألياف النبات أيضاً طوله شبر واحد ، ولذلك كنت ترى الأعشاش بما فيها من الأفراخ تهتز دائماً بتأثير الريح ولا ينفذ من هذه الأعشاش المطر ، ولكل عشٍّ باب جعل قريباً من الأسفل لخروج ودخول العصفور ، وكانت هذه الأشجار ملأى بالعصافير التي كانت تتطاير من غصن إلى غصن وتغرد بأصواتها اللطيفة .

استرحنا مقدار ساعة ثم قمنا واستمرينا في طريقنا ، وبعد ساعة أخرى مررنا بنهير آخر يسمى (مالقابللو) وهو بجسامة النهر السابق ذكره ، وفي الساعة السابعة وصلنا إلى محاذاة قرية (قالمر) ووجدنا هنا أيضا نهيراً آخر ونزلنا لقضاء الليل هنا ، وكان محل نزولنا على هضبة صغيرة من حولها هضاب أخرى قليلة الشجر والخضرة ،

ولم نجد في هذه الهضبة محلاً خالياً من الرطوبة ، فاضطررنا أن نأتي بالحشائش اليابسة (الناشفة) لنضعها على القاع المبلول ونفرش عليها البسط للجلوس عليها ، وقد بردنا جداً لوجودنا على علو 175 متراً من سطح البحر فقطعنا الوقت في اصطياد الطيور ، وفي أثناء هذه الليلة ثارت زوبعة شديدة نزلت من بعدها أمطار غزيرة وقد اقتلعت الزوبعة خيمتي وألقتها عليّ .

لاغاهارديم

يوم الثلاثاء 25 مايو / أيار

منزل رأس ماكونن - المشروبات المسماة طاللاوتيج ويرز - عقاب شديد لذنب تافه - داخل الكوخ البلدي - الشيشة النباتية.

أراد المكارية أن نقضي هذا اليوم هنا بدعوى تنشيف الخيام ، وقد استمرؤوا هنا الرعي لبغالهم ولكن اكتفينا بتنشيف بعض الخيام لحدّ الساعة الواحدة ، وقمنا نسير لننزل في أقرب منزل ، ولقرب هذا المحل تركنا المكارية في (قالمسو) على شرط أن يلحقوا بنا بعد ساعتين ، وأخذنا تارة نصعد على مرتفعات عالية وطوراً ننحدر في منحدرات عميقة وأحياناً نزلق في الأوحال ، وبعد أن قطعنا عدّة أنهار شديدة الفيضان من السيول وصلنا إلى لاغاهارديم ، وهذه القرية هي جملة أكواخ مبنية على هضبة مرتفعة يجري في سطحها نهر صغير ، وسكان لاغاهارديم من المسلمين مثل البلاد التي مررنا بها في طريقنا وليس فيها من المسيحيين إلاّ قليل .

نزلنا في محل قريب من أكواخ القرية حتى إذا نزل المطر التجأنا إلى الأكواخ وتركنا الخيام لئلا نقع فيما وقعنا فيه ليلة البارحة ، ولرأس ماكونن هنا منزل كبير بيضي الشكل مبني على طرز الأكواخ الأخرى ، فأحضر لنا الأهالي بعض جلود البقر فبسطناها على القاع تحت شجرة أمام منزل الرأس ماكونن وفرشنا عليها البسط الموجودة وجلسنا للاستراحة وتناول الغداء ، ولو لم يأت الأهالي بهذه الجلود لما تسنى لنا الجلوس على البسط من كثرة الأشواك النامية في هذه الأراضي ، وبعد الطعام

زرت منزل الرأس ماكونن فوجدت مساحته 16 متراً طولاً و8 أمتار عرضاً له حاجز في أحد الجوانب من عدة أعمدة يستند عليه السقف ، ويستعمل هذا المحل المحجوز كخزانة لحفظ الذخائر وما يلزم للمنزل ، وقد ألصق على الحائط الداخلي قماش أبيض ووضع أمامه مقعد للجلوس ، ليس في هذا المنزل من التزيينات سوى بعض جرائد مصورة معلقة على الحائط وصورة ملكة إنكلترا وصورة قيصر الروس وصورة ملك اليونان وصورة الرأس صاحب المنزل نفسه . وأما الرأس فلا يسكن هنا بل يأتي هذا المنزل ويقضي فيه ليلة أو ليلتين عند مروره في تجواله في هذه البلاد أو خروجه إلى الصيد والقنص ، وفيه حارس قد أفرغ المنزل بشكل فندق ينزل فيه أبناء السبيل ، وكان يبيع فيه الجرار والقرع والمشروبات المسماة (طاللا) و(تج) ضمن قناني تبيعها لعابري السبيل حبشية حسناء تعرف الطرق اللطيفة لاستجلاب الزبايين ، والمشروب المسمى (طاللا) هو ضرب من الجعة (بيرا) المعروفة يستخرج في هذه البلاد من الشعير أو من الذرة ، وأما المشروب المسمى (تج) فإنه مزيج من الماء والعسل مختمر بنوع من الأعشاب تسمى (كجو) بعد أن يمر عليه زمن يكون في حدة طعم الشامبانيا ، وإذا شرب الإنسان هذا المشروب وهو جديد يجد له طعماً كطعم عصير العنب ولا يسكر شاربه . . والمسلمون هنا يستعملون هذا المشروب من غير أن يضعوا فيه (كجو) ويسمونه برز .

إن محل نزولنا هذا اليوم كان أجمل المحلات التي كنا ننزل فيها فكان أمامنا سهل زمردي واسع فيه بعض التلال التي تشبه الأمواج في البحار ، وكان على جوانبنا وورائنا هضاب عالية ذات خضرة لطيفة ، وكنا نمر في طريقنا على كثير من أشجار تسمى هناك (قول قوال) وهي شجر اللاستيك ، وتارة يكون مقدار هذه الأشجار كثيراً وتارة تقلّ جداً حتى وصلنا إلى هنا ، والأنهار التي مررنا منها لا يمكن قطعها بعد شهرين أي في إبان فيضانها في موسم اشتداد الأمطار فتضطر القوافل أن تنتظر أياماً على شاطئ النهر وقت هبوط الفيضان . . لذلك يجب علينا أن نفتكر في طريق آخر للإياب إلى ساحل البحر .

إن النقطة التي نحن فيها الآن ترتفع عن سطح البحر 1600 متر ، وهذه الأراضي وما حولها من نهر (هرنا) الذي كنا مررنا به قبل ثلاثة أيام إلى نهر (أواش) الذي سنصل

إليه بعد ثلاثة أيام أُخر كانت كلها لمدة قريبة تحت إدارة (فينور أرى آصنعا) ولكن الرأس ماكونن نزع إدارة هذه البلاد منه وألقاه في غيابة السجن مكبلاً بالحديد عقاباً له على ضربه أحد عبيد الرأس المومأ إليه بغير حق ، وهنا وفد علينا (آتو آفني) شوم هذه الأراضي (أي عمدتها) ومعه سكرتيره آتو سارتي ، آتو آفني هذا كان حضر واقعة (عدوه) المشهورة التي حدثت بين الطليان و الأحباش وكان تحت إمرة رأس ماكونن ، وقد شرح لنا بعض حقائق عن هذه المعركة سندرجها في محلها ، وكان يحمل مسدساً كان اغتنمه في الواقعة المذكورة من الطليانيين فأرانا إياه وقال : إن الطليان قتلوا من الأحباش برصاص المسدسات من هذا النوع أكثر ممن قتلوا برصاص البنادق فكنا إذا اقتربنا من المجروح الطلياني يطلق من مسدسه مع ما هو عليه من عدم القوة .

رأينا هنا قرب كوخ بجانب كوخ الرأس اثنين من شبان الأحباش يطحنون بمدقات خشبية النبات المار ذكره المسمى (كجو) وقد وضعوه ضمن (هاون) كبير مصنوع من الخشب ، فكانا يقولان عند كل دقة (اينج اينج اينج) والنساء قد أحطن بهما يغنين بأنغام موافقة لضربات المدق .

وبعد أن تفرجنا على هذا المنظر و الأحباش والحبشيات تفرجوا علينا أيضاً دخلنا لنرى أحد أكواخهم فرأيت فيه فتاة تطحن دقيق الحبوب المسمى (دف) فكانت واقفة على رجليها وراء القسم العالي من الحجر وتضع الحبوب على الحجر وتضغط عليها بأسطوانة حجرية فينطحن الحب وينزل دقيقه إلى المحل الموجود بالقسم السفلي من الحجر ، وطريقة الطحن هذه لا تشبه قط الطريقة المستعملة عندنا للطحن بواسطة الأرحية ومطاحن اليد ، ثم كان في وسط الكوخ نار مشتعلة وعليها قدر فيه طعام ، فكان الدخان المتصاعد من النار يخرج من شقوق صغيرة بجانب السقف وبقرب القدر امرأة طاعنة في السن جالسة على الأرض وهي تدخن بنوع من الشيشة مصنوعة من القرع لها فم طويل من البوص بدلاً عن اللي ، ورأس الشيشة من الفخار موضوع على رأس القرع في القسم الأقل ثخناً منه ، ويوجد بأحد أركان الكوخ سرير يسمى (الفا) نصب هناك لنوم صاحب المنزل ، وقوائم هذا السرير وأطرافه مصنوعة من الخشب والوسط من سيور الجلد ، وبركن آخر بضع نسوة جالسات على الأرض ينقون القمح والدف وأمامهن صواني كبيرة مصنوعة من النبات أو من جلد البقر ،

وفي المخزن الخاص بحفظ ذخائر المنزل يرى الإنسان كثيراً من أنواع القرع يستعملونها بدلاً عن القدور والخوابي لوضع السمن والعسل وما ماثله ، ما أبسط هذه المعيشة ، وبالجملة إن ثروة هؤلاء الناس هي في الحقيقة ثروة طبيعية .

وبعد قليل وردت قافلتنا فنصبت الخيام وأحضر الطاهي الطعام فتناولناه ، وكان الماء كدراً جداً من كثرة السيول فاضطررنا لترويقه حتى تمكنا من شربه ، ونحن الآن على علو 1600 متر عن سطح البحر .

مرحلة قاجانواها

يوم الأربعاء 26 مايو / أيار

صعود ونزول في طرق وعرة ـ طبيعة الأراضي تتغير ـ الصيد الكثير ـ قرع بدل تمثال

أصبح المكارية اليوم وطلبوا الصناديق والأعمال باكراً لوعورة الطريق وكثرة الصعود ، ولذلك قلعنا الخيم في الساعة الحادية عشرة وسلمنا الأحمال للمكارية ، وبينما كنا نشرب القهوة قبل قيامنا وفد علينا للوداع آتو آفني المار ذكره ومعه آتو سارتي ومأمور البوليس وغيرهم .

وفي الساعة الثانية عشرة سرنا صاعدين جبل (آلنوكي) الذي كنا نزلنا في سفحه ، وهذا الجبل في غاية الوعورة ولكن الطريق الذي كنا نمشي فيه كان كثير المنحنيات فلذلك كانت البغال قادرة على تسلقه ، وإن بصعوبة . وبعد ذلك أخذنا نسير في هضاب ذات صعود خفيف وانحدار ، وفي الساعة الواحدة بلغنا الذروة التي كانت أرفع نقطة من هذا الجبل وهنا ظهر أمامنا على استقامة الجهة التي نحن متوجهون إليها حوضة (آواش) يقطعها نهر (آواش) الذي كان بحاله هذه أشبه بسلك رفيع من الفضة كما أننا رأينا جبل (قومبي) .

أما الأشجار الموجودة على جبل (آلنوكي) فإنها كانت صغيرة بالنسبة لأشجار الجبال الأخرى ولم تكن في حالة غابات بل كانت متفرقة ، ويوجد بين هذه الأشجار شجرة

تشبه المسلة لا يزيد علوها عن ثلاثة أو أربعة أمتار ، ولكن يتكون منها في الأرض دائرة لا يعلو قطرها عن عشرة أمتار أو خمسة عشر متراً ، وأغصانها ممتدة أفقياً ، وهنا أخذ منظر الأراضي يتغير فصرنا نرى جبل (قومبي) العاري عن النبات حتى إن الإنسان يظن أن هذه الأراضي سبخة لا تصلح للزراعة ، ولكن علمت من الذين كانوا برفقتي أن هذا الاصفرار ناشئ من لون الحشائش المصفرة وأنه ليس لون الأرض . واستمر نزولنا في الانحدار على جهة الصحراء من جبل (آلنوكي) من الساعة الواحدة إلى الساعة الثالثة وكان هذا المنحدر أيضاً وعراً وحزناً كالصعود ، ولما رأيت ما يعانيه بغلي من التعب أشفقت عليه فنزلت لأسير راجلاً ولكن ما قطعت مسافة ربع ساعة حتى رأيت نفسي مضطراً للركوب ثانياً لأن رجلي زلت مرتين فوقعت على الصخور وعلمت من ذلك أن البغل أمهر مني في السير في هذه المحلات لأنه تعود السير في تلك الأودية والجبال الوعرة ، وفي الساعة الثالثة بلغنا سفح الانحدار ودخلنا في أراضي (ارغه غا) والأشجار هنا صغيرة لا ظل لها وبعضها متفرق عن بعض .

هنا أخذت طبيعة الأرض تتغير ، فرأينا حشائش ونباتات قصيرة صفراء بدلاً عن الحشائش الطويلة الخضراء ، وصرنا نبحث هنا عن شجرة لننزل في ظلها فنتغدى فوجدنا واحدة بعد بحث طويل ولكن ظلها لم يكفِ ، لذلك فقام أبو بكر جاويش الذي كان على غاية من النشاط في أشغاله وقطع أغصاناً كثيرة من الأشجار الأخرى ووضعها على أغصان شجرتنا وأراد المكارية بالنظر لشدة تعب البغال أن نقضي الليل في هذا المحل ، ولكن لم أوافقهم على ذلك ، بل بعد أن تناولنا طعام الغداء واسترحنا قليلاً قمنا مستأنفين السير متوجهين إلى (قاجانواها) التي كنا اتفقنا على النزول فيها وقد تخلف المكارية والبغال وراءنا فكررت عليهم وجوب اللحاق بنا ، وقبل السير سقينا بغالنا من المياه الراكدة هناك المتخلفة من مياه الأمطار ، والمحل المذكور كان شديد الحرارة لوقوعه في بقعة منحطة .

ورأينا صنفاً من الطيور بجسامة الديك الرومي يسمى بحّاً وكثيراً من الدجاج البري والغزلان والأرانب فضربنا بالبندقية ثمانياً من الدجاج (بحّاً) فوقع البعض منها بين الشوك والحشائش فلم نجدها والبقية أخذها الطاهي ليجهزها لطعام المساء ، مررنا هنا بشجرة معلق عليها قرع ذو ذنب يستعمل للشرب في هذه البلاد وتحت الشجرة

على الأرض خرقة مفروشة وقد قيل لنا إن هذا القرع وهذه الخرقة موضوعتان تذكاراً لأحد الفابلين المشهور بالشجاعة والبأس .

وفي الساعة عشرة بلغنا (قاجانواها) ومعناها (الماء الصغير) فوجدنا هنا الأشجار النامية على طرفي النهر كبيرة ومتلاصقة والقاع مستوراً بالخضرة ، والناظر على طول النهر يرى أمامه منظر الماء تظلله الأشجار الكثيفة كأنه نفق والحاصل أن هذا المحل كروضة من الجنان بالنسبة إلى الصحراء القليلة الأشجار والخضرة والكثيرة الحرارة ، ويوجد هنا كثير من شجر التمر الهندي فأخذنا نقطف منه ونحله بالماء ثم نشربه . ومنبع نهر قاجانواها في سفح جبل (كومبي) ويجري ببطء وسط نفق مصنوع من الأشجار من غير أن يرى أشعة الشمس ، وهذا النهر اللطيف مشهور بالمهالك والمخاطر وذلك لأن الحيوانات الوحشية مثل الأسود والنمور والذئاب والضباع تأتي إلى حافته وتلتجئ لظلال الأشجار هرباً من شدة حرارة الصحارى والقفار والذي لا يأتي منها في النهار يأتي ليلاً ليشرب ماءً ، لذلك أقمنا صواويننا بعيداً عن الماء بمقدار خمسمائة متر حسب عادة هذه الجهات على رابية مرتفعة ، ولم نغسل أيدينا وأرجلنا ووجوهنا ونستريح قليلاً على ساحل الماء إلا والسلاح بأيدينا وقد استحضرنا معنا الماء اللازم لنا ليلاً قبل أن يهجم الظلام .

يوجد على بعد مسافة كيلو متر واحد من النهر هضبة قليلة الارتفاع عليها بعض أكواخ متروكة وقد علمت أن هذه الأكواخ كانت مخازن لبنادق (جرا) التي اشتراها الإمبراطور منليك من الفرنسويين ، وإن الأحباش كانوا يوزعون هذه البنادق من هنا على المعسكرات والبلاد ، وقد وجدنا في محل نزولنا كثيراً من الحطب والحشايش المجففة التي تركها الرأس ماكونن ، وقد كان مرّ من هنا قبلنا بقليل .

وتقرر أن نرحل من الآن وصاعداً من محل نزولنا قبل بزوغ الشمس وذلك لشدة حرارة السهول التي سنمر بها على طريقنا ، وقد قضيت الليل تحت الصيوان الصغير ولم أشأ إقامة الصيوان الكبير ، أما الجنود والبغالة فإنهم ناموا في العراء لشدة الحر ، أقمنا هذه الليلة الخفراء أكثر من سائر الليالي ، كما أننا أكثرنا من وقود النيران إبعادا للوحوش الكاسرة ، وفي الليل ثارت زوبعة شديدة وكان يتخلل صوت الريح الشديد أصوات الجنود والبغالة وهم ينشدون ، بعضهم باللغة الفابلية وبعضهم باللغة الحبشية .

مرحلة فنطاللي

يوم الخميس 27 مايو / أيار

نهر آواش - الاقتصاد في الجسر (الكوبري) - كره يو - أراضٍ بركانية

قمنا اليوم قبل الفجر وأخذنا نحمّل أثقالنا لنتمكن من السير قبل أن يشتد الحر، وسرنا في منتصف الساعة الحادية عشرة أي مع بزوغ الشمس وقطعنا نهر (قاجانواها) ثم أخذنا نسير في أراضٍ ذات هضاب قليلة الارتفاع، وبعد أن قطعنا بضعة مجاري أنهار ليس فيها ماء وصلنا في الساعة الواحدة والربع إلى نهر آواش، وفي أثناء سيرنا كنا نسمع تارة عن يميننا وطوراً عن يسارنا أصوات الضباع والذئاب وغيرها من الحيوانات.

يجري نهر آواش في وادٍ كبير كثير الميل والماء عميق بالنسبة لجسامة النهر، ولا يتمكن الإنسان والحيوان من الوصول إلى حافة النهر إلا بعد صعوبات جمة إذ يمر من طريق كأنه درجات سلم من كثرة الصخور الكبيرة، ويوجد جسر (كوبري) طوله 25 إلى 30 متراً وعرضه متران مشيد على عوارض حديدية وأكثر ما فيه من الخشب، وقد أقيم على القسم الأقل عرضاً من النهر، وقد شيدت الحكومة الحبشية هذا الجسر عقب الحرب الحبشية الطليانية، والطرف الواحد من الجسر عليه ألوان الراية الحبشية وعلى الطرف الآخر ألوان الراية الطليانية، فالناظر إلى ذلك يظن أنه أمام قوس قزحأو نموذجات من الألوان كلها.

ويمتنع الناس عند انحطاط المياه من المرور من الجسر، بل يمرون من النهر نفسه خوضاً ويوضع على طرفي الجسر كثير من السياج وعليق منعاً للمرور ويوجد بالجهة التي أتينا منها كوخ صغير خاص لإقامة الخفير المكلف بملاحظة عدم مرور الناس من الجسر عند نقصان مياه النهر، وقد قيل لنا إن القصد من ذلك هو الاقتصاد في الجسر حتى يبقى مدة طويلة.

جلسنا مدة على حافة النهر ومتّعنا أبصارنا بجمال الماء وانحداره البديع والبعض

منا استحم من غير أن يجسر أحد على الدخول لوسط النهر خوفاً من التماسيح التي تكثر فيه وقت فيضان النهر ، وهذا النهر هو أعظم أنهار الحبشة طول مجراه ٧٠٠ كيلو متر من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي ، ثم يغوص في البرك والمستنقعات بأراضي أوسا غربي خليج تاجورا ، ووادي آواش هو أحط الوديان في هذه الجهات لذلك ينصب فيه كثير من المياه والنهيرات من اليمين واليسار كما أنه يأخذ جميع مياه المطر التي تنزل على الجبال والهضاب الواقعة على طرفيه ، وهو أحد الطرق الطبيعية المؤدية من ساحل البحر الأحمر إلى داخل الحبشة وقد مررنا على الجسر لكثرة الماء في النهر وأخذنا نسير صعوداً على الجهة المقابلة لمحل نزولنا وكانت شديدة الوعورة ، وبعد قليل وصلنا إلى السهل ، ولشدة الحر لم نشأ أن نستمر على السير فنزلنا تحت شجرة وعزمنا على المكث هنا إلى وقت العصر وأخذ البغالة بغالهم وعادوا إلى النهر ليسقوها بعد أن أنزلوا عنها الأثقال ، والسبب في ذلك هو أنهم لو سقوا البغال ونحن مارون على النهر وعليها الأحمال لعطشت البغال ثانية من شدة التعب الحاصل من تسلق الجبل ، وقد أخذنا معنا الماء اللازم لنا لأنه لا يوجد ماء في المحل الذي سننزله في هذا المساء .

قضينا النهار في حر شديد جداً حتى أن الشمع الموجود معنا ضمن الصناديق ذاب فصار كأنه كتلة طين ، ويقال لهذه الأراضي الكائنة على هذه الضفة من نهر آواش (عروس) ولا يوجد هنا من الأشجار الكبيرة إلا النادر ، كما أن الأشجار الصغيرة الموجودة هي عبارة عن شجيرات من العليق ، والنّبات الموجود مصفر اللون قليلاً ، ولما كنا ننام ليلاً في الجبال الأخرى التي مررنا بها كنا نقوم في الصباح فنجد الصواوين وكل ما بقي خارجها من الأثقال وغيرها مبتلة جداً من كثرة الندى ، وأما هنا فلم نرَ أثراً للندى ، وقد قيل لنا : إن المطر لا ينزل في هذا المحل إلا قليلاً لانحطاط الموقع وقلة الأشجار فيه ، ويوجد في هذه البادية قوم يسمون (كره يو) يعيشون عيشةً بدويةً يرحلون من محل إلى محل ، لا يعرفون الزراعة والفلاحة ولا يدينون بدين ، لونهم أسود ولباسهم فوطة في وسطهم فقط ومنهم من يضع فوطة أخرى على أكتافه ولا يعرفون أكل الخبز بل يتغذون بألبان الماعز والنعاج والنوق والبقر وليس لهم خيام أو صواوين بل يصنعون أكواخاً حقيرة من أغصان النباتات والحشائش المجففة على علو

متر واحد ، ويدخل الواحد منهم إلى كوخه زحفاً على يديه .

اشتد الحر اليوم جداً وصار الجلوس داخل الصواوين من المستحيل والأشجار الموجودة في محل نزولنا ، قليلة الظل لصغرها وقلة أوراقها ، فاضطررنا لقطع كثير من أغصان الأشجار الأخرى وأوراقها لنضعها على أطراف الأشجار التي كنا نستظل تحتها ، وكان أنشطنا في هذا العمل شوكت أفندي الألباني فإنه أخذ يقيم أكواخاً من أغصان قطعها وأتى بها من أشجار بعيدة كأننا سنقيم هنا مدة طويلة فكان يشتغل بدون تعب وكلل تحت الشمس المحرقة . ولما آن أوان السير عصارى النهار كان لا يزال يشتغل في إتمام الكوخ الذي اضطر إلى تركه وهو ينظر إليه بتحسر .

بعد أن غادرنا هذا المحل وسرنا قليلاً غاب مجرى نهر آواش عن أبصارنا ولم نره ثانية ، وكان لون صخور المجرى أسود جداً ، وقد رأينا قافلة آتية من داخل البلاد ومعها جلد أسد اصطيد حديثاً .

داومنا السير إلى ما بعد المغرب بساعتين ونصف الساعة ، وقد مررنا من مضيق جبل فنطاللي ونزلنا في هذه الساعة في العراء من غير أن ننصب الخيام ، وكنا قد أخذنا معنا أربع صفايح كبيرة مملوءة ماء من نهر آواش وسلمناها إلى البغالة قبل سفرنا من مرحلة النهر المذكور ، فلما بلغنا المضيق طلبنا منهم صفائح الماء فلم نجد فيها نقطة ماء ، فأخذوا يعتذرون بأن الماء تسرب من خروق الصفائح على أننا كنا صنعنا هذه الصفائح عند ما كنا في هرر بصفة خصوصية لحفظ الماء وجعلنا لها أغطية محكمة الوضع لمنع نفوذ نقطة ماء منها للخارج لكن علمنا أن البغّالة أرادوا أن يخففوا الحمل عن البغل فشربوا من الماء ما شربوه وصبوا الباقي في الطريق فدعانا هذا الأمر أن نراقب آنية الماء بعد الآن مراقبة دقيقة وكان الطاهي طبخ لنا طعام المساء قبل قيامنا من آواش ووضعه في أوان مخصوصة ، كما أنه كان ملأ الكيزان الكبيرة بالماء ، ولولا ذلك لكنا وقعنا في حيرة وارتباك من عدم وجود الماء ، هذا وقد أقمنا على أطراف محل نزولنا سوراً من الصناديق والأثقال التي كانت معنا حتى لا تدوسنا بغالنا التي كانت ترعى بجانبنا ، وفي الليل ثارت زوبعة شديدة جداً فحمدنا الله على أنّا لم ننصب الصواوين التي ما كانت تستطيع مقاومة هذه الرياح الشديدة التي أقلقت راحتنا وأذهبت نومنا ، فاضطرتنا أن نحمل أثقالنا ونستأنف السير ففي أواخر الليل كنا

سائرين على الطريق وأمامنا مصباح ينير لنا الطريق الذي كان في غاية الوعورة ، ولولا نور المصباح لسقط كثير منا في حفر عميقة موجودة بين الصخور والأحجار ، وقد كان الطريق صخرياً وكانت صخوره كثيرة التعاريج كثيرة الهبوط والصعود والسائر فيها يظن نفسه سائراً في مقلع أحجار ، وذلك من تأثير السيول الجارفة وفعل البراكين ، وبينما يكون السائر متتبعاً أثر الطريق الظاهر في أرض مستوية إذ يقف أمام حائط من الصخور الشامخة فيضلّ طريقه ويضطر للبحث عن طريق آخر للنزول أو الصعود ، وبعد ساعتين مررنا بمضيق (ابباجنبر) وكنا نسير على فم بركان يحيط به كثير من الفحم ، فكانت روائح الغاز منتشرة جداً حتى أن يس جاويش سأل (هل هذا المحل خاص باستخراج الغاز) وبالجملة إن هذا البركان كان كأنه لم يطفأ .

وهذا المضيق سمي بهذا الاسم نسبة إلى رجل من مشاهير الحبش يسمى (ابيا جنبر) فقتلته قبيلة (كره يو) المار ذكرها غيلة في المضيق المذكور ، ورأينا هنا بغلاً تركه أصحابه لأنه انقطع عن السير لما أصابه من التعب فالموت ملاقيه لا محلة لأن مورد الماء بعيد عنه فإذا سلم من أنياب الحيوانات المفترسة لا يسلم من العطش ، وإذ كنا في أواخر الشهر القمري طلع علينا القمر فصار يساعدنا على السير في هذا الطريق ثم نزلنا لنستريح هنيهة ونتناول قليلاً من القهوة .

مرحلة تاديجامالكا

يوم الجمعة 28 مايو / أيار

ديك ديك ! بح ! ـ ارغوببا ـ حر شديد ـ النار والدخان ـ الذباب الهائل ـ المواشي الجميلة

أخذ الطاهي بعد نزولنا يجهز لنا ما يلزم للفطور صباحاً فطبخ القهوة على نار النباتات الجافة فكان فطورنا عبارة عن القهوة وقليل من خلاصة مرق اللحم المسمى (ليبك) والبقصماد ، وبعد استراحة ثلاثة أرباع الساعة استأنفنا المسير ، وبعد قليل ظهر جبل فنطاللي أمامنا ظهوراً تاماً فكان كقوس يحيط بالأرض التي كنا نسير فيها ، وبعد برهة بلغنا طرفه الواقع أمامنا وأخذنا نتسلقه من سفحه ذي الصخور العظيمة ، فلما بلغنا

ذروته رأينا أمامنا جبل (فرحان) وعلى سفحه (تاديجامالكا) والوادي ذو الأشجار الخضراء والنهر المسمى بهذا الاسم ، ولما عاينا هذا المنظر البديع ازداد شوقنا للوصول إلى هذا المحل ، فصرنا ننزل بكل نشاط من هذا الجبل الأجرد الذي كنا نسير عليه ، وفي هذا المسير اصطاد شوكت أفندي بالبندقية بضعة غزلان صغيرة الجسم تسمى (ديك ديك) وهي أكبر بقليل من الأرنب الكبير ، ولا يكبر أكثر من ذلك وكنا كلما اقتربنا من تاديجامالكا نرى طيور الصيد مثل البح والدجاج البري واليمام البري بكثرة تشبه العصافير الدورية في مدننا لذلك منعنا صيدهم بالبارود خوفاً من نفاد القراطيس (الخرطوش) الموجودة معنا .

وصلنا إلى (تاديجامالكا) بعد أن قطعنا في سيرنا هذا اليوم ست ساعات ، ويجري من هذا الوادي نهر يسمى (قسام) وهو من توابع نهر آواش وينبع نهر قسام من سفوح جبل (مقرز) ويجري مسافة 200 كيلو متر تقريباً من الغرب إلى الشرق ثم ينتهي بنهر آواش قرب محل يسمى (سادي مالكا) وسعة هذا النهر كسعة نهر (كاغد خانه) (نهر قرب الآستانة يصب في خليج القرن الذهبي) وماؤه عذب وسريع الجريان ، ولكون مجرى النهر في (تاديجامالكا) يقرب من سطح الأرض الواقعة على حافتيه يفيض عند سقوط الأمطار على تلك الأراضي ويغمرها ، فلذلك تنمو الأشجار على طرفيه بكثرة ، رأيت هنا لأول مرة أصول الري بفتح الترع ، فقد حفرت ترعة في نقطة تبعد قليلاً عن (تاديجامالكا) وجرى فيها الماء من نهير وأسيل إلى الأراضي العالية الكائنة هناك فأحياها وجعلها مزارع مخصبة حيث بني فيها بضعة عشر كوخاً للزراع .

نرى الآن أمامنا جبل فرحان ولا يوجد في هذا الجبل أشجار كبيرة عالية مثل الموجودة في الجبال التي قطعناها ولكن يوجد ما يمكن أن يؤخذ منه الحطب اللازم لنا ، وفي هذا الجبل قوم من المسلمين يسمون (أرغوبة) ويشتغلون بالزراعة والفلاحة وعندهم كثير من المواشي مثل البقر والغنم والماعز وما أشبه ، أما الحر هذا اليوم فإنه كان شديداً جداً ، وقد كانت الأراضي التي مررنا منها في هذه المرحلة جبلية قليلة الماء والأشجار لذلك سررنا جداً لما رأينا الماء والأشجار والخضرة هنا ورأينا أنفسنا في نعيم عظيم ، ولما وصلنا إلى حافة النهر مررنا إلى الجانب الآخر لنرى محلاً جميلاً

نجلس فيه ، فوجدنا هناك الرجل الحبشي الذي كنا رافقناه في طريقنا ، فلما رآنا قام واستقبلنا أحسن استقبال ورجانا أن نجلس معه ، ثم أخذ يكرمنا بتقديم الكازوزة والقهوة . وبعد أن جلسنا مدة غير قصيرة تجاذبنا فيها أطراف الحديث معه ذهبنا إلى محل نزولنا وجلسنا تحت ظل شجرة بعيدة عن مجرى الماء واقعة في قطعة أرض مزروعة ذرة ، وسبب عدولنا عن النزول على ضفة النهر ما رأيناه من كثرة الوساخة والأقذار المتخلفة عن نزول القوافل هناك وكثرة الذباب والنمل وسائر الحشرات ، لذلك اخترنا هذا المحل ونصبنا مطبخنا فيه وأخذ الطاهي يطبخ ما اصطدناه من الغزلان والدجاج المسمى بحتّاً لإحضار طعام الغداء والعشاء معاً ، قلنا : إن الحر كان شديداً جداً وقد زاد الحر صعوبة الريح الحار التي كانت تأتي بالرمال والغبار والتراب وتلقيها علينا . والحاصل أننا لم نسترح كما كنا ننتظر عندما أقبلنا على هذا المحل ورأينا الوادي عن بعد ، وكنا نرى من محلنا الدخان متصاعداً من النيران التي أوقدها الأهلون على الضفة الأخرى من النهر في الحشايش والنباتات الجافة حسب عادتهم ، وكان صوت فرقعة الأغصان وهي ملتهبة يصل إلينا ، وقد اعتاد الناس في الحبشة إحراق الغابات والأحراش ليعملوا من أرضها حقلاً يصلح للزرع ، كما أنهم يحرقون كل سنة النباتات الجافة على الأرض ليقوم رمادها مقام السماد فتنبت الأعشاب نباتاً حسناً .

وقد أنزل البغالة الأحمال بعيداً عن النهر وساقوا أمامهم البغال التي كانت قد تعبت وظمئت جداً لأنها لم تشرب من حين قيامنا من محطة آواش فأخذوها إلى الماء فأخذت تكرع منه كرعاً يخيل لنا أنها لا ترتوي من شدة العطش ، وقد أثر حرُّ هذا اليوم على رجالنا من الجنود والبغالة مع أنهم من أهل هذه البلاد ومتمرنون على احتمال الحر وشدته ، فأخذوا يستلقون تحت ظلال الأشجار كأنهم أموات لا حراك بهم . وكنت أود أن أعرف مقدار درجة الحرارة في هذه الأصقاع ولكن كنت وضعت في هرر مقياس الحرارة في أسفل أحد الصناديق ظناً مني أن الطقس سيكون دائماً معتدلاً مثله في هرر وقتئذ ، وهذا الحرُّ أمره طبيعي ، لأننا بعد أن كنا على ارتفاع 2500 ـــ 2700 متراً في رؤوس الجبال هبطنا مرة واحدة إلى 92 متراً والذباب هنا كبير بقدر النحلة أخضر اللون وإذا لسع الإنسان يؤلمه كالنحلة والزنابير ، وبينما كنت أكتب هذه السطور ورد الماء قطيعان أحدهما غنم رأسها مع الرقبة أسود حالك وما بقي من

جسمها أبيض كبياض القطن الناصع ، والقطيع الآخر عجول صغيرة أجسامها بقدر أجسام الماعز ، ويلتقي طريق (جرجير) في هذا المحل بطريق (ادال) لذلك تتقابل القوافل هنا وتوجد أحياناً بكثرة . ورأيت بالقرب منا بضعة أكواخ متروكة من أكواخ القبيلة المار ذكرها المسماة (قره يو) ولم أعلم أنها أكواخ هؤلاء الناس حتى اقتربت منها وقد كنت ظننتها في بادئ الأمر ، أي عن بعد 200 متر ، خلايا للنحل ، وهذه الأكواخ هي عبارة عن عدة أغصان مغطاة بالحشائش الجافة ليس إلاّ ، ولما صار العصر أخذت القوافل النازلة على طرفي النهر تحمل أثقالها استعداداً للرحيل ، والعادة عند القوافل في بلاد الحبشة أنها إذا وصلت إلى نهرتريد النزول عنده تجتاز في الحال إلى الضفة الثانية وسبب هذه العادة هو خوف مفاجأة الأمطار للقافلة ، فإنها إذا انهمرت يفيض النهر فيتعذر بل ويستحيل وقتئذ العبور إلى الضفة الأخرى فتضطر القافلة إذا كانت لم تجتز النهر إلى انتظار زوال الفيضان ، وهذا يؤخر سيرها بالضرورة فلذلك يعبرون الماء وينزلون على الضفة الأخرى حال وصولهم إلى النهر . ولما أزف الرحيل كان كل واحد منا عديم النشاط مضعضع الجسم كأنه مريض ، وهذا من كثرة الرطوبة الناشئة عن المياه الراكدة على أطراف هذه الأراضي فقمنا نحمّل أثقالنا ونتزود من الماء لنصعد الهضبة الكائنة أمامنا وننزل في محل مرتفع للمبيت فيه ، فبعد أن سرنا نحو ساعة ونصف الساعة وصلنا إلى السهل الكائن بأعلى الهضبة المذكورة فنزلنا ، وبعد أن تناولنا طعام العشاء بعزم شديد نمنا ولم نصبح إلا وقد زال عنا كل ما طرأ علينا من الكسل قرب النهر .

مرحلة جوبا

يوم السبت 29 مايو / أيار

عجلة لتمهيد الطريق ـ تمهيد طريق للعجلة ـ نيران هائلة ـ نزولنا في العراء

استيقظنا قبل بزوغ الشمس ، فوجد كل واحد منا في نفسه نشاطاً وهمة بفضل الهواء الجيد ، وقد كان ذهب اثنان من خدمتنا للبحث عن بغل ضلّ البارحة منا

بينما كنا في (تاديجا مالكا) ولما لم يعودا ظننا أنهما لم يعثرا على البغل فعزمنا على البقاء هنا للعصر لانتظارهما ولاستجلاب الماء اللازم لنا من نهر (قسام) الذي مررنا عليه البارحة وهي فرصة حسنة أيضاً للبغال لتستريح ، وقد كنا نود أن نقضي النهار كله في العراء لنتمتع بذلك الهواء الجاف النقي الخالي من الشوائب ، ولكن شدة حرارة الشمس اضطرتنا لأن ننصب الخيام والصواوين ففعلنا ورفعنا سجوفها ليتخللها الهواء الطري المنعش للأبدان ، وعلمنا هنا أن الماء لا يوجد أمامنا في مرحلتي (جوبا) و(منابللا) اللتين سنقطعهما لذا أمرت رجالنا بتحضير طعامهم وخبزهم عن يومين حتى لا تضطرهم الحاجة لأخذ الماء الذي سنحمله معنا ، وهؤلاء الرجال لا يعلمون كيف يحتاطون لأنفسهم وليس عندهم أقل تفكير بما يأتي في الغد ، ففي الأمس كنا نازلين قرب الماء فلم يخطر على بالهم عجن الدقيق وخبزه ، ولما أمرناهم بتحضير عجينهم أرادوا أن يأخذوا الماء اللازم لهم من الماء الذي حملناه للسفر بدون أدنى تفكر في أنه سيلزم لنا في الغد ، هذا مع ما كنا سمعناه منهم أنفسهم من أن كثيراً من الناس هلكوا عطشاً بين نهر آواش و (تاديجامالكا) وبين هذه والمحطات الكائنة أمامنا ، ومع ذلك فإنك لا تجد واحداً منهم يحمل كوزاً أو إناءً أو ركوة لحمل الماء اللازم له بل إن كل واحد يتكل على زميله بحمل الماء . قلنا إننا نصبنا خيامنا للاستظلال ، أما المكارون فما نصبوا خيامهم ، بل صنعوا أكواخاً من أغصان الشجر وجلسوا تحتها للاستظلال لأن الشمس كانت محرقة هذا مع ارتفاع الهضبة التي كنا نازلين عليها ، وما شربنا قط ماء بكثرة مثلما شربنا هذا اليوم حتى أن رجالنا اضطروا مراراً أن يذهبوا بالقرب إلى النهر ليملؤها منه ، بيد أن الحرارة أخذت قبيل الغروب تنخفض فقمنا واستأنفنا السير في طريق ممهّد مثل الطرق التي تعمل في البلاد المتمدنة (شوسه Chaussa) وقيل لنا : إن جلالة منليك نجاشي الحبشة كان أوصى من أوربا على عدة تدار بالبخار لرصّ الشوارع (مثل التي تستعمل بالقاهرة لرص الشوارع ويسميها العوام وابور الزلط) وقام بجر العدة بضعة آلاف من الرجال بالمناوبة حتى أوصلوها من الساحل إلى هذا المحل عن طريق (آدال) لأنه أكثر سهولة من الطرق الأخرى ، ولما وصلت العدة إلى هذا المكان لم يعد في الإمكان جرها لصعوبة الطريق لذلك استعملوا آلافاً آخرين من الناس لفتح طريق يذهب من هذه الهضاب

والحزون إلى أديس أبابا عاصمة المملكة ، وبذلك تسنى لهم إيصال العدة المذكورة إلى العاصمة . وبالجملة فقد أتوا بالعدة لرص الطريق ولكن عملوا طريقاً لإيصالها ، وقد كنا نسير مرة على الطريق المذكور ومرة أخرى نحيد عنها ونقطع الأراضي السهلة اختصاراً للمسافة ، ولما خيم علينا الظلام رأينا عن بعد ناراً عظيمة متأججة قرب قلعة بلغا على جبل واقع على يميننا ، وقد سألنا فقيل لنا إن السكان هناك يحرقون غابة كثيفة ليجعلوها حقلاً يصلح للزرع ولما اشتد الظلام أوقدنا مصباحاً وحمله أحد رجالنا وسرنا نقطع طريقنا على نوره حتى وصلنا (جوبا) ، ويسمى مجموع الأراضي من (تاديجامالكا) لحد المحطة المسماة بالجي مقاطعة منجار .

إن جوبا هذه هي عبارة عن قرية صغيرة مؤلفة من بضعة عشر كوخاً كسائر قرى هذه البلاد ، وليس فيها مياه جارية ولا ينابيع لذلك تجد نساء أهلها يذهبن إلى الأماكن البعيدة ليأتين بالماء من غدران أو برك تجمعت هناك من مياه الأمطار ، ولما وصلنا جوبا لم تكن وصلت بغالنا بعد فاضطررنا أن ننزل في العراء وأن نستعمل البسط بدلاً عن الفرش والكساوي الكبيرة بالطو بدلاً عن اللحف وأخراجنا بدلاً عن الوسائد .

محطة منابللا

يوم الأحد 30 مايو / أيار

أعمال النساء الشاقة ـ طاللا

لم تصل إلى الآن أحمالنا ومتاعنا ولم نشأ أن نبقى في محل كهذا ليس فيه ماء لذلك عزمنا على السير إلى المرحلة الأخرى الكائنة أمامنا وهناك ننتظر وصول البغال والأحمال ، وعلى ذلك أخذنا في السير وبعد ساعة مررنا بمسجد خرب ومدافن خاصة بمسلمي قبيلة (اورغوبة) وعاينا من هنا بحيرة ذات ماء مالح تسمى غلوله على بعد خمسة أو ستة كيلومترات على يسارنا ، وبعد أن سرنا أربع ساعات بلغنا (منابللا) وسكان هذه القرية يأتون بالماء اللازم لهم من غدران تجمعت من ماء المطر كائنة في واد

عميق خطر المنحدر جداً ، وقد ذهبت إلى أعلى الوادي وأشرفت من هناك على تلك الهوة العميقة فهالني ما رأيته من عمق الوادي ووعورة الصخور والأحجار ، ويكاد الإنسان يعتريه دوار من هذا المنظر الرهيب ، والوادي ليس فيه شيء من النبات بل كله أحجار وصخور سوداء ، وقد تذكرت هنا الوادي الموجود فيه دير مار سابا في فلسطين الخاص بسجن وإقامة الرهبان المحكوم عليهم أو المراد تهذيب نفوسهم ، فإنه يشبه من كل الوجوه هذا الوادي الهائل بوحشته وعدم إنباته وقلة مائه وانقطاع المرور منه ، وقد رأيت النساء وهن صاعدات يتسلقن الصخور وعلى ظهورهن أو رؤوسهن الجرار الكبيرة المملوءة ماء .

نزلنا تحت شجرة خفيفة الظل فأخذ أبو بكر جاويش الذي كان نشيطاً جداً وسائر خدمنا يقطعون الأغصان من الأشجار ويضعونها على شجرتنا ليتسع ظلها ويكفي لإظلالنا على قدر الإمكان ، وبعد قليل حضر رجل ومعه قربة ماء فاشتريناها منه ثم أتت امرأة عجوز تحمل جرة كبيرة من المشروب المسمى طاللا فباعته لجنودنا الذين أحاطوا بالجرة في الحال لشغفهم بشرب هذا المشروب ، ثم أخذوا يشربون ما في الجرّة بالقرع المجفف الذي يقوم مقام غطاء لها ومقام كأس للشاربين ، ولم يمضِ خمس دقائق حتى نفد ما في الجرة فلما رأى بنات القرية ونساؤها إقبال الجنود والخدم على شرب طاللا صرن يأتين بجرار ويحومون حول قافلتنا ليبعنها لجنودنا وخدمنا ، ولما رأيت أن هؤلاء الجنود والخدم شربوا كثيراً خشيت أن يتجاوزوا الحد ونقع فيما لا تحمد عقباه ، فمنعت شرب طاللا هذا اليوم ، أما بغالنا والمكارون فإنهم ما زالوا متأخرين ولم يصلوا إلينا هذا اليوم أيضاً وسبب ذلك ترجيحهم راحة بغالهم ورعيها على حث السير ، ولكن نحمد الله على أنه كان في أجربتنا وأوانينا مقدار كاف من الغذاء والماء ، وكان الهواء مساعداً على النزول في العراء ، وإنما كانت الطرق والأطراف كثيرة الغبار من جفاف الطقس وقلة الماء اعتباراً من تاديجامالكا ، فكلما هبت الريح يتصاعد الغبار فتعمى الأبصار ، مكثنا هكذا تحت الشجرة وبيدنا المظلة طول النهار ، وقضينا الليل تحتها أيضاً متوسدين البساط الموجود معنا وقد وضعنا تحته قليلاً من الحشائش الجافة ليقوم مقام الوسائد .

مرحلة باجي

يوم الاثنين 31 مايو / أيار

طلع النهار وبزغت الشمس ولم يأتِ أحد من بغالتنا سوى المسمى (عيالّلا) فأرسلنا ثلاثة جنود ليبحثوا ويأتوا بهم إلى نهر (بوركا) حيث عزمنا على النزول ، ثم أخذنا في السير تارة في أراض مستوية وأخرى على هضاب قليلة الارتفاع وكنا نرى على طريقنا كثيراً من الدجاج البري والدجاج المسمى (تج) والغزلان والأرانب فاصطدنا منها ما يكفي لطعام المساء وحملها الخدم ، وفي منتصف الساعة الثالثة وصلنا إلى (هرورني) التي هي محل انعقاد سوق القطر المسمى (منجار) ، وجدنا هذه القرية الكبيرة معمورة وأكواخها منتظمة ، يجتمع فيها كل يوم سبت كثير من الناس يأتون إليها من القرى المجاورة للبيع والشراء ، وبينما كنا سائرين في الطريق لقينا عمدة (شوم) جرجر وما حولها المسمى أغاباش ولدو وهو مسلم وقد كان رافق الرأس ماكونن في رحلته إلى أديس أبابا حيث كان عائداً منها إلى بلده ، فبعد أن سلم علينا وتجاذبنا أطراف الحديث قال لنا إنه متأسف لعدم وجوده في الأراضي الكائنة تحت إدارته عند مرورنا منها ، وإنه يرجو نزولنا ضيوفاً في الأوبة وأن نخبره بسفرنا من العاصمة بالتلفون فتقبلنا دعوته بالشكر له ووعدناه بأن نمر عليه حين الرجوع وننزل عنده ، وقد مدح جنودنا هذا الرجل وأثنوا عليه وقصّوا لنا كثيراً من أحواله الخصوصية كثروته العظيمة وكرمه الخاص وشجاعته وعلو همته وأنه قتل بضعة عشر فيلاً وعدداً من الأسود والنمور وأنه جندل كثيراً من الأعداء في حومة الوغى .

استمرينا في السير حتى بلغنا نهيراً يسمى (بروكا) ، وقد سرّنا مرأى هذا الماء جداً لأننا بعد أن تركنا (تاديجامالكا) لم نرَ ماءً ولا أنهاراً ، وهذا النهر هو من توابع نهر (قسام) الذي كنا قطعناه في (تاديجامالكا) الذي مرّ ذكره .

والناظر إلى مائه يظن أنه واقف لا يجري لقلة انحدار مجراه ، ويكفي ماء هذا النهر لإدارة حجر طاحون واحد فقط ، وكنا نرى من هذا المحلّ قرية (باجي) على هضبة مرتفعة صعبة المنال وهي غربينا ، وما أشبه هذه القرية بعش النسر لارتفاعها ،

ويأخذ أهلها وأهل القرى القريبة ماءهم من هذا النهر ، وقد حفروا أيضاً حفراً يجتمع فيها ماء المطر فينتفعون بها ، بيد أن هذه الحفر يأسن فيها الماء فيغدو ضاراً .

فرشنا بساطنا تحت شجرة تبعد 30 متراً عن الماء ووضعنا على الشجرة بضعة أغصان وعدة من أغطية الجنود وجلسنا تحتها ، وبينما نحن كذلك إذ مر بنا ألوف من القردة فأطلق عليها شوكت أفندي بندقيته فأخذت تجري وتصيح وكان صغارها التي لا قدرة لها على الجري تركب على ظهر أمهاتها وآبائها فكان منظر هؤلاء الخيالة من القردة أجمل من منظر مشاتها فهو مضحك جداً وبعض هذه القردة سمين كبير الجسم جداً حتى أن شوكت أفندي ظنها أدباباً ولو لم أرَ كثيراً من القردة الكبيرة الجسوم في حدائق الحيوانات في أوروبا لكنت ذهبت مذهب شوكت أفندي ، وبعد قليل من نزولنا اكفهر وجه السماء واشتد البرق والرعد وأخذ المطر ينهمر كأفواه القرب وكنا لابسين أحذية المطر الطويلة الساق (الجزمة العسكرية) والكساء المصنوع من اللستك المانع لنفوذ الماء وبأيدينا المظلات فلم نبتل بالماء ، ثم انقطع المطر وتقشعت الغيوم وظهرت الشمس وراء السحاب مرسلة أشعتها الحارة ، وقد كانت اتسخت أجسامنا من الغبار الذي كان يثيره الريح في وجوهنا من حين قيامنا من مرحلة نهر آواش فلما استرحنا قليلاً أخذ كل منا يذهب وحده إلى محل في النهر للاغتسال وإزالة هذه الأوساخ ، وذهبت أنا أيضاً للاستحمام وتجردت من الملابس ووضعتها بين حجرتين ثم دخلت الماء وأخذت أنظف جسمي بالليف والصابون ولم يكن عندئذ أحد قرب هذا المحل فوضعت الصابون على وجهي وغمضت عيني لئلا يدخل الصابون فيهما ولما فتحتهما رأيت شيئاً مخيماً عليّ كقطعة من الغمام ولما أمعنت النظر استطلاعاً للخبر إذا هو حبشي لونه يقرب للسواد واقف على صخرة مرتفعة تعلو عن رأسي وهو منحنٍ على يديه إلى الأمام يمسك بهما احرامه الكبير وطرفه الواحد على رأسه وكان عاري الجسد إلا القسم الأسفل من جسمه ، فسألته بالإشارة عما يريد بهذه الوقفة الغريبة فأشار بإصبعه أولاً إلى الشمس ثم إلى رأسي ففهمت أنه يريد أن يحافظ عليّ من حرارة الشمس فشكرته ونويت أن لا أستحم بعد الآن في الشمس لأن شمس هذه البلاد تؤثر في الحال على رؤوس البيض فيصاب الإنسان بضربتها كما أني رأيت أن لا أقف بعد ذلك تحت شمسية ذات روح مثل التي وقفت

تحتها اليوم .

بعد أن أتممنا الاستحمام وجلسنا تحت شجرتنا اقترب منا بعض الأطفال اللذين كانوا يتفرجون على ملابسنا وأزيائنا فأعطى يس أفندي للأقرب منهم بعض قطع من السكر ، فأخذها وأراها لرفاقه فصاروا ينظرون إليها كمن لا يعلم ما الفائدة منها ثم ذاقوها بألسنتهم فلما وجدوها حلوة الطعم حكموا بأنها (ملح إفرنجي) وذلك لمشابهتها الملح في اللون ، وقد ترجم لنا كلامهم أحد خدمنا وبعد ذلك أكلوا قطعة السكر ثم صار كل واحد بالدور يطلب ملحاً إفرنجياً فوزع يس أفندي قطعاً أخرى عليهم فانصرفوا يشكرون ، ولما وصلنا إلى مرحلة بوركا ذهب بكر أفندي إلى مكتب التلفون الكائن في قرية (باجي) وشكا إلى عمدة (شوم) البلد والي أديس أبابا من كسل البغالة وإهمالهم ففي الحال قام العمدة وركب للبحث على المكارية وإحضارهم إلى حيث ننزل ، ولما قطعنا الأمل من انضمام بغالتنا لنا هذه الليلة أيضاً عزمنا على المسير إلى قرية (باجي) فكان الطريق وعراً كثير الصخور والحزون يكتنفه من جهته جبل شامخ يشبه الجدار ومن الجهة الأخرى هوة هائلة يبلغ عمقها بضع مئات من الأمتار ، فبينما كانت البغال تتسلق صاعدة في هذا الجبل الشاهق بكل مشقة وعناء كنت ترى بعض بنات الأحباش يصعدن بكل راحة وسرور وعلى ظهورهن أحمال الحطب أو جرار الماء وهن ينشدن الأناشيد ويغنين كأنهن راجعات من نزهة .

وصلنا بعد ساعة إلى (باجي) ، وجدنا هذه القرية في سفح هضبة مرتفعة جداً ومشرفة على وادي بوركا الذي مررنا منه وعلى الهوة التي أتينا منها ، دخلنا كوخ شوم البلد وكان البرد هنا شديداً فكنا نوقد النار خارج الكوخ ثم ندخله فيه للتدفئة ، فبينما كنا نشكو نهاراً من شدة الحر نشكو الآن من شدة القر ، والكوخ الذي كنا فيه كسائر أبنية هذه البلاد يشبه خيمة ذات سجف مدورة وفي وسط الكوخ عمود تستند عليه عواميد السقف وهي متفرعة منه كتفرع عيدان المظلات الحديدية ومستندة من الجهة الأخرى على حيطان الكوخ .

أما الباب فأطرافه من الخشب وهو نفسه (أي الرتاج) من جلود الثيران وقد كنت ذكرت أن الناس هنا يتخذون هذه الجلود بدلاً عن الطنافس لكثرة هذا الحيوان في هذه البلاد . وبناء الأكواخ في البلاد الحبشية يشابه بعضه بعضاً وإنما هناك فرق صغير في

بناء أكواخ البلاد التي في السهول المنحطة الشديدة الحرارة ، حيث يبيضون الجدران المصنوعة من العليق والنباتات بالكلس أي الجير على قدر قامة الإنسان ويتركون ما بقي على حاله استجلاباً لتيار الهواء ، وأما أكواخ الجهات المرتفعة الباردة فيتركون بعض ثقوب بنسبة شدة البرد فقط لذلك كنا إذا أقفلنا باب كوخنا هنا نظل في شبه ظلام .

وفي المساء وصل بعض المكارية بالأحمال فتعشينا واسترحنا على قدر الإمكان .

رأيت هنا نوعاً من الحصير أليافه رقيقة جداً كأنها شعر أو وبر ناعم وهو مع ذلك قوي ، كما أني رأيت نوعاً من الاحرامات يشبه الاحرامات المستعملة في ألبانيا يستعمله سكان هذه البلاد بدلاً عن الفرش للنوم وللتدفئة .

مرحلة تنيجة فيدنسا

يوم الثلاثاء ١ يونيو / حزيران

مراع مرتفعة ـ ثيران جميلة ـ نهر جنقورا ـ نهر لقادوبي ـ عراء الحيوانات الوحشية ـ برد شديد.

كانت نتيجة تشكّي رفيقنا بكر أفندي بالتليفون إلى أديس أبابا عن بطائة البغالة أن صدر الأمر لشوم البلد (أي عمدته) بالبحث عن البغالة فكان كذلك ، إذ نهض الشوم بنفسه للبحث عن المكارية وساقهم أمامه حتى أوصلهم إلى حيث كنا نازلين فأخذوا يعتذرون بالتعب الذي أنهك قوى البغال فلم تستطع السير الحثيث فقلنا لهم إننا بعد الآن لا نقوم من محطة ما لم تمشِ البغال كلها أمامنا كما أننا لا نسمح لهم بالابتعاد عنا قطعاً ، وفي الحقيقة إن البغال كانت في منتهى التعب والجوع من قلة الكلأ والمرعى في الطريق ومن مواصلة السير منذ بضعة أيام ، والذي ظهر لنا من حالة البغالة أنهم لا يريدون السفر هذا اليوم بل يريدون الراحة وقالوا أنهم لا يستطيعون مواصلة السير ما لم نمكث هنا يوماً لتستريح فيه البغال ثم إن بعض البغالة اختفوا عن أعيننا ظناً منهم أنه لا يمكن تحميل البغال ما داموا غائبين فأشرت بالبحث عن شعير

وذرة لنقيت بهما البغال فتقوى على السير ، ولما أحضروا الشعير وضعوه للبغال ، وبعد أن أكلت كفايتها أمرتهم بحمل الأثقال فحملوها على البغال على الرغم منهم وشدة رغبتهم بالبقاء هنا هذا اليوم ، وقمنا في الساعة السادسة والنصف وسرنا في أراضٍ منبتة مخصبة جداً كثيرة السكان والقرى حيث كنا نمر كل خمس عشرة دقيقة على قرى عامرة ، والمواشي هنا سمينة كبيرة الجسم كسائر المواشي التي شاهدناها في طريقنا ولم أرَ قط في حياتي مواشي أجمل من مواشي الحبشة ، وقد سبق لي ذكر طرف من جمال الماعز وبياض الخرفان الناصع في الفصول السابقة ، وأما ثيران الحبشة فإنها لا مثيل لها وهي كبيرة الجسم على رقابها سنام من اللحم وقرونها طويلة ومتناسبة كالأهلة ، وهي رخيصة جداً ، فالثور الذي لا يباع بأقل من 12 ليرة في غير هذه البلاد يؤخذ هنا بليرة ونصف وسبب ذلك قوة إنبات الأرض ووجود المرعى ، وقد كنت ذكرت آنفاً أن اللحوم في بلاد الحبشة كثيرة ورخيصة للغاية .

وصلنا إلى نهر جنقوره بعد أن سرنا ساعة ونصفاً ، ويجري هذا النهر في أرضٍ خالية من الأشجار وهو أسرع جرياناً من نهر بوركا فلذا كانت مياهه أنظف وهو يكفي لإدارة حجري طاحون ، وقد وقفنا هنا بضع دقائق تزودّنا من الماء وشربت البغال ثم سرنا في طريقنا مارين في سهول قابلة للزرع ، ولكن المزروع منها جزء صغير والباقي متروك ، وأما الشجر في هذا السهل فأخذ في النقصان فما كنا نصادف شجرة إلا كل ساعة ونصف ، والأراضي المتروكة غير المزروعة كانت مغطاة بطبقة من العليق والنباتات البرية ، وفي الساعة الحادية عشرة وصلنا إلى ماء (لقادوبي) الذي يشبه في بطء جريانه وانسلاله بين الصخور والأحجار ماء (بوركا) واصطدنا هنا بطتين بريتين ، ثم واصلنا السير إلى أن وصلنا في الساعة الحادية عشرة والنصف إلى ماء (تجغيد نسا) الجاري أيضاً ببطء وبعد نصف ساعة مررنا بماء آخر بطيء الجريان أيضاً وفي الساعة الحادية والنصف نزلت القافلة في الصحراء لقضاء الليل ، وهنا اضطرينا لكسر أحد صناديقنا الخاصة بالمؤن لنتمكن من طبخ طعامنا فحرقناه مع الجلة ، وأما نيران الليل فقد كانت كلها من الجلة لذلك كانت ضعيفة فكان ضعفها سبباً لاقتراب الحيوانات الوحشية في الليل منا وإزعاجهم إيانا بأصواتهم وعوائهم ، وكان البرد في الليل شديداً جداً فكنا طول الليل نرتعش من البرد ، وبردت مياهنا حتى تخالها مبردة بالثلج .

مرحلة عقاقي

يوم الأربعاء 2 يونيو / حزيران

هضاب متوالية - ضيافتنا عند الحاج أحمد أفندي - غرامافون - بوفه.

وفي الساعة الحادية عشرة صباحاً أشرقت الشمس وأخذت ترسل حرارتها على الأطراف ومع ذلك رأينا أن نشرب الشاي لتدفئة أجسامنا ، وما قدرنا أن نقوم من هنا إلاّ في الساعة الحادية والنصف (عربية) صباحاً وذلك لتمنّع البغالة من القيام بسبب وجود الكلأ بكثرة في هذا المحل ، ومذ رحلنا من (بالجي) أخذنا نقطع الأراضي بصعود خفيف ، وأما الأراضي التي كنا نقطعها اليوم فإنها كانت ذات مرتفعات ووديان خفيفة المنحدرات ، وقد لاح لنا على بعد الوادي المسمى عقاقي الذي عزمنا أن تنزل القافلة فيه ، وظننا أننا اقتربنا منه وأن ليس ثمة هضاب تحول بيننا وبين الوادي المذكور ، ولكن خاب ظننا هذا إذ كنا كلما صعدنا أكمة نرى أمامنا أخرى فنصعد في هذه وننحدر في تلك ، وهذا الطريق أشبه بالطريق بين رابغ والمدينة فإنه على هذا النمط أيضاً إذ يرى المسافر رابغ عن بعد فيظنها قريبة منه فإذا صعد هضبة رأى هضبة أخرى أمامه وبالجملة فقد وصلنا إلى وادي عقاقي في الساعة السابعة بعد أن قطعنا عدة أكمات ، وهذا الوادي واسع وعميق جداً إلا أن الماء الجاري فيه ليس بأكبر من نهير قسام الذي مررنا عليه في تاديجامالكا وفي موسم الأمطار ينصب في هذا النهر كثير من السيول ، فيفيض الماء ويأخذ بالارتفاع في هذا الوادي العميق ، لذلك أقاموا عليه جسراً (كوبري) منتظماً من الخشب على قوائم مبنية من الحجر طوله 30 متراً وعرضه متران ، وأطراف هذا الوادي مثل الأراضي التي مررنا منها عارية من الأشجار ، ولما نزلنا في هذا المحل وعزمنا على تهيئة الطعام لم نجد خشباً لإيقاد النار لتسخين طعامنا فاضطرينا أن نجمع من هنا ومن هناك قليلاً من القش والنباتات الجافة . كنا اتفقنا مع البغالة على أن ننزل هذا اليوم في (جولا) وهي على بعد ساعة ونصف من أديس أبابا ولكن مضى علينا ونحن في العقاقي بضع ساعات ولم يصل

منهم إلاّ بضعة أشخاص ، كما أن هؤلاء لم يرضوا أن ينتقلوا من عقاقي ولا خطوة بل طلبوا أن نقضي هذه الليلة هنا . ويوجد في أعلى هذا الوادي مزرعة ومنزل للحاج أحمد أفندي عبد القادر الجداوي الأصل أحد التجار الكبار في أديس أبابا وقد كان المومـا إليه دعانا بالتلفون عند ما كنا في (باجي) للنزول في منزله هنا وفي أديس أبابا ، وبينما كنا نتناول طعام الظهر قرب النهر إذ وفد علينا حقي أفندي الداغستاني جواهرجي الإمبراطور (منليك) وزكريا أفندي الألباني المتعهد للإمبراطور بالأشغال القصبية وصحبتهما كثير من الناس ورجال من وكلاء أحمد أفندي ومماليكه ، فكلفونا أن نصعد إلى المنزل الكائن في أعلى الوادي ، وبعد الطعام ركبنا البغال وأخذنا نتسلق تلك المرتفعات حتى بلغنا بعد نصف ساعة السهل الذي في أعلى الوادي ودخلنا في أراض مزروعة هي ملك أحمد أفندي عبد القادر ، ووجدنا بالمنزل الذي كان عبارة عن كوخ كبير كثيراً من الجواري والسود والمماليك وكلهن مشتغلات بتحضير الطعام وتهيئة المنزل ، وقد كن أقمن على الحشائش الخضراء التي أمام المنزل صيواناً كبيراً ذا قسمين وفيه فونوغراف كبير فأخذنا نسمع الأدوار التركية من أنغام الآستانة ونتناول من أنواع البسكويت والحلويات المجمدة المصنوعة من الفواكه مثل التفاح والكمثرى والأناناس وأشربة الليمون واللوز والرمان والسجاير المختلفة الأنواع ، فظننت نفسي في قاعة أعظم أوتيل ، وبينما كان الفونوغراف يغني أتى خدمنا وجنودنا الأحباش وأخذوا ينظرون في الآلة الحاكية فحاروا ودهشوا وأخذوا يتساءلون فيما بينهم (كيف دخل هذا الإنسان في هذه الآلة) ولم يقتنعوا بكلام القائل لهم أنه لا يوجد في الآلة إنسان ويظهر أنهم لم يروا الفونوغراف إلا هذه المرة قط والحق يقال أني أنا أيضاً دهشت ولكن من رؤية الفونوغراف في هذه الأصقاع إذ لم يكن ليخطر على بالي أني سأجد فونوغرافاً في أديس أبابا ، وبعد أن أوقفنا الفونوغراف أخذنا نتجاذب أطراف الحديث نحن والذين وردوا لاستقبالنا ، وقال لنا وكيل أحمد أفندي إنه تخلّف لاشتغاله بتزيين منزله وتهيئته في أديس أبابا ، وقد علمنا أن سرور المسلمين هنا من ورود الوفد السلطاني لا مزيد عليه حتى أننا رأينا البعض منهم يبكون من فرحهم ، وأُخبرنا بأن كل المسلمين القاطنين في أديس أبابا سيخرجون في اليوم التالي لاستقبالنا ، ولما وصلت البغالة ومعهم الأثقال نصبنا الخيام ، وفي هذه

الأثناء وصل أحمد أفندي عبد القادر من أديس أبابا وهو رجل على غاية من التربية والأدب والكرم وحب الخير ، وقد ثبت لي ذلك من أعماله ومن حسن شهادة الناس به ، ومما سمعته من المدح فيه والثناء عليه من أفواه الناس أثناء الطريق ، وقد عجبت جداً من نشاط هذا الرجل الذي مع كثرة خدمه ومماليكه ما كان يرضى إلا أن يشتغل بنفسه ، وقد أرانا ورقة فيها إذن من ناظر قصر الإمبراطور بنزول الوفد السلطاني بمنزله بعاصمة الحبشة وذلك بناءً على التماسه ذلك من النجاشي ، ولا يمكننا وصف ما لقيناه من الإكرام هنا والأدعية التي رفعت من أجل الحضرة السلطانية ، وقد أُخبرنا أن الاستقبال الرسمي الذي سيقام للوفد من قبل الحكومة سيكون في المحل المسمى (جولا) الذي يبعد ساعة ونصف الساعة عن العاصمة .

مرحلة جولا

يوم الخميس 3 يونيو / حزيران

الأدعية للحضرة السلطانية - الاستقبال بالمياه المعطرة والزهور - لقاؤنا الموسيو ايلغ - التحية الإمبراطورية - المطر والبرد الشديدان - رخص الحيوانات - الماعز والغنم لا تحلب - بردعة من فضة هي مكافأة - الحيوانات الوحشية أيضاً.

استيقظنا اليوم مبكرين وأخذ كل منا يتهيأ ويلبس استعداداً للدخول إلى عاصمة الحبشة ، وبعد أن تناولنا فطورنا قمنا في الساعة الأولى والدقيقة 54 على الحساب العربي قاصدين (جولا) وبرفقتنا جمع غفير من المستقبلين ، وبعد قليل أقبل علينا كثير من أعيان الهنود والعرب والمسلمين الأحباش الوافدين من العاصمة وكانوا راكبين على خيول مطهمة وعليها السروج المزركشة ومرتدين بأفخر اللباس وهم يطلقون بنادقهم في الهواء ترحيباً بنا ، ولما اقتربوا من موكبنا نزلوا عن الخيول ووقفوا أمامنا رافعين أكف التضرع إلى الله بالدعاء للحضرة السلطانية . وبعد أن تم الدعاء أخذوا يرشون المياه المعطرة علينا ويعطون لكل منا باقة من الزهور ومناديل حريرية ذات

روائح عطرية ، كما أنهم علّقوا على رأس الحصان الذي كنت راكباً عليه طوقاً من الزهور ، ثم استأنفنا السير جميعاً وبعد بضع دقائق لقينا جماعة آخرين من المستقبلين ، وهكذا أخذت الوفود تكثر إلى أن قربنا من (جولا) فلاح لنا على بعد بضع مئات من الأمتار المسيو (ايلغ) السويسري الذي كان بمثابة رئيس نظار الإمبراطور منليك ومستشاره الخاص ومعه ثلاثون فارساً ، ولما تقاربنا نزل هو ورجاله عن الخيل فترجلنا نحن أيضاً ، فبعد التحايا أبلغنا أن جلالته يهدينا تحياته الخصوصية ، ثم قال أن الحكومة الحبشية ستستقبل الوفد السلطاني بصفة رسمية في اليوم التالي بكثير من الجنود ورجال الحبشة ، وأن دخولنا إلى العاصمة بصفة رسمية أيضاً ، وأن الوفود المستقبلة الرسمية ستحضر في اليوم التالي إلى هنا .

وبعد أن انتهى ذلك استأذن المسيو (ايلغ) بالإياب إلى العاصمة لتلقي الأوامر الإمبراطورية الخاصة باليوم التالي ، فرجوته أن يقدم ويعرض بالتليفون شكري العظيم لجلالته ثم ذهب المسيو (ايلغ) ونصبنا نحن الخيام والصواوين ونزلت قافلتنا هنا لقضاء هذه الليلة ، وأخذت ترد الوفود أفواجاً أفواجاً من أديس أبابا ، وكان بينهم هذه المرة كثير من الأرمن والأروام ، وشاع بين القافلة أن الوفد لن ينزل بمنزل أحمد أفندي عبد القادر بل سيكون ضيفاً بمنزل أحد أعيان الأرمن ، وقد أكد لنا هذا الخبر أحد رجال معية النجاشي المسلمين ، وعلى ذلك ركب أحمد أفندي حصانه وذهب تواً إلى أديس أبابا وفي الليل وصلني كتاب من الموسيو ايلغ ينفي ما أشيع ويؤكد صحة الكتاب الذي كان مع أحمد أفندي عبد القادر وفيه الإذن له بأن يضيف الوفد السلطاني بمنزله ، وفي الساعة الثامنة من النهار أخذت الأمطار تنهمر بشدة فبللت داخل الخيام وتجمعت المياه في الأراضي المنخفضة والحفر التي أمامنا حتى صارت كبرك وبحيرات صغيرة ، وبينما كان المطر منهمراً أرسل لي أحد الأحباش قبعته لأحفظها داخل الخيمة وبقي هو (أي صاحبها) مكشوف الرأس تحت أهوال المطر ، وبعد قليل انقشعت الغيوم وظهرت الشمس وأخذت تعكس حرارتها الشديدة على السهول والوديان الرطبة ، وكان أمامنا مراع واسعة ترعى فيها المواشي وبينها كثير من الخيول الجميلة ، ولا ثمن للخيل هنا أي أنها رخيصة جداً حتى أن الحصان الذي يساوي ٥٠ ليرة لا يباع ولا يشرى هنا بأزيد من ست ليرات فقط ، والخيل الجميلة في هذه البلاد هي التي تأتي من مقاطعة (ادال) ، ورقاب هذه

الخيول جميلة جداً إلا أن مؤخرها غير جميل ولا ترفع أذنابها وقت السير كما ترفعها الخيول العربية الأصيلة ، ولا يستطيع المرء أن يأخذ معه خيلاً من هنا إلى الآستانة للموانع الكثيرة التي تعترضه كغلاء الأجور بالسكة الحديد من دريدوه إلى الساحل والبواخر من جيبوتي إلى السويس كما أن الحكومة المصرية تمنع إخراج الخيول إلى السواحل المصرية تحوطاً من الأمراض الحيوانية .

كان في صحبتي بضعة عشر فارساً من الجاندارمة الجركس لما كنت قائماً بوظيفة مد السلك البرقي الحجازي بين الشام والحجاز ، وكان هؤلاء الجنود تابعين لكوكبة الجاندارمة المقيمة في لواء الكرك ، لذلك كانت خيولهم من أحسن الخيول العربية فإذا أراد الإنسان أن يقتني واحداً من هذه الخيول بالآستانة لا يقدر أن يشتريه بأقل من خمس وعشرين ليرة عثمانية ، ولما عدنا إلى سورية عن طريق البحر اضطر الجنود أن يبيعوا خيولهم الجميلة في جدّة بثمن بخس جداً لا يتجاوز ثمن الحصان الواحد ثلاث أو أربع ليرات ، وذلك من كثرة المصروف في البحر والمشاق والعوائق ، وأهل جدة لا يحبون اقتناء الخيل لأنهم يركبون الهجن .

وليس هنا أي في البلاد الحبشية طريقة للاستفادة من رخص اللحوم والمواشي سوى طريقة واحدة هي تأسيس فابريكات (معامل) في دريدوه التي هي المحطة الأخيرة من السكة الحديد أو في (هرر) القريبة منها لعمل المحاشي المسماة (صوجوق) واللحوم المقددة المسماة (باصديرمة) من الجواميس ، ولعمل خلاصة مرق اللحم وإصداره إلى الخارج ، ورغم كثرة المواشي والأبقار والجواميس في هذه البلاد خصوصاً في البقاع التي مررت بها تجد الأهالي لا يعملون الجبن بل لا يستخرجون من الألبان إلا السمن والزبدة فقط ، ولا يستفيدون شيئاً ما من ألبان الماعز والضأن لأنهم يأنفون من حلب الماعز والضأن لصغر أجسامها وقلة ألبانها ويعدون حلب الماعز والنعاج نقصاً وعيباً كبيراً ، ويقولون إن لبن هذه الحيوانات هي حق لصغارها ، وقد كنت كلما تسنح لي فرصة أذكر لهم أن في سورية وحلب تجمع العرب ألبان هذه الحيوانات وتستخرج منها السمن حتى أن السمن الذي نأكله بالآستانة هو من ألبانها فكانوا يستغربون مقالي جداً ، فإذا أنشئ في المحلات الآنفة الذكر معامل للجبن والسمن فإنه يكون منها أرباح وافرة لأن النقل منها وإليها سهل بواسطة السكة الحديد ، ولأن المراعي كثيرة فما من نفقات سوى أجرة الرعي فقط .

كان اليوم بين الواردين لاستقبالنا بعض الأعيان الراكبين على برادع من فضة وهي إحسان من النجاشي ، لأن الإنسان هنا لا يقدر أن يشتري بردعة من فضة ويركب عليها مهما كان غنياً بل هذه تمنح من لدن الإمبراطور كإنعام على من شاء ، فهي والرمح والسيف والترس تعتبر في هذه البلاد في مقام النيشان والرتبة فلا يجوز استعمالها إلا إذا أهداها النجاشي لأحد الناس ، وقد كثر الزوار اليوم لدرجة عظيمة حتى صار محل نزولنا كسوق عظيم ، والتف كثيرون حول الفونوغراف الذي شغله أحمد أفندي وأخذوا يسمعون الغناء بحيرة ودهشة عظيمة ، وكان من جملة ما أسمعنا الفونوغراف بعض محاورات بين حواة (مزعبر) فكان من وقت لوقت يسمع من هؤلاء الحواة قهقهة فيقهقه القوم وهم منذهلون حائرون والبسطاء منهم ظنوا أن الأصوات أصوات شخص كانت صورته مرسومةً على عدة الفونوغراف ، وأما الذين هم أعقل من هؤلاء البسطاء فلم يقبلوا هذا التعديل بل ادّعوا أن الإفرنج حبسوا شيطاناً داخل الماكنة ، على أن القوم بالجملة في منتهى الذكاء ولكنهم محرومون من نور العلم والمعارف ولا يعرفون ما هي المدارس .

بعد الغروب أخذ الناس والزوار ينسحبون إلى المدينة ولم يبقَ في محل نزولنا إلا من كان قد أتى معه بخيمة ، ولم نوقد هذه الليلة نيراناً عظيمة لأن الحطب لم يكن كافياً إلا لعمل القهوة وتسخين الطعام ، لذلك أقلقتنا الذئاب وغيرها بهجماتها طول الليل واضطررنا مراراً لإطلاق البنادق لطردها .

أديس أبابا

يوم الجمعة 4 يونيو / حزيران

السعي في بناء جامع - سرور الأهالي المسلمين - الاحتفال باستقبالنا - دخولنا إلى أديس أبابا - دورغو الإمبراطور - منزلنا - تاريخ الحبشة مختصراً - وصف الحبشة - الأهالي والتقسيمات الإدارية.

وعند الصباح ورد قبل كل الناس التجار الهنود المسلمون ومعهم صحف الورد

والزهور والمياه المعطرة والمناديل ذات الروائح الطيبة ، وبينما كنا نشرب القهوة كنا نتجاذب أطراف الكلام فانتقل حديثنا إلى صلاة الجمعة وعلمنا منهم أنه لا يوجد في أديس أبابا مسجد وأن المسلمين يؤدون صلاة العيد في الفضاء ، وقد قيل لي إن المسيحيين في أديس أبابا من غير الأحباش الكاثوليك والروم والأرمن أرادوا أن يبنوا كنائس خاصة بهم فعرضوا ذلك للحكومة الحبشية فأجابتهم إنكم وإيانا مسيحيون فيمكنكم أن تصلّوا في كنائسنا فلا لزوم لبناء كنائس أخرى ، فلذلك لم يقدم المسلمون لإنشاء جامع خوفاً من أن تمنعهم الحكومة كما منعت النزالة الأخرى ، وقد علمت منهم أيضاً أن المسلمين الذين يبلغ عددهم زهاء ألفين في أديس أبابا ليس لهم مقبرة خاصة بهم بل إنهم يدفنون موتاهم في منازلهم وحدائقهم ، فوعدتهم عند سنوح الفرصة أن ألتمس من جلالة الإمبراطور منح قطعة أرض لبناء جامع وأخرى لتكون مدفناً للمسلمين ، فسرهم هذا الوعد أي سرور ودعوا للحضرة السلطانية وعلمت أن المسلمين في أديس أبابا كانوا منذ بضعة أيام يوالون الاجتماع في منزل أحدهم للتذاكر في كيفية استقبال الوفد السلطاني .

وفي الساعة الثالثة ونصف جاء المسيو ايلغ والمندوبون لاستقبالنا رسمياً ومعهم جميع الحرس الملكي الخاص بالإمبراطور والإمبراطورة الموجود في أديس أبابا ، وأخذ المسيو ايلغ يعرفنا بالذين جاءوا معه وكان بينهم من الأحباش رأس ولدي حاكم مقاطعة جرد السابق والنائب الإمبراطوري الآن (وغراج كزو) و(فيتوراري آبردي) قائد الحرس الخاص بالإمبراطورة ووكيله (دجاج آباتا) ومن العرب عبد الله عقيل وعبد الله صادق ومن الهنود المسلمين جراح وكيل غلام علي ويوسف علي وكيل محمد علي والحاج صالح المصوعي والشيخ أبو زرعة والحاج محمد أبو بكر ، وبعد التعرف والاستراحة قليلاً ركبنا الخيل وأخذنا بالسير قاصدين عاصمة الحبشة والجنود الحبشية سائرة أمامنا وخلفنا ، ولم نقطع مسافة قليلة حتى قدم عليها المسيو مارتن ده كا الملحق الحربي في سفارة فرنسا لابساً ملابسه الرسمية لاستقبالنا من قبل الموسيو لاغرد السفير الفرنسوي لدى بلاط النجاشي .

كنا نسير والحديث متواصل تارة بيني وبين المسيو ايلغ والمسيو مارتن ده كا وتارة بيني وبين رأس ولدي بواسطة الترجمان ، وكان منظر الوهاد كزمردة خضراء والعاصمة

قائمة أمامنا كأنها معسكر جسيم وفي أعلى هضبة منها القصر الإمبراطوري ، وكان جميع الذين أتوا من أديس أبابا لاستقبالنا بالألبسة الرسمية الحربية فعلى رؤوس أناس منه شعر رقبة الأسد (وهم الذين قتلوا أسداً) ومنهم من هو واضع على رأسه خوذة يتدلى منها على وجهه وصدره حلقات وسلاسل رفيعة ، ومنهم من هو معلق في أذنيه أقراطاً وآخرون لابسون أساور في معاصمهم ، وكل من هذه الأشياء هي علامة فارقة وبمثابة وسام ، وأما الجنود فإنهم كانوا حفاة الأقدام سوى قوادهم والرأس ولدي ، والذين كانوا برفقتنا فإنهم لابسون في أرجلهم حذاءً من لباد ثخين ومحل الإصبع الكبير من الرجل خارج من الحذاء كإصبع القفاز وذلك لأجل وضع الإصبع الكبير في الركاب عند الركوب .

ولما دخلنا أديس أبابا وجدنا الشوارع والساحات وسطوح المنازل ملأى وغاصّة بالناس قد خرجوا ليتفرجوا على دخول الوفد السلطاني وليروا (الجننار التركي) وكان الناس من كل صوب يرحبون بنا واستمر هذا الموكب هكذا حتى وصلنا إلى المنزل الخاص بنزولنا فترجلنا وصافحتُ المستقبلين وشكرتهم وطلبت إلى كبار المستقبلين أن يعرضوا شكري لجلالة الإمبراطور والإمبراطورة ، ثم دخلنا منزلنا وانصرف رجال الحكومة إلى منازلهم .

ولم يكن النجاشي وقتئذ موجوداً في عاصمته بل كان في مصيفه في محل يسمى أديس علم وهولتا يبني قصوره منذ مدة ، وقد أخذت رأي الموسيو ايلغ في الذهاب إلى المحل المذكور لأداء ما علينا فقال لي أنتم الآن في حاجة إلى الراحة من التعب الذي نالكم من هذه السفرة البعيدة ، وإن النجاشي سيحضر بعد بضعة أيام إلى أديس أبابا بصفة خصوصية لمقابلة الوفد السلطاني .

والمنزل الذي نزلنا به هو ملك الحاج أحمد أفندي الذي مرّ ذكره آنفاً قد خصصه الإمبراطور لنزولنا فيه بناءً على التماس أحمد أفندي من جلالته ، وكان المأكل والمشرب وكل ما يلزم لنا يأتي من قصر النجاشي ، وكانت المؤن التي أرسلت اليوم عبارة عن عجل كبير وثلاثة خراف كبيرة وثلاثة خراف صغيرة (قوزي) ومائة رغيف من الخبز وخمس جرار عسل وخمس جرار من المشروب المسمى (تبج) وقدرة كبيرة من السمن وقدرة أخرى من البربري (وهو صلصة الفلفل الأحمر المقلي) وأشياء

أخرى ، وقد أرسل محمد أبو بكر على طريق الهدية ثوراً وثلاثة خراف وثلاث قزايز من الشراب وكان هذا الثور هائجاً جداً حتى أن الخدمة والجنود لم يقدروا على ضبطه فاضطروا أن يضربوا رجله بالسيف لذبحه .

ومنزلنا هذا ذو دورين مع أن جميع منازل أديس أبابا ما فيها إلا دور واحد فقط ، ولمنزلنا بهو كبير على أطرافه شرفات واسعة ، والمنزل أمام ساحة واسعة حيث تقام سوق المدينة والبهو الذي كان طوله ١٥ متراً وعرضه ٨ أمتار كان مفروشاً بالطنافس الجميلة وأبوابه وشبابيكه مزينة بالستائر المزركشة التي نراها عند بائعي الآثار القديمة (الأنتيكات) في الآستانة ، وقد عمل صاحب المنزل الحاج أحمد أفندي كل ما في وسعه وأحضر كل ما يلزم لراحتنا ، وكان على سرور عظيم من وجود الوفد بمنزله يستقبل الزائرين بوجه باش ويناظر أعمال الخدمة والطهاة ومحضري القهوة والخوانات (سفر الأكل) وبالجملة كان يريد أن يقوم بكل الأعمال بنفسه والناس من حوله تهنئه على نزولنا بمنزله ، وقد سافرت كثيراً وجلت في بلاد كثيرة فلم أرَ إكراماً بهذه الدرجة .

قلنا آنفاً أن النجاشي لم يكن موجوداً في أديس أبابا والعادة هنا أن القادم لا يمكنه رد زيارة أحد قبل مقابلة النجاشي ، فلذلك عزمت أن أشتغل لحين عودة جلالته من مصيفه باستطلاع أحوال هذه البلاد وتدوينها في مذكراتي .

مجمل ماضي الحبشة

عندما جعلت السلالة الثانية عشرة من الفراعنة الأراضي الكائنة بين الشلال الأول والثاني ولايةً تابعةً للحكومة المصرية تقدمت الجنود المصرية إلى أن وصلت إلى سفوح جبال الحبشة وأخذت في غزو المدن والنهب والسلب ، وفي زمن السلالة الثالثة عشرة تغلغلت الجنود المصرية إلى أن وصلوا إلى ملتقى نر تاكازا بنهر النيل وبذلك جعلوا الحبشة شبه تابعة لمصر ، وانتشر الدين واللغة المصرية إذ ذاك في هذه البلاد وصارت الحبشة كولاية ممتازة تفوّض إدارتها في الغالب لأمراء من أولاد الفراعنة ، وقد أقام المصريون في بعض المحال من الحبشة مسلات وأبنية فخيمة وآثاراً

ضخمة كالآثار المصرية القديمة ، وفي سنة 930 قبل الميلاد استقلت هذه البلاد وبين سنة 740 و 230 قبل الميلاد هاجم بيونكي ميامون صاحب الحبشة البلاد المصرية واستحوذ عليها وبعد خمسة عشر عاماً تقدم فرعون الحبشة المسمى ساباسون بجنوده حتى أوصل فتوحه إلى ساحل البحر المتوسط وصار رسمياً في عداد الملوك العظماء وأسس عائلة حاكمةً جديدةً ، ولما أخذ فراعنة الحبشة من خلفاء هذا الملك يتداخلون في شؤون السوريين واليهود وقعت محاربات بينهم وبين الملوك الآشوريين فانتصر أسسار هندو أحد الملوك الآشوريين على الأحباش سنة 670 قبل الميلاد فأوغلت جنوده في البلاد المصرية حتى وصلوا إلى منفيس ، وفي سنة 666 قبل الميلاد تقوى قانوا تامانو بن ساباسون المار ذكره لاسترجاع البلاد المصرية ، ولكن لم تبقَ هذه البلاد في حوزته كثيراً إذ هاجمه آسور بانيبال الملك الأشوري سنة 663 قبل الميلاد فانتصر عليه في واقعة قرب طيبه واستولى على البلاد المصرية مرةً أخرى ، وبعد هذه الواقعة انزوت الحكومة الحبشية عن باقي الدول المتمدنة الموجودة إذ ذاك وانفردت عنهم ، وكانت مدينة (ناباتا) عاصمة الحبشة وقتئذ وإدارتها بيد عمون والكهنة ، وقد كان هؤلاء الكهنة الروحانيون مستبدين للغاية حتى أن إرادتهم كانت غالبة إرادة الملوك ، وحتى أنهم كانوا يأمرون الفرعون من الحبشة أن ينتحر إذا لم ينفذ إرادتهم أو إن قام بعمل ضد رأيهم ، ثم ينتخبون آخر من العائلة الحاكمة . واستمر نفوذ الكهنة حتى أتى آرغامق إلى العرش الحبشي فكسر سطوة الكهنة ومحا نفوذهم ، وقد أخذ ملوك الحبشة في زمن بطالسة مصر يسعون في توسيع حدود مملكتهم شمالاً فاستولى آرغامق هذا على فيلة اعتماداً على أن أخلافه يستردون (طيبة) .

ولما استولى الرومانيون على البلاد المصرية تحت قيادة غوستاف أوغوست سنة 200 قبل الميلاد أراد ملوك الأحباش أن يؤسسوا علاقات حسنة بينهم وبين الرومانيين ولكن هاجمهم نيرونيوس الروماني سنة 32 قبل الميلاد وأحرق (ناباتا) عاصمة البلاد الحبشية التي بقيت متخربة ولم تعمر ثانية وقامت مقامها مدينة (بارودا) الكائنة جنوباً والتي يسميها اليونانيون(مه روه) كعاصمة البلاد ، وللسلالة الثالثة من الأحباش آثار قديمة كمعابد وأهرام ومدافن أقيمت في الأراضي التي بين الحبشة وقرب ملتقى النيل الأزرق والنيل الأبيض ، وكانت لغتهم وقتئذ هي اللغة المصرية

وخطوطهم هي خط الهيروجليف ، واتخذ الأحباش فيما بعد هيرو جليفاً آخر ولكن متخصصي الآثار القديمة لم يقدروا على حل رموزها .

وأما حدود الحبشة القديمة فإنها كانت تجاوزت حدودها الحالية شمالاً كما أنها كانت تجاوزت خط الاستواء جنوباً وتخطت النيل الأبيض وتوابعه غرباً ، ويقال إنها بلغت حوض السنغال والنيجر في ما وراء بحيرة (جاد) وأما من الشرق فإنها وقفت عند ساحل البحر الذي هو حد طبيعي فيدل ذلك على أن البلاد الحبشية القديمة كانت قد أدمجت فيها كثيراً من الأقوام والعناصر الأخرى السودانية غير العنصر الحبشي الموجود الآن ، ولكن أخذت فيما بعد حدود الحبشة تنكمش وتضيع شيئاً فشيئاً من بلادها الواسعة حتى انحصرت بين البحر الأحمر والنيل الأبيض والسودان المصري وزنجبار ، ولم ينصرم القرن الأخير إلا وكانت أخرجت من يدها سواحل البحر الأحمر كله أيضاً وبقيت محصورة في الحدود الحالية التي سنصفها فيما بعد .

والبلاد الحبشية الأصلية هي جبال ووهاد وحزون صعبة المرور كأنها قلاع وآطام قائمة للدفاع عن البلاد ، فلذلك لم يكن فراعنة مصر يعمدون إلى التوغل في داخل الحبشة بل يكتفون بإرسال جنودهم براً للنهب والسلب على طول النيل الأزرق ونهر تاكازا لحد الجبال المذكورة ، ومن جهة البحر يكتفون بغزو مصوع وجيبوتي والسواحل الأخرى . وسكان الحبشة القدماء كانوا يشبهون في احمرار لونهم سكان البلاد المصرية والبلاد الجنوبية من جزيرة العرب ، وقد كان هاجر قبل الميلاد على مدى العصور أقوام من جزيرة العرب مارين من مضيق باب المندب إلى بلاد الحبشة حتى أن اليونانيين عند ما أتوا لأول مرة لاكتشاف هذه البلاد من سواحل البحر الأحمر وجدوا فيها سكاناً يتكلمون لغة أهل حمير وسبأ الكائنين في جنوب جزيرة العرب .

وقد احتل أمراء العرب الأقدمون البلاد الواسعة التي لم يستحوذ عليها فراعنة تابانا ومروة وجعلوها تابعة لهم وحكموها مباشرة أو بطريق الحماية من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن الرابع بعده ، وكانت وقتئذ مدينة (آقسوم) هي أعظم عواصم البلاد الحبشية ، وكان للأحباش وقتئذ علاقات وصلات بواسطة التجارة بالمصريين الرومانيين واليونانيين الذين كانوا يردون على بلادهم ، وكانت الديانة اليهودية دخلت إليها من اليمن قبل الإسلام والنصرانية ، أما النصرانية فإنها دخلت إليها على يد

الراهب فرمانتيوس الذي أرسلته الإمبراطورة (الني) زوجة قسطنطين إمبراطور القسطنطينية ، ولم تنتشر هذه الديانة في البلاد الحبشية إلاّ بعد قرنين من دخولها على يد الرهبان الذين أرسلهم يوستنيان من مصر وهم الذين لقنوا سكان الحبشة المذهب الاوتيكوسي من الديانة المسيحية .

ويقول الرهبان الأحباش ورجال الدين عندهم إن التواريخ والقيود المحفوظة بالكنائس والأديرة تصرح بأن العائلة المالكة الموجودة الآن هي من سلالة منليك بن سليمان بن داود من زوجته بلقيس ملكة سبأ ، وإن ملوك هذه السلالة كانت فيما مضى اتخذت (آقسوم) عاصمة لملكهم ، هذا ما يعتقده كبار الأحباش ، وهذه الحكومة الموجودة في آقسوم لم تقدر على حفظ قوّتها وأخذت بالانحطاط حتى بلغ بها الضعف إلى أن طمع فيها اليهود الساكنون في أراضي (سمين) الكائنة على شمال الحبشة إلى الشرق فقامت فتاة منهم اسمها (ايوديت) أو (استير) وزحفت على رأس جماعة من اليهود وكانت سبباً لإدخال الأراضي لحد شووا تحت حكم أولئك اليهود ، وقد حكم منهم بعد استير أحد عشر ملكاً أشهرهم (لالبلابا) الذي حكم وعاش في أوساط القرن الثاني عشر ، ويقال إن لهذا الملك اليهودي كثيراً من آثار العمران باقية إلى يومنا هذا في تلك البلاد ، وقام سنة ١٢٥٥ م ايفون عملق ملك شووا الذي هو من السلالة الحاكمة القديمة أي من نسل منليك الأول وأعاد الأمن والراحة لداخل البلاد ، ولكن كانت السواحل كلها وقعت بيد المسلمين الذين كانوا دائماً يغيرون على البلاد الحبشية . وفي أوائل القرن الرابع عشر استرد آمداسيون مدينة زيلع ، وقد بلغت هذه العائلة الحاكمة الدرجة القصوى من السطوة والقوة في زمن إسحاق ، ولكن بعد ذلك أخذت قوتها تفتر بسبب حروب المسلمين وبسبب الفتن الداخلية ، وقد غزا محمد غراني هذه البلاد وفتح القسم الكبير منها وترك حكومتها على وشك الانقراض ، ولم تتخلص من وهدة الدمار إلا بمعاونة البورتغاليين الذي عقدوا عهداً مع الحكومة السالفة الذكر على إباحة دخول قسس الكاثوليك إلى الحبشة نظير معاونتهم لها على المسلمين .

وفي سنة 1533 هاجم المسلمون البلاد الحبشية تحت قيادة أمير زيلع وداسوا امحرا وتيغري بخيلهم ورجلهم وضربوا آقسوم عاصمة البلاد الحبشية ثم عادوا متقهقرين

أمـام الجنود البـورتغـاليـة مع الأحبـاش ، وبعـد ذلك قـامت الـفتن في داخليـة البـلاد الحبشية بسبب انهماك البورتغاليين لنشر الكثلكة في الحبشة فغضب لذلك رجال الدين الحبشي فوقعت وقائع دموية بين أتباع المذهب الاوتيكوسي وبين أتباع المذهب الكاثوليكي ، واستمرّت هذه المحاربات الدينية قرناً كاملاً وبالنهاية تيسر للأحباش في القرن السابع عشر أن يطردوا القسس الكاثوليك من بلادهم ونقلوا عاصمة ملكهم إلى (غوندار) ، وبعـد هذا التـاريخ بقيـت بلاد الحبشـة مغلقـة في وجـه الأوروبيين قـرناً ونصف قـرن ، وفي سنة 1750 قـام قـسس الكاثوليك المرسلين لنشـر مـذهبـهم بين الأحباش فنشأ من ذلك ثورات أدت إلى مهاجمة الفاليين للحبشة ووقوع تقلاها يمانوت الملك الحبشي في الأسر ، وفي سنة 1800 نجح ملك تيغري بتسكين البـلاد وإعادة الأمن إليها ، ولكن الفتن والثورات عادت إليها بعد وفاته ودامت للقرن التاسع عشر فتركت اجتهاد الأوروبيين لاكتشاف الحبشة وتمدين سكانها عقيماً .

وقد انقسمت وقتئذ بلاد الحبشة إلى ثلاث حكومات تابعة اسماً لملك واحد وهذه الحكومات هي شووا وتيغري وامحرا . وفي سنة 1850 قام مدير قصر أمير شووا المدعو (قاسسا) واغتصب الحكم من رأس عسلي الأمير الأصلي ، ثم هاجم حكومة امحرا سنة 1852 واستولى عليها كما هاجم عام 1855 حكومة تيغري وفتحها أيضاً وأعلن نفسه في انقوبر ملكاً باسم تيودوروس ، وقد انتصر على الفاليين ثم ألّف جيشاً من 150,000 جندي وأراد أن ينظمـهم على الطراز الغـربي الجـديد كل ذلك لإعـادة سطوة الحبشة القديمة وإعلاء مجدها .

وكانت علاقاته بالدولة الإنكليزية حسنة ، ولكن هذه الصلات الحسنة ساءت في ما بعد وانقلبت إلى العداوة فأرسلت إنكلترا في سنة 1868 حملة حربية تحت قيادة الجنرال نايبر فانهزم تيودوروس في واقعة مجدلا فانتحر ، وأما الجنرال نايبر فإنه انسحب هو وجنوده من الحبشة في سنة 1869 بعد أن عقد عهداً مع رأس قاسسا أمير تيغري ، وفي سنة 1871 أرغم رأس قاسسا رأس غوبازية أمير امحرا ورأس منليك (وهو الإمبراطور الحالي) أمير شوعا للطاعة إليه والاعتراف بملكه على الحبشة كلها ولبس تاج الإمبراطورية باسم يوحانس ، وفي هذه الأثناء قام إسماعيل باشا خديوي مصر الأسبق لضم بلاد الحبشة إلى الخديوية المصرية واستولى في سنة 1872 على بلاد

بوغوس وقصبتها كره تي ولكن الحملة المصرية التي أرسلها في سنة 1874 وفي سنة 1876 للاستيلاء على تيغري انهزمت أمام جنود الحبشة فرجعت من حيث أتت ، وحدث في أثناء ذلك حوادث ذات بال مثل عزل إسماعيل باشا ثم فتنة عرابي وظهور المتمهدي فنجت هذه الحوادث يوحانس من حملة المصريين ، ولكنه وقع بين مطامع إيطاليا الأشعبية من جهة وهجمات شيعة المتمهدي من جهة أخرى ، أما الطليان فإنهم دخلوا مصوع في شهر سبتمبر (أيلول) سنة1885 فأرسل يوحانس عليهم حملة يقودها رأس الولد فانتصر في دوغالي على فرقة صغيرة من الجنود الإيطالية ، وفي سنة 1889 انصاع يوحانس لنصائح الإنكليز وتحريضاتهم فهاجم شيعة المتمهدي في القلابات حيث انهزمت جنوده وقتل هو في الواقعة نفسها ، وبعد ذلك خلفه في الإمبراطورية منليك أمير شوعا ، وقد استفادت إيطاليا من وفاة يوحانس وانهزام جنوده ولكنها طمحت وأرادت المزيد فأعلنت الحرب على الحبشة فعادت الدائرة عليها في واقعة عدوه حيث انهزمت شر هزيمة واضطرت أن تعقد مصالحة من جلالة منليك الذي تأيّد مركزه وصار بعد ذلك ملكاً لملوك الحبشة بدون منازع وهو الآن يحكم بلاده بكل هدوء وسكون .

مختصر جغرافية الحبشة

إن بلاد الحبشة يحدها من الشمال بلاد السودان المصري ومستعمرة أرتيرة (أريتيريا) الطليانية ، ومن الشرق المستعمرة المذكورة أيضاً ، والصومال الفرنسوية والصومال الإنكليزية ، ومن الجنوب أوغادن الإنكليزية ، ومن الغرب بلاد السودان المصري أيضاً . وهذه البلاد ليست كلها أراضي جبلية ، بل تحتوي على أراضٍ مختلفة الطبيعة من حيث الأقاليم والتكون ، فخذ مثلاً هذه الأراضي القائمة عليها أديس أبابا والبلاد الأخرى التي على هذا السهل الجبلي ، فإنه لا فرق كثيراً بينها وبين البلاد الباردة ، كما أن أراضي هرر الواسعة التي مررنا منها هي سهول جبلية مرتفعة مناخها في غاية الاعتدال ، أما الأراضي المحاذية لساحل البحر الأحمر المسماة (سمهرا) فهي منحطة وشديدة الحرارة ، والأراضي الجنوبية الواقعة في جوار نهر

صوبات من توابع النيل الأبيض هي مستنقعات ، وسلسلة الجبال الواقعة في (السمهرا) الجهة البحرية منها شاهقة جداً ، والجهة الأخرى تأخذ بالميل والانحدار بالتدرج وبذلك يكون منها سهل مرتفع يعلو عن سطح البحر 1500 متر ، ويوجد على هذا السهل بعض جبال وهضاب مختلفة الارتفاع ، والبعض منها تعرف باسم امبا وتشبه شكل المنشور القائم الهندسي ، ويصعد بصعوبة على بعض هذه الهضاب وبعضها يتعذر الصعود عليها ، وأعالي هذه الجبال كلها سهول معمورة ذات خصب وبعضها تعلو عن سطح البحر كثيراً مثل سهول سمين وغوجام ، فإن علو كل منهما عن سطح البحر يبلغ 2400 متر وعلو سهل (سوويرا) 3000 متر وعلو سهل رأس داشان 4620متر وعلو جبل (قوللو) 430متر ، والبحيرات الكبيرة المشهورة في الحبشة هي بحيرة (تسانا) التي ينبع منها النيل الأزرق وكثير من البحيرات في الجنوب الشرقي منها .

إن القسم المنحط في البلاد الحبشية حار جداً وهو خصب لحرارته مع كثرة سقوط الأمطار حتى أن التمر الهندي والقصب الهندي ينبتان هنا بحالة طبيعية ويكون منهما غابات جسيمة ، والقسم الوسط معتدل يحتوي على الأرض التي تعلو عن سطح البحر من 1800 متر إلى 2400 متر ، وينبت فيها جميع ما ينبت في جنوب أوروبا مثل أشجار الزيتون والعنب والذرة والدخان والقهوة وما أشبه ، والقسم المرتفع بارد ويعلو عن سطح البحر أكثر من 2400 متر ومناخه جيد جداً ويذكر الإنسان الصقيع بجبال وأراضي سويسرا والبلقان والألب ، وقد يشتد البرد في هذا القسم لدرجة الصقيع ، ويوجد في الحبشة كثير من الوديان تنتهي إلى البحر الأحمر هي كترع وأنهار ولكنها تبقى يابسة في موسم القيظ ، وفي الجهة الغربية يوجد غير السيول المنحدرة إلى وادي النيل كثير من الأنهار منها النيل الأزرق ونهر أومو ومارب وتكازا واتبرة وكلها تنصب إلى الوادي المذكور . ومن أنهار الحبشة المشهورة أيضاً نهر آواش ولكن اتجاه جريانه بعكس الأنهار المذكورة ، ويوجد غير ذلك من الأنهار الصغيرة وقد مر ذكرها والمسافر في هذه البلاد مضطر لحمل الماء لمسافات طويلة .

إن سكان الحبشة 12 مليون نفس منها ثمانية ملايين مسلمون ، وأربعة ملايين مسيحيّون ، ويوجد 25 ألف يهودي في جهة سامن . وينقسم الأحباش على قسمين : الأول الأحباش الأصليون والثاني الفاللا ، والأحباش قوم نشؤوا من اختلاط وتزاوج أهالي هذه البلاد بالمصريين القدماء والأقوام السامية الوافدة من جنوب جزيرة العرب ، فيشبه البعض منهم العرب والبعض يشبه السودان ، أما الذين يشبهون العرب فإنهم أجمل منظراً من الآخرين ويمتازون عليهم بالشكل والهيأة واللون المائل للبياض ودقة الأنوف والأفواه واعتدال القامة وتناسب الأعضاء ، فالذين يقطنون سهول سامن وسواحل بحيرة تسانا هم من هذا الجنس ، و الأحباش لا يعدّون من جنس الزنوج ، بل إنهم معدودون من الأجناس السامية ، و الأحباش الأصليون يقطنون السهل الأكثر ارتفاعاً في بلاد الحبشة ويسكنون القسم الفوقاني من هذا السهل القائم كالقلاع والآطام .

أما الفاليون فإنهم يسكنون في القسم الجنوبي من الحبشة ولهم دين أصلي إلا أن السواد الأعظم منهم تقلد الإسلامية وبعضهم تقلد المسيحية ، وقد نشأ هذا القبيل من تمازج الأحباش والزنوج والصوماليين ، وهم منتشرون في الحبشة الجنوبية وبلاد الصومال وأوغادن حتى منطقة البحيرات ، ويُحزر عددهم بسبعة ملايين إلى ثمانية وقد كانوا أسسوا في ما مضى حكومة قوية في قتيار وأخذوا يدخلون بلاد الحبشة في القرن السادس عشر ، ولون البعض منهم يشبه الأحباش والبعض يشبهون السودانيين وقاماتهم معتدلة وأجسامهم قوية جداً ، وهم نشيطون وقد سبق ذكر ذلك آنفاً ، ومن الفاليين من يشتغل بالزراعة والفلاحة وهم المتحضرون ومنهم من لا يزال في حالة البدو ، وكلهم أهل جسارة وضرب وطعان ، وكلهم على جانب عظيم من الذكاء ولهم قابلية عظيمة للتربية والتعليم ، كان يترجم الأولاد الفاليون محادثتنا مع الصوماليين الذين لا يعرفون التكلم باللغة العربية ، والفاليون ينقسمون تقريبا إلى 60 قبيلة ولهم احترام عظيم لرؤساء القبائل والمسلمون منهم يتعيشون من الزراعة والمواشي .

أما الأحباش فإنهم شغفون بحمل السلاح والحروب وهم على جانب عظيم من الذكاء والجسارة ، وكثرة الحروب الداخلية ناشئة من ميل هؤلاء إلى الضرب والطعان ، وأكثر اشتغالهم بالمواشي على أنهم لم يهملوا الزراعة والفلاحة بالمرة وهي في غاية البساطة عندهم ، يستعملون في الرزع والفلاحة آلات خشبية ، وقد سمعت من أرباب الوقوف أنه لم يزرع من الأراضي القابلة للزرع في بلاد الحبشة إلا نحو الربع ، وأظن أن هذا القول صحيح لما رأيت . ويتغذى الأحباش بالحبوب والألبان واللحوم ولا يقبل على المأكولات والمشروبات الواردة من الخارج إلا أهل الثروة والوجاهة منهم ، والصناعات عندهم تطرية الجلود ودبغها وصنع الأسلحة الجارحة وحياكة بعض الأنسجة الغليظة من القطن والصوف وكانت المنسوجات الوطنية رائجة وكافية لحاجة أهل البلاد ، ولكن لكثرة دخول المنسوج المسمى (بفتة سمراء) تغلب على المنسوجات الوطنية برخص ثمنه وصار الناس يقبلون عليه .

هذا والحبشة ولايات متعددة ممتازة كل واحدة منها مستقلة في إدارتها الداخلية وتدفع أتاوة سنوية للنجاشي ، وأكبر هذه المقاطعات هي : شووا ، وأمحرا ، وتيغري ، وهرر ، وغوجام ، وجمابا جفر والمقاطعات الصغيرة هي : في الشمال همازن ، واوحماسين ، وأغامة أو عقامة ، وساروري ، وشيري . والمدن الشهيرة التابعة لها هي : آقسوم ، وأدووا ، واندرتا . والمقاطعات التي في البلاد المتوسطة هي : واغفاره ، وسه من ، ووهه ، ولاستا ، ودمبة آ . ومدنها المشهورة هي غوندار والاقا . والمقاطعات التي في الجنوب هي : داموت وكافا وغوراغه ، ومدنها الشهيرة أديس أبابا القائمة مقام انكوبر والتي هي عاصمة البلاد كلها ، والمقاطعات الكبيرة ترتبط مباشرة بالإمبراطور وترجع إليه في شؤونها من غير واسطة ، ويدير كل مقاطعة رأس ، والمقاطعات الصغيرة يديرها مأمور برتبة أصغر ، وهذا الترتيب أشبه بأصول الحكومات القديمة التي كانت تسمى Feodalisme لأن كل مرؤوس لا يعرف سوى رئيسه الذي عينه في وظيفته وله أن يأخذها منه متى شاء ، فالرأس كأنه حاكم مستقل في دائرة حكمه يدير شؤون البلاد الملكية والعسكرية كما يشاء ، وللرأس أن يحارب الأجانب كما إن الرؤوس كثيراً ما يحارب بعضهم بعضاً أيضاً ، ومن حقوق الرأس أن يفرض على الناس ضرائب حسب رغبته ويشتري الأسلحة ، وبالجملة إن الرأس مع كونه تابعاً

للإمبراطور هو حاكم مطلق التصرف ، وعلى الرأس أن يؤدي الأتاوة إلى الإمبراطور وأن يطيع أوامره في تعبئة الجيوش وسوقهم إلى ساحات القتال وقت الضرورة وبعض الأحيان يعطى لقب (نفوس) أي حاكم أو ملك لبعض كبار الرؤوس ولقب الإمبراطور هو (نفوسي نفسي) أي ملك الملوك وهذه الألقاب التعظيمية خاصّة فقط بالكتابة وأما الإمبراطور فإنه معروف بين الناس بلقب (جانهوي) والإمبراطور الحالي هو صاحب ومالك مقاطعة شووا فهو في آن واحد إمبراطور الحبشة وملك مقاطعة ، وكثيراً ما يتعدى الرؤوس على بعضهم عند ما يجد الواحد منهم عنده قوة كافية لذلك لاغتصاب بلاد الآخر ونزعها من يده وقد يثورون في وجه الإمبراطور نفسه لأن الأمراء أي الرؤوس لا يهمهم سوى الاشتغال بتزييد قواهم وسطوتهم العسكرية وبالحروب والضرب والطعان بدلاً من أن يشتغلوا بإنماء ثروة البلاد وبإحياء الزراعة والتجارة وبتوفير أسباب سعادة الأهلين ، والسلم والأمن موطدان الآن في داخل الحبشة وجميع الرؤوس والأمراء منقادون للإمبراطور تمام الانقياد وخاضعون لأوامره فليس لهم أدنى علاقات مع الخارج أي الأجانب وبعض كبار الأحباش الذين لا تأمن الحكومة الحبشية جانبهم وتشك في صدق إخلاصهم مبعدون في محلات بعيدة ومنفردة ، وهم دائماً تحت المراقبة الشديدة ، ومن هؤلاء رأس سابات ورأس منفاشا ولد يوحانس فإن منفى الأول في هرار والثاني في انكوبر .

أديس أبابا

السبت 5 يونيو / حزيران

الجنازة - الدفن - البكاء بالأجرة - المأتم - الميراث - التواضع أمام الكبار - المسلم والمسيحي لا يأكلان على مائدة واحدة - أمراء جما با جفر - الطغراء السلطانية - بعض أصناف من أطعمة الحبش - كيفية عمل المشروب المسمى تيج - برز - العسل الطبيعي - تأسس أديس أبابا - الطريق ينشأ.

في الصباح حضر لعندي رجل من قبل رأس ولدي للسؤال عن صحتي وراحتي

ثم بينما كنت في غرفتي سمعت صياحاً من الخارج فخرجت إلى الشرفة لاستطلاع الخبر وإذا بجنازة رجل مسيحي أمامها بعض قسس متعممين بعمامات بيضاء على لباد طويل ووراء الجنازة كثير من النساء يقفزن في سيرهنّ ويصحن على نغم واحد قائلات ويح ويح ويح وعندما يقفزن تروح أيديهن وتجيء كأيدي الجنود التي تمشي مشياً سريعاً (جمنا ستيق آديم) ويحمل النعش المغطى بغطاء أبيض أربعة أشخاص على أكتافهم ، والمسلمون هنا يكفنون ويدفنون موتاهم على الوجه المعلوم عندنا وأما المسيحيون الأحباش فإنهم يلفّون الميت بالأقمشة لفاً كما كان يفعله المصريون القدماء بلف مومياتهم ، وإذا كان الميت من ذوي المكانة يستأجرون نساء للعويل والبكاء يسرن وراء الميت هذا ، عدا النساء ذوات القربى للميت ، ويمشي الرجال وراء النساء وبعد وضع الميت في قبره يأخذ أقارب الميت بالبكاء والصريخ حول القبر مدة ساعة وهم يقفزون ثم يوارونه في التراب . ويدفن الأغنياء منهم بتوابيتهم ، وبعد الدفن يذهب المشيّعون إلى منزل الميت وهناك يستمر البكاء والعويل مدة أسبوع ، وقد يستمر أكثر من ذلك على حسب الحال ، وفي أثناء هذه المدة يأكل أقرباء الميت وأولاده المآكل الفاخرة ويشربون المشروبات النفيسة . وهذه المآتم التي تكون بحسب مكانة المُتوفى لا تقل عن احتفالات الأفراح فيصرفون المال بسخاء وإسراف ، ويعاد هذا الاحتفال يوم الأربعين أيضاً ، ويحلق النساء القريبات للميت وسيّما الزوجات رؤوسهن ويكوين جباههن وخدودهن بحديدة حامية لدرجة الاحمرار علامة على الحداد على ميِّتهن . ومن العادات هنا أن الزوج والزوجة يرث كل منهما الآخر وبعد وفاة الاثنين ينتقل ما يملكانه إلى أولادهما وتأخذ البنت كما يأخذ الصبي بالمساواة ، وإنما على الورثة قبل تقسيم الإرث أن يؤدوا مصروف المأتم والجنازة ، وإذا لم يفِ الإرث المتروك بهذه النفقات يضطر الورثة أن يؤدوا ما بقي من جيبهم ، لأنه من الواجب أن ينفذ حكم العادات ، وإذا كان الميت لم يترك وصية فإن الكلام الذي فاه به إلى القسيس الذي اعترف إليه لآخر مرة قبل موته يقوم مقام الوصية ، والقسيس يعلن للأقرباء والناس ذلك بعد وفاة المعترف .

ولما أتممت تدوين ما حققته بخصوص الموتى والمآتم حضر المسيو ليشين ترجمان سفير الروسيا للسلام علينا من قبل السفير ، وبعد قليل ورد لزيارتنا آتو باشا بلاينتخ

الذي كنا تعرفنا به في مرحلة تاديجامالكا وقد كان أكرمنا غاية الإكرام وأراد أن يهديني بغلاً ، وقد كنت رأيته في تاديجامالكا بملابس ثمينة وعلى رأسه قبعة جميلة وعليه ثوب من الجوخ الأسود داخله بالحرير ، ولكن لما ورد لزيارتنا هنا رأيته بعكس الهيأة المذكورة إذ كان حافي القدمين ، مكشوف الرأس وملابسه قميص ولباس مصنوعان من البفتة السمراء وعليهما ثوب من اللباد العريض ، وجلسنا نتكلم وكان صاحب المنزل يترجم كلامنا فسألت المترجم عن سبب ذلك من غير أن يشعر الرجل فقال إنه عند ما يكون في العاصمة يضطر لمقابلة كثير من الرؤساء والأمراء فلذلك يرتدي بالملابس البسيطة إظهاراً للتواضع والخضوع والإطاعة حتى أن بعض الأغنياء منهم يتظاهرون في بعض الأحيان بالفقر والفاقة أمام الرؤساء ، وهذا يعد من جهة تواضعاً ومن جهة أخرى باباً للوصول إلى السلامة من طمع الطامعين ، وقد ترك زائري جميع خدمه وبغاله في شولا وحضر وحده إلى أديس أبابا .

وفي أثناء الكلام انتقل حديثنا إلى خصوبة أراضي الحبشة فعلمت أن الأراضي هنا تعطي في السنة مرتين من المحصول وفي بعض الأحيان ثلاث مرات ، وأن كروم العنب تثمر مرتين أيضاً في السنة كما أن الغنم والبقر تلد مرتين ، وقد كان الوقت الآن وقت طعام الغداء فأردت أن أدعو الآتو إلى الطعام فقبل دعوتي بتردد وتحرز ، فلما آن وقت الجلوس على المائدة رأيت أن الموكلين بالموائد رتبوا مائدة خاصة بالآتو غير مائدتنا ، فسألت عن سبب ذلك فقالوا : إن المسيحيين في الحبشة لا يأكلون مع المسلمين على مائدة واحدة وكل من الفريقين لا يتناولون شيئاً من ذبائح بعضهم ولا من آنيتهم ، فلذلك رتبوا مائدة للآتو ووضعوا عليها مآكل واردة من أوروبا ضمن صفايح ، وأظن أن هذه العادة أخذها الأحباش قديماً من اليهود ، وبعد الظهر ورد لزيارتي سليمان أخو محمد بن داوود أمير مقاطعة جمابا جفر وولي عهده (وهو ابنه) عبد الرحمن وابنه الثاني عبد المجيد ، وقد كانوا علموا أني على الطريق وأني سأصل قريباً إلى عاصمة الحبشة ، لذلك أتوا من بلادهم بصفة خصوصية لزيارتي ، وسليمان هذا لا يتجاوز عمره خمساً وثلاثين وعمر ابنه عبد الرحمن اثنتان وعشرون سنة وعبد المجيد كان في السابعة عشرة من سنيه .

ليس الشرف باللباس فهؤلاء الزائرون على غاية من بساطة الملبس ، ولكن سيماء

النجابة والحسب كانت بادية على وجوههم ، وأخذوا يسألونني باللغة العربية التي كانوا يجيدونها هل حججت أم لا وما هي المسافة من الآستانة إلى هنا ، ومن الشام إلى مكة المكرمة ، وما هي جسامة الآستانة وانتظامها ، وأسئلة أخرى عن مكة والمدينة ، وقد أظهروا شوقهم الشديد لزيارة مكة المكرمة والمدينة المنورة وعاصمة الخلافة الإسلامية ، وقد علمت أنهم درسوا اللغة العربية وأنهم يعرفون الكتابة والقراءة ، وبينما كنا نتكلم فتح أحدهم ساعته وسألني عن الماركة (شارة الفابريكة) ، وكان في محل الساعات صورة الطغراء السلطانية ،فأخذت أشرح لهم معنى هذا الشعار فلما فهموا ما هي الطغراء صاروا يقبلونها ويضعونها على رؤوسهم فارتفع بنظرهم قدر الساعة ، وهنا ندمت على عدم أخذ بعض لوحات مطبوع عليها الطغراء العثمانية فإنها كانت تصير هدية فاخرة تقدم لمن أتعرف بهم من أكابر المسلمين هنا .

وقد سمعت من أحد التجار لما كنت في سياحة الصحراء الكبيرة أنه كان أدخل مرة لوحات عليها الطغراء السلطانية إلى أواسط أفريقيا وأنه باعها جميعاً للأهالي وربح بذلك مالاً كثيراً ، وقصّ لي أيضاً الموسيو فامبيري المستشرق المجري المشهور أنه كان معه في سياحته في بلاد تركستان في أواسط آسيا جواز عثماني (بسابورت) وعليه الطغراء السلطانية ، فكان الناس يأتون لزيارة هذه الطغراء من مسافة ثلاثة أيام وأنهم لا يقتربون من الجواز ويمسون الطغراء إلا بعد أن يجددوا الوضوء فالله المسؤول أن يبقي هذا الاسم الكريم ويؤيده بتوفيقاته الإلهية .

واستحسنوا منظر الطربوش الذي كان على رأسي وأظهروا ميلهم لوضع الطربوش على رؤوسهم وأن يتعمموا عليه ، فلذلك أوصوا زكريا أفندي الألباني أن يستحضر لهم من الخارج طرابيش ليضعوها على رؤوسهم ، وأردت أن أهديهم من طرابيشي ولكن كانت كبيرة على رؤوسهم ، ثم أخذنا نتمشى على الشرفات المشرفة على محل السوق المار ذكره المقصود هذا اليوم (السبت وهو يوم انعقاده) وهو يكتظ بألوف من الناس ، فكنا نرى جميع ما يباع أمامنا من المواشي والطيور الأهلية والحبوب والفلفل الأحمر ، وبعد أن تكلمنا مدة أخرى قاموا واستأذنوا بالذهاب وغدوا يدعون للحضرة السلطانية ، وقبل أن يبرحوا صوّرتهم بالفوتوغراف ولكن كان الجو ملبداً بالغيوم فلم تطلع رسومهم جيدة .

بينما كنا اليوم على المائدة انتقل حديثنا إلى أطعمة الحبشة ، إن طعام الأحباش متنوع ولكن الطعام اليومي للأكابر منهم هو أولا المسمى (زيتي) وهو لحم يقلى بالسمن ويوضع فيه كثير من الفلفل الأحمر حتى أن الناظر إليه يظن أنه مطبوخ بالطماطم (بندورة) ، ثم ما يسمونه (تبسمى) ويشبه اللحم المشوي ، ثم اللحم النيئ يغمسونه في الفلفل الأحمر ويأكلونه من غير خبز ، ويسمون هذا النوع (برندو) وللأحباش نوع آخر من الطعام منتشر بين طبقات الناس كلها ويسمونه (سيرو) وهو عبارة عن عجين يطبخ بالماء ويضاف عليه الفلفل الأحمر وهذا هو طعام الأحباش الوطني وهو يشبه العصيدة التي يطبخها الجواري السود عندنا ، والأكابر يعالجون السيرو بدقيق العدس أو دقيق الحمص والفقراء يطبخونه بدقيق الفول وقد قيل لي إن بعض الناس يطبخه بدقيق الكتان ، وهناك أصناف أخرى من المآكل مثل (امباشا) وتعمل من دقيق القمح وتطبخ بالفرن مثل الخبز ، و (داببو) وتعمل من دقيق الحنطة أيضاً ، و (غوتنفو) وهي عبارة عن عجين يحشى قطعاً مفرومة من اللحم ويقلى بالسمن ، و (كلكل) وهي نوع من اللحم المسلوق ، والأحباش يأكلون اللبن الحامض المعمول من غير غلي ولا خميرة بعد أن يضعوا فيه فلفلاً أحمر ، ومرقة هذا الفلفل تقوم مقام الأدام عند الفقراء ، وبالجملة إن الفلفل الأحمر في كل شيء ولذلك يدخره كل صاحب منزل في أوانه بالقناطير ويعملون منه ضرباً من المرقة (صالسه) تشبه مرقة الطماطم (البندورة) يغمسون فيه الخبز المسمى (أنجره) ويأكلونه ، والفقراء يسرهم جداً هذا الأدام وكان بين المؤن التي وردت لنا البارحة من قصر النجاشي بضع جرات من هذه المرقة ، لذلك لم يكن لخدمتنا وجنودنا من شغل سوى تغميس اللحم النيئ في مرقة الفلفل المار ذكره وأكله بكل سرور . ويعمل الأحباش أنواعاً من العصيدة من دقيق الذرة والفاصولية والشعير والدف والحنطة ويكثرون من وضع الفلفل الأحمر في هذه الأطعمة حتى أنه لا يتأتى لأمثالنا أن يضعوا منه ولو قليلاً في فمهم ، بل لا يستطيع أحدنا وضع إصبعه فيه لأنه يفعل ما يفعله الخردل ويعملون نوعاً من الفطير يسمى (برانجيرا) وهو يشبه (البغاشه) ولهم نوع من البسكويت يهيئونه لأجل الأكل في أسفارهم وتكون كل قطعة منه بقدر البندق ويكون داخله ملآناً بالعجين ويسمونه (دانفلو) وكيفية صنعه أنهم يجعلون العجين

فتائل طويلة ثم يقسمونه قطعاً كروية ثم يحمصونها على الصاج ويبيعونه في الأسواق كما يباع عندنا ولم أقدر على أكل واحدة منها من كثرة الفلفل الأحمر الموضوع فيه ، ويعملون نوعاً من اللحم المقدد (باصديرمه) يأكلونه في أسفارهم إذا لم يوجد لحم ، وقد رأيت بغالتنا يعملونه مراراً ، وكيفية عمله أنهم يقطعون اللحم قطعاً طويلة قليلة العرض حيث تشبه سيور الجلد ويعلقونه على الحبل ولا يأكلونه إلا بعد أن يغمسوه بالفلفل الأحمر ، والفقير من الأحباش لا يلتفت إلى وجود الملح وعدمه (الملح هنا غالٍ جداً) ولا يخطر في باله ما دام الفلفل الأحمر موجوداً .

عندنا كثير من المشروبات المسمى (تج) و (برز) في أوانٍ من البلّور وموضوعة دائماً على الموائد أو على الترابيزات في الغرف وكلها أرسلت مع المؤن من القصر الإمبراطوري ، والبرز في غاية اللذة والنفع ، وقد سألت كيف يصنع التيج والبرز فقيل لي يضعون في القدور المصنوعة من الفخار المسماة (غومبو) قسماً من العسل وخمسة أقسام من الماء ثم يضعون عليه مسحوق نبات يسمى (كجو) الذي يشبه الدفل ليسرع تخمر المشروب ، ويضعون فيه أيضاً جذور نوع من الشجر فيجعل لون المشروب مثل لون الشامبانيا مصفراً ورائقاً جداً ، ثم يغطون القدرة بغطاء محكمة ويطلون أطراف الغطاء بالطين منعاً لدخول الهواء والنمل فيها ، وتوضع القدرة في المحلات الحارّة بالشمس ، وأما في البلاد الباردة أو إذا كانت الشمس قد حجبتها الغيوم فإنهم يضعون القدرة على الرماد الحار أو حيث توقد النيران في المطبخ ، ويفتح غطاء القدرة بعد خمسة أيام وتطفو قطع الكجو والشمع فيصفى بعد هذا بقماش رقيق ، فهذا هو الشراب المسمى (تج) ، وإذا لم يحكم غطاء القدرة إحكاماً جيداً فإن المشروب يكون خلاً شديد الطعم ، وأما البرز فإنه مشروب المسلمين ولا يوضع فيه نبات (كجو) ولا يخمرونه كثيراً وهو ألذّ من عصير العنب المسمى (شيره) ويشربونه مكان الماء ، ولهم شراب آخر اسمه طاللا هو بيرة الأحباش الوطنية كما أن نبيذهم الوطني هو (تج) فالكبار يشربون كل يوم هذا المشروب خصوصاً في الأفراح والاحتفالات فإنه يصرف منه كثير وهم يشربون كثيراً حتى يغدو باكوس إله الخمر شاكراً لهم (!) وسنذكر فيما يأتي أن فينوس إلهة الجمال تُسر جداً أيضاً من بلاد الحبشة كما يسر باكوس ، وكان الأحباش عموماً يشربون التيج في آنية من القرن ، ولما أخذت أواني البلور ترد من

أوربا مثل الأقداح والجامات أخذ الأكابر يشربون بها ، على أن أوربا ترسل الآن إلى الحبشة قروناً من الحديد مطلية لتزاحم في هذه البلاد تجارة القرون أيضاً ، والقوافل تنقل مياهها بقرون كبيرة وأما في منازل الرؤوس فإن الإنسان يشاهد أواني البلّور الخالص عليها نقوش بماء الذهب ، ويسمي أهالي تيغري التج (ميه ز) والعسل كثير جداً في الحبشة ، جَنْيُهُ دائماً عقب موسم الأمطار ، و الأحباش لا يكلفون أنفسهم بتربية النحل بل هو ينمو من نفسه بحالة طبيعية ، وتجد النحل يتجمع في شقوق جذور الأشجار التي طرأ عليها الفساد وتصنع العسل هناك والناس يبحثون عن عسل النحل ويجدونه بدلالة صنف من الطير يحب العسل كثيراً فيشتغل دائماً بالبحث عنه وإذا وجد بعض الخلايا فإنه يصعد إلى أعلى الشجرة ويطفق يغرد ويغني مسروراً فيسمع صوته القائمون بالبحث عن الخلايا فينحون تلك الجهة ويشعلون ثمة النار حول الخلايا فتطير النحل من الدخان ويبقى العسل غنيمة سهلة الأخذ ، فمسكين أنت أيها الطير تكتشف ليستفيد غيرك كأنك تريد أن تشير إلى أن الذين لم يستفيدوا من اكتشافاتهم ليسوا في أووربا فقط بل يوجد بينهم في أفريقيا أيضا ! .

إن النساء في الحبشة يقمن بتدبير أمور المنزل كلها ولا تأنف زوجة أكبر كبير من النزول إلى المطبخ لمعالجة المأكل ، حتى إن الأميره وزروزو ديتو كريمة النجاشي منليك وزوجة رأس قوقسان عند ما تزور قصر والدها تنزل للمطبخ وتطبخ طعام والدها بنفسها ، فلتعش هذه الأميرة ، وحبذا لو أن نساء المتوسطين عندنا فضلاً عن نساء الأكابر يطبخن طعامهن للتخلص فقط من دلال الطاهيات وسرقاتهن وإسرافهن .

كانت مدينة (أنكوبر) فيما مضى عاصمة مقاطعة شووا ولكن نقلها النجاشي قبل عشرين سنة إلى أنتوتو الكائنة على الجبل المرئي من أمام منزلنا ، وهذا الجبل يعلو عن سطح البحر 3200 متر فلذا كان شديد البرد وكثير الغيوم ولما بنت جلالة الإمبراطورة تاتيو قصراً في السهل الذي على سفح الجبل المبتعد عن أنتوتو بمسافة ثلاث ساعات حيث أعجبها المناخ والموقع أخذت تنتقل حاشية الإمبراطور بالتدريج من أنتوتو إلى المحل المذكور حتى أصبحت عاصمة البلاد ، وقد كانت الإمبراطورة سمت قصرها هذا (أديس أبابا) فلذلك أطلق هذا الاسم على العاصمة التي أنشئت حديثاً كما ذكرتها ، وكلمة (أديس) هي أمحرية ومعناها جديد وقد حرفت من حديث العربية ومعنى (أبابا) هو

الزهر فيكون تعريب الكلمتين (الزهرة الحديثة) ، والمدينة ذات تعاريج صعود ونزول لأنها مبنية على هضاب ومرتفات متعددة ، ومباني العائلة الإمبراطورية في إحدى هاته المرتفعات ومباني الرؤوس وأركان المملكة والأمراء في الذرى أيضاً ومن حولهم منازل حاشيتهم وخدمهم فلذلك تجد منازل المدينة وخططها بعيداً بعضها عن بعض وكأن المدينة معسكر لا مدينة ، لأن الرؤوس والأمراء الذين يسكنون المقاطعات دائماً والذين لم يكن لهم منازل في العاصمة عند حضورهم إلى أديس أبابا يضربون الخيام في الفضاء لنزولهم ونزول جنودهم وحاشيتهم ، كما أن التجار والقوافل التجارية الآتية من الداخل أو من الساحل تنزل في المضارب أيضاً ، فالمدينة مؤلفة من منازل وخيام ، وعدد سكان أديس أبابا يبلغ الآن 50000 تقريباً ، وقد كان النجاشي أنشأ قصراً سماه (أديس علم) أي العالم الحديث على بعد خمس ساعات من العاصمة ، ثم أنشأ قصراً آخر بين القصر المذكور وبين العاصمة وسماه (الجنة) واتخذ هذين القصرين متنزهاً له ، وأخذ ينشئ طريق شوسه من العاصمة إلى المتنزهات المذكورة ، وبهذه الوسيلة تنشئ الآن الحكومة الحبشية الطرق في نفس العاصمة وتفتح الشوارع ، والمهندسون المشتغلون بها كلهم من الإفرنج والفعلة من الأهالي يشتغلون بالسخرة ويطلب منهم أن يتمموا ما حوّل عليهم عمله من غير التفات إلى وجود العدد والأوائل أو عدم وجودها ، فلهذا نرى الفاعل هنا يقلع الأحجار بعصاةٍ وضع على رأسها قطعة حديد لعدم وجود المقاليع الحديدية ، ونرى الآخر هناك ينقلُ الأحجار قطعة قطعة على رأسه وهذا ينقل التراب في ذيله كل ذلك لعدم وجود عدد وعربيات يد تسهل النقل ، ومن هذا نجد أن العمل الذي يقوم به خمسة أشخاص عندنا لا يقوم به أربعون فاعلاً هنا ، وهم يستخدمون في الأشغال الشاقة المسجونين مقيدين بالسلاسل ويراقبهم نظار بيدهم السياط .

إن أديس أبابا تعلو 2750 متراً عن سطح البحر ، ولكوننا في موسم الأمطار التي لا تنقطع يوماً كنا مرتدين ملابسنا الشتوية ومع هذا كنا نحس بالبرد القارص ، وأبنية أديس أبابا طابق واحد أرضي ما عدا قصر الإمبراطور وبعض دور السفارات الحديثة النشأة ومنازل بعض التجار الواردين من الخارج فإنها طابقان .

أديس أبابا

يوم الأحد 6 يونيو / حزيران

ظهور زنديق - الطرق الصوفية في الحبشة - التحية الإمبراطورية - زيارة الأرمن لنا.

وفي الصباح ورد الشيخ محمد سعيد يحيى لزيارتي ، وأصل هذا الشيخ من غوندار عاصمة الحبشة القديمة ، وكان بين الذين هاجروا إلى السودان للاضطهاد الذي وقع فيه المسلمون في زمن الإمبراطور يوحانس ليكرهوهم على تغيير دينهم الإسلامي ، وقد مكث الشيخ سعيد عند المتمهديين ما يقرب من عشرين سنة وقص لنا الحروب التي وقعت بين الأحباش والمتمهديين ، وسنوردها في آخر هذا الفصل .

وقد وصل إلى أديس أبابا منذ مدة ليرفع شكواه إلى الحكومة ضد رجل زنديق يسمى زكريا ظهر في شوقوله قرب غوندار ، وقال لي : إن زكريا هذا يدّعي النبوّة ويفسر القرآن كما يشاء ويغير قواعد الدين على النحو الذي يميل إليه الجهلة الذين اتبعوه فجعل الصيام إلى الظهر وأباح المسكرات والفسق والفجور بالنساء ، وبلغ عدد أتباعه أربعة آلاف ، ويخشى الشيخ محمد سعيد بسببه فتنة بين المسلمين تشبه فتنة المتمهدي فلذلك أتى إلى أديس أبابا ليرفع شكواه إلى رأس قوقسان حاكم المقاطعة التي فيها غوندار وتوابعها ، وقال لي الشيخ محمد سعيد : إن الذين نشروا الديانة الإسلامية في الحبشة هم الجبرتيون وإن الجبرتي المؤرخ المصري المشهور هو من أرغوبة وإن المتمهدي قتل كثيراً من الأحباش المسلمين الذين هاجروا إلى السودان ولم يؤمنوا به ، وإن الأحباش المسلمين هم على المذهبين الحنفي والشافعي وإن أكثرهم ينتمي للطريقة القادرية وفي الدرة الثانية عندهم الطريقة الختمية والشاذلية ، وقد سمعت كثيراً ذكر اسم الشيخ عبد القادر الجيلاني في النشائد التي كان المسلمون هنا ينشدونها .

كان الطقس اليوم بارداً ورطباً جداً ، ومنذ وصولنا إلى أديس أبابا لم أذق لذة الدفء . الأمطار متواصلة مع كثرة سقوط الصواعق التي كثيراً ما ينجم عنها ضرر ،

وقد أصابت قبل بضعة أيام ثلاثة أطفال كانوا في الغيطان فقتلت اثنين منهم وبقي الثالث يهز رأسه دائماً كأنه مصروع .

وبعد ذهاب الشيخ محمد سعيد حضر لعندي الموسيو ايلغ وبلغني سلام جلالة الإمبراطور الوارد اليوم بالتلفون وأن جلالته يسأل عن صحتنا وراحتنا ، كما وأنبأنا الموسيو ايلغ أن الحداد سينقضي في هذين اليومين فيحضر جلالته إلى العاصمة لمقابلتنا وذلك أن أحد أحفاده تُوفي قبل مدة وكان محبوباً جداً لديه فقام البلاط وأكابر البلاد والأهالي بالحداد .

وبعد الظهر جاء يزورنا أكابر الروم والأرمن الموجودين هنا ، والأرمن كانوا قد هاجروا إلى الحبشة بعد الوقائع المعلومة فحضر منهم ما ينيف على ثلاثمائة شخص إلى أديس أبابا ومع بعضهم نساؤهم وآخرون منهم هاجروا بغير نساء ، وكثير منهم نادمون على ما سبق منهم وناقمون على الذين غشوهم وخدعوهم ، وقد وجدتهم يتحسرون ويتأوهون عند ما يذكر أمامهم اسم الآستانة والأناضول ، وقد اعترف بعضهم بخطئهم وبصبر الدولة ومرحمتها ، ولكن ما الفائدة (بعد خراب البصرة) وعلمت أن هؤلاء الأرمن القاطنين هنا أرادوا أن يؤلفوا جمعية منهم يكون لها مجلس إدارة وإدارة خصوصية ، ولكن الإمبراطور قال لهم :(يلوح لنا أنكم من الذين طبعوا على الشر ولولا ذلك لما كانت دولتكم قذفت بكم إلى خارج وطنكم ، فيجب أن تأتونا بكفالة إما من الدولة العثمانية أو من إحدى الدول الأجنبية وإلا فاخرجوا من بلادي) فاضطروا أن يطلبوا من جلالته مهلة بضعة شهور ليتمكنوا من الكتابة إلى البطرك بطلب الكفالة .

اليوم يوم أحد فلهذا كانت ساحة السوق التي أمام منزلنا خالية خاوية على خلاف ما كانت عليه البارحة .وقد علمت أن هذه الساحة يشنق فيها المجرمون فيلقون المحكوم عليهم بالإعدام على الأشجار الموجودة فيها فعسى أن نبرح هذا المكان قبل أن نرى في هذه الساحة ما يزعج منظره .

إن العقوبات في بلاد الحبشة ترتب كما ترتب في البلاد الأخرى حسب الجناية والجنحة والمخالفة وإنما عقوباتهم شديدة كشدة طعم الفلفل الأحمر عندهم ، فالمخالفات عقوبتها بالسوط فيربطون يدي ورجلي المحكوم عليه بسيور من الجلد أو بالحبال ويكب على وجهه ثم يأتي أربعة من الرجال ويشد كل واحد منهم الحبل أو السير شداً متيناً حتى يخيل للناظر أن أعضاء المحكوم عليه سينفصل بعضها عن بعض ويعلو جسمه عن الأرض من شد الحبال وبعد ذلك يأخذ الجلاد بجلده بسوط طويل على أفخاذه وظهره وسائر جسمه العاري عن اللباس .

وعقوبة السرقات قطع الأيدي والأرجل ويأتي أقرباء المحكوم عليه أو من يحب أن يعمل عمل خير بقليل من الزيت ويغلونها على النار أو يحمون حديدة لدرجة الاحمرار قبل تنفيذ الحكم فعند قطع اليد أو الرجل يضعون محل الجرح في الزيت المغلي أو يكوونه بالحديدة الحامية لأنه إذا لم يعمل ذلك ويترك الجرح كما هو يموت من كثرة نزيف الدم من الجرح وأكثر المحكوم عليهم يموتون بعد التنفيذ ، وقد كان الطليان لما حاربوا الحبشة جمعوا كثيراً من المتطوعة بالأجرة من سكان مصوع وما جاورها من البلاد فوقع كثير من هؤلاء في أسر الحبشة فعدوهم خائنين لوطنهم وحكموا عليه بقطع يد ورجل كل واحد منهم فمات أكثرهم .

أما القتل فعقوبته القتل إذا لم يرضَ ورثة المقتول بالدية فيسلم القاتل إمّا إلى الجلاد مباشرةً وإمّا إلى الورثة ، فإذا سلّم إلى الورثة يقتلونه بمثل ما قتل أي إذا كان قد قتل بالرصاص يقتلونه بالرصاص وإن كان قتل بالسيف فبالسيف ، وكثيراً ما يتجاوز الورثة في تنفيذه هذه الأحكام حدود الإنسانية فيمثلون به تمثيلاً شنيعاً ويعذبونه ، وأما إذا رضي الورثة بالدية فعلى القاتل أن يدفع الدية إلى ورثة المقتول وإذا لم يكن عنده دراهم في الحال يعطى المهلة التي يرضى عنها الورثة وإذا لم يقدر على تأدية الدية عند حلول الأجل يقتلونه ولكن هذا يندر وقوعه لأن الناس يساعدون من يجمع دية لورثة المقتول ، ولأجل جمع المال يأخذ الجاني طنبوراً ويلبس مئزراً من أعلى رأسه

إلى رجله فيسير من قرية إلى قرية يوقع على الطنبور ويسأل الناس فكل من يراه يعرف من المئزر والطنبور ما يقصده الرجل فيقبل الكبير والصغير على مساعدته .

وكان في زمن الإمبراطور الأسبق كثير من عقوبات التعذيب ولكنها بطلت الآن ، يقال أنه كان كثيراً ما يعاقب الناس والجنود بوضعهم جميعاً أو منفردين في أكواخ ثم يحرق الكوخ بمن فيه من المسجونين وكان يعري جسم من يغضب عليه ثم يلف رجليه وأفخاذه ويديه بالحبال الرفيعة لفاً محكماً فينفر الدم من بين أظافر الرجل ولا يتركونه إلا إذا دفع غرامة كبيرة ، وأكثر من يقضى عليهم بهذا يموتون فتلقى أجسامهم إلى الوحوش الكاسرة في الخارج . أما الآن فألغيت كل هذه العقوبات بفضل جلالة الإمبراطور الحالي والرؤوس ، وأما عقوبة الجواسيس والذين يكذبون للحكام فقطع اللسان .

المحاكم

إن القاضي في بلاد الحبشة ومدنها هو الرجل الكبير الموجود في المدينة فهو يفصل في الدعاوى والقضايا مثل ما يفصل مشايخ القبائل في قضاياهم ، وأما في العاصمة فإن القاضي هو الإمبراطور نفسه ، وكان الملوك إلى زمان تئودورس ويوحانس يجلسون للقضاء ويفصلون في الدعاوى بأنفسهم وأما جلالة منليك فإنه لا يرى إلا القضايا المهمة ويحكم فيها في بعض الأوقات ، يقوم مقامه في رؤية الدعاوى موظف كبير يسمى (أفانفوس) يعني لسان الملك أو كليم الملك ويصدر أحكامه بها باسم الإمبراطور ويعرض الدعاوي الخطيرة على الإمبراطور لأخذ رأيه فيها ، وكان تئودوروس يجلس كل يوم في وقت معين على عرش يوضع في ساحة مكشوفة ويجلس عن يمينه اثنا عشر وعن شماله اثنا عشر من الرجال الشيوخ ورئيس الكهنة وكاهن يحمل القانون الحبشي يسمى (فتانفوس) ، ويفتحون مظلة فوق رأس الإمبراطور ويقف حاشيته وطائفة من جنده وراءه أو يحيطون به فيقترب المتداعون إلى أن يبقى بينهم وبين الإمبراطور ٣٠ متراً فيقفون ، ثم ينادي المدعي بصوت عال قائلاً : (جانهوه جانهوه) يعني (حضرة الإمبراور) ويكرر هذه الاستعانة سبع مرات طالباً رؤية دعواه

فيتقدم (أفانفوس) إلى المتداعين فيسمع نص المدعي والمدعى عليه والشهود ، ثم يعود إلى الإمبراطور ويعرض عليه جهراً ما سمعه ، فإذا كانت القضية بسيطة يصدر الحكم في الحال وإلاّ يجري فيها مذكرات وأخذ وردّ على الصورة الآتية :

يقوم أحد الشيوخ الطاعنين بالسن عن يمين الإمبراطور ويعرض رأيه في الدعوى وبعده آخر عن الشمال ويبسط فكره فيها ، وهكذا حتى يتم أخذ رأي جميع المستشارين ، ويدوّن كاتب يجلس في الجهة اليسرى جميع الآراء في دفتر مخصوص ، فحين يتم أخذ الآراء يأمر الإمبراطور الكاهن الحامل للقانون أن يقرأ جهراً الفقرة التي تنطبق على القضية ، وبعد ذلك يصدر الحكم الذي يبلغه (أفانفوس) لأصحاب الدعوى . وفي بعض الأوقات يسمع (أفانفوس) أربع أو خمس قضايا من الدعاوي الخفيفة معاً فيأخذ نصوص المدعين والمدعى عليهم والشهود في آن واحد ويبلغ الحكم لأصحابها كلهم في آن واحد ، فلذلك ينتخب دائماً لهذه الوظيفة رجل ذو ذكاء عظيم ونباهة فائقة وذاكرة قوية ، وتنفذ الأحكام حال صدورها ، والآن يقوم (افانفوس) مقام الإمبراطور في فصل الدعاوي في العاصمة . وأما في المدن الأخرى والقرى فإن الرؤوس أو دازجماج أو المدير أو الشوم (وهو عمدة البلد كما مرّ ذكره) يقومون بفصل القضايا على حسبها ، ويوجد أعضاء بنسبة جسامة المدينة أو القرية يساعدون الحكام في فصل الدعاوي مقام أعضاء المحكمة .

القانون الحبشي المسمى (فتانفوس)

(فتانفوس) هو قانون الحبشة المعمول به ، وقد جمعه ودوّنه في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي أحد علماء المسيحيين من أقباط مصر المدعو الأسعد بن عسال وهو على قسمين الأول فيما يخص الكنيسة والدين والعبادات وقد اقتبس المذهب القبطي والديانة اليهودية ، والثاني يختص بالأحكام والمعاملات وقد أخذ من المذهب الشافعي خصوصاً من كتاب التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي ، وقد كان صدر قبل ثلاثمائة سنة أمر من نجاشي الحبشة وقتئذ بوجوب العمل بهذا القانون الذي سمي (فتانفوس) ، وكلمة (فتا) مخففة من (فتاوي) العربية وهي جمع فتوى و (نفوس)

معناها النجاشي فيكون معنى الجملة (فتاوى النجاشي) .

(له باشاه) يعني الباحث عن السارق والمظهر له

يبحثون هنا عن السارق بنوع من طرق التنويم في أوروبا (سبيريتزم) و(هيبونتزم) ويسمونه في بعض الجهات من الأقطار العربية بالمندل بدلاً من التحقيق والتحري ، وهذه صورة البحث .

يأتي الشوم (العمدة) المتخصص بالبحث بقليل من مسحوق نبات يشبه مسحوق الملوخية المجففة ويلقي بها في لبن الحليب ، ثم يجرع اللبن لصبي لم يبلغ بعد ، فيأخذ الصبي حال شربه اللبن بالارتعاش وعندئذ يقدمون للولد نارجيلة (شيشه) يدخن فيها فتنقلب حالة الصبي من الارتعاش لحالة غثيان فيأخذ بالمشي كمن يمشون في النوم ويشرع يصف محل السرقة والسارق بالرموز والإشارات ، ويمسك العمدة بيده حزاماً مربوطاً بوسط الصبي ويسير وراء (له باشاه) وهم اسم الصبي المنوم أينما سار وكل من يصادف (له باشاه) في طريقه يسجد في الحال ، ولهذا الصبي النائم أن يدخل أي منزل شاء وإذا كان المنزل موصد الباب يفتح حالاً ، وإذا لم يكن صاحبه موجوداً يكسرون الباب وبالجملة يجب أن تكون كل الطرق أمام (له باشاه) مفتوحة وربما كان (له باشاه) لا يعرف محل السرقة والسارق بالرموز والإشارات فحينئذ ينتظرون حتى يضطجع في محل ويقيء هناك فيحكمون حينئذ أن المال المسروق موجود في هذا المحل .

ايشش، بر وهايتو، افاتانهايتو، ثلاث عرائس لعريس واحد

إن السائح في بلاد الحبشة يسمع كثيراً هذه الكلمات الثلاث ، فسألت عن معانيها فقيل لي معنى (ايشش) حاضر يا سيدي وهم يستعملون هذه الكلمة بكثرة من غير أن يتبعوها بالفعل أي أنها تكون على الغالب كلاماً من غير عمل ، أضرب لك مثلاً بغَّالتنا : نقول لهم هيا بنا نحمل أثقالنا لنسير ، فيجيبون بقولهم (ايشش) ،

ثم تمضي ساعات وهم لا يتحركون وإذا أعدنا كلامنا نسمع منهم (ايشش) أخرى وينظرون إلى استعجالنا بعين الاستغراب لأن الوقت لا قيمة له هنا ، أما (بروهايتو) و (افاتانهايتو) فإن معنى الأولى إن شاء الله غداً والأخرى إن شاء الله بعد غد ، ولا حدّ لاستعمال هاتين الكلمتين في هذه البلاد ، وقد قص عليّ أحد الزوار هذه القصة قال :

باع تاجر مالاً من أحد أعيان الحبشة ، وبعد قليل أخذ هذا البائع يطالب بالثمن ذلك الشاري الذي لم يحب الاستعجال في تأدية ما عليه فكان يماطل التاجر كل يوم ويقول له (بروهايتو ، افاتانهايتو) ، فلما أعيت التاجر الحيل عزم على الرحيل وحمل ما معه من المتاع وذهب آخر مرة للمدين وعرفه بأنه مسافر لبيع ما عنده من المتاع في مدينة أخرى ، فعندئذ سأله الرجل وما هو المتاع الذي أخذته معك للاتجار به؟ فقال له وهو يشير إلى الأحمال :(يا مولاي إن نصف هذه الأحمال بروهايتو والنصف الآخر افاتانهايتو سأتجر بها) فلما سمع المدين هذا الكلام اقتنع بأن الرجل مستعجل فخجل من بطئه في الدفع فأعطى التاجر حقه ، وقد سمعت أيضاً من أحد الزوار إن مدة تنفيذ معنى (ايشش) و (برهايتو) في طريق (آدال) هي أكثر بكثير منها هنا فإنه قد جربها بنفسه في أسفاره إلى الساحل ذهاباً وإياباً ، وعلمت منه أنه سافر مرةً إلى جيبوتي ولم يصل إليها إلا بعد مضي شهر ونصف من قيامه من أديس أبابا ، فوقف في هذه المدة على أكثر أحوال سكان (آدال) ، وقابل أحد مشايخ تلك الجهات ويدعى الشيخ محمد تنباكو ونزل ضيفاً عنده وحضر وليمة زواجه ، فقال لي أن هذا الشيخ أعرج وأكتع لكنه عقد في ليلة واحدة على ثلاث من الأبكار ودخل عليهنّ في ليلة واحدة فكأنه أحب الاقتصاد وبدلاً من أن يتزوج ثلاث مرات وينفق لكل مرة كثيراً من الدراهم تزوّج مرة واحدة بثلاث فما قولكنّ في ذلك أيتها السيدات !! .

الظاهر من هذا وغيره أن لدى هؤلاء الناس عادات جاهلية فقد حدثني زكريا أفندي أنهم يأتون بالعجل السمين ويفصدون إحدى شرايينه ويأخذون قدراً من دمه فيشربونه ، ثم يسمنون العجل ويفصدونه ثانية وهكذا فكأنّ قسماً من غذائهم من هذه الدماء ، وقد كنت ذكرت في رحلتي إلى الصحراء الكبيرة أن الناس هناك يأخذون دماء مواشيهم ويشربونها وإنما يعملون ذلك عند الحاجة الشديدة والافتقار

إلى الغذاء . وأما الآداليون فإن شرب دماء المواشي عندهم عادة لهم ، وهؤلاء الآداليون مشهورو هنا بشجاعتهم واستعمال السلاح ويقولون أن الآدالي يهجم وحده على ثلاثة أسود ويقتلها بسلاحه الذي هو رمح وترس فقط والعهدة على الراوي .

هذا ولا بأس بعد ما تقدم من بعض شؤون الحبشة وعاداتهم أن نسرد هنا ما وقع من الحروب بينهم وبين شيعة المتمهدي .

بضع كلمات على مدار حركات الحروب بين شيعة المتمهدي والأحباش

إن مدينة القلابات التي سيأتي ذكرها فيما يلي كائنة جنوب بلاد القضارف وواقعة على ساحل نهر (آتبره) وفي منتهى الحدود الحبشية والسودان المصري ، وأصل سكان هذه المدينة من السودان الغربي ومن جنس (تكرو) وكانوا يؤدون الأتاوة إلى الحكومة الحبشية ، فلما استولت الحكومة المصرية على السودان حصّنت مدينة القلابات وجعلتها صالحة للدفاع عن نفسها واستخدمت أعيان البلاد بصفة مديرين ولكنهم مع ذلك كانوا يؤدون الأتاوة إلى الحبشة ، وأما بلاد القضارف فإنها واقعة شمال القلابات ويحيط بها نهر آتبره من الشرق والجنوب وتربتها غنية خصبة جداً وتجارتها واسعة ، وحاضرة القضارف هي (أبوشي) ، وهذه المدينة متسعة وفيها مبانٍ شاهقة ذات طبقات متعددة شيدت بالطوب أو الحجر ويوجد فيها غير سكانها الأصليين كثير من التجار السوريين والمصريين والفرنسويين والروم والأرمن ، ويحيط بالمدينة كثير من الجنات ، والفواكه هنا كثيرة جداً مثل العنب والتين والقشطة والموز والرمان والبرتقال ، وأراضي القضارف خصبة وقوية حتى أن العنب والنخل يثمر مرتين في السنة . ومن مدنها الكبيرة عصار ودوكه وهما مدينتان تجاريتان .

الوقائع بين الأحباش وشيعة المتمهدي

كان عثمان دقنه بعد سقوط مدينة كسلا في يد الدراويش في زمن الإمبراطور

يوحانس سنة 1302 هجرية قام من سواكن ومعه عشرون ألفاً من الدراويش وجمع ثلاثين ألفاً في الطريق وقصد المحل المسمى (كوفيت) الواقع على الحدود المصرية السودانية فأرسل كتاب تهديد إلى رأس الولا الحبشي المشهور ، فأجاب الرأس بأنه سيلاقيه في يوم كذا وورد الرأس في اليوم المعين ومعه ثمانون ألف جندي حبشي وأحاط بمعسكر عثمان دقنه من كل جانب وهاجمه وهزمه شرَّ هزيمة ولم يقدر عثمان على النجاة بنفسه إلا بكل صعوبة فالتجأ إلى كسلا ومعه خمسمائة شخص فقط .

وفي سنة 1304 هجرية أرسل عبد الله التعايشي خليفة المتمهدي المقيم في أم درمان كتاباً إلى قبيلة الشكرية المقيمة في صحراء ريره وأمرهم أن يحضروا كلهم إلى أم درمان فعلموا بما يعرفونه من ظلم التعايشي أنه يريد بهم السوء والنهب فهاجروا إلى الحبشة ، وكان عوض الكريم شيخ القبيلة يومئذ وبضع مئات من رجال القبيلة وأعيانها موجودين في أم درمان ، فلما علم التعايشي هجرة القبيلة اعتقل عوض الكريم ومائتين من رجاله وكبَّلهم بالحديد ثم قتلهم جميعاً ، والذين هاجروا إلى الحبشة لم تمضِ عليهم برهة حتى أخذ الفقر يدب فيهم لأن المناخ لم يلائم أنعامهم فبادت كلها ، وفي زمن قليل اضمحلت هذه القبيلة المعدودة من أكبر قبائل السودان وأغناها .

وكان لعوض الكريم الذي قتله التعايشي ولد يسمى عبد الله وكانت والدته جعلية فلذلك مال لجهة أخواله وخضع للتعايشي فولاه على القضارف فتيسر له إدخال هذه الجهات تحت لواء هذه العصابة الجديدة ، وكان يومئذ رجل يعلم الأولاد القرآن الكريم في مدينة القلابات يسمى محمد أرباب فالتحق بالقوم وخالطهم فأقامه التعايشي داعياً من دعاة المهدوية وألحقه بعبد الله فمنع الناس من دفع الأتاوة للحبشة وكان الأحباش حينئذ مشتغلين لمحاربة الطليانيين الذين أغاروا على الأراضي الحبشية التي وراء مصوع .

وكان عند المتمهدي رجل من أعيان الأحباش يسمى محمد جبريل وفد على المتمهدي واتبعه فأرسله المتمهدي إلى الحبشة ليدعو جميع المسيحيين في الحبشة إلى اتباع الديانة الإسلامية ودعوة سائر المسلمين كلهم إلى الإيمان بمهدويته والخضوع له ، فصدع محمد جبريل بأمر المتمهدي ، فلما رأى النجاشي يوحانس سعي هؤلاء

ودعوتهم شغل هذا الأمر باله وبات في هم عظيم وأخذ منذ ذلك الوقت يضطهد المسلمين خلافاً لعادات أسلافه ويعاملهم بالغلظة والقسوة رغم حرية الأديان في بلاد ، حتى أن شقيقة هذا النجاشي كانت قد اتبعت الديانة الإسلامية بلا ممانع وتزوجت بأحد أمراء المسلمين ، وأما النجاشي فأخذ يعذب كثيراً من الناس لاتباع الديانة المسيحية ، وقد نصحه الرؤوس والأمراء وقتئذ خصوصاً جلالة منليك وآخذوه على أعماله هذه وطلبوا إليه أن يعدل عن هذه الطريقة المستهجنة الهمجية ، ورأيت بعيني بعض المسلمين الذين كان يوحانس قد قطع أيديهم وأرجلهم ، فأدّى اضطهاد يوحانس هذا إلى هجرة كثير منهم والتجائهم إلى شيعة المتمهدي وأقاموا محلاً يشبه معسكراً لإقامتهم في المحل المسمى (عراديب) شمالي القلابات وسموا هذا المحل (تبارك الله) وولّى التعايشي أميراً عليهم رجلاً من أخصائه يسمى محمد فقرا ، وفي أواخر سنة 1300 لما حضر أمير القلابات لزيارة التعايشي أعطاه كثيراً من الأسلحة والخيل وأمره أن يغير بخيله ورجله على أطراف المملكة الحبشية فرجع هذا الأمير وأخذ بالإغارة على بلاد الأحباش وخرّب كثيراً من القرى والمدن العامرة كما أن محمد فقرا أمير (تبارك الله) ، فلما رأى الأحباش ذلك أتوا برجل يسمى عجيل الحمراني أصله من السودان الشرقي كان التجأ إلى الحبشة هو وقسم عظيم من قبيلته هرباً من ظلم التعايشي وأعطوه الأسلحة والذخائر الحربية وأقاموه محافظاً على حدودهم عند المحل المسمى (عتبه) ، ولكن هذا الرجل لم يجرؤ على مهاجمة معسكر المهدوية بل كان يغير على سكان القرى والدساكر التي على ساحل نهر أتبره من الذين كانوا اتبعوا المتمهدي رغم أنوفهم .

وفي ربيع الأول سنة 1304هاجم رأس عذار مدينة القلابات وقتل الأمير محمد أرباب وأكثر جنوده وفرّ الباقون إلى القضارف ، كما هجمت فرقة حبشية أخرى على معسكر محمد فقرا واضطروهم للتقهقر أيضاً إلى القضارف ، فلما بلغ خبر هذا الانهزام أم درمان جهز التعايشي في الحال عشرين ألف درويش تحت قيادة يونس بن الديكم وأرسلهم مدداً للمتقهقرين إلى القضارف ، فوصل هذا الجيش في رجب إلى القلابات واحتلها وانسحب الأحباش من أمامهم ، وبعد احتلال المدينة رتب أعماله وأعلن للتجار الحرية التامة في ذهابهم وإيابهم إلى القلابات ، وأذاع ذلك بين الناس

فأخذ تجار الأحباش يفدون على المدينة بمتاعهم وسلعهم وبضائعهم ولما كثر التجار الأحباش في المدينة أظهر يونس المذكور ما كان يكنه ضميره الفاسد وما جبل عليه من الظلم والاعتساف ، فاعتقل جميع التجار الأحباش وصادر أموالهم ومتاعهم وكبلهم بالحديد وأرسلهم جميعاً إلى التعايشي في أم درمان ، فلما وصل هؤلاء البؤساء إلى أم درمان أشاع التعايشي بأن يونس انتصر في الجهاد وأن هؤلاء كلهم أسرى في الحرب ، ولكن الحقيقة علمت عند كل الناس ، ويونس الديكم هذا هو من قبيلة التعايشي والتعايشي زوج والدته التي تزوجت مراراً كثيرة ، وكان يونس صعلوكاً فقيراً فلما صار التعايشي شر خلف للمتمهدي الذي كان أيضاً شر سلف عقد له القيادة والإمارة على عشرين ألف رجل ، وهو رجل على غاية من الجبن وسخافة العقل مداح لنفسه وله دعاوي عريضة ومزاعم غريبة . ومن جملة دعاويه القصة الآتية : بلغه يوماً أن أحد عبيده كان يستحم في النيل اغتاله تمساح ، فاستشاط يونس لذلك غضباً وأخبر رجاله بأنه ينتقم من النيل بأن يشرب جميع مائه حتى لا يترك فيه نقطة وقام يريد النزول إلى ساحل النيل ، فلما شاع هذا الخبر قام بعض الناس الذين يريدون التزلف إليه والتقرب منه وقالوا له : «يا مولانا إن كراماتك تكفي لنضب مياه البحار فضلاً عن الأنهار ولكن إذا شربت ماء النيل فإننا نموت نحن وأولادنا من قلة الماء فارأف بنا ولا تعمل» . وأما هو فإنه أصر على الانتقام من النيل فكان كلما زاد في الإصرار يزيد المتملقون والجهلة من الأهالي في التضرع إليه حتى أدى الأمر إلى أنهم جمعوا ما يزيد عن ثمن العبد أضعافاً مضاعفة فأعطوه إياه فعدل عن شرب مياه النيل !! وهذه القضية مشهورة بين الناس كلهم هناك ، وقد وجد هذا الرجل حياً بين القتلى في الواقعة الأخيرة التي حصلت بين الدراويش والجنود المصرية عند افتتاح السودان ، وقد نام على وجهه حتى يظن من يراه أنه مقتول ، فلما أمسكوه قدموا له جردل ماء من النيل ليشربه على الحساب! وقد كان يشرب بشره حتى امتلأت معدته ونفرت عيناه ولم يأتِ على الماء الموجود في الجردل ، وهو الآن مسجون في ثغر رشيد بالقطر المصري مع عثمان دقنه وسائر أسرى الدراويش . وفي سنة 1304 هجرية أرسل التعايشي إلى القلابات أربعين ألفاً مشاة وفرساناً تحت قيادة حمدان أبو عنجه أحد أمرائه ومعه بضعة مدافع لينتقم من الأحباش .

فلما وصل حمدان إلى القلابات استلم القيادة من يونس الديكم وعاد يونس إلى أم درمان ، وبعد أن رتب حمدان أحوال جنوده زحف على غوندار عاصمة الحبشة القديمة بألفين من المشاة مسلحين ببنادق رومينفتون وألفين من الفرسان ، فلما وصل لقرب المدينة ظهر أمامه عشرة آلاف من الأحباش فاشتبك القتال بين الطرفين وبعد بضع ساعات انهزم الأحباش تاركين في ساحات القتال ستة آلاف قتيل وجريح وفرّ الباقون ودخل أبو عنجه غوندار ونهب المدينة وأحرقها ودمر الكنائس وقتل القسس ثم عاد إلى القلابات ومعه كثير من الأموال كالفضة والذهب وعشرة آلاف حصان وبغل وثلاثة آلاف فتاة وغلام أسرى وبنات هذه الجهات لا يشبهن الأحباش بل إنهن جميلات جداً ولونهن سمر يشبهن المصريات .

وقد أرسل أبو عنجة من هذه الغنائم للتعايشي عدداً مناسباً من الجواري والغلمان وألف رأس بغل وخمسين حماراً ووزع الباقي على رجاله حسب مناصبهم وأقدارهم بعد أن أخذ منها لنفسه كما أرسل جانباً من الغنائم إلى يعقوب أخي التعايشي ، وقد أعلن حمدان أبو عنجه حرية التجارة على شرط أن يدفع التاجر له الخمس وثبت في كلامه ولم يعمل مثل ما عمل يونس السابق الذكر ، لذلك ورد التجار الأحباش إلى القلابات ، وكان الخمس الذي يأخذه من تجار الغلال والألبان والعسل والسمن وغيره يكفي لسد حاجة الجيش الموجود تحت قيادته .

وتُوفي حمدان أبو عنجه في القلابات في سنة 1306 فولّى التعايشي مكانه الزاكي طمل أميراً على هذه المدينة وأرسل معه من أخصائه أربعة أشخاص ليبلغوا إمارته للناس من قبل التعايشي ، والزاكي هذا رجل اشتهر بالظلم والقساوة وفاق أقرانه بالتجبر على الناس وسلب أموالهم .

موت النجاشي يوحانس في واقعة القلابات

لما بلغ خبر هزيمة غوندار مسامع النجاشي حزن جداً وأخذ يستعد للأخذ بالثأر ، ولكن كانت أخبار استعداده تصل إلى التعايشي بواسطة جواسيسه ، فكان التعايشي أيضاً آخذاً حذره منهمكاً بتقوية القلابات بالجنود وتحصينها حتى أنه أقام على دائر

المدينة سوراً صعب المرور من جذوع الأشجار والعليق والنباتات ذات الأشواك محيطه عشرة آلاف متر .

وفي سنة 1306 زحف النجاشي يوحانس على القلابات ومعه مائتا ألف مقاتل أغلبهم من الفرسان فأحاط بالبلد وأمر جنوده بمهاجمة المدينة من كل جانب ، وكان هو واقفاً أمام خيمته ومعه أمراؤه وأركان حربه يتتبع حركات الجنود ويشاهد الحرب ، وقد أحرق الأحباش جذوع الأشجار المصنوع منها السور ثم هجموا على الدراويش بشجاعة عظيمة وقهروهم إلى الوراء ، فلما رأى الأحباش انتصارهم تفرقوا للسلب ودخلوا منازل الدراويش فبينما كانوا مشتغلين بسبي النساء والبنات والغلمان ونهب المنازل والدور إذ أتى إلى الدراويش مدد كبير من الشمال من رجال كانوا قبلاً من رجال الجيش المصري المنظم انضموا إلى الدراويش عند ما وقعت السودان تحت حكم المتمهدي ، فتقدم فرج الله قائدهم برجاله وهاجم الأحباش ووجه نيرانه على النقطة الموجود فيها يوحانس ، فأصابت رصاصة النجاشي المذكور فقتل في الحال ، ولما رأى الأحباش موت عظيمهم دخل الرعب في قلوبهم وانكسرت قوة قلوبهم فساقوا الغنائم أمامهم ، وأخذوا بالتقهقر وتبعهم الدراويش بانتظام وأصول وهاجموا في الليل معسكرهم بغتة وقتلوا أكثرهم وهم نيام مثل الأموات من التعب واسترد الدراويش الغنائم التي أخذها الأحباش والأسرى من نساء ورجال ، وغنموا أمتعة النجاشي وتاجه المرصع وأخذوا جثته الموضوعة ضمن نعش من خشب وعادوا إلى القلابات بغنائمهم ، وهذا الحال مما يدل على أن اشتغال الجنود بعد الانتصار بالنهب والسلب مضر جداً بالمنتصر كما أن ورود المدد للمغلوب بغتة يفيده فائدة عظيمة .

وقد أرسل الزاكي طمل رأس يوحانس وتاجه المرصع وأمتعته الخصوصية إلى التعايشي في أم درمان ، فكان سرور خليفة المتمهدي وسرور رجاله من هذا الانتصار فوق ما يوصف ، حتى أن التعايشي أقام الولائم للناس أربعين يوماً وذبح آلافاً من الخراف والعجول شكراً على ما أُوتيه من الظفر بعدوه .

متنوعة

يوم الاثنين 7 يونيو / حزيران

ورد اليوم علينا كثير من الزوار وكان أغلب حديثنا في مسائل مختلفة ليس للواحدة علاقة بالأخرى ، فكل زائر كان يفيدنا في ما يتعلق بمهنته أو ما يعلمه ، فمن ذلك أن صائغ الإمبراطور قال لنا :

(إن الإمبراطور يهدي لامرأته ورجال حاشيته بدلاً عن الأوسمة خيولاً ومعها برادع وسيوف ورماح وما أشبه هذا ، فلذلك يشتغل في القصر الإمبراطوري مائة صائغ يشرف عليهم صاغة مهرة ، والوطنيون ليس لهم رواتب معينة بل يعطى لهم أراضٍ وحقول مكافأة) .

ويوجد في قصر النجاشي كثير من الجواري يعملن شموعاً من شمع العسل والشحم وتشرف عليهن الإمبراطورة نفسها .

الأحباش المسيحيون ــ ما عدا أكابرهم ــ لا يغسلون أجسامهم ولا ملابسهم فلذلك لا يصعب على الإنسان بعد مخالطتهم برهة قليلة أن يفرق بين المسيحي والمسلم لأن المسلم يجدد وضوءه كل يوم جملة مرات فتظهر آثار ذلك عليه ، والأمراض المعدية القتالة مثل الزهري وغيرها منتشرة بين أعوام الأمجراويين المسيحيين لكثرة اختلاط النساء بالرجال ، وأما المسلمون فقلما تنتشر فيهم هذه الأمراض ، والرقيق هنا مباح فعلاً وإن يكن ممنوعاً رسماً وثمن الجواري والعبيد بخس جداً فثمن العبيد من 10 ــ 20 ريال وثمن الجواري الحبشيات الجميلات من جنس قوراغي أو جمالكا يساوي 40 ــ 50 ريالاً فقط .

إن المرؤوسين في الحبشة يتحاشون من إظهار ثروتهم أمام رؤسائهم ، ومنهم من يدفنون أموالهم في الأرض وقد يموتون من غير أن يعرف أحد المحل الذي أخفوا فيه ثروتهم ، والإمبراطور يعطي لأصاغر المستخدمين من حاشيته أعمدة من الملح بدلاً من الرواتب ، فهو يقوم مقام الدراهم في كل بلاد الحبشة ، وكل خمسة وستة من هذه الأعمدة تساوي ريالاً واحداً ، وكل عمود في شكل منشور متوازي الأضلاع مربع

الأطراف ويزن كيلو غراماً واحداً .

وهذا الملح يستخرج من بلاد (وللو) التابعة لمقاطعة (تيغرى) وهو تحت احتكار الحكومة وتصرفها .

ويقدم كثيراً من هذا الملح بين الأشياء الأخرى التي يقدمها حاكم تيغرى كل سنة إلى النجاشي بدلاً عن الأتاوة ، والمستخدمون الذين يأخذون ملحاً بدل الرواتب لهم أن يبدلوا الملح بالدراهم أو أن يشتروا به ما يريدون أخذه من الأمتعة والمأكولات .

والعملة الأكثر رواجاً هنا ريالات (ماري تروز) كما هو الحال في أكثر البلاد العربية والسودانية ، ويتداول هذا الريال هنا بقيمة فرنكين وخمسة وعشرين سانتيماً ، ويوجد من العملة الحبشية ريال ضربه الإمبراطور منليك على وجه منه صورته وعلى الآخر رسم أسد يهودا الذي هو شعار الحبشة الوطني ، ولهذا الريال أنصاف وأرباع وربع الأرباع ، والريال ١٦ قرشاً عثمانياً ، ولا يوجد في هذه البلاد ما يسمى في بلادنا صراف ليصرف الدراهم وإنما يقوم مقامه التجار الذين يربحون من صرف العملة أضعاف ما يربحه الصراف ، ولما كنا في هرر لزم أن نصرف عملة صغيرة لأجل الطريق فخصم التاجر ثلاثة قروش من كل ريال أي أنه أخذ الريال بثلاثة عشر قرشاً وتقوم خراطيش البنادق خصوصاً خرطوش بنادق (غرا) مقام الدراهم فتتداول الأيدي كل أحد عشر خرطوشاً بريال واحد ، وقد رأينا على طريقنا أن الباعة رجالاً كانوا أو نساءً كانوا يرجحون الخراطيش على الريالات والقروش ، وعندما يشتري الإنسان شيئاً لا بدّ من أن يدخلوا في الثمن عدداً من الخراطيش وإذا سألت مثلا عن ثمن شيء يقول البائع ريال وخرطوشة واحدة أو قرش وخرطوشتان كذلك يدخل في البيع والشراء الخراطيش الفارغة لأنها تُملأ ثم تباع ، وقد اعتاد الإمبراطور إقراض بعض التجار من جيبه الخاص جانباً من الدراهم تسهيلاً للتجارة .

أرسل إليّ اليوم بستاني النجاشي وهو رجل رومي مقداراً من الخضروات اللذيذة وأرسل إلينا زكريا أفندي نوعاً من الفاصولية الجميلة ، والخضروات التي تنبت هنا هي القرع والفاصولية والطماطم (بندوره) والكرنب والخيار والخرشوف والسبانخ والرجلة والبقدونس والبصل والبطاطا والثوم والفجل فهذه الأصناف كثيرة ، وأما البربري وهو الفلفل الأحمر فإنه أكثر ، ويوجد محل منحط ومعتدل الهواء يسمى (لبان) يبعد عن

العاصمة سبع ساعات تنمو فيه جميع الفواكه والخضروات بكثرة وبسرعة مثل الموز والخوخ والليمون والتين والعنب والبطيخ والشمام .

قلت آنفاً إن زكريا أفندي أهدى إلينا نوعاً من الفاصولية الخضراء ، وقد وجدت هذا النبات غريباً في بابه وقال لي أن أحد الهنود أهداه بزرها قبل ثلاث سنين فزرعها فنمت وانتشرت أي انتشار حتى أنها صعدت إلى سطح المنزل وهي الآن تعطي مقاديراً كبيرة بدون انقطاع صيفاً وشتاءً ، وهي ليست مثل الفاصولية التي نعرفها في بلادنا التي لا تعطي إلا كل قرن وحده بل تكون قرون هذه الفاصولية حزمة حزمة ، ولا يدري صاحبها هل هذا النمو الغريب من قوة الأرض أو من النبات كما أنه لا يدري كم من السنين ستستمر على إعطاء المحصول على هذا المنوال .

إن الأمحراويين يختتنون ند الولادة ولا يأكلون لحم الخنزير البتة فهم يحافظون على هذه العادات وإن كانوا مسيحيين ، وقد سمعت من بعض الإفرنج أنهم لا يحبون الإفرنجي وإن احترامهم للأوروبيين ليس هو إلا خوفاً من الإمبراطور ، والسبب في هذه الكراهة على ما قيل لي حروبهم مع الإنكليز والطليان وبحث الإفرنج في بلاد الحبشة عن المعادن والثروة حتى رسخ في أذهانهم إن الإفرنج يريدون الاستيلاء على بلادهم ، ويكرهون المهندسين منهم لأن هؤلاء هم السبب في استخدام الأحباش بالسخرة لتكسير الأحجار وتشييد الجسور (الكباري) ، وقد قال لي أحد الإفرنج الموجودين هنا ما يأتي (أسال الله أن يبقي لنا الإمبراطور منليك فإذا تُوفي هذا الرجل أخشى أن يصيب الإفرنج الذين هنا ما أصاب إخوانهم في الصين) فقلت له : إن الرؤوس والأمراء لا يتركون الأهالي أن يرتكبوا أموراً همجية مثل هذه فقال نعم ولكن إذا قام التحاسد والتباغض بين الرؤوس من أجل كرسي الإمبراطورية واختلفوا فيما بينهم فكيف يكون الحال .

في كل سنة يحصل اجتماع عسكري في العاصمة يسمى (سلف) يقوم مقام المناورات في أوربا فيأتي الرؤوس من كل أطراف البلاد بجنودهم ويتألف جيش عرمرم ويتمرنون على بعض تعاليم عسكرية وألعاب حربية وتُلقى خطبٌ وتُقرأ نشائد حماسية ويباح لكل مرؤوس أن يشكو حاله بكل حرية إلى رئيسه ويعدّد صفاته ومزاياه وشجاعته في الحروب وإقدامه في صيد الكواسر من الوحوش ويطلب من

رئيسه مكافأته ، وقد علمت من محادثي الإفرنج بأنه في الاجتماع العسكري السابق أظهروا ما تكنّ صدورهم نحو الأوربيين بهز الرمح في وجوه الإفرنج الموجودين في المعسكر وتصويب البنادق عليهم ولو على طريق الهزل والضحك .

أتى اليوم لزيارتي آتو هيلا مريم ترجمان رأس ماكونن وكان حديثنا باللغة الفرنسوية مباشرةً وهذا الرجل على جانب من الدراية والاقتدار وكان يجيب عن ما أسأله عنه باختصار .

تاريخ السنين

مبدأ تاريخ السنين عند الأحباش ميلاد عيسى عليه الصلاة والسلام والفرق بين تاريخهم وتاريخ الإفرنج ثماني سنين وتبتدئ السنة عندهم من أول أيلول (سبتمبر) ويوجد في آخر كل سنة خمسة أو ستة أيام تسمى (باغومة) لا تدخل لا في السنة الماضية ولا في السنة المقبلة ، وأيام الباغومة تكون خمسة أيام كل خمس سنوات وأما باغومة السنة السادسة فتكون ستة أيام ، ولكون هذه الأيام ليست معدودة من أيام السنة يأتي فرقها بوضع التاريخ إذ يقال الباغومة الثانية من سنة كذا .

واستعمال السنوات والشهور ينحصر هنا في معاملات الحكومة وقيدها فقط ، وأما العوام فإن أغلبهم لا يستعملونها فإذا سألت أحدهم عن عمره مثلاً يقول لك إنني ولدت سنة دخول الإنكليز في مجدلا أو يقول إن ولدي الأكبر ولد في الوقت الذي هاجم الرأس فلان محل كذا ، أي إنهم يعتبرون الوقائع مبدأ وكذلك لا يعنون في الأوقات بالساعات وإنما يعرفون الوقت من ارتفاع الشمس ومن طلوع بعض الكواكب أو غروبها .

سألت آتو هيلا مريم عن النجاشي أصحمة الذي كان معاصراً للنبي صلى الله عليه وسلم فأجاب : إن هذا النجاشي اسمه بالأمحراوي (اجها) وإنه كان حاكماً في جوار (تبحفى دنسا) كما أن أخاه (أبرهة) كان يحكم في آقسوم ، وسألته عن محمد غراني المشهور بفتوحه هناك فقال : إن هذا الرجل كان من قوّاد صاحب هرر قبل أربعة قرون ثم تقوى فاستولى على كل الحبشة مدة خمس عشرة سنة انسحب النجاشي

في أثنائها إلى غوندار ثم أخذت البلاد منه وأعيدت إلى أصحابها بمساعدة البورتغاليين وأن هؤلاء هم الذين أدخلوا منذ ذلك العهد الأسلحة النارية إلى بلاد الحبشة .

المذهب

دخل المذهب القبطي من الديانة المسيحية إلى الحبشة في القرن الرابع الميلادي وأمر النجاشي إذ ذاك أن يضع المسيحيون على رقبتهم شريطاً أزرق ليعرف الذين لم يتنصروا ، وقد بقيت هذه العادة إلى الآن في بلاد الحبشة فتجد جميع الأحباش المسيحيين يضعون في أعناقهم شريطاً أزرق يعلقون فيه صليباً صغيراً من الفضة أو غيرها من المعدن ويسمون الشريط والصليب معاً (ماتب) وهذه الشرايط من مصنوعات سورية ، والمسلمون اليوم يضعون أيضاً حول أعناقهم من هذا الشريط ، وإنما يعلقون فيه حجاباً من الجلد فيه بعض آيات قرآنية أو أدعية بدلاً من الصليب ، ويسمى مسلمو الأحباش هنا (جبرتي) أي الحبشي المسلم ، والجبرتيون متدينون متمسكون بعاداتهم القومية والدينية أصحاب غيرة وشجاعة ويشتغلون بالتجارة والصناعة .

وللمسيحيين الأحباش أديرة وصوامع فيها كثير من الرهبان والراهبات ، ويباح لقسسهم التزوج مرة واحدة بالعمر فإذا توفيت الزوجة أو حصل طلاق فليس له أن يتزوج ثانية ، وهؤلاء القسس معافون من التكاليف الأميرية وأداء الضرائب ويأخذون من الأهالي والأمراء الهدايا كل على حسبه ، والإقبال على الانتظام في سلك الاكليروس والرهبنة عظيم جداً في بلاد الحبشة لما لرجال الدين من الأهمية في عين الأهالي ، ويكون في الغالب ابن القسيس قسيساً مثل أبيه ولا يقدر أحد أن يتصدى للقسيس مهما كانت الظروف والأحوال السياسية ، وإذا وقعت حرب بين رأسين فإنه يباح للقسس التنقل من معسكر هذا الرأس إلى معسكر الرأس الآخر ولهم أن ينشروا ما يريدون نشره من الأفكار ولا يقدر أحد أن يعارضهم في ذلك . والرئيس الروحاني الأكبر في الحبشة هو المطران القبطي ويلقبونه هنا بلقب (أبونا) (لعله الانبا) وهو

ينتخب ويرسل من طرف البطرك القبطي في القطر المصري ، وبعد هذا المطران في الدرجة قسيس يسمى (أسسه غيبه) وهو مكلف بالمحافظة على قواعد الدين الكنائسي ومعاقبة القسس الذين يرتكبون ما يخالف الدين وأصوله ، والرئيس الديني الثالث هو الكاهن الذي يسكن مدينة آقسوم (العاصمة القديمة) ويسمى (نيرابيت) وقد بقيت آقسوم عاصمة للدين ومرجعاً للكنائس وهي الآن بمثابة روما عند الكاثوليك ، فأكبر كنيسة في الحبشة توجد في آقسوم وتحفظ فيها جميع الآثار والقيود والتواريخ المذهبة ، ومن التقاليد الحبشية أن الإمبراطور يتوّج في المدينة المذكورة ويضع التاج على رأسه الرئيس الديني المسمى (نيرابيت) ولا يخلو الأمر من تحاسد هؤلاء الرؤساء الثلاثة .

وفي الكنائس مقاعد للنساء منفصل بعضها عن بعض ، وليس للكنائس نواقيس بل هناك أحجار مختلفة الحجم مربوطة بالحبال يمس بعضها بعضاً فتصدر منها أصوات تشبه صوت الناقوس .

وإذا التجأ أحد الناس إلى مدينة آقسوم لا يمسه أحد بسوء ، فلهذا يرى الإنسان هناك كثيراً من الجناة الفارين من وجه العدالة والمتهمين السياسيين ملتجئين إليها فراراً من العقاب ، وإذ حدثت حرب محلية في البلاد يلتجئ من لا يريد أن يشارك أحد الطرفين في حروبه إلى هذه المدينة ويأخذ معه ما يمتلك من المتاع الثمين . ولكنهم قد أخلوا بهذه العادة مراراً ولا عجب فلكل قاعدة شواذ ، ومن هذا القبيل إنه حدث قبل ستين سنة حرب في البلاد فلما رأى أحد الرؤوس المحاربين المسمى (راس أدبيه) إن أعداءه تجمعوا في آقسوم وإنهم جمعوا هناك مقادير كبيرة من الأسلحة والذخائر الحربية وأخذوا يرتبون طرق الهجوم عليه ، دخل آقسوم وألقى القبض على جميع خصومه وكبلهم بالحديد وأخذ ما جمعوه هناك من الأسلحة والذخائر محتجاً لذلك بأن هؤلاء إنما التجؤوا إلى المدينة المقدسة بقصد أن يرتبوا أعمالهم الحربية هناك دون أن يهابوا قدسية المدينة ، وقام وقتئذ الكهنة واستهجنوا عمله هذا وهددوه بالحرمان فلما رأى ذلك قابلهم هو بالتهديد وأخبرهم عن عزمه الأكيد بشنق جميعهم إذا حرموه فعندئذ رجع الكهنة إلى صوابهم ورأوا الحق بجانب الأمير ، وأغلب الراهبات في الحبشة يترهَّبن في منازلهنَّ ولا يذهبن إلى الديور ولا يتزوجن ويحصرن

أوقاتهن للعبادة . ويوجد في الحبشة ثلاثة أنواع من الزواج ، ولا تصل سلطة القسس إلا لنوع واحد منها .

أنواع الزواج

النوع الأول الطبيعي ويسمونه (روموز) وذلك أنه إذا رغب الرجل أن يتزوّج امرأة على هذه الطريقة يطلب إليها أن ترضى به بعلاً لها فإذا وافقته تكون زوجة له بغير أفراح أو شروط على ورق أو احتفالات دينية ، والرجل مكلف بمعيشة زوجته وبتقديم كل ما يلزم لها من النفقة ويطلب من المرأة القيام بالشؤون المنزلية وأن تذهب مع زوجها أينما ذهب ، ويمكن الانفصال حسب رغبة أحد الطرفين وإذا كان هناك أولاد يقلّ عمرهم عن ثلاث سنين يبقون عند والدتهم وعلى الرجل أن يقدم لهم النفقة اللازمة فإذا بلغ الطفل الثالثة يكون لوالده حق بأخذه .

والنوع الثاني المدني ويتم بتراضي الطرفين وشهادة الشهود وبمواجهة عمدة البلد ويسجل ثروة الطرفين وما يمتلكانه من الأموال ، فإذا حصل الطلاق حسب اتفاق الطرفين تقسم أموالهما بينهما بالمساواة ، وإذا كان الطلاق برغبة أحدهما فقط فليس له الحق بأخذ شيء من الأموال المشتركة وعند الطلاق للزوجة أن تتزوّج من غير عدة ، ويقومون بالأفراح والاحتفالات عند صيغة عقد هذا الزواج المدني ، ويرسل أقرباء الزوجين وأحباؤهما الهدايا وتعرض هذه الهدايا كلها على الناس ، والفتيات في بلاد الحبشة يتزوّجن في سن صغير أي فيما دون الثالثة عشرة .

والنوع الثالث الديني على يد القسيس في الكنائس وليس لهذا الزواج طلاق وإذا تُوفي أحد الزوجين عقب الاقتران يحظر الزواج على الآخر فلذلك كان الإقبال على هذا النوع من الزواج قليلاً جداً ، وبعض الذين تزوجوا على الطريقة المدنية وعاشوا مع زوجاتهم مدة طويلة ولم يبقَ لهم من أمل بالزواج ثانية يبدلون زواجهم المدني بالديني . والوالدات يرضعن أولادهنّ مدة لا تقل عن أربع سنوات .

والدايات هنّ يولّدن الحاملات في الحبشة كما هو الحال في سائر الجهات وبعد الوضع يجتمع جارات الحامل عندها ويحتفلن بالمولود .

وفي اليوم السابع تقوم النفساء من فراشها ، وفي هذا اليوم يولمون وليمة للأقارب والأحباء ، وإذ مرضت النفساء يداويها العجائز من النساء والدايات لعدم وجود أطباء وقد يطلبون من القسس دواءً لأن القسس هنا يدّعون الطب أيضاً وطبابتهم هذه تنحصر في الرقي وقراءة الإنجيل أو إعطاء المريض مسحوق بعض الجذور والنباتات ويعتقد الأهالي بأدوية القسس اعتقاداً عظيماً .

الأمراض والمداواة

إن الأحباش يصابون في الأغلب بالدودة الوحيدة أو ما شاكلها من الديدان في الأحشاء الداخلية ، ويظهر أن كثرة إصابتهم بهذه الأمراض متأتية من أكل اللحوم نيئة ولذلك يجففون ورق الشجر المسمى (قوسو) ويسحقونه ثم يضعونه في الماء ويتعاطونه عند اللزوم ويشربون القهوة بعده فتموت الديدان ، وإذا أخذ الإنسان مقداراً كبيراً من مسحوق هذا الورق يموت حالاً لأنه سم شديد الفعل ، ولا تنقطع الحوادث من هذا القبيل ، ويداوون الرمد والصداع والحمى الراجعة وسوء الهضم في الأكثر بأخذ الدم من الجبين ، فيجلس المريض على ركبتيه ويضع يديه على رقبته من الوراء الواحدة فوق الأخرى ويلصق ذراعيه على عنقه ويؤتى بحزام ومنديل ويشد بهما يداه ورقبته شداً محكماً فيضطر أن يحني رأسه إلى الأمام فيصعد الدم كله إلى رأسه وحينئذ يبضعون بسكين أو بقرن في وسط جبينه فيجري الدم ثم يربطون الجرح فينقطع جريان الدم من تلقاء نفسه ، والحجامة هنا منتشرة جداً حتى أنهم لا يحتاجون إلى الطبيب يعني القسيس ، ويداوون الزكام الحاد (البرونشيت) وأوجاع المفاصل (الروماتيزما) بالكي بحديدة ولهؤلاء الناس جلادة على تحمل آلام الكي ، وأما الأمراض الأخرى فإنها تداوى بغلي الحشائش والنباتات .

الموسيقى

إن الأحباش يحبون الضرب على آلات الطرب والغناء والرقص وهي من أعظم

الملاهي عندهم ويسرون بها جداً وسرورهم الأعظم عند ما يجدون الماهر بالضرب على آلات الطرب ، وهؤلاء الموسيقيون هم على غاية البساطة وآلاتهم الطنبور ذو الوتر الواحد مصنوع من قصب البوص والناي والطبل والنقارات والزمارة الطويلة فيغنون على الطنبور في أفراحهم وعند دفن أمواتهم ومأتمهم ويربح الضاربون على الطنبور كثيراً من الدراهم وفي الأفراح يرقص الرجال والنساء معاً و الأحباش مغرمون بالرقص جداً ، وفي الحرب يضربون بطبل كبير والأغاني عندهم تدور على ذكر الحروب وأبطالها والصيد والشجاعة في الغالب ولهم أغاني غرامية أيضاً ، ورقصهم كالارتعاش ويقمزون قمزاً خفيفاً . وفي ولائم الأفراح يتحلقون حلقة وتدخل فتاة إلى وسط الحلقة ويقف أمامها شاب فيبدأ بالغناء الغرامي ويرقص شارحاً لها ما في قلبه من الغرام والهيام ، وبعد قليل يبرز له رقيب فيأخذ مثله بالغناء والرقص ويبذل وسعه للتفوق على الأول ، ثم يبرز ثالث ورابع حتى يترجح عند الفتاة أغاني الواحد منهم . والنكت الغرامية الجميلة التي استعملها في تعريف حبه وهيامه (وفي الحقيقة ترجح من كان قد جذب قلبها قبل الرقص) فتأخذ هي بالغناء وتصف ميلها له بالغناء وبالرموز والإشارات . وكثيراً ما تحدث المشاحنات بين هؤلاء المتزاحمين وتؤدي إلى مضاربات والناس من حول المتضاربين ينظرون ويتراهنون على معرفة من سيغلب كأنهم في مناقرة ديوك ، حتى تنفذ قوى الواحد من المتضاربين فحينئذ يكون ختام الرقص وفي بعض الأوقات تفضي المضاربة إلى قتل ولكن بعد ختام الرقص وانتهاء المضاربة التي تحدث يعود المتضاربان إلى صفاء تام كأنه لم يحدث شيء بينهما لأن المضاربة من موجبات الرقص فكان هذا الرقص عبارة عن صراع موضوعه فتاة . ولا يخفى أنه يزيد في قوة القائمين به كما أنه يزيدهم نشاطاً وخفة واحتمالاً للمكاره .

ولا بدَّ من تمثيل الحروب والمبارزات في كل ملاهي الأحباش واجتماعاتهم كأن يأتي مثلاً مئات من أقرباء العريس وأحبائه مدججين بالسلاح إلى القرية أو المدينة التي تقطن فيها العروس ويقفون موقف المهاجم ، ويجتمع أقرباء العروس ويتسلحون ويقفون موقف المدافع أمام جماعة العريس وحين يكتمل الجمع تعطى الإشارة فيهجم جماعة العريس على جماعة العروس بين دوي أصوات البنادق وعزف الزمور والطبول ورمح الخيول وتنتهي الواقعة بانتصار جماعة العريس . وبالمحافظة على هذه العادات

الوطنية يحافظ الأحباش على قواهم ونشاطهم بل يزيدونه .

أديس أبابا

يوم الثلاثاء 8 يونيو / حزيران

وفي صباح هذا اليوم حضر لزيارتي الحاج محمد من عشيرة بني عقيل ومن علماء (دللو) وقد حضر من بلده لرفع الشكوى على الزنديق زكريا المار ذكره ، وقد سألته عن النجاشي أصحمة المعاصر لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعن المراسلا التي جرت بينهما ، وعن الصحابة الذين هاجروا إلى الحبشة فقال : إن معنى أصحمة في العربي هو (عطية) وهذا النجاشي مدفون في محل يسمى (متكل العلامة) من أعمال مقاطعة (تيغرى) وقد كان سيدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه لقي النجاشي المذكور في (متكل العلامة) وهذا المحل قريب من عقامه (اغامى) وينعقد فيه كل سنة سوق كبير يأتي إليه ألوف من المسلمين والمسيحيين لزيارة قبر النجاشي المذكور .

العلاقات الودية بين الأحباش والمسلمين في صدر الإسلام

من المعلوم أن مشركي قريش في أوائل الرسالة النبوية كانوا يؤذون النبي وأصحابه الكرام ، ولما ازداد جورهم أذن النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة بالهجرة إلى جهة الحبشة فهاجر من الصحابة الكرام عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام ومصعب ابن عمير وعثمان بن مظعون وسهيل بن بيضا وسليط بن عمرو وحاطب بن عمرو ، ولم يكن مع هؤلاء أحد من أولادهم ونسائهم ، وأما الذين هاجروا ومعهم زوجاتهم فهم عثمان ابن عفان ومعه زوجته بنت النبي وجاريتها بركة الحبشية وعبد الله بن أبي سلمة وزوجته هند وهاشم بن أبي حذيفة وزوجته سهلة وعامر بن أبي ربيعة وزوجته ليلى العدوية وأبو سيره وزوجته أم كلثوم ، وقد برحوا مكة في شهر رجب من السنة الخامسة من البعثة النبوية دون أن يعلم أحد بسفرهم ، وأتوا ميناء شعبة الكائنة

على ساحل البحر الأحمر واستأجروا زورقاً أتى بهم جميعاً إلى الساحل الأفريقي ، وأقاموا في الحبشة حيث لقوا من النجاشي الإكرام وحسن الحفاوة .

ولما شاع خبر إيمان قريش برسالة النبي عادوا إلى أوطانهم ، فلما قربوا من مكة علموا أن ما بلغهم من إيمان قريش برسالة النبي غير صحيح ، ولكنهم لم يجدوا بدّاً من الدخول إلى مكة فاحتمى كل واحد منهم بكبير من أكابر قريش ، ثم ازداد أذى المشركين للمسلمين فأذن النبي صلى الله عليه وسلم لمن يريد الهجرة إلى الحبشة ثانية ، فهاجر كثير من المسلمين بينهم جعفر بن أبي طالب ابن عم النبي وزوجته أسماء وخالد بن سعيد وزوجته أمينه وعمرو بن سعيد وزوجته فاطمة وعبد الله بن جحش وأخوه عبيد الله بن جحش وزوجته أم حبيبة وقيس بن عبد الله وزوجته بركة ومعيقب أبو حذيفة وعتبة بن غزوان والأسود بن نوفل ويزيد بن زمعة وعمر بن أمية وطليب بن عمر وعامر بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود وعتبة بن مسعود والمقداد بن عمر وعمر بن عثمان وشماس بن عبد الشريد وهبار بن شعبان وعبد الله بن سفيان وهشام بن أبي حذيفة وسلمة بن هشام وعباس بن أبي ربيعة ومعتب بن عوف وقدامة بن مظعون وعبد الله بن مظعون وحاطب بن الحرث وزوجته وفاطمة بنت الجلل وخطاب بن الحرث وزوجته فكهة بنت يسار وسفيان بن عمر وزوجته حسنة وخنس بن حذافة وعبد الله بن الحرث وعبد الله بن حذافة والحرث بن الحرث ومعمر بن الحرث وعدد الجميع كان (132) مع أولادهم وعيالهم .

فلما بلغهم خبر هجرة النبي إلى المدينة قام أبو موسى الأشعري ومعه خمسون مهاجراً وركبوا زورقاً ليعبروا البحر إلى المدينة المنورة فصادفتهم أنواء ألقت بزورقهم إلى البر الحبشي من أفريقيا فالتقوا بإخوانهم المهاجرين ، ولم يكتفِ مشركو قريش باضطهاد المسلمين في مكة بل إنهم أرسلوا الرسل إلى النجاشي أصحمة وإلى الكهنة ومعهم الهدايا من خيل عربية وأقمشة حريرية وغيرها وطلبوا إليهم أن يطردوا المسلمين المهاجرين من الحبشة وكان رئيس هذا الوفد عمر بن العاص وعمارة بن الوليد فلما وصلوا إلى الحبشة قابلوا أعيان الحبشة وسلموا الهدايا لأصحابها وعرّفوهم بالقصد وكان الأحباش والعرب يعرف بعضهم عادات بعض لتقارب القطرين ولكثرة المواصلات عن طريق البحر الأحمر للتجارة ، فلما مثل أعضاء الوفد بين يدي النجاشي قالوا له إن أحد

سكان مكة ادعى النبوّة ووضع ديناً جديداً والتحق به بعض الناس وقد التجأ بعضهم إلى الحبشة لإيقاع الفتنة والفساد في هذه البلاد أيضاً فمن العدل طرد هؤلاء المهاجرين وإعادتهم إلى بلادهم .

أما النجاشي الذي كان رجلاً عاقلاً عادلاً فطلب إليه جعفر بن أبي طالب ورفقاءه مع علمه بحسن أخلاق المهاجرين وما ظهر منهم من الاستقامة وعدم إيذاء أحد مدة إقامتهم في الحبشة ، ولكنه أراد بذلك عدم كسر خاطر الوفد فلما جاء جعفر ورفاقه بين يدي النجاشي سألهم أمام الوفد العربي عن سبب هجرتهم إلى بلاده فأفاض جعفر ببيان بطلان الوثنية التي كانوا عليها وصحة الدين الذي دخلوا فيه وأخذ يتلو بعض الآيات القرآنية . ويروى أن النجاشي حلّ الدين الإسلامي المبين في قلبه محلاً عظيماً ، ولما بهرت حجة جعفر أمام هؤلاء الرسل أعاد النجاشي إليهم هداياهم وقال لهم ليس من العدل والمروءة إيذاء هؤلاء الجيران الذين لم نرَ منهم إلا شرف النفوس فعاد الوفد خائباً .

وفي شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة النبوية وبعد واقعة بدر التي انهزم فيها المشركون جهزوا وفداً آخر ومعه الهدايا وأرسلوه إلى الحبشة مع عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة أعادوا الكرة بطلب طرد المهاجرين لينتقموا منهم ولكن مساعيهم لم تثمر هذه المرة الثانية أيضاً فعادوا أدراجهم .

وقد أبلغ النجاشي نفسه المسلمين الذين كانوا في جيرته وحماه نبأ انتصار المسلمين مع النبي على المشركين .

مكاتبة النبي صلوات الله عليه مع النجاشي أصحمة

وفي السنة السادسة من الهجرة النبوية أرسل النبي إلى النجاشي أصحمة كتاباً مع عمرو ابن أمية الضمري أحد الصحابة الكرام يدعو به النجاشي إلى الإسلام ويوصي بالمهاجرين الموجودين بالحبشة ، وكان النجاشي رجلاً متديناً معتقداً فقبل الكتاب بسرور زائد وآمن به وأرسل الجواب مع عمرو بن أمية الموما إليه .

وفي السنة السابعة أرسل النبي كتاباً آخر مع عمرو بن أمية المار ذكره إلى

النجاشي وكله به بعقد نكاح النبي على رملة أم حبيبة زوجة عبد الله بن جحش الذي مات في الحبشة ، فأرسل النجاشي إحدى جواريه تبشر رملة أم حبيبة برغبة النبي بها فقبلت وأهدت الجارية أسورة وخاتماً لهذه البشرى ووكلت خالد بن سعيد بن العاص فدعى النجاشي أصحمة إليه جعفر بن أبي طالب والصحابة المهاجرين وعقدوا على أم حبيبة وبعد العقد أقام النجاشي وليمة فاخرة للمهاجرين إظهاراً للسرور وأرسل إلى أم حبيبة أربعمائة دينار صداقاً عن النبي وأم حبيبة هذه هي بنت أبي سفيان وسافرت أم حبيبة رضي الله عنها من الحبشة إلى المدينة وقد جهزها النجاشي وأمر شرحبيل بن حسنة أن يكون في خدمتها ، وكان النبي في رسالته الأخيرة طلب إلى النجاشي إرسال جميع المهاجرين الموجودين في الحبشة إلى المدينة فاستأجر النجاشي لهم عدة زوارق وأرسلهم إلى المدينة .

وأهدى النجاشي أصحمة إلى النبي طيلسانات وقمصاناً ولباسات وحذاآت وخاتماً وثلاث حراب وقارورة مسك وجلابيب وأرسل هذه الهدية مع أم حبيبة ، وأعطى النبي واحدة من الحراب إلى سيدنا عمر بن الخطاب والثانية إلى سيدنا علي بن أبي طالب والثالثة أبقاها لنفسه ، وفي السنة التاسعة من الهجرة أرسل النبي إلى النجاشي هدية ولكن أصحمة تُوفي قبل وصول الوفد الذي يحملها إليه ولما بلغ النبي نعيه جمع الصحابة الكرام وصلى عليه غائباً .

شتى

ورد اليوم أحد رجال رأس ولدي وبلغني سلام الرأس وأنه يعتذر من عدم المجيء اليوم لانحراف صحته وأنه سيحضر غداً أو بعد غد للزيارة ، وبعد الظهر ورد لزيارتي بولص إلياس بغدادي أفندي وهو يقطن دمشق الشام منذ عشرين سنة وإنما حضر مؤقتاً إلى الحبشة للبحث عن مناجم الذهب في هذه البلاد بإذن من النجاشي ، وقد علمت أنه ساح في مقاطعات وللاغا وبارو وجانفاللي وترانسفال وأراني أنموذجات من معادن الذهب وقال لي : إن الأحباش في هذه البلاد يستخرجون الذهب من الأنهار ومجاري السيول بأبسط طريقة وهي تصفية الرمال . وحيث أن ذرات الذهب تأتي من

الجبال مع مياه الأمطار والسيول بحث بولص أفندي في محلات ومجارٍ كثيرة فعثر على مناجم ذهب في أحد عشر محلاً على طبيعتين مختلفتين : وجد الذهب في الأولى مخلوطاً بأحجار المرمر (الرخام) والحصا (الزلط) ووجد الذهب في الطبيعة الثانية بشكل شريانات وعروق بين الأحجار في الأرض وعلى عيار 23 ، وقد رأيت النموذجات فتحققت صدق كلامه .

وكان بولص أفندي اشتغل في مناجم الذهب في الترنسفال فقال : إن عيار الذهب هناك ستة عشر فقط . وقد استخرج هنا مع فقدان العدد والأوائل اللازمة لمثل هذه الأعمال وعدم وجود الأفران ألف درهم من الذهب الخالص من جهات بارو وجانفاللي وقدمها إلى الإمبراطور منليك كنموذج ، والأهالي الذين يشتغلون باستخراج الذهب يعطون عشر ما يجدونه منه إلى رؤساء الحكومة ، ويرد كل سنة للإمبراطور كثير من الذهب بين الأشياء التي تقدم لجلالته من الأتاوة ، وهي الآن محفوظة بالأكياس في خزينته ويقال إن الإمبراطور ينوي أن يضرب من هذا الذهب عملة حبشية باسمه ، وذكر لي بولص أفندي شيئاً عن الأوزان فقال : إن أساس الأوزان هنا هو الريال الذي يزن تسعة دراهم إلا قيراطين . ويعتبر كل ثقل ريال واحد (نوكي) ويطلق لثقل كل ستمائة (نوكي) (فراسالة) والوزن المتداول بين التجار هو الفراسالة ووزن كل من الفراسالة ستة عشر كيلو ونصف .

نساء الأكابر يمشين هنا متحجبات وعندما يخرجن من منازلهن يركبن في الغالب البغال كما يركب الرجال لا كما يركب نساء الإفرنج الخيل ، وتمشي أمامها جارية وبيدها هراوة ووراءها بضعة من الخدم .

كنت أجد من يوم ورودي إلى أديس أبابا طعم ملح في القهوة إن كانت بسكر أو من غير سكر وما كنت أعلم سبب ذلك ، وعلمت اليوم أنهم يضعون الملح في القهوة زيادة في إكرام الضيف لأن ثمن الملح هنا غالٍ جداً ، وقد حدث اليوم أن طاهي القهوة وضع في قهوتنا ملحاً ثم أتى أجيره فوضع هو أيضاً مقداراً من الملح فيها ظناً منه أن كبيره لم يضع فيها فلم نقدر أن نشربها ، ولما علمت ذلك منعت الخدم المكلفين بعمل القهوة من وضع الملح في القهوة وقد اندهش الخدم من هذا التنبيه وأخذوا يعتذرون مظهرين لنا لزوم وضع الملح مصرّين على وضع الملح في القهوة حتى لا يحطوا بكرامتنا

على زعمهم ولم نقدر على منعهم إلا بواسطة صاحب المنزل الذي عرفته بأننا لم نتعود في بلادنا وضع الملح في القهوة .

يوم الأربعاء 9 يونيو / حزيران

اليوم صباحاً ورد الرأس ولدي لزيارتنا وكان قد عين (مهماندارا) لنا من قبل الإمبراطور ، وكان وراءه أربعون من الخدم والعبيد ، وفي الحبشة كل إنسان يمشي وراءه من الخدم والحاشية كل حسب قدره ومنزلته ، فكلما كان رفيع المقام يزيد في حاشيته وعبيده الذين يمشون وراءه عند ذهابه من محل إلى محل حتى في داخل المدينة ، وكنت ذكرت آنفاً أنه مشى وراء رأس ماكونن ألوف الخدم عند ما حضر إلى أديس أبابا ولا منزلة في عيون الناس هنا لمن ليس له خدم وعبيد ، فمتى وجد الإنسان معه سعة يأتي في الحال لمنزله بالخادم ويجعله دائماً وراءه ويطلق عليه اسم العسكري لأن الخدم والعبيد هنا يطيعون أسيادهم كما يطيع الجند ضباطهم وقوادهم .

ودخل إلى البهو مع الرأس اثنان من عبيده ووقفا وراءه وبقي الآخرون في الخارج وأمسك أحد العبيد قبعة الرأس وآخر أخذ يروح بالمروحة لإلذباب والرأس ولدي على جانب عظيم من اللطف وقد تجاوز عمره الستين وذهب مراراً إلى فرنسا وإيطاليا بمهمة من قبل الإمبراطور ، وبنى هذا الرأس منزلاً في القدس ووقفه على الأمور الخيرية ، وقد قال لي أنه كان سافر إلى القدس وأن رجال الحكومة هناك أكرموه جداً وأنه يحب العثمانيين ، وطلب إليّ أن أعرض احتراماته وتعظيماته الفائقة للأعتاب السنية السلطانية عند رجوعي إلى الآستانة ، وظهر لي من محادثته أن الرجل غير غافل عن أن هذه الدنيا فانية وأن الآخرة هي أبقى فلذلك لا يميل إلى الزينة بل يميل لمساعدة التعساء والفقراء من كل الأجناس والأديان على المساواة .

مكثنا مدة نتحادث ثم استأذن هو وحاشيته بعد أن وعد بالمجيء ثانية ، وبعد ذهابه حضر الحاج أحمد أفندي صاحب المنزل وكان قد ذهب إلى الكمرك ليستخرج بعض البضائع والأمتعة الواردة باسمه .

يوجد هنا محلان للكمرك الواحد داخل قصر النجاشي والآخر خارجه ، فالبضائع

التي تمر من هرر وتأتي إلى العاصمة ترد إلى الكمرك الخارجي لأن هذه الأمتعة تكون بالطبع مرت من كمرك هرر ورآها الرأس هناك حيث انتخب الأشياء الجميلة وأخذها بدلاً من رسوم الكمرك ، وأما البضائع التي تأتي من الساحل مباشرة إلى أديس أبابا فإنها تدخل إلى الكمرك الكائن داخل القصر وتفتح هناك فإذا وجد فيها شيء أحب النجاشي أن يأخذه يبقيه عنده بدلاً من رسوم الكمرك ، والرسم المقدر للكمرك هو ثلاثة في المائة من البضائع التي تمر من هرر لأن صاحب البضائع يكون قد دفع بالمائة عشرة في المدينة المذكورة وأما البضائع الواردة مباشرة من الساحل إلى أديس أبابا فإنها تدفع بالمائة ثلاثة عشر ، ولا يوجد في الكمارك مقدّرون للبضائع بل يؤخذ الرسم حسب تعريف صاحب الأمتعة عن أثمان البضائع والتجار تراهم مضطرين أن يصدقوا في تعريف الأثمان ولا يتجاوز واحد الاعتدال لأنه إذا زاد الثمن يُدفع الرسم بنسبة هذه الزيادة .

أخبرونا البارحة بأن النجاشي سيحضر اليوم إلى أديس أبابا ، وفي الساعة الخامسة (عربي) ظهر الموكب الإمبراطوري على بعد كيلو متر واحد تقريباً وكنا نراه من شرفة منزلنا وكان جلالته راكباً بغلة وبرفقته أكثر من ألف إنسان أغلبهم راكبون البغال ، وكان أحد الخدم رافعاً على رأس الإمبراطور مظلة كبيرة حمراء اللون وكان الطريق الموصل إلى القصر الإمبراطوري السائر فيه الموكب مرئياً من منزلنا ، ولما وصل الموكب إلى القصر ازدحمت أطراف القصر بالناس بعضهم من الحاشية والبعض جاءوا لتقديم فروض التحية للنجاشي ، وبعد ساعتين جاءنا الموسيو ايلج وأبلغنا تحية الإمبراطور وسأل عن صحتنا وراحتنا وأخبرنا أن مدة الحداد على حفيدته ستنتهي يوم الجمعة الآتي ، وأن مقابلتنا لجلالته ستتأخر إلى ما بعد اليوم المذكور ، وأنه أي الإمبراطور يعتذر لنا عن هذا التأخير ، فشكرنا جلالة الإمبراطور ثم أخذنا نتجاذب أطراف الحديث مع المسيو ايلج المومأ إليه ، وفي أثناء الكلام أخبرته بأن جلالة السلطان الأعظم يكون مسروراً إذا أعطي المسلمون هنا قطعة أرض يبنون عليها مسجداً وقطعة أخرى يجعلونها مقبرة لدفن أمواتهم فيها فوعد الموسيو ايلغ أن يعرض ذلك على جلالة الإمبراطور .

وأما البرنسيس حفيدة الإمبراطور المتوفاة فهي في العاشرة من عمرها وزوجة أحد

أبناء تقلا مايتو حاكم مقاطعة غوجام ، وبعد وفاة تقلا مايتو تعين ابنه المذكور حاكماً على المقاطعة المذكورة ، والمتداول بين القوم هنا أن البرنسيس توفيت من إصابة العين إذ الناس هنا يعتقدون بإصابة العين اعتقاداً عظيماً وقد مر ذكر أكلهم الطعام تحت الحجب والأستار خوفاً من إصابة العين .

بودا ـ إصابة العين ـ تفو تفو يعني عين لا تصيب

إذا أصيب أحد الأحباش بنوب عصبية أو بجنون خفيف يقولون أصابته العين ويأتون له بأحد القسس المختصين بمثل هذه الأمراض ، وحين يقرب القسيس من المريض يزيد المرض اشتداداً أو يهيج المريض حتى يضطر أهله لإمساكه وتهدئته ، فحينئذ يأخذ القسيس بيده قطعة نبات ويضعها على أنف المريض فيشمها ثم بعد بضع ثوان يقول : (أصابتني عين فلان) ويذكر اسم أحد الناس ، فيرسلون في الحال بمن يأتي بالرجل الذي ذكر المريض اسمه ويأمرونه بالبصق على المريض فيبرأ هذا من مرضه . ويسمون من تصيب الناس عينه (بودا) وكان عقاب البودا قلع إحدى عينيه والآن يكتفون بضربه أو توبيخه ، ويتوسل هذا البودا المسكين إلى المريض أو أقربائه أو القسيس الممرض أن لا يشكوه إلى الحكومة . ويوجد في القطر الحجازي مرض أو عادة تشبه إصابة العين هنا وهي ما يسمونه هناك (زار) (الزار معروف في مصر وهو مرض الشياطين الذي تتلبس به النساء الجاهلات ويؤذين الأهل والجيران ـ المترجم) ولا يحدث إلا للنساء ، ولا أظن إصابة العين الموجودة في الحبشة هي نفس الزار الموجود في الحجاز لأن المصاب بالزار لا يبرأ من الإصابة باستنشاق نبات أو غيره بل على صاحب المنزل أو الزوج أو الوالد أن ينفق بضعة الاف من القروش فيقيم المآدب في منزله للسيدات والجيران حيث يرقصن ويغنين ليخرج الزار من جسم المصابة ، ويوجد في الأستانة عند الجواري السودانيات حالة تشبه بودا الحبشة .

وقد سرت إلى السيدات الإسلامبوليات فإنهن حين يردن إظهار العطف نحو الأولاد يبصقن عليهم بصقاً خفيفاً قائلات (تفو تفو عيني لا تصيبك) ولعل هذه العادة انتقلت من الجواري الأحباش .

المسيو ايلغ

كل من يذهب إلى الحبشة أو يقرأ شيئاً عنها لا بدَّ من أن يسمع اسم الموسيو ايلغ إذ لهذا الرجل مقام عظيم لدى جلالة النجاشي منليك الذي جعله مستشاره الخاص ورئيساً لنظاره وناظر خارجيته . ولما كان الإمبراطور حاكماً على مقاطعة (شووا) قبل توليه عرش الحبشة كتب إلى أحد التجار السويسريين في عدن أن يرسل إليه جماعة من الغربيين المتعلمين ذوي دراية وفضل ليستخدمهم في حكومته ، وبعد مضي سنة أتى الحبشة بضعة شبان ولكل منهم اختصاص بصنعة وفن من الفنون وكان بينهم المسيو ايلغ المومأ إليه ، وكان أتم علومه في السنة المذكورة في مدرسة الهندسة المشهورة في زوريخ من أعمال سويسره ، ثم رجع هؤلاء الشبان إلى بلادهم بعد مدة قصيرة ما عدا الموسيو ايلغ الذي بقي هناك ونال بجده وثباته ونشاطه وأمانته واستقامته الحظوة الكبرى عند جلالة النجاشي حتى صار من أصدقاء جلالته ، وهو الآن مقيم في الحبشة مع عائلته ويذهب بعض الأحيان إلى أوروبا ثم يرجع إلى الحبشة ، وقد أثرى وصار صاحب أموال وأملاك بما له من المكانة ولصداقته لجلالة الإمبراطور وحسن خدمته للحبشة واجتهاده . وهذا الرجل النشيط هو الآن في الخمسين من عمره ويعرف اللغة الفرنسوية والألمانية والعربية ويحسن التكلم باللغة الأمحرية ويكتبها ويقرؤها كأحد أبنائها وهو الذي يترجم الرسائل التي ترد من الخارج باسم جلالة الإمبراطور إلى اللغة الأمحرية .

أديس أبابا

يوم الخميس 10 يونيو / حزيران

وفي صباح هذا اليوم جاءني نقدراس هيلا يوركيس أحد قرناء جلالة الإمبراطور ووراءه كثير من العبيد والجنود وأبلغني تحية الإمبراطور ، وقال لي أن جلالته كان عازماً أن يقضي بضعة أيام أخرى في القصر المسمى (جنة) الكائن في هولانا وإنما

عاد إلى العاصمة بصفة خصوصية لمقابلة الوفد السلطاني وأنه أرسل الرسل يطلب أمير مقاطعة (جمابا جفر) الذي كان هنا قبل بضعة أيام ثم سافر إلى مقر وظيفته ليعود ويقابلنا ، فطلبت إليه أن يرفع شكرنا لجلالة الإمبراطور ثم ذهب مع حاشيته . وفي هذا اليوم كنا نسمع بكاءً وعويلاً ونحيباً كثيراً من جهة القصر الإمبراطوري ولما سألنا عن سبب ذلك قيل أن أمتعة البرنسيس المتوفاة وبغالها وصلت اليوم إلى العاصمة لذلك تجددت أحزان الناس ، وأظن أنه لا بدّ من وجود ناس هنا يبكون لأجل الخاطر كما يبكي بعضهم بالأجرة .

وبعد الظهر أتاني الموسيو ايلغ وبلّغني أن جلالة الإمبراطور أمر بإعطاء قطعة أرض ليبنى عليها جامع للمسلمين وأخرى لتكون مقبرة لهم . وأنه تقرر أن يقابل جلالة الإمبراطور الوفد السلطاني يوم السبت الآتي بصفة رسمية ، وقد سرني جداً خبر إعطاء الأرض اللازمة لبناء الجامع والمقبرة فطلبت إلى الموسيو ايلغ أن يرفع شكري لجلالة الإمبراطور وقد تقرر أن يسمى الجامع (حميديه) .

خرجت بعد ذهاب الموسيو ايلغ إلى الشرفة حسب عادتي وأشرفت على السوق التي كانت مكتظة بالناس من الرجال والنساء ، وكان الأعيان منهم يلتفون بالإزار كالنساء والناظر إليهم لا يفرق بين المرأة والرجل الشاب لأنهم يغطون وجوههم بالمئزر إلى العين كالنساء وإنما تعرف النساء بخادمة تسير أمام البغل تحمل بيدها هراوة كما يعرف الأكابر منهن بلبسهن الجوارب من صنع أوربا من غير حذاء والنساء هنا يلبسن الجوارب لا للتحفظ من البرد بل للزينة فقط . وتركب المرأة أحياناً على بغل واحد مع زوجها أمامه أو وراءه ، وكثيراً ما يرى الإنسان بغلاً واحداً للزوج والزوجة وولدهما .

بينما كنت أدوّن هذه السطور إذ جاء أحد الأحباش وطلب من خادم أحمد أفندي نموذج قزاز وقد علمت منه أن لوح القزاز من ألواح الشبابيك الذي لا يساوي في الآستانة أكثر من قرش واحد يباع هنا بريال واحد ، والقدح الزجاج الذي لا يساوي أكثر من قرش يباع بريال أيضاً ، والسبب في هذا الغلاء هو أن الأشياء القابلة للكسر لا تصل من الساحل إلى أديس أبابا إلا بعد أن يفقد ثلاثة أرباعها أو أربعة أخماسها لأن المكارية لا يعتنون بالطرود عند إنزالها وتحميلها ومهما أفهموهم وكلّموهم بلزوم التأني وقت إنزال الأحمال أو تحميلها فإنهم لا يحيدون عن طريقتهم

في التحميل ، وقد رأيت أثناء سفرنا عدم عناية المكارية بالتحميل فإنهم كانوا يحملون كل يوم صناديقنا مقلوبة أي رأسها إلى أسفل ، وكلما كنت أكلمهم في ذلك يقولون لي (ايشش ايشش) ولكنهم لا يعملون إلا برأيهم . والبضائع الأخرى هنا غالية أيضاً فصفيحة غاز البترول تساوي من ثمانية إلى تسعة ريالات وأقة السكر ريال واحد ، وفي موسم الأمطار إذا تأخر وصول القوافل من الساحل فإن الأثمان تتصاعد كثيراً ، والأهالي هنا يشربون القهوة بالعسل فلا يحتاجون والحالة هذه للسكر كما أنهم ليسوا في حاجة لكثير من البضائع الإفرنجية ، وقد كنا نحن أيضاً في الطريق نستعمل بعض الأحيان العسل في الحلويات فكنا نجده لذيذاً ، وقد قلت آنفاً إن العسل في هذه البلاد كثير ورخيص جداً ، ويوجد في مقاطعة جمابا جفر جنس من النحل يعمل خلاياه تحت الأرض ولا يعرف محله إلا من ثقب صغير يدخل منه النحل ويخرج ويؤخذ من هذه الحفر الأرضية مقدار كبير من العسل ولكن طعمه ليس كطعم الجنس الذي عمله النحل في جذوع الأشجار .

لغة الأحباش

إن لغة الأحباش الحالية هي اللغة الأثيوبية الأصلية ويقال لها لغة الكيز أيضاً ، وهذه اللغة هي من اللغات السامية كالعربية والعبرانية والسريانية ، وقد دخلت اللغة المذكورة إلى الحبشة عن طريق تيغري ومصوع بواسطة أقوام هاجروا في الأزمنة القديمة من اليمن ، وانتشرت من هناك إلى الداخل حتى أضحت اللغة الكبرى ، وبتعاقب الأجيال طرأ عليها تغييرات تعرض لكل لغة من اختلاط الأقوام المجاورة لها فدخل فيها كلمات أجنبية واصطلاحات تجارية يونانية ، فتفرعت منها لغات متعددة سميت كل واحدة منها باسم الأقوام الحبشيين على اختلاف المقاطعات التي يقيمون فيها ، وأشهر هذه اللغات هي الأمحرية والتيغرية والغوندارية ولغة جمابا جفر والصومال وشووا ودانجلا وعدال وهرر .

إن الحبشة تتألف من حكومات مستقلة في إدارتها الداخلية تحت رئاسة الإمبراطورية التي تكون على الغالب في يد أقوى أمير من حكام المقاطعات ، ويعتبر

مقر هذا الأمير عاصمة الإمبراطورية التي تنتقل بذلك من حكومة إلى حكومة ومن بلد إلى بلد ، وكانت لغة كيز المار ذكرها اللغة الرسمية للبلاد كما أنها كانت اللغة الدينية وذلك عند ما كانت السيادة بيد حكام تيغري ، ولما انتقلت عاصمة الملك إلى الغرب الجنوبي صارت اللغة الأمحرية اللغة الرسمية للحبشة وبقيت لغة الكيز اللغة الدينية والعلمية والتاريخية كما كانت . ويستعمل أهالي مصوع وما يجاورها وسكان التيغري في كتاباتهم لغة الكيز وهي بمقام اللغة العربية الفصيحة بالنسبة إلى اللغات العامية العربية التي يتكلم بها الناس في اليمن والحجاز وسوريا ومصر حيث تختلف اللهجة في التكلم وتتحد عند الكتابة ، ويقال إن هجمات قبائل الغاللا وغاراتهم المتوالية على الحبشة ودخول المسلمين واستيلائهم عليها هي من جملة الأسباب التي تركت لغة الكيز مهملة تقريباً . واللغة الأمحرية وإن تكن تغيرت تغيراً بسبب ما دخل فيها من اللغات الأجنبية من الأقوام والقبائل الخارجة تكتب إلى الآن بحروف لغة الكيز ، وحروف هذه اللغة تشبه الحروف الحميرية ، ولا يخفى أن اللغة الحميرية هي لغة أهل اليمن القديمة وهذا مما يؤيد الرأي القائل بدخول لغة الكيز إلى الحبشة مع دخول المهاجرين اليمنيين إليها ، كما أن انتساب بعض القبائل اليمانية إلى (كوش) الذي تنسب التوراةُ الأحباشَ إليه يؤيد قرابتهم باللغة مع اليمنيين ، وكانت لغة الكيز قبلاً تكتب كالعربية من اليمين إلى الشمال ، ولكن الأحباش قلدوا الغربيين فكتبوها من الشمال إلى اليمين ، وأما الأرقام فإنهم أخذوها من اليونانيين وعدلوها على وجه يوافق لغتهم ولنأتِ بأمثلة من كل من لغة الكيز والأمحرية التي تشبه العربية .

	الأمحرية	الكيزية	العربية
	أنه	أنا	أنا
خطاب للذكور	أنت	أنت	أنت
خطاب للمؤنث	أنتي	أنت	أنتِ
خطاب لجمع المذكر	الأنت	أنتم	أنتم

والمتأمل في مخاطبات الناس ثمة باللغات الحبشية يسمع كثيراً من الكلمات العربية بهذه اللغات ، وإليك مثالاً آخر من الأدعية التي يدعو بها الأحباش في صلواتهم هو دعاء معروف عند المسيحيين نسمعه منهم باللغة العربية ولننبه القارئ إلى أن حرف (ب) في لغة الكيز ينطق كحرف (ف)((Vعند الإفرنج) :

كيز	عربي
افوناذا	أبونا الذي
بسميات	بالسموات
يتقدس اسمك	يتقدس اسمك
كما بسماي	كما بالسما
كي هو يحدر	كما هو بالأرض
هيبدج لنا ايساني	اغفر لنا سيئاتنا

وقد اشتغل بعض المحققين من علماء اللغات من الأوروبيين بدرس اللغة المحرية والكيزية وألفوا فيها كتباً عديدة أشهرها مؤلف باللاتيني لرودويف من فرانقفورت وآخر بالإنكليزي لايزبرغ في لوندره وآخر بالفرنساوي لموندون فيداله في باريس وآخر بالطلياني لجيدي في روما وآخر بالألماني لبرينيورس في هال .

وغير هذه المؤلفات يوجد كتب أخرى في اللغات الحبشية تأليف دالمان وفرانس وقد طبعت الجمعية الجغرافية الفرنسوية كتاباً ضخماً في أربعة مجلدات تأليف (كونيك) يحتوي على شرح وافٍ في ما يخص اللغات الحبشية .

أديس أبابا

يوم الجمعة 11 يونيو / حزيران

جاءني صباح اليوم الموسيو ايلغ وبعد أن أبلغني تحية الإمبراطور شرح لي كيفية احتفال المقابلة التي ستكون نهار غد .

كنت اليوم جالساً في الشرفة فاستجلبت نظري أغطية الرؤوس التي يضعها

الأمحريون على رؤوسهم .

الأعيان منهم يلبسون القبعة على رؤوسهم والباقون مكشوفو الرؤوس ومنهم من يترك شعر رأسه على حاله والبعض يحلقونه كله ، وقد رأيت منهم من حلق شعر رأسه من الوسط وتركه من الأطراف بحيث صار على رأسه شبه القبعة ، ومنهم من وضع على قمة رأسه عمامة صغيرة وبعضهم لف حول رأسه قطعة من الشريط المسمى (قورده لا) .

لزم لبعض صناديقنا تصليح ورأينا أن نلف هذه الصناديق بجلود البقر وكان عندنا جلود بقر مذبوحة بيد جزار مسلم فامتنع النجار المسيحي أن يستعمل هذه الجلود أو أن يمسها بيده فتعجبت لهذا التعصب الغريب في بابه مع أن المسيحيين والمسلمين في الحبشة يعيش بعضهم مع بعض في غاية الوئام والسلام فلا تقع بينهم مشاحنات دينية ولا غيرها .

أتى بعد الظهر أحد رجال رأس من الرؤوس وسأل عن أحوالنا وأهدى تحية الرأس لنا ، وفي المساء جاء لزيارتي أمين مخزن النجاشي (كيلارجي) ورئيس خدام مائدته واسمه اسسلاقي ماشاشا ، ووظيفة هذا الرجل لا تشبه وظيفة سائر خدمة المائدة بل إنه مكلف في بعض الأحيان بوضع الطعام بيده في فم النجاشي ، وقد رأيت مراراً خدام بعض الرؤوس يدنون قدح الماء بيدهم إلى فم الرأس وبعد أن يشرب سيده يمسح له فمه بطرف ردائه (الثما) على أني لم أرَ الخدام يضعون الطعام أيضاً في فم الرؤوس أو الإمبراطور بل سمعت ذلك من بعض رجال حاشية الإمبراطور .

إن خادمنا المسمى جمعه يفهم العربية قليلاً ويميل جداً لتعلمها ، لذلك تجده يكرر كل ما يقال أمامه ، فمثلاً لو طلب أحدنا منه قليلاً من الماء لا يأتي بالمطلوب إلا بعد أن يكرر ما قيل بالحرف وإذا ضحكت أمامه يضحك هو أيضاً وإذا عبست وقطبت جبينك يعبس هو أيضاً ويقطب جبينه ، وإذا كان عندك بعض الزائرين فناديته لغرض من الأغراض وقلت له انتظر هنا قليلاً يدير ظهره لك ولزائريك ويقف في وسط الغرفة كالصنم بدون حراك ، لأنه يستحي من أن يقف ووجهه موجه نحوك ، وكان الطقس اليوم بارداً فاضطررنا أن نوقد النار في غرفتنا للدفء فأتى جمعه المذكور بالنار ضمن الساج ووضعه على البساط من غير أن يضع تحته شيئاً آخر منعاً لسريان

النار إلى البساط ، فلما رآه أحد الزائرين الموجودين عندي كلمه بالعربية قائلاً (ما هذا العمل يا جمعة ستحرق البساط يا خراب ديارك) فكرر جمعه في الحال الجملة الأخيرة من كلام الزائر قائلاً (يا خراب ديارك) فضحكنا جميعاً ولما رآنا كذلك صار هو أيضاً ينظر إلينا ويضحك معنا .

لا يخفى أننا من سكان الآستانة التي يشتد البرد فيها في الشتاء جداً ومع ذلك فقد احتجنا اليوم ونحن في أواسط حزيران (يونيو) وفي أديس أبابا الكائنة في أفريقيا إلى وضع النار في غرفتنا للتدفئة ، لأن المدينة كائنة على ارتفاع عظيم كما أن الموسم هو موسم الأمطار .

الجندية

يؤلف الجيش الحبشي من مجموع جنود كل رأس أي كل حاكم مقاطعة من المقاطعات حسب جسامتها وثروتها ومن الجنود الحرس الخاص بجلالة الإمبراطور ، ويوجد غير هذه الجنود الموظفة جنود أخرى (رديف) تؤخذ وقت الحرب من الأهالي بنسبة سعة الأراضي المملوكة أي الضياع والمزارع والثروة وعلى كل من هؤلاء الجنود أن يأتي معه بحصان أو بغل أو حمار ومن الذخيرة والزاد ما يكفيه مدة شهر واحد ، وفي الغالب يؤخذ الرديف من الجنود الذين أدوا الخدمة العسكرية الموظفة أي العاملة وتعطيهم الحكومة الأسلحة اللازمة لهم بعد انضمامهم للجيش وتجهيزهم يكون على نفقة أصحاب الأراضي والمزارع المملوكة ، ويؤلف الجيش الحبشي وقت السلم من مائتي ألف جندي وينضم له مائتا ألف من الرديف وقت الحرب ، ولا توجد في الحبشة أصول القرعة بل يتطوع الأهالي بالدخول في الجيش الحبشي لشدة ميلهم للضرب والطعان وشغفهم الزائد باستعمال السلاح ، وبنادق الجنود المنظمة هي بنادق (غرا) الفرنسوية (وبردان) الروسية ، ويتقلد كل جندي على يمينه بسيف محدب ، أما الذخائر الحربية كالبارود والقراطيس فلم تزل الحكومة تأتي بها من أوروبا ، وإنما الآن ينظر رجال الحكومة في تأسيس معمل لصنع القراطيس هنا ، وغير هذه الأسلحة النارية يوجد عندهم أسلحة بيضاء مثل الرماح والحراب والأتراس وما أشبه ، والجنود

تكون وقت السلم منتشرة في عرض البلاد وطولها حيث تقوم كل مقاطعة بمؤن الجند الموجود ضمن دائرة حكمها ، وفي زمن الحرب تجري الحركات العسكرية بكل سرعة وذلك بسبب توفر مخازن المؤن الموجودة في محلات مختلفة وفيها الزاد والذخيرة ، حتى أن سرعة سوق الجنود في سنة 1895 ضد الطليان أوجب استحسان أوروبا وتقديرها الجندية الحبشية قدرها .

والقيادة العامة وقت الحرب تكون بيد الإمبراطور ، وكل رأس يكون قائد الجنود الموجودة تحت إمرته ولكن الإمبراطور هو الذي يعين الخدمة التي تطلب من الرأس ويرتب حركات جنوده ، وبعد الرأس تأتي سلسلة مراتب عسكرية ، إذ كل من أصحاب الرتب يقود فصيلة من الجنود ، والرتب العسكرية بعد الرأس هي على الترتيب الآتي : دازجماج ، فيتوراري ، قينازماج ، غراسماج ، بالمبراس ، آش ، آلاقا ، فتوالاقا ، شالاقا . وأهمية أكابر أركان الجيش تكون بنسبة كمية الجنود التي يقودونها .

إن رتبة قينازماج هي أكبر من رتبة غراسماج ولكن غراسماج يتقدم في معية الإمبراطور على ضابط حائز رتبة قينازماج بجيش أحد الرؤوس ، فيعطى الغراسماج حنيئذ عدداً من الجنود فيكون والحالة هذه أكثر أهمية من الثاني .

وفي أثناء الحرب يكون الجيش على نظام حربي حيث يقومون بالترتيبات الأساسية مثل الجناحين الأيمن والأيسر والمقدمة والساقة والقلب ، وعند نزول الجيش في محل تعتبر خيمة القائد العامة أساساً لترتيبات النزول ، ويعرف كل من ثم الرؤوس والقوّاد أين توضع خيمهم وهم يقدرون المسافة وخطوط الاستقامة بالضبط فلا يحصل عند نزول المعسكر ما يستوجب التشويش قطعاً ، وهنا يجب أن أصف من قبيل المثال ترتيب معسكر الأحباش في واقعة (ادووا) التي حصلت بينهم وبين الطليان :

كان في واقة (ادووا) معسكر الإمبراطور نفسه ضمن ثلاث دوائر داخل بعضها في بعض على الترتيب الآتي : خيمة الإمبراطورة على اليمين في مركز الدائرة الأولى الكائنة في الوسط ، وعلى الشمال خيمة الإمبراطور ، ووراءهما مخزن المؤن الخاصة بهما والمطبخ والإصطبل وخدامهما ، ويؤلف محيط هذه الدائرة من جنود الحرس

الإمبراطوري ، وكان بين الدائرة الأولى والدائرة الثانية إلى الأمام معسكر رأس ميكائيل رأس وليه ، ووراء معسكر ميكائيل افانفوس أي الرأس الروحاني ودازجماج ، ووراء رأس وليه كان معسكر قائدين برتبة دازجماج ، ومن جنود هؤلاء كلهم يؤلف محيط الدائرة الثانية ، ثم بين الدائرة الثانية والدائرة الثالثة يوجد إلى الأمام معسكر قائدين برتبة فيتوراري يؤلف كل منهما الجناح الأيمن والجناح الأيسر من مقدمة الجيش ، ففي الجناح الأيمن منه ضابطان برتبة قينازماج ، وفي الجناح الأيسر ضابطان آخران برتبة غراسماج ، وفي المؤخرة الساقة كان معسكر نفوس تقلا هايمانو حيث تؤلف جنوده الدائرة الخارجة ، وعند سير المعسكر كله يمشي حسب النظام ، وإذا لزم الرجوع إلى الخلف أو التحول في السير إلى اليمين أو الشمال ، فإنه لا يجب تغيير محلات الفرق العسكرية بل يبقى كل على حاله ، وإنما تصير الساقة مقدمة الجيش في حال الرجوع ، والمقدمة ساقة ، وكذلك عند التحول في السير إلى اليمين يقوم الجناح الأيمن المقدمة والجناح الأيسر مقام المؤخرة ، والعكس بالعكس ، وإذا كان أمام الجيش في مسيره وديان أو هضاب فاضطر للخروج من هذا النظام فإنه يعود إليه حالما يصل إلى الأراضي المساعدة على أخذ شكله الأصولي المارّ ذكره الذي يحافظون عليه كل المحافظة ، ويكون كل مرؤوس دائماً قريباً من رئيسه .

إن الجندي الحبشي ليس كبير الجثة قوي العضلات وإنما هو كثير الجلد والصبر على تحمل المشاق والمتاعب ، وهو موصوف بحق بهذه المزية العظيمة التي لا بدَّ منها للجندي ، فهو يمشي طوال النهار ويقطع الوديان والجبال من غير أن يأكل أو يشرب ، ثم يهاجم عدوه دون أن يستريح ، فالجنود الحبشية تفوق الجنود الأوربية بكثير بسبب قناعتهم بالقليل وخفتهم وقت السفر وهم عراة الأقدام .

ولما كنت في أثناء الطريق أنزل عن البغل وأسير على قدمي بقصد الراحة من عناء الركوب كان الخدام والجنود الأحباش الذين كانوا معنا ينصحونني أن أخلع من قدميّ الحذاء (الجزمة) وأن أسير عاري القدمين مثلهم كما أنهم كانوا يستغربون سيري بالجزمة ويسألونني كيف أقدر على السير بها .

والجنود الحبشية يغيرون على العدو بشجاعة وإقدام عظيمين ولا يتأخرون عن الهجوم على الأسد أو النمر بكل جرأة ليقتلوه ويأخذوا ذيله أو شعر رقبته ليتشرفوا

بوضعه على رؤوسهم ، أو جلده ليضعوه على أكتافهم ، والناس في الحبشة يقبلون على الجندية إقبالاً عظيماً لينالوا الفخر ويمتازوا عن الآخرين ، ولا يتأتى للجندي أن يمتاز على رفاقه إلا بالشجاعة والجرأة .

وقد استخدم الطليان كثيراً من الأحباش من أهالي مستعمراتهم في الجيش الطلياني ، والذين رأوهم وشاهدوا حركاتهم أثناء القتال أو حاربوا معهم يثنون عليهم ثناءً عظيماً .

وكيفية أخذ الجنود هناك أن الحكومة تعلن طلبها للجنود المتطوعة فيأتي الناس للانتظام في السلك العسكري وربما كان المقبلون على ذلك أكثر من العدد المطلوب فيجربونهم بالمشي السريع أو الجري الخفيف على الطريقة العسكرية إلى مسافة سبعين كيلو متراً تحت نظارة ضابط من الفرسان ، والذي يكون أكثر إسراعاً في جريه ولا يعتريه تعب يؤخذ ، والجندي الحبشي مطيع ومحب لرئيسه وصادق وأمين في خدمته جريء مقدام قنوع كما أنه يحافظ على النظام أثناء التمرين ، وبالإجمال فالجندي الحبشي قابل للتعليم والتمرين كقابلية الأوروبي لذلك .

والجنود الأحباش لا يحبون الإقامة في محل واحد بل يميلون إلى التنقل وتبديل المكان ورؤية محلات جديدة وهم يفضلون التسلق على الجبال الشاهقة والحركة على السكون والراحة ، وإذا سافر الجندي الحبشي لا يسأل عن وجهة السفر ولا عن المحل الذي سيقضي فيه ولا المسافة التي سيقطعها ، ولا يتأخر في الطريق من غير إذن رئيسه بأي حجة من الحجج ، يقضي يومه بما تيسر من الأكل ويحب السلاح جداً ولا يتركه من يده قط حتى أنه ينام في الليل وبندقيته معه ، وحين يسير يكون دائماً في انتباه وتيقظ تامين ، وهو شديد السمع ، حادُّ النظر ، حاسة الشم فيه عظيمة جداً ، وإذا مرض أحد الجنود أثناء السير في طريق السفر يتركونه في كوخ أو في قرية ومعه أحد رفاقه ، ويعالج هناك ثم يلحق بمعسكره بعد رجوع الصحة إليه ، وعند وصول الجند إلى محل النزول تبدأ الجنود قبل كل شيء بإقامة خيم أو أكواخ قوادهم وضباطهم ، وبعد أن يقوموا بما يجب عمله لراحة هؤلاء الضباط يفكرون بأنفسهم ، وإذا نام أحد الضباط يأتي الجندي وبيده غصن من أغصان الشجر فيطرد به الذباب عن وجه الضابط ، وبالجملة إنه يقوم بكل ما يلزم لراحة الضابط ، وقد كان الجنود

الذين معنا أثناء سيرنا في الطريق يقومون بكل هذه الخدم ويمشون أمامنا حتى إذا صادفنا في طريقنا شجيرات أو أغصاناً تعوقنا عن السير فإنهم إما أن يقلعوها من جذورها أو أن يؤخروها بأيديهم إلى الوراء ليفتحوا بذلك طريقاً لمرورنا .

والجنود الحبشية بعد أن يقضوا ما عليهم من الخدم لترتيب المعسكر يقطعون ردحاً من الزمن بالضحك واللعب تسلية لنفوسهم ، وعند الصباح تجدهم واقفين على أقدامهم ينتظرون الأوامر بكل نشاط وسرور ، ولا أنسى ولن أنسى ما كنت أراه من أبو بكر أحد الجنود المرافقين لنا في سفرنا من النشاط والسرور في تنفيذ الأوامر التي كانت تعطى له وهو يغني وينشد ، مع أن هذا الرجل يتجاوز الستين من العمر ، ومع ذلك فقد كان يجري في ذهابه وإيابه كأنه شاب في مقتبل العمر ، وللجندي الحبشي شغف زائد بالصيد والقنص ولكنه لا يريد أن يسرف بالقراطيس لغير فائدة ، وعنده أكبر هدية تهدى له هي القراطيس (الخرطوش) وإذا عوقب أحدهم بالضرب على ظهره يتجلد تجلداً عظيماً فلا يسمع له صوت أثناء ضرب بسيط بل ولا تظهر علامة التألم والوجع على وجهه أو على حركات جسمه ، ولقد يقال أن أحد الأحباش المستخدمين في الجيش الطلياني عوقب مرة بالضرب فأخذ يصيح عند تنفيذ العقاب فجعل رفاقه يستهزئون به ويحقرونه حتى اضطر للاستعفاء من خدمة الجندية .

وثبات الجندي الحبشي وإقدامه وقت القتال يكون متناسباً مع شجاعة القائد وبسالته ، فإذا ثبت القائد فإن الجند يثبتون معه حتى الموت ، ويلقى القائد على الجند نشيداً حربياً أو خطبة حماسية قبل دخولهم إلى ساحات القتال ، ويمدح نفسه ويثني عليها لأنه سيكون للجنود قدوة ومثالاً حسناً ، وإليك بعض أمثلة من خطب ألقاها القواد قبل دخول الجند ساحة القتال :

الخطبة التي ألقاها دجاز دبيب قبل محاربته للتيغريين بيوم واحد :

«أيها الجند : إنكم ستعلمون غداً ذكر الرجل الذي أنتم في خدمته إلى اليوم أني سأقاتل غداً حتى أظفر بعدوي أو أموت ، فينبغي أن لا تفارقني أنظاركم وإذا رأيتم ترددي . . ماذا قلت؟ كيف لفظت كلمة (تردد) لا لا ! أنا قلت غلطاً ، أريد أن أقول : إن كل من يرى أحد شرايين وجهي ترتعش فليتركني ويترك خدمتي ومن يرى أني رجعت القهقرى مدبراً فليخرق جسمي برمحه وينتقم مني بذلك» .

وفي الحقيقة إن هذا القائد قاتل في اليوم التالي قتالاً عظيماً وأظهر من الشجاعة والبسالة ما يفوق الوصف . وهذه خطبة أخرى :

«أنا الذي له طعنات بالرمح لجلاء ، أنا الذي طعنت بالرمح الرجال الكثيرين ، أنا اسمي قاسسا ، أنا ابن جبابا فانفل ، أنا الذي إذا أصابت رقبتي رصاصة تقوم فيها مقام ماتب (ماتب هي شريطة زرقاء يعلقونها في أعناقهم وفيها الصليب مرسل إلى الصدر) أنا أسد وابن أسد ، أنا الذي انتصرت على الفاللا ممتطياً حصاني فانزو ، أنا الذي قتل بسيفه كثيراً من التيغريين وانتصر ببندقيته على الأمحراويين ، أنا الذي ألقى بيده بالنالناويين إلى أعمق الهاويات ، نعم أنا ابن جبابا فانفل ، البارحة كنت بلمراساً واليوم صرت دزجماجاً وسأكون غداً رأساً ، أنا لا أرهب أحداً ، هل يوجد من رآني فارّاً ؟ هل هناك من يقدر على أخذ ترسي مني ؟ إذا وجد فليبرز إلي» .

وللجنود الأحباش عادة فظيعة جداً يستعملونها وقت الحروب ، وذلك أنهم يقطعون خصيتي الأسرى بحجة تقليل نسل العدو لذلك تجد الجنود يتسابقون إلى الإتيان بما يقطعون من آلات التناسل لينالوا الفخر لدى رؤسائهم بذلك ويظهروا بمظهر الشجاعة والإقدام ، ومن أجل ذلك تجد المتبارزين دائماً يكون أول همهم قطع الخصية إذا ظفر أحدهما بالآخر ، وقد عاد أكثر الأسرى الطليان الذين وقعوا في أيدي الأحباش إلى بلادهم مقطوعي الخصيتين ، وقد أراد الإمبراطور منليك إبطال هذه العادة المستنكرة وأصدر بذلك أوامر متعددة ، ولكنه لم يقدر على استئصال شأفتها بالمرة لأن الجندي الذي يتمكن من قطع خصية أحد الأعداء لا يأتي بها إلى ضابطه بل يأخذها ويعلقها على باب منزله أو كوخه علامة الظفر بعدوه ، وكانوا يعلّقونها على صدور خيولهم أو بغالهم وبعضهم كان يحشوها بالتراب لتكبر ثم يعلقها حيثما يريد .

وخيم الجنود الحبشية لونها أبيض وخيام الضباط مختلفة الألوان ، وأما صيوان الإمبراطور فإنه يكون أحمر اللون ، وتكون الخيمة الحمراء نقطة الدائرة في ترتيب المعسكر وقت النزول ، ويوجه باب الخيمة إلى الجهة التي يسير منها المعسكر في اليوم التالي ، فمن اتجاه باب خيمة الإمبراطور تعرف الوجهة التي سيتوجهون إليها ، وهذه القاعدة ليست خاصة بالجيش فقط بل إن القوافل السائرة في الفيافي والجبال تتبع

القاعدة المذكورة عند نزولها ، وأما نحن فإننا كنا دائماً نوجه أبواب صواويننا للجهة الآتي منها الهواء ، لذلك كان خدمتنا يستغربون ذلك ويسألوننا هل نحن ذاهبون إلى أديس أبابا أم راجعون من حيث أتينا؟

رأيت في أديس أبابا أورطة (طابوراً) مؤلفاً من أربعمائة جندي من العبيد السود وقد نظم جلالة النجاشي هذه الأورطة على الطراز الحديث وجعلها خاصة بخدمته ، وهؤلاء الجنود السود يتمرنون تحت إمرة الكونت لاغي بورجر الفرنسوي ولهم جوقة موسيقى على الطراز الأوروبي ويلبسون البانطلون والجاكيت وعلى رؤوسهم طاقية حمراء تشبه الطربوش ، وأما أرجلهم فعارية لأنهم حافظوا على القاعدة العمومية الجارية في بلادهم وهي عدم لبس الحذاء .

أديس أبابا

السبت 12 يونيو / حزيران

المقابلة مع جلالة الإمبراطور -زيارة السفراء والرؤوس -وزرودستا

كان اليوم موعد مقابلتنا مع جلالة النجاشي فلما أصبحنا ارتدينا بأرديتنا الرسمية الكبرى ، وقبل أن نذهب أرسلنا الهدايا السلطانية مع خدامنا وجنودنا وصحبتهم رجل أرسله الموسيو ايلغ ، وبعد ذلك خرجت إلى الشرفة منتظراً ورود الجماعة الذين سيصحبوننا إلى القصر الملوكي ، وكان في المدينة حركة كبيرة والطرق مزدحمة بالناس وبينهم مئات من الرؤوس والقواد والضباط والجنود وكلهم بالملابس الرسمية يمتطون ظهور البغال ووراءهم عبيدهم وهم ذاهبون إلى القصر وبعضهم يصطفون في الطريق .

ويرى الرائي هنا أنواعاً كثيرة من الألبسة الرسمية (التشريفة) ويمشي أمام أكابر الأحباش عبيدهم يحملون أحسن أسلحتهم من رمح أو ترس أو حربة ويضع بعض قواد الجند على رؤوسهم شعور الأسد والنمور فتدلى من وراء رؤوسهم ، والحاصل أن للجنود هنا هيبة تأخذ القلوب ويظن الناظر الغريب لأول وهلة أنه يرى أمامه إنساناً

في شكل أسد أو نمر .

بينمــا كنت أســرح الطرف في المارة على الطريق إذ رأيت في أول الشــارع جنداً يقرب عـددهم من ألف قادمين علينا وبعد قليل وصلت هذه الأورطة (طابور) ثم جاء الموسـيـو ايلغ ورأس ولدي وعـزاج كـزو مـدير القـصـر الملوكي وأحـد قـرناء الإمـبـراطور وفيتوراري ردى أحد حجاب الإمبـراطورة وغيرهم من رجال القصر ليرافقونا وكلهم بالأردية الرسمية .

وفي الساعة الثالثة (عربي) ركبنا وسرنا قاصدين القصر والجنود محيطة بنا من كل جانب وأمامنا جوقة موسيقية عسكرية مؤلفة من نايات وزمر وبعض آلات لا أعرفها .

وكـانت الطرق وأسطحة المنازل والشرفـات والدكـاكين غـاصّة بالناس الذين كـانوا يحـيونـنا ، وكـان بعض المأمورين بيـدهم العـصي يطردون بها الناس ليفـتحوا الطريق للموكب . وصلنا إلى القصر ودخلنا بين الازدحام الذي يفوق الحصر والوصف وعبرنا من الباب الأول إلى ساحة فسيحة محاطة من كل جانب بجدار ، ثم دخلنا من باب آخر إلى ساحة أخرى والساحتان كانتا غاصّتين بالجنود ، وفي الساحة الثانية كانت بطارية مدافع واقفة تؤدي التحية بإطلاق البارود ، وبعد الساحة الثانية وجدنا مرآة كبيرة جداً وهنا يوجد البهو الملكي الكبير المسمى آدرش ، دخلنا من باب البهو فوجدنا جلالة الإمبراطور منليك جالساً على عرش جسيم وهو محاط بحاشيته ورجال بلاطه وعـددهم يقـرب من مـائة . فلمـا دخل الوفـد إلى البـهـو أخـذت تدوي المدافع فـقـام الإمبـراطور حينئذ ثم جلس ولما اقتربنا منه انتصب قائماً للمرة الثانية ، ففهت أمام جلالته بخطاب وجيز فيما يخص مهمتي التي أتيت من أجلها ، ثم أعطيته الكتاب السلطاني والنيشان فأخذهما مني بكل بجلة واحترام وفاه بعبارات الشكر للحضرة السلطانية ، وبعد أن تمت هذه الرسوم أشار بيده إلى مـقـعـد أمام العرش الملكي كـان أحضر بصفة خصوصية فجلست عليه ، وبعد ذلك أخذ جلالته يسألني عن صحة جلالة مولانا السلطان الأعظم ، وعن الأمن والراحة في البلاد العثمانية ، وعما إذا كنا تعبنا في الطريق أم لا ، وبعد قليل قدمت الهدايا السلطانية فصار يفحصها بنفسه واحـدة واحـدة ويظهر مـزيد سـروره ، ثم أخـذ يشـرح امتنانه وشكـره للحضـرة السنية

السلطانية التي تفضلت وافتكرت بجلالته (أي الإمبراطور) ، وأما الهدايا السلطانية فكانت مؤلفة من طاقم شاي وبسط من صنع فابريقة هركة السلطانية ، وأقمشة للملابس والفرش وجوز شمعدانات من الفضة وكلهم من أحسن ما صنع وأبدع ما عمل .

كانت حاشية الإمبراطور كلها واقفة وراء العرش وعلى جانبيه سوى ثلاثة كانوا جالسين على مقاعد موضوعة على يمين العرش الملكي وهؤلاء الثلاثة هم رأس ماكونين ورأس جورجيس ورأس تسما ، وقد عرَّفني بهم الموسيو ايلغ الذي كان يؤدي وظيفة الترجمان ، فتصافحنا وشكرت للرأس ماكونين ما رأيته من الإكرام في منزله الكائن في هرر .

دامت هذه المقابلة نصف ساعة تكلمنا في خلالها مع جلالة النجاشي في مواضيع مختلفة ، وكان جلالته مرتدياً بالملابس الرسمية ومتقلداً وساماته المرصعة والتاج الملوكي المرصع كان موضوعاً على العرش بجانب جلالته ، وكان على رأسه كوفية يلبسها دائماً حتى تحت القبعة ، وهو جالس فوق العرش على الأصول الشرقية (متربع) وحوله الوسائد يتكئ بيديه عليها .

وأما العرش الملكي فإنه كان مزيناً تزييناً عظيماً كأنه سرير عروس وحجمه متر ونصف ، يصعد عليه بدرج واحد وهو مصنوع من الأخشاب المنقوشة والمذهبة ، والفرش والوسائد الموجودة على العرش مشغولة كلها بالقصب ، ويأدب النجاشي كل يوم أحد في هذا البهو مأدبة يحضرها جميع القواد وأمراء الجند والجنود ويتناول جلالته الطعام في ذاك اليوم وراء الستر ، وبعد الطعام يكشف الستر فيظهر جلالته للمدعوين الذين يجلس كل فوج منهم على خوان ، ويأتي الخدم من الخارج بأطباق المأكول فيوزعون الأطعمة على الخوانات ، والجنود تدخل للطعام فوجاً فوجاً ، والطعام المقبل عندهم في هذه المأدبة هو اللحم النيئ ، وتذبح مئات من العجول وتُسلخ وتقطع قطعاً وتوضع على الموائد وحرارة الحيوان موجودة فيها بعد ، فيأخذ كل من المدعوين قطعة ويقطعها على شكل مستطيل وبعد أن يغمسها بالفلفل الأحمر يعض عليها بأسنانه ويقطع ما بقي خارج فمه بخنجره ويمضغ ما بقي في فمه وهكذا حتى يشبع ، والأوروبيون هنا يعجبون كيف أن الأحباش لا يقطعون أنوفهم عندما يأكلون على هذه

الصفة ، أي عند ما يقطعون اللحم بالخناجر وهم ممسكون له بأسنانهم .

وطول هذا البهو 80 ذراعاً وعرضه 60 وارتفاع سقفه متناسب مع طوله وعرضه وقد أقيم السقف على أعمدة كبيرة قائمة على صفين بين الواحد والآخر عشرون ذراعاً ، والبناء مشيد من الحجر وعوارض السقف من الخشب ومستورة بنوع من الساج مطلي بطلاء معدني ، وهذا البناء أقيم على الطراز الجديد وهو محكم التشييد جداً .

ولما استأذنا بالانصراف من لدن جلالة الإمبراطور طلب إلينا أن نجيء في اليوم التالي إلى القصر فشكرنا جلالته ثم انصرفنا وأتينا إلى منزلنا بالموكب الذي ذهبنا به إلى القصر ، وبعد أن جلس معنا رجال التشريفات برهة قليلة شربوا في خلالها القهوة والشربات انصرف كل في سبيله .

وبعد الظهر ذهبنا لزيارة السفراء وكان يمشي الخدم والجنود بالأسلحة وراءنا حسب عادة البلاد ، يوجد هنا لكل من دولة إنكلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا سفير ، ودور السفارات بعيدة مبنية على هضبات مرتفعة بعيدة بعضها عن بعض ، إلا سفارة إنكلترا وفرنسا فإن المسافة بينهما قريبة ، والمواصلات هنا صعبة بسبب عدم وجود طرق وشوارع منتظمة ، ولا يذهب أحد ليلاً لعند الآخر لعدم وجود عجلات للركوب ، لذلك كان السفراء يقابل بعضهم بعضاً في النهار ، وكثيراً ما تزلق أرجل البغال في الأيام الممطرة فتقع هي والركاب وذلك بسبب الصعود والنزول ولزوجة التربة .

ودور السفارات الموجودة الآن هي عبارة عن طبقة أرضية واحدة ، وإنما هي على غاية من النظافة والترتيب . وقد بنى المستر هارينجتون السفير الإنكليزي دار سفارته على طراز لطيف جداً ، فإنه أنشأ أكواخاً متعددة على مثال أكواخ الوطنيين ثم وصلها كلها ببعض بدهاليز ، وداخل هذه الأكواخ مفروش بفرش جميل صنعه هنا عمال أتوا من الخارج لهذا القصد .

مررت على الرؤوس لزيارتهم ، ولكن لم أجدهم لأنهم كانوا لم يزالوا في القصر الإمبراطوري ، وذهبت إلى منزل افانفوس فلم يكن موجوداً ، بمنزله وبينما كنا نهم بالرجوع بعد أن تركنا بطاقة الزيارة إذ قال لنا الخدم إن السيدة حرمه ستقابلنا فدخلنا ، وبعد قليل ظهرت سيدة جميلة جداً يقرب عمرها من أربعين عليها ملاح الذكاء

الشديد فاستقبلتنا بكل لطف وإكرام ، وكانت هذه السيدة محاطة بجواري وعبيد يقرب عددهم من ثلاثين ، وعرفتنا بنفسها أنها حرم افانفوس وأن اسمها وزرودستا وعلى ذلك أخذنا نتجاذب أطراف الحديث بواسطة مهماندارنا الحاج أحمد أفندي ، فأعجبت برقة هذه السيدة ولطفها وذكائها ومما تأتي به من العبارات الجميلة والأمثال البديعة التي كانت تضربها لنا في خلال كلامها مما يضعها في مصاف أحسن نساء أوربا تربية وتهذيباً ، وقد قدمت لنا شربات العسل وشربات (برز) وبينما كنا عندها أخذت الأمطار تهطل بحيث اضطرتنا إلى البقاء عندها حتى انقطاع المطر ، وكانت جالسة أمامنا وعلى رأسها غطاء (طرحة) ولما أخذنا نشرب الشربات طلبت الإناء الخاص بها لتشرب على صحتنا فأتوا بها لها وهي تسع مائة درهم فقط ، والسيدات هنا (ويقال للواحدة منهن وزرو وذلك بدل خانم) لا يشربن الماء أو غيره بالأقداح بل يشربنه مباشرة من (الصراحية) إذ لكل سيدة واحدة خاصة بها ذات نقوش بديعة ، ولما رجعنا إلى المنزل قيل لنا أن رأس ماكونن حضر في غيابنا لزيارتنا ، كما أن الموسيو ايلغ أتى موفداً من قبل النجاشي ، وقد ترك الموسيو ايلغ لي كتاباً يقول فيه : إن جلالة الإمبراطور يريد أن يقابل الوفد مقابلة خصوصية في الساعة الثامنة صباحاً من نهار الغد (الأحد) .

ورد اليوم لنا كثير من الزاد والمؤن (طورغو) من قبل الإمبراطورة غير الذي ورد من قبل الإمبراطور ، وكان الذي ورد من الإمبراطورة خراف وكثير من الدجاج وجرار (بلاصيات) مشروب التج وقدور السمن ومقاطف البيض وأرسلت أحد حجابها لإهداء الوفد تحياتها .

وهنا يجب أن أصف قليلاً جلالة الإمبراطور وما علمته عنه :

جلالة الإمبراطور منليك

إن جلالة منليك رجل طويل القامة مهيب الطلعة جميل المنظر ربعه متواضع وقور ، وهو الآن في الستين من عمره ، نشيط يميل إلى أن يعلم كل شيء وبواسطة هذا الميل وقف على أمور شتى وعلم صناعات كثيرة مثل فك آلة الساعات وتركيبها ثانياً

وكشف عدد البنادق والمدافع حتى أضحت لديه من أسهل الأمور ، وهو على جانب عظيم من الذكاء والدهاء ، يعامل جميع رعاياه بالمساواة ويحكم بينهم بالعدل ويحب لهم الخير ، ولذلك تجد رعاياه من مسلمين ومسيحيين أجمعوا على حبه وإظهار امتنانهم له . ولجلالته شغف زائد بالفن المعماري ويمكننا أن نقول أنه أعظم مهندس معماري يوجد في الحبشة يرسم بيده أغلب رسوم الآنية ويصف للقائمين بالعمل كيفية السير بموجب هذه الرسوم مما يستوجب استغراب الأوربيين وعجبهم وقد تعلم من بعض الأطباء والصيدليين تركيب بعض الأدوية ، يوجد في قصره رجال من الصناع والمهندسين والعمال للقيام بالأعمال الصناعية والهندسية وهو يحادث كل واحد من هؤلاء فيما يختص بصنعته ويشاهد بنفسه ما يقومون به من الأعمال ويسأل عن الأمور التي لا يفهمها ويطلب منهم أن يصنعوا بعض الأشياء أمامه ، ومما بلغني عنه من هذا القبيل أنه استحسن أحذية الإفرنج الذين كانوا يفدون عليه عندما كان ملكاً على مقاطعة شووا فطلب مرة إلى أحد المهندسين أن يصنع له حذاءً أمامه ليرى كيفية صنع الأحذية ، فأجابه المهندس معتذراً بأنه لم يشتغل قط بصنع الأحذية ولكن لم يرق هذا الكلام في عين منليك وأصرّ على طلبه فلم يرَ المهندس بدّاً من إنفاذ أمر الملك فقام يجهز ما يلزم لصنع الأحذية فأوصى على صنع قالب خشب وحل قطع حذاء قديم عن بضعها ليرى كيفية تفصيلها ثم أحضر الجلود اللازمة وأخذ يشتغل بصنع الحذاء أمام منليك حتى صنع له حذاءً منها وبذلك نفذت رغبة جلالته التي وقف بواسطتها على كيفية صنع الأحذية . وأمر مرة المهندس أن يصنع له بندقية تطلق بالخرطوش على الطراز الجديد ، وهو يعلم أن صنع هذه الأشياء في أوربا يكون أقل عناءً وأقل نفقة ولكنه يطلب صنعها أمامه وفي بلاده ليقتنع من إمكان صنعها في بلاده ويتأكد من معادنها وأخشابها ، والأوروبيون يعترفون لمنليك بالمهارة السياسية والعسكرية وقد كان قائداً عاماً لجميع حركات الجيش الحبشي في حربه مع الطليان إذ كان يراقب بنفسه مواقع المحلات التي كان ينزل فيها الجيش كما أنه كان يقوم بنفسه أيضاً بالكشف على الأطراف قبل القتال ويرتب جيشه حسبما تظهره له المعانية والاختبار .

وأما والده فهو هبلو ملوكت ملك شووا وجده ثالث ملوك شووا ، وقد كان

تيودوروس نجاشي الحبشة الأسبق حارب هبلو ملوكت والد النجاشي الحالي وبعد أحضر ولده منليك إلى مجدلا وزوّجه بنته وأمره بالإقامة هناك .

ولما قرب الإنكليز في سنة 1867من مجدلا تمكن منليك من الفرار منها وقطع الوديان والجبال الصعبة والمرور وحيداً ليس معه أحد ولحق ببضعة آلاف رجل من رجال أبيه وأخصائه وقومه وقبيلته وكانوا في انتظاره فاستقبلوه أحسن استقبال وسروا لمجيئه فسار من هناك ومعه رجاله وجميعهم مسلمون وهاجم انوبزابه حاكم مقاطعة شووا المولى من قبل تيودوروس فهزمه واستولى على بلاد شووا وصعد على عرش أجداده وأبيه ، ومن هذا التاريخ انقطعت جرثومة الحروب الداخلية في مقاطعة شووا وخضع الفاللا لملكها فأضحت هذه المقاطعة من ذاك اليوم أضخم وأقوى جزء من أجزاء المملكة الحبشية . ولما صار دجاز قاسسا أمير تيغري إمبراطوراً على الحبشة باسم يوحانس ابتدأت المخاصمات بينه وبين منليك ولكن الأخير نفر من سفك الدماء فسد باب المحاربات الداخلية وقبل أن يكون تابعاً ليوحانس مع أنه لم يكن انتصاره على الإمبراطور أمراً صعباً ولما قتل يوحانس في واقعة القلابات كما مر ذكره اعترف جميع رؤوس وأمراء الحبشة بإمبراطورية منليك ، وأخذت كلمته تعلو ونفوذه يزداد واحتفل بتتويجه بعد واقعة أدووا وأخذ يراسل ملوك الدول العظمى في أوربا .

وكانت زوجة منليك الأولى توفيت فتزوج بجلالة تايتو الإمبراطورة الحالية في سنة 1887 واحتفل بتتويجها إمبراطورة على الحبشة سنة 1889 بعد الاحتفال بتتويجه بيومين .

دافع المصائب والبلاء

في بلاط النجاشي وظيفة على غاية من الأهمية يطلق عليها اسم (ليقا ماقواس) ويجب على الشخص المرشح لإحراز هذه الوظيفة أن يكن مشابهاً للإمبراطور من حيث البنية والشكل تمام الشبه ولصاحب هذا المنصب أن يرتدي بمثل ما يرتدي الإمبراطور ويعلق أوسمته ، وبالجملة فإن الشرط الأعظم أن لا يكون فرق بينه وبين الإمبراطور ، وفي بعض الأحيان يقسم المنصب بين اثنين يشبهان النجاشي و (ليقا

مقواس) هذا يقف دائماً وقت الحروب والأسفار قرب الإمبراطور وتحت شمسيته ، ولا يقدر أحد حتى ولا الجنود أن يميزوا الإمبراطور الحقيقي من الإمبراطور الوهمي فيتمكن الإمبراطور بذلك وقت الحروب أن يترك شبهه تحت خيمته وشمسيته في مركزه الرسمي ليذهب هو ويتجول أين شاء دون أن يصيبه أذى أو أقل خطر ويكون في معزل من قنابل العدو ورصاصه وليقا ماقوس هذا يكون دائماً معرضاً للمهالك بدلاً من الإمبراطور ولذلك سميته بدافع البلاء .

جلالة الإمبراطورة تايتو

إن جلالة الإمبراطورة تايتو هي من عائلة عريقة في الحسب من مقاطعة تيفري ولها في بلاد الحبشة نفوذ عظيم وجاه كبير لذكائها وفطانتها وصبرها على المكاره وعقلها الكبير حتى أن زوجها يعتمد عليها في كثير من أمور الدولة ويرجع إلى رأيها ويأخذها إلى الحروب معه .

وتمضي هذه الإمبراطورة أوقاتها داخل الحرم وقليلاً ما تظهر أمام الناس إلا في أسفار النجاشي ، وفي أثناء الحروب فإنها تكون معه ، ويقول الإفرنج إنها لا تحب الأوروبيين ولا تميل إليهم ، ويمكن أن يكون سبب هذه الكراهة تعرض الإنكليز والطليان لشؤون بلاد الحبشة ، والكهنة في البلاد الحبشية جميعهم من حزب الإمبراطورة ، ويقال أنها على غاية من الشدة في معاملاتها بعكس الإمبراطور المشهور بالحلم ، فلذلك هاب الناس جانبها أكثر مما يهابون جانب النجاشي ، ويروى أن النجاشي كان أراد أن يعفو عن الأسرى الوطنيين الذين أخذوا في الحرب مع الطليان من عقوبة قطع الرجل والأيدي ولكنه لما رآها تلح على تنفيذ قانون البلاد على هؤلاء المنكودي الحظ اضطر لتنفيذه .

وللإمبراطورة دائرة خاصّة بها فيها كثير من الخدم والحشم ، وقد كانت أثناء الحرب مع الطليان هي وحاشيتها وفرقة حرسها وهي نحو خمسة عشر ألفاً تحت الخيام . وهذا الجيش يأتمر مباشرة بأمرها فيتلقى قوادها الأوامر مباشرة منها ويقول الضباط الطليان الذين كانوا حضروا حروب الحبشة بأن تايتو كانت تدير حركات

جيشها الحربية كأعظم قائد من قواد الجيوش ذوي المهارة التامة في الفنون العسكرية ، وجلالتها حريصة على شرف الحبشة ، وسمعتها ولها دخل عظيم في وصول هذه البلاد إلى ما عليه الآن من الرقي بما بذلته من العناية في هذا السبيل كما أنها كانت السبب الوحيد في الحرب مع الطليان وإليك البيان :

يوجد معاهدة بين إيطاليا والحبشة تعرف باسم عهد أوقسياللي مؤلفة من عشرين مادة تبين حدود البلادين وتحدد المعاملة الرسمية بينهما ومن جملة مواد هذه المعاهدة المادة السابعة عشرة التي كانت السبب في القيل والقال وكثرة الأخذ والرد وإليك ترجمة مضمون هذه المادة من النسخة الطليانية :

(إن جلالة إمبراطور الحبشة يوافق على أن تكون مخابرة الحبشة مع سائر الحكومات والدول بوساطة إيطاليا) .

أما في النسخة الأمحرية فإنه ورد في المادة المذكورة (للنجاشي أن يستفيد من توسط إيطاليا) بدلاً من كلمة (يوافق) والفرق عظيم جداً بين الجملة الأولى والجملة الثانية ، لذلك اضطر منليك أن يحتج على المادة المذكورة فأرسلت إيطاليا الكونت انتونللي إلى شووا لفصل هذه المسألة ، وطلب منليك تعديل هذه المادة وأن لا يترك فيها مجال للحط بكرامته بين دول أوربا . وأخذت المذاكرات في ذلك تجري بطريقة جدية ، ولما انتهى المندوب الطلياني من وضع مسودة التعديل قدمها إلى الإمبراطور الذي لم يرَ فيها شيئاً للتصليح والتعديل ثانية ، كما أن رأس ماكونن ورأس منغاشيا ورئيس الكهنة كانوا موافقين على كيفية التعديل الجديد ولكن معارضة الإمبراطورة تايتو في مشروع التعديل غيّر الحالة .

وذلك أنه كان الكونت انتونللي مدعوّاً في القصر فجلس بعد العشاء مع الإمبراطور والإمبراطورة يتكلمون في مسألة تعديل المادة المعارض فيها فقالت الإمبراطورة للكونت : «إن حكومة إيطاليا أبلغت مضمون المادة السابعة عشرة من العهدة إلى دول أوربا كذلك نحن. أيضاً عرفناها على الوجه الوارد في النسخة الأمحرية وأن للمادة المذكورة معنى غير المعنى الوارد في النسخة الطليانية ، ونحن لنا شرف ينبغي المحافظة عليه» . فأجابها الكونت بأنه وضع عبارة أخرى إيضاحاً للمادة المذكورة ، فقالت الإمبراطورة : «نعم تريدون أن تضعوا مادة تعرفون بها أن الحبشة

تابعة لكم ولكن هذا لا يكون أبداً ، إن الحبشة لا تقبل حماية أحد» فتأثر الكونت انتونللي من هذا الكلام ، وقال : «إذاً فلتضع جلالة الإمبراطورة هذه المادة» . فقالت تايتو : «نعم سيكون ذلك» . وبعد هذه الجملة القصيرة انصرف كل إلى سبيله .

وبعد بضعة أيام اقترح الكونت انتونللي على الإمبراطور أن يكتب كتاباً لطيفاً سلمياً إلى ملك إيطاليا بخصوص المادة المختلف فيها ، فأبى ذلك لممانعة الإمبراطورة وأرسلت إلى الكونت مادتين قصيرتين .

مادة (1) : إن المعاهدة التي عقدت في اليوم الثاني من مايو (مايس) من سنة 1889 تعتبر لاغية ومفسوخة .

مادة (2) : إن إمبراطور الحبشة يتعهد لملك إيطاليا بأنه لا يتنازل قط لأي حكومة كانت من حكومات أوربا أو غيرها بأرض من مملكته ولا يقصد معاهدة معهم ولا يقبل حماية قط .

فلما وصلت هذه المسوَّدة إلى الكونت اعتبرها كأنها إعطاء الجواز (تذكرة مرور أو بسابورط) له فقطع جميع صلاته وعاد إلى بلاده .

أديس أبابا

يوم الأحد 13 يونيو / حزيران

مقابلة الإمبراطور الخصوصية والوداع ـ
المحبوس وحارسه في حديد واحد ـ الهدايا الإمبراطورية

اليوم صباحاً ورد أحد رجال رأس ولدي لإهدائنا السلام من قبله والسؤال عن صحتنا وأحوالنا وفي الساعة الثانية (عربي) ركبنا البغال إلى القصر ومعنا جمع غفير من الجنود والخدم وتقابلنا نحن والموسيو ايلغ فدخلنا لمنزله وترجمنا الكتاب السلطاني إلى اللغة الفرنسوية ليترجمها الموما إليه إلى اللغة الأمحرية فيما بعد ، وبعد أن أتممنا هذا العمل ذهبنا إلى قصر النجاشي ، فأدخلنا إلى قصر منفصل من دائرة الإمبراطورة بحائط ويسمى هذا القصر (شهلابيت) وقد رسمته بعدة الفوتوغراف التي كانت

معي حينئذ ، وهذا القصر الصغير مبني ومفروش على الطراز الشرقي وفي وسطه سرير يشبه أسرة النوم خاص بجلوس الإمبراطور عليه ، والقصر مفروش بالطنافس التي أهدتها الحضرة السنية السلطانية إلى جلالة النجاشي ، كما أن العرش كان مغطى بسجاد من الحرير وهي أيضاً من جملة الهدايا المذكورة ، وقد أراد الإمبراطور بذلك أن يرينا سروره من لطف الحضرة العلية السلطانية ، وبينما كنا في هذا البهو ننتظر أن يأخذونا إلى محل آخر يكون الإمبراطور موجوداً فيه إذ فتح الباب الكائن بين دائرة الإمبراطورة ودخل جلالة الإمبراطور للبهو فهرولنا لاستقباله ، فصافحنا مراراً يداً بيد بكل لطف وتعطف ففهمنا من ذلك أنه حضر لعندنا وأنه أعاد بذلك الزيارة لنا ، وبعد أن جلس على العرش أمر فخرج كل الموجودين في البهو ما عدا الموسيو ايلغ وأحد قرنائه ونزع قبعته عن رأسه ووضعها بجانبه علامة على أنه جعل مقابلة هذه المرة خصوصية غير رسمية ، وأشار إليّ أن أجلس على المقعد الكائن أمامه ففعلت ثم جعل فاتحة حديثه السؤال عن صحة الحضرة السلطانية المعظمة وانتقل بعد ذلك إلى الكلام عن الدير الحبشي الكائن في القدس ثم السؤال عن الصلات التاريخية التي كانت موجودة بين العالم الإسلامي والحبشة ، فأخذت أشرح لجلالته على وجه الإجمال المخابرات والمهاداة التي وقعت بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين النجاشي أصحمة ، وكيف أن المهاجرين المسلمين وجدوا أحسن قبول وأحسن حماية في الحبشة ، وأنه كان كثير من الأحباش مصاحبين لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، كما أنه يوجد ليومنا هذا كثير من الأحباش بوظائف سامية عند جلالة مولانا السلطان الأعظم بصفة مصاحبين ، فسرّ ذلك جلالته جداً ، وقال أنه يريد أ تكون الصلات الحسنة الحبية متصلة دائماً وأنه يحب رعاياه المسلمين كما يحب رعاياه الأمحريين بدون فرق .

وقد ظلت المقابلة نصف ساعة جرى الحديث في خلالها على مواضيع مختلفة ثم استأذنا من جلالته بالسفر إلى الساحل قبل أن يشتد هطول الأمطار في موسمه .

كان جلالة الإمبراطور اليوم لابساً قفطاناً من قماش الشام فوقه برنس وعلى رأسه قبعة من الكاستور موضوعة فوق الكوفية البيضاء وفي رجله نصف حذاء من الجلد الأصفر .

وبعد انصرافنا من القصر أخذنا في التجول بالمدينة لإعادة الزيارة إلى بعض من زارنا ، ولم نتمكن من إعادة زيارته البارحة فزرنا رأس قوقسا زوج بنت النجاشي ورأس تسما ، ورأينا في طريقنا حمامات حارّة معدنية أقيمت عليها أكواخ خشبية فالذي يريد يدخل إليها ويستحم بأجرة زهيدة جداً ، كما أن كثيراً من الناس يستحمون في الخارج مجاناً والماء كثير يجري ويذهب ضياعاً .

رأينا قرب منزل رأس قوقسا فتاتين مكبلتين من معصميهما بسلسلة واحدة من الحديد فسألت عما اقترفتاه من الذنب فقيل لي : إن الواحدة هي المذنبة ولذلك كبلت بالحديد والثانية موكلة بحراسة المحكوم عليه بالعقاب فربطت مع المجرمة لاعتماد سيدها على أمانتها لتمنع هرب المذنبة . أما أنا فلم أجد فرقاً بالمعاملة بين المذنبة والحارسة !!

وفي الساعة العاشرة رأينا موكباً آتياً إلى منزلنا ولما اقترب منا رأينا أحد أكابر المستخدمين ووراءه أكثر من ستين رجلاً يسحبون بضعة عشر بغلاً على كل منها البرادع الجميلة ، ولما وصلوا صعد إلينا رئيسهم ومعه عشرة من رجاله يحملون معهم الحراب والسيوف وكساوي رسمية (كساوي تشريفية) حبشية ففهمنا أن النجاشي أرسلها لنا هدية وعلمنا أن الرجل الكبير يسمى أتوغنا ووظيفته أمين ملابس جلالة الإمبراطور ، فأبلغنا التحية الملوكية ، وأخذ يعلق بيده الوسامات التي أنعم بها جلالة الإمبراطور على رجال الوفد السلطاني كل حسب رتبته ، كما أنه سلم لنا البراآت المكتوبة على رق غزال وسائر الهدايا الإمبراطورية ، وإليك بيان درجة الوسامات والكساوي الرسمية (أي الرتب) التي أهديت إلينا :

لي : وسام خاتم سليمان من الدرجة الأولى ، والكسوة الرسمية الخاصة بالرؤوس (أي أنه أنعم عليّ بهذه الرتبة) وتؤلف هذه الكسوة أولا من الكسوة نفسها ومن رمحين وسيف وترس وبغل خاص بركوب الإمبراطور مع برذعته .

لطالب بك : وسام خاتم سليمان من الدرجة الثالثة والكسوة الخاصة برتبة دزجماج (الكسوة ورمحان وسيف وترس وبغل من الإصطبل الإمبراطوري) .

لياسين جاويش : وسام يعطى للضباط فقط وأسلحة بيضاء وحصان ، كما أنه أرسل لكل من الجنود الخمسة الذين كانوا معنا بغلاً وعليه برذعة ، فلا تسل عن

سرور هؤلاء الجنود من هذا الإنعام وقد شربوا من مشروب (تيج) إظهاراً لسرورهم لأنه يندر جداً أن ينال الجندي من الإمبراطور بغلاً كمكافأة ، ظهر لي أن البغال هنا مرغوبة أكثر من الخيل .

وفي المساء حضر المتولي أعمال سفارة إيطاليا هنا وكتبة سائر السفارات لزيارتنا ، وأما سفير إيطاليا فإنه كان توجه إلى أوربا بينما كنا نحن في الطريق إلى أديس أبابا ، وتقرر أن نقوم من هنا يوم الثلاثاء القادم أي بعد نهار غد لذلك كنا مشتغلين بتجهيز ما يلزم لذلك .

أديس أبابا

يوم الإثنين 14 يونيو / حزيران

إعادة السفارات الزيارة ـ تقديم الأهالي العرضحال الشفهي للإمبراطور ـ هل هذه مظلة أم ترس ـ مقابلتنا مع رأس ماكونن

وفي صباح هذا اليوم ورد المستر هارينجتون سفير إنكلترا وسكرتيره الأول لإعادة الزيارة لنا ، وكنت أفكر قبل أن أصل أديس أبابا أن ننزل بالعودة غرباً إلى ساحل النيل الأبيض ونعود من هناك عن طريق فاشوده وأم درمان والخرطوم فالقاهرة فالإسكندرية بدلاً عن طريق جيبوتي الذي أتينا منه ، وقد فاتحت كثيراً من الناس الذين لهم علم بأحوال هذه الجهات فكان جوابهم كلهم بأنه ليس في الإمكان الآن الذهاب بهذا الطريق لكثرة الأمطار في هذا الموسم حتى أن سواحل نهر سوبات تستحيل إلى مستنقعات لا يمكن العبور منها ، ولكن لما أعلمه من جراءة الإنكليز وإقدامهم على مثل هذه الأسفار وعدم مبالاتهم بالأخطار وتحمل المشاق كاشفت المستر هارينجتون المومإ إليه بنيتي هذه فاستحسنها ، بيد أنه قال كما قال الآخرون من الصعوبة الموجودة من موسم الأمطار وبعد الشقة ، ثم قال : «إذا كنتم مصرّين على الذهاب من طريق النيل فإني مستعد للقيام بكل ما في وسعي في سبيل راحتكم في الطريق ، فإني أرسل الآن رسالة برقية إلى فاشوده ونستعلم عن مواعيد وصول وسفر الباخرة الصغيرة التي تمخر ذهاباً

وإياباً بين النيل وايتانغه الكائنة على ساحل سوبات» ، فشكرت هذا السفير اللطيف وعزمت على العودة إلى جيبوتي عن طريق عصبوت المتوسط بين طريق آدال وطريق جرجر ، إلا أنني تيقنت من إجماع كلام كل من أخذت رأيه في العودة عن طريق النيل أن ذلك غير ممكن وأن المواصلات منقطعة تمام الانقطاع بين النيل الأبيض وأديس أبابا ، مما يجعل السفر فيه من رابع المستحيلات ، وقد حسبنا مع المستر هارينجتون المدة الواجب قطعها من أديس أبابا إلى محطة الرفاص بعد مراجعة الخرط وتعيين الاتجاه فوجدنا أنه يلزم نحو 35 ـ 40 يوماً إذا كان الطقس جيداً ، وإذا أُسرع في السير وكانت الأحمال خفيفة فيلزم نحو ثلاثين يوماً .

وبينما كان المستر هارينجتون عندي جاء الموسيو لاغارد سفير فرنسا ومعه اليوزباشي موسيو مارتن ده كان والملازم موسيو قوللات وكلاهما من موظفي السفارة العسكريين (ملحق حربي) فشاركونا في بحثنا بخصوص السفر بين أديس أبابا والنيل فصادقوا على كلام المستر هارينجتون وعلى أرجحية وجوب السفر من طريق العصبوت .

وبعد الظهر ذهبت إلى منزل رأس ماكونن وبينما كنت في الطريق رأيت نفراً من الناس نحو خمسين رجلاً واقفين على ربوة إزاء القصر الإمبراطوري على بعد نصف ساعة منه وكلهم ينادون (جانهوي جانهوي) أي الإمبراطور الإمبراطور بأعلى أصواتهم ويتخلل الأصوات بعض كلام ما كنت أفهمه ، وبعد قليل ورد أحد رجال الحاشية وأخذ منهم عرضحالهم ، ولدى السؤال علمت أن هؤلاء الناس لهم مصلحة يريدون أن يعرضوها على مسامع النجاشي .

كنت وصفت في هرر المظلات ذات ألوان قوس قزح كما أني كنت تكلمت على بعض مظلات أخرى وطنية لا تغلق قط مصنوعة من عشب رفيع يستعملها هناك السيدات للزينة ليس إلا ، واليوم رأيت هنا مظلة غريبة وغليظة الشكل وأظن أنها صنعت لتمنع البَرَد الكبير الحجم ، وهذه المظلة مصنوعة من أعواد شجر طولها ذراع ونصف وعرضها ذراع وليس لها يد ، ويمسكها الإنسان من مقبض في وسطها كالترس وتقوم مقام آلة دافعة عن صاحبها إذا هاجمه وحش كاسر .

وصلنا إلى منزل رأس ماكونن فاستقبلنا من الخارج كوكبة من الجنود واستقبلنا الرأس بكل إكرام واحترام ، وأخذ يشرح لنا سروره من مقابلته لنا اليوم وأنه حضر

البارحة لزيارتنا في محل نزولنا ولكنه لم يجدنا ، وهذا الرأس على جانب عظيم من اللطف والإيناس والتواضع والورع ، شغف بإكرام الضيف ، وقدم الخدم لنا من المشروبات الوطنية والقهوة واللبن فشربنا البرز والقهوة وقد وجدت طعم العسل المعمول منه البرز نفيساً جداً يعادل طعم العسل الذي كنت أكلته في أنقرة ويشبه عسل الطائف أيضاً . ونفاسة هذا العسل ناشئة من جمع النحل من الزهور ذات الروائح العطرية . ولما علم الرأس أننا وجدنا البرز لذيذاً أرسل إلى منزلنا بضع جرات من غير أن نعلم ذلك .

وهذا الرأس قريب الإمبراطور وهو رجل مشهور بالذكاء والجرأة والإقدام والشجاعة وكلمته نافذة أكثر من كل الرؤوس ولذلك هو مرشح لأن يكون إمبراطوراً في المستقبل ، وهو رجل متوسط القامة نحيف الجسم وقور فاتح اللون طويل الوجه يلقي الرهبة والاحترام بقلب الناظر إلى سيماه .

والرأس ماكونن غني جداً ويميل لنشر العلوم والمعارف بين الناس وقد اشتهر بأنه سياسي محنك عظيم كما أنه جندي مقدام ، ولكونه زار مراراً أوروبا واختلط بأهلها له وقوف وإلمام بها ، وقد استجلب حب الأحباش واحترامهم له بما جبل عليه من الشجاعة والورع والتقوى ، كثيراً ما سمعت من جميع المسلمين الأحباش الذين رأيتهم وقابلتهم الثناء عليه ، وقد بلغني أن بعض رعاع اليونانيين في هرر كانوا في أثناء الحرب اليونانية العثمانية يؤذون المسلمين ويحتقرونهم والمسلمون يتحملون ذلك بكل مضض وصبر ، ولما حقت الكلمة على اليونان وانهزمت أمام الجنود المظفرة العثمانية قام المسلمون يزينون منازلهم ودكاكينهم ويدعون للحضرة السلطانية بمزيد النصر ، فلما رأى اليونانيون ذلك ذهبوا لعند الرأس ماكونن فشكوا أمرهم له وقالوا : إنما المسلمون يقصدون بذلك احتقارنا والحط بكرامتنا أمام الناس ، فأجابهم الرأس : «عندما كنتم تتعدون عليهم وتحتقرونهم ما كان أحد من المسلمين يرفع صوته ولا بكلمة واحدة ، ولما قاموا الآن يظهرون سرورهم بحق من غير أن يتعدوا عليكم أخذتم بالشكوى منهم إنكم لقوم معتدون» .

والرأس ماكونين متصف بالأخلاق الفاضلة الطيبة ولا يأكل ولا يشرب إلا باعتدال وكان يحب زوجته المتوفاة حباً عظيماً جداً ، حتى أنه لما توفيت عقد النية أن لا يتزوج من بعدها بأخرى ، ولما كلفته الإمبراطورة أن يتزوج إحدى بنات ابن أخيها

رأس وليه تمنع مدة ولكن لشدة إصرار الإمبراطورة اضطر إلى تزوجها وأتى بها إلى هرر فمكث معها سنة كأنه أب لها وكأنها ابنة له وفي ختام السنة أخذها معه إلى العاصمة محتجاً بأنه لا يصلح للزواج ، وعلمت أن الإمبراطورة اغتاظت منه لذلك جداً ، وعمره لا يتجاوز الخمسين وكان ذهب في سنة 1889 إلى إيطاليا ليوقع على عهدة (أوقسباللي) من قبل الإمبراطور ، فزار هناك محلات كثيرة وأكثر ما نبه أنظاره الأمور العسكرية والترتيبات والتعليمات الحربية . ويوجد تحت حكم الرأس في مقاطعة هرر كثير من الصوماليين والفالليين وقد كان حارب بهم جنود توسللي الطلياني وهزمه شر هزيمة في واقعة امبا الاجي وأظهر من الشجاعة في حصار ماكالله وواقعة ادووا ما يفوق الوصف ، بعد أن تكلمنا وتباحثنا في مواضيع مختلفة قمنا فمشى معنا إلى أن أوصلنا إلى الباب الخارجي أما رجاله وجنوده فإنهم رافقونا مسافة طويلة في الطرق والشوارع ، وعند رجوعنا إلى المنزل وجدنا بطاقة زيارة من البارون روشي حضر في غيابنا للزيارة وقيل لي أن هذا البارون كان يريد العودة إلى بلاده عن طريق النيل ، ولكنه الآن عدل عن ذلك وأنه سيذهب إلى الساحل بدلاً من النيل ، ووجدت بطاقة سفير روسيا الذي حضر لزيارتنا أثناء وجودنا عند الرأس ماكونين .

انتهينا هنا من وصف الإمبراطور والرأس ماكونين فيجب أن أسرد ما علمته في وصف بعض أركان وأعاظم الدولة الحبشية :

أمراء مقاطعة (شوا)

لما مات تانحلاماتيو حاكم مقاطعة (غوجام) انتقلت في بادئ الأمر كلّ أحكام هذه المقاطعة إلى ولده دازجماج بازاب وأعطي منها قسم صغير إلى رأس منكاشا آتيكم وقسم آخر إلى دازجماج دامس بن افانقوس .

رأس وليه لا كول

إن رأس وليه هو أخو الإمبراطورة تايتو ومن عائلة مشهورة في بلاد سه من مقاطعة

تيغرى ويحكم على مقاطعات (جنفييو) و (زوبريل) و (أده لا) و (غوبينو) و (تالانتا) ولهذا الرأس هيبة عظيمة في النفوس ووقار وهو مستبد في أحكامه حتى أنه ألقى الرعب والخشية في قلوب رعاياه ولا يحب أهالي تيغرى، ويقال أنه يأمل أن يكون إمبراطوراً على الحبشة بعد منليك، ومع ذلك هو يحب شقيقة الإمبراطورة وينقاد لها تمام الانقياد حتى أنه مع كرهه المشهور لأهل تيغرى زوَّج بنته الجميلة جداً حسب رغبة الإمبراطورة إلى رأس منغاشا يوحانس الذي هو من مقاطعة تيغرى، وهذا الرأس مشهور بأنه أعظم عدو للطليان .

رأس منغاسا اتكيم

وهو الذي أخذ قسماً من بلاد غوجام وينتسب لأكبر عائلة من عائلات صهيون التابعة لبلاد أمحرا، الرأس منغاشا حائز على تمام رضى الإمبراطور وثقته واعتماده، وله نفوذ عظيم وقدرة عجيبة، ويحكم غير بلاد صهيون الأراضي الكائنة على أطراف بحيرة (تسانا) مثل (بايهمه در) بني بيعه، خوانا وغيرها من البلاد، وسنه فوق الخمسين وله ثروة عظيمة ومشهور بالدهاء السياسي ومعروف بكونه رجلاً يرافق روح هذا الزمان، وقد حاز رضاء الإمبراطورة أيضاً، وله مكانة سامية جداً، ومع قلة عدد جنوده حضر واقعة ادووا في مقاتلة الطليان .

رأس قوقسا

وهو ابن أخت الإمبراطورة تايتو وزوج الأميرة وزروزور يتو بنت الإمبراطور من زوجته الأولى المتوفاة، وهذا الرأس شاب جميل الطلعة ذكي القلب والفؤاد، ويؤاخذه بنو وطنه بأنه يميل جداً إلى الجنس اللطيف، ولكن هذه المؤاخذة قابلة للسماح! والذي ليس عنه ميل إلى هذا الجنس فليستمر بمؤاخذته إن شاء، ويحكم الرأس قوقسا مقاطعة سيمن التي يتبعها بلاد وانهاغهم، سلمت، ايزاغادي، والده با، والقابت وغيرها من البلاد، ويحب الرأس قوقسا خالته حباً شديداً ويسير على أثرها

في الشدة بالمعاملات وقد حضر الحرب في ادووا .

رأس منغاشا ولد يوحانس

وهذا الرأس هو ابن الإمبراطور يوحانس الذي قتل في واقعة القلابات مع الدراويش ، وله شغف عظيم بالتزين وميل شديد للنساء ، وانهماك في الملاذ والترف ومع ذلك يتطلع دائماً لأن يتبوأ العرش الملكي على الحبشة حتى عقد عدةً مآرب مع الطليان سنة 1891 ، ولما انهزم الطليان أمام منليك وتثبتت أقدام الأخير في الإمبراطورية عاد والتحق بهذا الظافر ، ولكن منليك نفاه إلى أنقوبر وهو الآن مقيم بها ، وكان ابنه المسمى دجاج سيوم أشعل نار الثورة في مقاطعة تيغرى ليتوصل إلى تخليص أبيه وأتعب بذلك منليك ، ولكن الإمبراطور تمكن من استجلابه إليه وهو الآن مقيم في أديس أبابا .

العودة

15 يونيو/حزيران 1896

يوم الثلاثاء 15 يونيو / حزيران
مرحلة عقاقي

التلغراف والبوسته ـ الرجوع من أديس أبابا ـ مطر شديد

كنت قلت أننا عزمنا على القيام من هنا إلى الساحل هذا اليوم وقد أرسلت هذا الخبر إلى الآستانة على لسان البرق ، وللتلغراف من أديس أبابا إلى أوروبا خطان الأول خط الحكومة وهو الذاهب من العاصمة إلى هرر فدريدوه فجيبوتي فبريم فأوروبا وأجرة كل كلمة إلى أوروبا على هذا الخط خمسة فرنكات وإلى هرر ستون فضة صاغ وإلى جيبوتي ثلاثة قروش ، والثاني خط التلغراف الطلياني الذاهب إلى أسمرا ، حيث ينقسم إلى قسمين الواحد يذهب إلى مصوع ومن هناك إلى أوربا عن طريق بريم ، والثاني يربط عاصمة الحبشة بأوروبا عن طريق كسلا والسودان المصري والقاهرة والإسكندرية . والأجرة إلى أوروبا على خط مصوع ثلاثة فرنكات عن الكلمة واثنان وستون سانتيم وعلى خط كسلا ومصر فرنكان وخمسة وأربعون سانتيماً ، وأنا أرسلت تلغرافي على هذا الخط الأخير ، وللحكومة والسفارات الأجنبية برد تذهب وتأتي بين الساحل والداخل ، لكن لعدم تغيير الرجل الذي ينقل حقائب البوسته وبغاله أثناء

الطريق يحدث بطاءة في نقل البرد ، وقد تكلمت مع أحد السفراء بهذا الخصوص فأجابني : «عندما يعرف الأهالي في الحبشة قيمة الوقت ويقدرونه حق قدره حينئذ تؤسس خطوط بريد سريعة» .

حضر عندي صباح اليوم الموسيو ايلغ لوداعنا وبعد أن بلغني تحية النجاشي والإمبراطورة سلمني كتابهما لجلالة مولانا السلطان الأعظم ، وجوازاً خصوصياً مختوماً بختم جلالة الإمبراطور يأمر مستخدميه ورعاياه في طريقنا أن يكرمونا أينما نحل ونذهب ، ثم حضر الملحق العسكري في السفارة الفرنسوية وكثير من الأعيان وغيرهم لوداعنا .

كان ترتيب بغالنا والمكارية هذه المرة بواسطة أحمد أفندي الذي عمل كل ما في وسعه في سبيل راحتنا في الطريق ، كما أنه أخذ الشروط على المكارية أن يكونوا رهن إشارتنا وأن نمشي حسب رغبتنا لا حسب رغبتهم ، وقد عزمنا هذا اليوم أن ننزل بمنزل أحمد أفندي الموجود في (العقاقي) لأن المرحلة الأولى في الأسفار تكون عادة قصيرة فلذلك أرسلنا العفش والأمتعة إلى هناك قبل أن نقوم من هنا ، وكان هذه المرة بين البغال جملان وذلك لتحميل الحقائب الكبيرة المعمولة من الجلد لأننا وجدناها ثقيلة جداً على البغال ، خصوصاً وأننا سنذهب على طريق عصبوت الذي تمشي عليه الجمال بخلاف طريق جرجر .

قمنا اليوم الظهر إلى العقاقي المذكورة وقد ركبنا على البغال التي أهداها الإمبراطور لنا ، ولم نكد نسير قليلاً حتى أخذت الأمطار تنهمر واستمرت هكذا حتى وصلنا إلى العقاقي العصر ودخلنا في المنزل الموجود هناك انتظاراً لوصول العفش والصناديق والخيام التي صادفناها في الطريق فسبقناها ، وهذا المنزل عبارة عن كوخ كبير طوله خمسة عشر متراً وعرضه عشرة أمتار .

وجدنا في العقاقي بضعة نفر من الخدم والعبيد كان أحمد أفندي أرسلهم ليقوموا بخدمتنا ويجهزوا الطعام لنا ، وبعض هؤلاء العبيد يتكلمون اللغة الفاللية والبعض باللغة الأمحرية ، ووجدنا هنا كثيراً من المعز والبقر هربت إلى هذا المحل من كثرة الأمطار ، جلست على سد عالٍ أقيم داخل الكوخ وأخذت أنزه الطرف على ما حول الكوخ وأنظر العبيد المشتغلين بطهي الطعام وتنظيف بغالنا والجنود والخدم المشتغلين

بربط سيور طويلة من أحد عواميد الكوخ إلى آخر لينشروا عليها أرديتهم المسماة (شما) المبتلة من المطر ، وكان معنا قردان من الجنس الصغير كان كل منهما محملاً على بغل ، فلما وصلنا إلى هنا وتركناهما أخذا يُظهران سرورهما من تلاقيهما وصارا يتعانقان ثم جلس الذكر يفلي الأنثى ، وقد ظننت نفسي من هذه المناظر الغريبة أني في سفينة نوح والمطر المتواصل بشدة ربما كان يشبه طوفان نوح ، وكنا كلنا أي جميع رجال القافلة مع بغالها تحت سقف واحد وهو سقف هذا الكوخ ، وسيرجع بعد يومين النظام والانتظام كما كان في الذهاب إلى أديس أبابا لأنه لا بد من حصول عدم انتظام في أول مرحلة .

وبعد قليل وردت الخيام ولكن لم ترد أعمدتها فلذلك نصبت خيمتي الصغيرة خارج الكوخ ووضعنا كثيراً من الحشائش المجففة على التراب المبلول داخل الخيمة ثم فرشنا عليها البساط وأخذت أجهز ما يلزم أن يكون معنا في اليوم التالي وأضعها في الحقائب الصغيرة .

كان طعامنا هذا المساء من لحوم البقر والعجول والدجاج والخضر والأرز ونوع من الفطير والحلويات ضمن علب من صفيح .

علمنا أن أحمد أفندي البارحة كان أقام هنا وليمة لمائتين وخمسين شخصاً خرجوا من العاصمة لاستقبال أحد الأعيان المسلمين ، فقام عبيد أحمد أفندي بخدمة كل هذا الجمع وإطعامهم فذبح لهم بضعة عجول وبضعة خراف ، وهنا يجب أن أقول إن الجواري السود في الآستانة في سعادة عظمى بالنسبة لحال الجواري هنا ولو رأى جواري الآستانة تعاسة هؤلاء لحمدن ربهن على حالهن مائة ألف مرة . إن الجواري هنا ليس لهن راتب لا سنوي ولا شهري فهن يشتغلن ويخدمن أسيادهن بغير أجر إلا ثوبين في السنة وما يأكلنه .

استمر المطر بشدته طول الليل ، وإنما لم ينفذ من خيمتي الصغيرة ولكن أقلق صوت سقوط المطر على الخيمة منامي فلم يتركني أنام براحة ، وقضيت الليل بالتكلم مع يس جاويش .

مرحلة (دوببي)

يوم الأربعاء 16 يونيو / حزيران

قمت من سريري قبل بزوغ الشمس وانتقلت إلى الكوخ فوجدت النيران مشتعلة وعليها القهوة واللبن فأخذنا نتناول القهوة واللبن ونفطر بينما كان المكارية يحملون العفش ، وورد كثير من الناس للوداع وكان بينهم أحمدأفندي وأبو بكر أفندي فودعناهم وأخذنا نسير ووجهتنا محل يقال له (دوببي) للمبيت فيه .

اضطرينا أن نسوق جمالنا من طريق طويل غير الطريق الذي نزل منه البغال في وادي العقاب لأنه يصعب على الجمال السير فيه ، وكان الطريق كثير الأوحال حتى أن البغال كانت تغرز رجليها قريباً من الركبة في الوحل الذي كان لزجاً مثل الصمغ فيلصق بعض الأحيان على رجل البغل ، فيكون كأنه قطعة واحدة مع رجله ، إني لم أرَ في عمري تربة جيدة قوية لزجة كهذه . وصلنا بعد مشاق وصعوبات عظيمة إلى (تيحكى دنسا) الساعة الثانية بعد الظهر ونزلنا قرب نهر صغير وتحت ظل شجرة كبيرة لتناول طعام الغداء ، ولم يمضِ قليل إلا وورد كثير من نساء وبنات القرويين الأحباش لبيع ما معهن مثل الطاللا والخبز والشعير والدقيق وغيره ، وقد وضعن هذه الأشياء في أجربة من جلد الماعز وقد رغبن أن يأخذن ثمن ما يبيعنه لنا خراطيش بنادق بدل الدراهم فاشترينا شعيراً لأجل البغال ودقيقاً وخبزاً لأجل الجنود والخدم ، ويستطيع الإنسان أن يشتري ثلاث أقات من خبز اينجرا بخرطوشة واحدة من خراطيش بنادق (غرا) .

وبينما نحن كذلك إذ أخذت الغيوم تتلبد ثم لعلع البرق وقصف الرعد وأحاطت بنا الحشرات والهوام مثل أبو دقيق والخنافس والنمل والعناكب وما أشبه من كل جانب حتى كادت تدخل في حقائبنا الصغيرة ، ولم يمضِ إلا بضع دقائق حتى أخذت الأمطار تهطل فمكثنا هنا ساعة ونصف ساعة ثم استأنفنا السير ، وكانت البغال الحاملة للعفش والصناديق قد مرت من النهر عندما نزلنا نحن هناك للاستراحة ، وأمرتُ المكارية وقتئذ أن يستمروا بالسير دون أن يقفوا في محل ، وأننا سنلحق بهم بعد قليل ، ولكن لما عبرنا

النهر وسرنا قليلاً وجدنا هؤلاء المكارية أنزلوا الأحمال عن البغال ونزلوا هناك خلافاً للأمر ووضعوا الصناديق فوق بعضها وأرسلوا البغال ترعى في المراعي وجلسوا هم يستريحون تحت الخيم ، ظن هؤلاء أني إذا وجدتهم على هذا الحال لا يمكن أقول لهم قوموا لنسير والمطر نازل فيكونوا على زعمهم قد فازوا بالاستراحة في محل جميل مثل هذا ، لكن لما وصلت لعندهم قلت لهم بجد (إنكم نزلتم في غير محل النزول فهيا بنا إلى دوي التي هي أمامنا فها أنا سابقكم إليها ، فعليكم أن تلحقوا بي من غير مهل) وبعد أن قلت ذلك سرت إلى الأمام فاضطر المكارية أن يحملوا البغال ويستأنفوا السير ولو لم أصنع هكذا لتمردوا فيما بعد فلا أتمكن من تنفيذ كلمتي بينهم . سرنا ساعة ونصف ساعة ووصلنا إلى (دوسي) فجلسنا هناك على صخور مرتفعة وعلينا ملابس المطر (المشمع) وبأيدينا المظلات ننتظر وصول البغال والأحمال والخيام ، وبعد قليل وردت البغال ولكن تأخرت الجمال فأرسلنا من يستعجلها .

اصطدنا هنا إوزة برية بقدر الديك الرمي (الحبشي) ولم نجد هنا من الحطب ما يكفي لتسخين طعامنا فاضطررنا أن نحضر طعاماً على جلة البقر ، ثم وصلت الجمال بعد الغروب فنبهت على الجمالة أن يجعلوا قيامهم بعد الآن قبلنا فقام الجمالة مبكرين وقمنا نحن الضحوة الصغرى ، لم ينقطع أصوات الذئاب والضباع طول هذه الليلة من أطرافنا ولكنها لم تكن لتجرأ على الاقتراب لوجود النار مع ضعفها ، وكانت قافلة أخرى نزلت قربنا فخرج أحد بغالها عن دائرة المنزل أي النيران فهجمت عليه الذئاب وقطعت من فخده قطعة كبيرة ولم ينج من أنيابها إلا بصعوبة ورأيت هذا البغل بعيني .

مرحلة منابللا

يوم الخميس 17 يونيو / حزيران

القرود-الأجران-(البيادر) عند الأحباش

وصلنا قبيل الظهر إلى رأس نهر (جنقوره) الأول اعتباراً من جهة (بالجي) وجلسنا ننتظر بغال الأحمال التي تخلفت وراءنا وأرسلنا بغال الركوب إلى المراعي لترعى

وجلسنا نحن على مرتفع من الأرض قليلاً فتناولنا طعامنا وأخذنا نستريح قليلا وبينما نحن كذلك إذ ورد علينا رجل حبشي وبيده ربابة ذات وتر واحد وجلس أمامنا وصار يضرب عليها فقمت وأحضرت عدة الفوتوغراف لأخذ رسمه فسرّ لذلك جداً وزاد معه الشوق للغناء فأخذ يغني ظناً منه أن العدة تأخذ في آن واحد رسمه وصوته ، واستأنفنا السير بعد ساعة فوصلنا إلى نهر (بوركا) الساعة الثانية بعد الظهر ونزلنا تحت الشجرة التي كنا نزلنا تحتها في الذهاب إلى أديس أبابا للاستراحة والاستظلال ، وبينما نحن جالسون هنا إذ وردت أسراب من القرود على الشاطئ الآخر من النهر لتشرب فلما رأت القردين معنا صارت تصرخ بأصوات عجيبة فكأنها كانت تحرض قرودنا على الفرار ، لأن هذين القردين لما رأيا القرود الأخرى وسمعا أصواتها أظهرا الرغبة بالتخلص من السلاسل والجري نحوها .

مكثنا هنا مدة ثم قمنا نسير بعد أن أخذنا حاجتنا من الماء اللازم لنا أثناء الطريق ضمن صفايح ، واصطدنا هنا أربعاً من الدجاج البري المسمى (بيج) بطلقتين ، والصيد هنا كثير جداً من الإوز والدجاج البري والغزلان والأرانب فلذلك ما كنا نرضى أن نصطاد بطلقة واحدة مصيداً واحداً ، ولما وصلنا إلى أول قرية من قرى (منجار) رأينا منظراً غريباً ذلك أن بعض القرويين الأحباش كانوا يشتغلون بدرس ما حصدوه من الغلال الموجودة في الأجران فكان الجرن (البيدر) مؤلفاً من دائرة صغيرة يدور عليها نورج مصنوع من بضعة قرون من قرون البقر وعلى الجرن جملة من الفتيان والفتيات بيدهم العصي ينطون ويحركون رؤوسهم إلى الشمال وإلى اليمين ويضربون حزم الغلال الموجودة بأيديهم وهم يغنون كلهم بصوت واحد ، فوقفنا نتفرج على هؤلاء مدة وأخذنا رسمهم بعدة الفوتوغراف ثم استأنفنا السير ووصلنا قبيل الغروب إلى منابللا حيث نزلنا للاستراحة قليلا .

مرحلة تاديجامالكا

يوم الجمعة 18 يونيو / حزيران

لعدم وجود الماء في المسافة التي سنقطعها من هنا إلى أن نصل إلى (تاديجامالكا)

اشترينا قدرة من القدور التي تسع أربعين أقة من مشروب (طاللا) وخصصناها للخدم والجنود وأعطيناهم قدحاً من الزجاج لأجل الشرب بها ولكنهم استصغروها لأنهم يريدون أن يشربوا من فم القدرة حسب استطاعتهم كما أن كل واحد منهم يريد أن يكون أول الشاربين ، ولكن يس جاويش جمعهم وأوقفهم كما يوقف الجنود على نظام واحد وصار ينادي كل واحد بدوره ويسقيه ، فكان البعض منهم لا يريدون أن يفارقوا القدرة ، ولم يمضِ بضع دقائق حتى فرغت القدرة ولم يبقَ فيها شيء ، وحبّ هؤلاء الأحباش لشرب (طاللا) و (تج) يفوق حب الألمانيين لشرب البيرا .

وصلنا قبيل الظهر إلى (جوبا)فألفينا كوخاً فيه موظفاً من قبل الحكومة وظيفته رؤية جوازات المسافرين ، فلما رأى جواز الإمبراطور الخصوصي المختوم بختم الإمبراطور الكبير وضع يديه على صدره وانحنى حتى وصل رأسه إلى الأرض تقريباً ، فرشنا البساط هنا تحت ظل بعض الأشجار وجلسنا للطعام والراحة ، وبعد قليل وصلت بغال الأحمال وكانت على جانب عظيم من التعب ومن قلة الماء وشدة الحر ، وقمنا من هنا قاصدين نهر (تاديجامالكا) فوصلنا مساءً ، ولا تسل عن حالة البغال التي أنهكها التعب وعدم شرب الماء حتى أنها لما وردت الماء ظننت أنها ستشرب طول يومها وليلها ، وأما القرود التي كانت معنا فكان واحد منهما معنا فكنا نعطيه من حين لآخر شيئاً من الماء ومع ذلك لما رأى النهر صار يصرخ كمن مسه الجنون وألقى بنفسه في الماء وصار يشرب ، وأما رفيقته وهي الأنثى فإنها كانت بقيت مع الأحمال فلم ينتبه إليها أحد فماتت من العطش .

واضطررنا أن نصعد من هذا الوادي إلى سهل جبلي يبعد سبعمائة متر عن الماء فنزلنا في محل فيه حاجتنا من الحشائش والنباتات الجافة ، وبعد أن نزلنا الأحمال عن ظهور البغال أرسلناها ثانياً إلى النهر لتشرب الماء براحة لأن البغال كانت في غاية من التعب مع قلة الشعير معنا وقلة المراعي فاضطريت إلى البقاء هنا لحد الظهر من نهار غد ومع ذلك كنا نقطع في سيرنا ضعف المسافة التي كنا نقطعها في الذهاب إلى أديس أبابا وذلك لنتمكن من الوصول إلى جيبوتي في أواخر شهر يونيو (حزيران) حتى نركب الباخرة التي ستقوم منها في أواخر هذا الشهر ، ولا نضطر للانتظار في جيبوتي خمسة عشر يوماً ولا يخفى أنه يصعب على الإنسان أن يقضي

يوماً واحداً في الثغر المذكور من شدة الحر ، فما بالك إذا كنا مضطرين لمكث نصف شهر حيث يمضي اليوم على الإنسان كقرن .

عصفت الليلة رياح شديدة فلم نتمكن من نصب الخيمة الكبيرة فاكتفيت بالخيمة الصغيرة وقد أمطرت السماء طول الليل ، وكان فكري مشغولاً جداً لعدم وصول جمالنا من المحل الذي تنزل فيه ، وفي الليل ضاع أربعة من بغالنا ثم اهتدى إليها المكارية بعد البحث .

ثعبان سام ـ عقرب سام

يوم السبت 19 حزيران / يونيو

صباح اليوم وصلت جمالنا فسقنا جميع البهائم إلى الأمام إلى محل كثير الكلأ ، نعم كنا أعطينا للبغال من المساء شعيراً ولكن رأيتها مع ذلك محتاجة للرعي ، وليس من عادات هذه البلاد أن يعطوا البهائم شعيراً ، ولطول المسافات التي كنا مضطرين لقطعها رأينا من الحكمة أن نعطي عليقاً من الشعير . أمرت اليوم الخدم والجنود والمكارية أن يخبزوا خبزهم ويجهزوه قبل الظهر لأننا عزمنا أن نقوم من هنا بعد الظهر ونقطع مسافة كبيرة فلذلك يجب أن يكون الطعام جاهزاً حتى لا يعيقنا في سيرنا ، وكان الأرز الذي طبخه الطاهي اليوم كأنه معالج بعصير القوطة (بندوره) من تعكير المياه لشدة الأمطار كما أن الخبز كان أخذ لون الطين ، ولم يكن معنا ماء غير عكر سوى صفيحة من ماء بوركا فخصصناها للشرب واضطرينا أن لا نأخذ منها إلا عند الاحتياج الشديد .

لما كنا ذاهبين إلى أديس أبابا أضعنا هنا بغلاً والآن وجدناه عند أحد الأحباش القرويين أبقاه عنده لحين رجوعنا فاستلمنا البغل وأعطينا الرجل شيئاً مكافأة له على حفظ البغل عنده ، وكان سمن وبطر من عدم وجود أشغال يقوم بها أو أحمال يحملها فلما رأى هنا أحمالنا وصناديقنا أراد أن يهرب ، ولكنه لم يجد لذلك سبيلاً وأخذ ينظر إلى الأحمال شزراً وبعد الظهر حملنا الجمال وسيّرناها قبل قيامنا بساعتين ونصف الساعة ، وقمنا العصر نسير ومعنا بغال الأحمال ، وقبل قيامنا أتى المكارية والخدم بمقدار من دقيق السمسم ثم جعلوا فيه الماء حتى أشبه بالبوزا المعلومة فشربوها

كلها وعلمت أن هذا المشروب يدفع الجوع والعطش في آن واحد ، وقد اشتدّ الحر على طريقنا فعطش رجالنا خصوصاً الخدم ، وكانوا كلما مر بنا مسافر يسألونه هل أمامنا ماء لأنهم ليسوا بمعتادين أن يحملوا الماء في كيزانهم بل يشربون عندما يجدون الماء ، ويصبرون على العطش إذا لم يجدوه .

وصلنا إلى (فنطاللي) عند الغروب فوجدنا هناك قليلاً من ماء المطر المجتمع في بعض حفر الوادي فشرب رجالنا منه ولم يمنعهم ركود الماء ووجود الحشائش فيه من الشرب لأن معدة هؤلاء الناس متناسبة مع سائر أقسام جسمهم ، فالشمس مثلاً لا تضربهم وجروحهم تبرأ بسرعة ومعدتهم تهضم كل شيء حالاً ، وإنما يخافون من الحشرات السامة جداً ، لأن حشرات هذه البلاد مؤذية جداً بل هي قتّالة ، وقد حدث اليوم قبل أن نقوم من محل نزولنا أن الرجال الذين كانوا قرب محل المطبخ أخذوا يصيحون وهم يكررون كلمة (غند غند غند) ، فهرولت لاستطلاع الخبر فعلمت أنهم وجدوا عقرباً كبيرة فقتلوها ، وقيل لي إن هذا الجنس من العقارب يقتل الإنسان عقب لسعه إياه أي أنه سام جداً ، ولونه مائل للصفرة ، وكنت رأيت من جنسه في (وان) وسمعتهم يقولون هناك إنه سام جداً .

دهمنا الليل ونحن في الطريق ، فلشدة الظلام الحالك اضطررنا أن نوقد الفانوس فحمله أحد الخدم ومشى أمامنا واستمرينا هكذا حتى أشرق القمر وأنار الفلوات والغياض بنوره ، ونزلنا في الساعة الرابعة بعد الغروب في محل كثير الكلأ والنباتات بعيد عن المحلات المسكونة ، واقع في الخلا ، ولشدة هبوب الرياح اضطررت أن أصرف النظر عن نصب الخيمة الكبيرة والاكتفاء بالخيمة الصغيرة فوضع بركن منها سريري وبالركن الآخر سرير طالب بك ، وكلفنا يس جاويش أن يفرش لنفسه في وسط الخيمة وينام هناك ، ولكنه لم يشأ ذلك بل نام خارج الخيمة ، وكان طالب بك وضع فردة من جعبته الصغيرة (الخرج) وراء محل وضع الوسادة حيث أسند سريره عليها ، فكنا نسمع طول الليل حركة خفيفة وراء الحقيبة فظننا أن الرياح تخبط بذيل الخيمة على الحقيبة ولم نعلم السبب الحقيقي إلا في الصباح حيث وجدنا بين السريرين ثعباناً ذا سم شديد فلما رآنا انسل إلى وراء الصندوق وبينما كنا نشتغل لإخراجه من هناك عثرنا على عقرب من الجنس الذي رأيناه البارحة فقتلناها كما قتلنا

الثعبان ، وعلمنا من ذلك أننا نزلنا في الظلام في محل فيه أوكار هذه الحشرات المؤذية فكان الله حافظاً لنا ، كما أن يس جاويش أصاب جداً في عدم الرضاء بالمنام داخل الخيمة على الأرض ، ووصلت جمالنا بعدنا بخمس ساعات فأمرنا بأن تستمر في سيرها إلى (قاجانواها) بدون أن يقفوا هنا .

مرحلة قارابا

يوم الأحد 20 يونيو / حزيران

قمنا اليوم صباحاً ولما وصلنا إلى نهر آواش وجدناه متعكّراً جداً ، فلم نشأ النزول بل مررنا من الجسر واستمرينا في السير وكان اليوم حارّاً جداً ولما جاوزنا نهر آواش زاد الحر حتى صار لا يطاق فلذلك كنا مجدين في المشي لنصل بسرعة إلى (قاجانواها) .

وصلنا بعد الظهر بساعة إلى المحل المذكور الذي كان بطراوته وأشجاره ومياهه كالجنان في جوار جهنم فأخذنا في الحال نغسل وجوهنا وأيدينا بمياه النهر الباردة الجارية تحت الأشجار الباسقة ذوات الظل المنعش ، فالإنسان الداخل إلى دمشق الشام بعد قطع صحراء الديماس القاحلة ذات الحر الشديد يحس بالطراوة المنعشة للأبدان عندما يصل إلى الربوة وتتبدل حالته سريعاً من ذبول إلى نشاط كذلك كان حالنا عندما وصلنا إلى هذا المحل بعد أن قطعنا تلك السباسب والفيافي الحارة وبعد أن عانينا أشد العذاب من شدة الحرارة وقلة المياه ، نعم إن هذه الأراضي لا تشبه ربوة دمشق من حيث اللطافة الطبيعية لكون الأراضي هنا مسطحة ولكن لا فرق بينها وبين تلك من حيث الطراوة ، كنت ترانا لا نفارق شاطئ النهر ، كل منا جالس تحت ظلال الأشجار مشغول بشيء من الأشغال ، وأما البهائم فإنها بعد أن شربت كثيراً وارتوت أخذت ترعى والطاهي بعد أن جهز طعام الغداء جلس يشتغل بطهي طعام العشاء وإحضاره والخدم والجنود ذهبوا فأخذوا في غسل ملابسهم ونشرها في الشمس ، أما أنا فإني نزلت إلى النهر واغتسلت بالليف والصابون جلسنا هنا أربع ساعات بعد أن كنا مصممين على المكث ساعتين فقط وقمنا قبل ساعتين من الغروب وتركنا هذا المحل وفي القلب حسرات من فراق الماء .

سرنا ساعتين في طريق جرجر (وهو الطريق الذي كنا أتينا منه إلى أديس أبابا) ثم تركنا هذا الطريق وعواميد التلغراف على يميننا ودخلنا في طريق عصبوت (وهو الطريق الجديد الذي اخترناه بالإياب إلى جيبوتي) وكان الظلام أقبل علينا فما كنا نرى الطريق كما يجب ومع ذلك كنا نتمكن من رؤية الأشباح ، فالأراضي مستوية مسطحة مستورة بالحشائش الناشفة والخضراء معاً وأشجار قليلة نصادفها هنا وهناك .

وفي الساعة الثانية بعد الغروب سمعنا طلقتي بندقية من الأمام فعلمنا أننا وصلنا إلى ماء ، وهنا يجري نهر صغير يسمى (قارابا) ينبع من محل يبعد من هنا مسافة مرحلة واحدة وينصب في نهر آواش ، مررنا حسب العادة من النهر ونزلنا في محل كثير الخضرة والكلأ على الضفة الأخرى تبعد خمس دقائق من الماء ، وبعد أن تعشينا على نور القمر ذهب كل منا إلى خيمته للنوم والاستراحة وكان الجو وقتئذ صحواً والطقس جيّداً والهواء عليلاً ، ولكن أخذت الأمطار بعد نصف الليل تسقط بشدة لا مثيل لها ، ولم تنفذ مياه الأمطار من الخيام ولكن دخلت من أطرافها من تحت فصار داخل الخيمة كمستنقع ، وابتل كل ما هو موجود على أرض الخيمة من أمتعتنا ، وكنت أنا في سريري فلم يصل الماء لعندي ، ويس جاويش الذي لا يحب أن ينام على السرير ندم هذه الليلة ندماً كبيراً على ذلك وجلس على صندوق صغير وقضى طول الليل عليه ، أما الخدم والجنود الذين كانوا ناموا في الخارج تحت السماء فإنهم ظلوا نياماً رغم شدة الأمطار وكان كل واحد منهم واضعاً رأسه على رحل من رحال البغال فكنت تجد المياه تجري من كل جانب ومن تحتهم ومن فوقهم وهم نائمون غير دارين بما هو كائن ، وقد تلف كثير من ذخائرنا التي كانت في الصناديق مثل السكر والملح والدقيق وما أشبه .

مرحلة لقامعو

يوم الاثنين 21 يونيو / حزيران

قبائل الايتو يتزوج الواحد منهم ثماني نسوة ـ مطر شديد.

كنت في الليل وضعت مقداراً من الفاصولية ضمن جردل ليبتل وأوصيت الطاهي

أن يطبخه لأجل الخدم والجنود ، وكان هؤلاء يعلمون ذلك فلما أصبحوا أخذوا الفاصولية من الجردل ووضعوها على قصعة كبيرة وجلسوا على أطرافها وأخذوا يأكلون الفاصولية وهي نيئة كما يأكل الإنسان الحمص المقلي ، ولم يمضِ بضع دقائق حتى أكلوها ولم يذروا منها حبة واحدة .

ما كنت تمكنت من رؤية الأراضي في هذه الجهات من الظلام ، والآن وجدت الأراضي كلها خضراء على مد النظر ، وكلها مستورة بالأدغال والعوسج ، وأما الأشجار فإنها كانت قليلة ومتفرقة ، وجدت هذه الأراضي قابلة للعمران وللسكن ، قمنا من هنا الضحى وأخذنا نسير في أراضي تشبه الأراضي التي وصفتها الآن ، وإنما كان يقاطعنا من حين إلى آخر تلال صغيرة غير عالية خفيفة الميل ، وهنا يصادف الإنسان بعض الزنوج المعروفين باسم (ايتو) وهذه الطائفة لا تقطن محلاً واحداً معلوماً ، بل إنها ترحل دائماً من محل إلى آخر بمواشيها وأحمالها ، ويتعيشون بألبان سوائمهم ويسترون عورتهم بقطعة قماش (فوطة) ويضعون فوق الكتف أيضاً فوطة أخرى ويتركون ما بقي من أجسامهم عارياً عن الملابس ، وهم متوحشون تقريباً ومنظرهم مخيف ولا يدينون بدين وعندهم تعدد الزوجات حتى أن الرجل يمكنه أن يتزوج بقدر ما يستطيع على إعالته من النساء ، أي أنه إذا شاء أن يتزوج ثمانياً في وقت واحد فله ذلك ، وأسلحتهم عبارة عن حربة بيدهم وخنجر يحملونه في أوساطهم ، وهؤلاء الناس ليسوا من الأحباش بل إنهم قوم مستقلون بالجنسية عن غيرهم .

وبعد الغروب بساعتين أطلق عثمان أحد الجنود وكان سائراً أمامنا بندقية إشارة إلى أننا وصلنا إلى الماء ، فنزلنا هناك ، ولكن علمنا في ما بعد أن هذا المحل ليس قريباً من الماء كما توهم عثمان الذي لا أخاله إلا تعب وأراد أن ينزلنا ليستريح هو وبغله ، فاضطرينا أن نرسل الخدمة ليأتونا بالماء بالصفايح من النهر الذي كان اسمه (لقامعو) تناولنا عشاءنا ثم ذهب كل منا إلى السرير طلباً للراحة والنوم وجلس النوبتجية على أطراف النيران المشتعلة يحرسون القافلة .

وفي الساعة الرابعة بعد الغروب نزلت الأمطار منهمرة ولكن هذه المرة لم تدخل المياه في الخيمة لأنني كنت من المساء جعلت الخنادق التي تقام على أطراف الخيام

عميقةً لتمنع دخول المياه إلى الخيمة .

في الأحراش

يوم الثلاثاء 22 يونيو / حزيران

لقامعو - مياه مولون - حيوانات برية كثيرة - رفص من البغل - ضعنا في الأحراش.

كانت الشمس اليوم تشرق مرة وتغيب أخرى تحت جنح الغيوم ، وأما أمطار الليل الشديدة ، فإنها بلّت أكثر حوائجنا حتى أن أغلب الخراطيش التي كانت معنا انتفخت من الرطوبة فصارت لا تدخل في البندقية ، لذلك فحصناها كلها فحصاً دقيقاً لنعلم الرديء من الطيب ولم يكن معنا من الخيام الحبشية إلا واحدة أتينا بها من أديس أبابا والباقي كانت كلها من صنع الآستانة فلذلك ما كانت تتحمل شدة أمطار هذه البلاد .

جلسنا للطعام وجلس أيضاً الجنود والخدم في محل آخر ليأكلوا طعامهم الذي كان مؤلفاً من عصير الفلفل الأحمر حيث يغمسون الخبز ويأكلونه ، انتظرنا هنا إلى قريب الظهر لتجف خيامنا وملابس خدمنا وجنودنا ، ثم استأنفنا السير فوصلنا بعد ساعة ونصف إلى ماء (لقامعو) فعلمنا حينئذ أن الماء الذي أتى به رجالنا البارحة كان من بعض غدران تجمعت فيها مياه الأمطار .

ونهر لقامعو ينبع من جبال (جرجر) وينصب في نهر آواش ويكفي ماؤه لإدارة حجر طاحون ، وكان سيرنا من (جوبا) في أراضٍ غير مسكونة وخالية من الزرع ، فما كنا نصادف في طريقنا ضياعاً ولا قرى ولا مزارعَ ، وبعد ساعتين ونصف وصلنا إلى نهر مولون الذي ينبع من (قوني) ويجري نحو أراضي (أوغادن) ويغور هناك في الرمال ولا يمكن أن أصف ما تعطيه المياه الجارية هنا للإنسان من الانشراح والسرور ، لأن هذه الأراضي قاحلة جرداء ، نزلنا على ضفاف نهر (مولون) وتناولنا غداءنا تحت الأشجار الجميلة ، وكان منظر النهر جميلاً جداً يشرح الصدر لسرعة جريانه وطيب صوت خريره مع الطراوة .

أعطى يسن جاويش إلى إدريس أحد خدمتنا الذي كان واقفاً بالقرب منا قليلاً من البقصماد وخشاف قمر الدين وزيتون وصوجق . ولكن إدريس الذي لم يتعود أكل مثل هذه الأطعمة أكل أول كل شيء الصوجق وحده ثم شرب الخشاف ثم تناول البقصماد وانتهى ببلع الزيتون كأنه يأكل عنباً .

قمنا من هنا العصر وقد تغيرت طبيعة هذه الأراضي بعد أن بعدنا من النهر حيث أخذت النباتات الخضراء تقل بالتدريج كما أن الأشجار قلّت ، وكنا نرى عن بعد كثيراً من أسراب الغزلان والأرانب تجري على أطرافنا حتى كان بعض الذئاب تمر على بعد قليل من القافلة غير وجلة وقد اصطدنا ما يلزم للعشاء من الطيور والدجاج البري الذي كان هنا بكثرة .

ولما كنا نازلين على ضفة النهر قبل قيامنا ، كانت بغالنا مرت بنا واستمرت بسيرها وأوصينا البغالة أن ينزلوا وقت الغروب في المحل الذي يكونون فيه إذا لم نلحق بهم إلى ذلك الوقت .

وبينما كنا نصطاد ونجري وراء الطير في الغابات تهنا عن الطريق وكان ذلك قرب الغروب حيث أخذ الظلام يمد أجنحته فزادت حالنا إشكالاً ، فلم نتمكن من رؤية أثر الطريق الذي يمشي عليه الناس وصار كل من الجنود الذين معنا يشير علينا باتباع جهة ، وكان بعض أشجار هذه الغابة التي نحن فيها كبيرة وأرضها متماوجة أي أنها ذات مرتفعات ومنخفضات ، وأردت أن أترك الطريق وأتوجه إلى جهة كنا سرنا نحوها ولكن لم نتمكن من ذلك لكثرة الشوك والأدغال التي كانت حائلة ومانعة لمسيرنا واستمر الحال معنا هكذا إلى الساعة الحادية ونصف بعد الغروب ، فلم نعثر بالطريق فأخذنا بإطلاق البارود حتى نسمع قافلتنا فيجيبوننا ونعلم حينئذ الجهة التي يجب أن نسير نحوها وأصعدنا بعض الجنود على الأشجار العالية فصاحوا بأعلى أصواتهم فلم يسمعنا أحد وأردت أن أعلم هل كان الجنود والخدم الذين كانوا معي يعلمون الطريق أم لا ، فأخرجت خريطة الجيب والبوصلة فوضعتهما على شكلهما الطبيعي ثم أخذت أعين تقريباً النقطة التي نحن فيها على نور الشمعة ، فسألتهم عن الجهة الواجب اتجاهنا نحوها فأروني بأيديهم جهة من الجهات ، فعلمت انهم يمكن أن يعرفوا الطريق عند بزوغ النهار وعزمت على قضاء الليل في الغابة ونزلنا تحت شجرة جسيمة

وربطنا بغالنا على جذوعها ، وذهب أبو بكر ورفاقه الجنود وأتونا بكثير من الحطب والحشائش الجافة ، فوضعنا بعض الحشائش على الأرض ثم فرشنا عليها البسط التي كانت معنا ورحال البغال ، ووضع جانب من الحشائش أمام البغال وأشعل الخدم النيران حولنا لندفع أذى الحيوانات الكاسرة التي كانت بكثرة في هذه الغابة ، وبعد أن أتممنا هذه الأعمال أحصينا الموجودين هنا فكنا ثمانية أنا وطالب بك ويس جاويش وأبو بكر وعمر وجمعه وحسن وإدريس ، وفحصنا بنادقنا فوجدناها على ما يرام وعندنا كثير من الخراطيش وبذلك اطمأن بالنا نوعاً ولو من جهة أذى الحيوانات المفترسة ، ولكن الذي أزعجنا عدم وجود شيء نأكله إذ لم يكن موجوداً في السبت الذي كان فيه أكل الظهر إلا قليلاً من خشاف العنب ضمن قارورة وقليل من البن ، ووجدنا غير ذلك علبه بسكويت في خرج يس جاويش وعلبة من مرق اللحم في حقيبتي ، وأما الماء فإنه كان متوفراً في كيزاننا . ومما زاد حالتي حرجاً الألم الذي كنت أحس به في ذقني وفي صدري من رفصتين كنت تلقيتهما من أحد بغالنا قبل الخروج إلى الصيد ، ولو كان البغل محديّاً بالحديد حسب عادات بلادنا لكانت هاتان الضربتان كسرتا فكي وصدري فلذلك كنت محتاجاً للراحة أكثر من سائر رفاقي .

جلس الخدم يتناوبون حراستنا وأما نحن فوضعنا علينا أرديتنا فنمنا بقدر ما تسمح به حالتنا هذه ، وكان من حسن حظنا أن كان الجوّ صافياً فلا خوف من المطر والزوابع ، وفي نصف الليل صعد أحد المكارية واسمه عمر على شجرة ، فأطلق عياراً نارياً فسمعته قافلتنا وأجابته بطلق بندقية ، ففهمنا أننا لم نكن بعيدين عن قافلتنا ، ولما أصبحنا ذهب أبو بكر وجال في أطراف الغابة للبحث عن الطريق ، فعاد ونحن نشرب القهوة ومرق اللحم ، وبعد ذلك قمنا ولم تمضِ ساعة حتى التحقنا بقافلتنا فالحمد لله على السلامة .

في وسط الصحراء

يوم الأربعاء 23حزيران / يونيو

بينما كان المكارية في الليل مشتغلين بالبحث عنا كانت بعض البغال قرّت بعيداً

عن القافلة فذهب أكثر رجالنا ليأتوا بها واضطررنا أن ننتظر ، فقام الموجودون من رجالنا بإحضار الطعام وخبز الخبز وما أشبه من الأعمال التي إذا أخرناها تأخرنا في الطريق فلا نصل إلى دريدوه ومن ثم إلى جيبوتي في الوقت اللازم ، كان الجوّ هذا اليوم شديد الحرارة والشمس محرقة جداً لأن طريق عصبوت هذا منحط كثيراً بالنسبة لطريق جرجر الجبلي ،لذلك كانت بغالنا تأتي بصعوبة ، وكان عمر أحد المكارية تاه عن الطريق بينما كان يبحث عن أحد البغال وضل في البراري المقفرة وكاد يموت من العطش لو لم يدركه رجل من قبيلة ايتو ويأتي به لعندنا ، والواحد من البغال فقد بالمرة فلم نجده ولم نشأ أن ننتظر هنا من أجله بدون فائدة ، فقمنا في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر من هنا ، وفي أثناء سيرنا انقطع عن السير بغل يحمل أشياء لبكر أفندي كان أرسله معنا اضطررنا لتوزيع حمله على البغال الأخرى وتركه في سبيله في هذه البراري وربما يقدر على محافظة حياته إذا التقى بالماء ولم تفترسه الحيوانات الكاسرة ، وكان المطر اليوم ينزل أحياناً . وصلنا إلى محل كثير المرعى والكلأ فنزلنا فيه ، وقد وجدنا هنا بئراً اشتبهنا في نظافة مائه لذلك اضطررنا إلى غلي الماء .

مرحلة غوط

يوم الخميس 24 حزيران / يونيو

استخراج الماء من البئر من غير جردل ولا حبل - السوائم الفطنة - الطيور الغريبة - الأسورة.

انتبهنا من نومنا في الليل وصرنا نتأهب لاستئناف المسير على نور القمر ، ولكننا لم نتمكن من القيام إلا طلوع الشمس وكان الجو لطيفاً جداً فكنت ترى الأشجار والحشائش وسنابل القمح تلمع من انعكاس نور الشمس على نقط ماء المطر والطيور تطير من شجرة إلى أخرى كلها تغرد تغريداً بديعاً ، وبعد ساعتين من مسيرنا وصلنا قرية صغيرة تسمى دار عيله ، ويقطن نقدراس محمد أخو أبو بكر هنا ومعها بعض

أشخاص من عائلته وأولادهم وسوائمهم ، وقد كنت رأيت نقدراس محمد هذا في أديس أبابا فخرج كبارهم إلى استقبالنا ودعونا للفطور وشرب القهوة عندهم فجلسنا تحت شجرة ، وبينما كنا نشرب القهوة أخذ أحد المستقبلين يذم قبيلتي ايسسا وايتو فنظرت إلى يده التي كان يرفعها وينزلها فإذا فيها أسورة كبيرة في معصمه فسألت هل يلبس رجالهم الأساور ، فقال إن الأسورة التي يلبسها الرجال ليست للزينة بل هي علامة على أن صاحبها قتل بعض أعدائه ، وأن الأسنان الموجودة عليها تدل على عدد من قتله من الأعداء ، فأمعنت النظر في الأسورة فوجدت عليها خمسة أسنان ولدى السؤال علمت أنه كان قتل خمسة أشخاص من قبيلة أيتو وصادق رفقاه على كلامه . شربنا بعد القهوة واللبن الرايب الذي أتى به هؤلاء الناس ، فلم نقدر أن نشرب كثيراً منه لطعم الهباب الموجود في الوعاء كما مر ذكره آنفاً ، انقطع هنا أيضاً اثنان من بغالنا وكان الواحد منهما خاصاً بالحمل فوزعنا حمله على البغال الأخرى والثاني هو البغل الذي كان جلالة منليك أهداه إلي في أديس أبابا كان جميلاً جداً ، وكان هذا البغل انقطع بعد سفرنا من أديس أبابا بيومين عن الأكل وأخذ يبطئ في السير فمات هنا اليوم ، ويقول المكارية إن الشحم زاد على قلبه من كثرة الراحة والأكل في الإصطبل الإمبراطوري ، فلم يقوَ على مشاق السفر والسير ، وصلنا في الساعة الثانية بعد الزوال إلى قرية ايلابللا وأهلها من الصوماليين من قبيلة أعيسسا التي لا يلبس رجالها ونساؤها شيئاً سوى فوطة ليستروا بها عورتهم ، ومع ذلك ترى لهؤلاء الناس جداً ووقاراً ، ولا يوجد هنا مياه جارية وقد فتح الأهالي آباراً متعددة على مجاري السيول ، فأتينا إلى بئر من هذه الآبار فوجدنا عمقها أربعة أو خمسة أمتار ووسع الفم مثل عمقه ، وكان عمق الماء الموجود فيه متراً واحداً ، ويستخرج الناس الماء هنا بطريقة غريبة لعدم إمكان أخذ الماء بالجردل والحبال ، وذلك أنه ينزل أحد الصوماليين إلى البئر ويقف في الماء ويلقي إليه أحد الواقفين على البئر بجردل معرض على الهباب أيضاً ، فيملأ الواقف في الماء الجردل ويرمي به مائلاً إلى الأعلى ، حيث يتلقطه الرجل وهو يلقي إليه بآخر فارغ ويفرغ الملآن في حوض أقيم قرب البئر ، فيملأ الإنسان الجرادل الفارغ والملآن يصعدان وينزلان بمهارة فائقة وسرعة عجيبة ، حتى أن العين تنبهر والإنسان يندهش من هذه المهارة برمي الجردل الملآن

إلى فم البئر من غير أن ينصب منه نقطة واحدة ، والجرادل مصنوعة على شكل يتمكنون به من محافظة الموازنة إذ يرمون بها ، فقد صنعت من الوسط إلى الأسفل على شكل مخروط ناقص ، والنصف الآخر على شكل أسطوانة وطوله نصف متر وقطره الفوقاني ثلاثون سانتيمتر . واستعمال هذه الجرادل بهذه الصورة ورميها من البئر إلى الأعلى ستة أو خمسة أمتار ، مما يدل على قوّة سواعد هؤلاء الرجال والإنسان إذا أنعم النظر في أيديهم وسائر أعضائهم يرى العروق والشرايين نافرة كأنها خيطان القنب ، وإذا أراد الراعي أن يسقي سوائمه فإنه يستخرج الماء على الصفة المذكورة ، فيملأ الحوض الآنف الذكر ثم يتوجه نحو القطيع على بعد كيلو متر واحد من البئر فيناديها بصوت مخصوص ، فتراها اتجهت نحو البئر كأنها جنود تطيع نداء قائدها . وبعد أن يشرب هذا القطيع وينسحب يتوجه راع آخر إلى قطيع غير القطيع الأول فيناديها ، فتأتي كالأولى وتشرب ثم تنسحب ويأتي الدور بعدها لغيرها وهكذا إلى آخره ، بحيث تشرب كلها من غير أن يزاحم قطيع قطيعاً ، وبينما نحن جالسون هنا سمعنا صوت بعض الطيور بشكل غريب ، فصوت الواحد يشبه الطفل الذي يبكي ويصرخ والثاني يخرج منه بآت متعددة حيث يسمع الإنسان حروف با با با با با بكل فصاحة ، والطيور في الحبشة مشهورة بأنواعها وجمالها وكأنها خاصة في هذه الأقطار فقط ، وقد كان الموسيو شمبير الألماني المشهور بمباحثه وتدقيقاته الفنية أرسل من نباتات الحبشة إلى جنائن النباتات في برلين وباريس ولوندره ستة آلاف صنف من النباتات غير المعروفة في هذه العواصم والبلاد الغربية ، وألماني آخر كان قد اصطاد كثيراً من الطيور التي توجد في هذه البلاد وأرسلها إلى العواصم المذكورة بعد أن صبّرها .

أقمنا تحت الشجرة في ايلابللا ثلاث ساعات ثم استأنفنا السير فوصلنا الساعة الثانية بعد الغروب إلى محل يقال له (ارير غوط) ونزلنا على هضبة قليلة الارتفاع تبعد عن الماء مائة متر وأشعلنا النيران على أطراف القافلة حسب العادة وبعد تناول الطعام انسحب كل منا إلى منامه ولم يبقَ ساهراً إلا النوبتجية القائمون بحراسة القافلة والنار .

مرحلة توما

يوم الجمعة 25 حزيران / يونيو

السلحفاة الكبيرة الجسم

لما أصبحت أخذت أعاين الأطراف والأكناف فوجدت الحرارة شديدة على أطراف محل نزولنا رغم طراوة الصبح ولكن كان الهواء على حافة النهر طرياً ومعتدلاً لوجود الماء وكثرة الأشجار الباسقة النامية على حافتي النهر ، والماء هنا كان رائقاً ، ويوجد بالقرب من هنا مزارع للحاج محمد أخي نقدراس أبو بكر ومزارع أخرى ملك أحمد أفندي عبد القادر الجداوي ويخرج منها العنب والبن والموز وقصب السكر وفاكهة تشبه الكباد تسمى باباي وغيره من الفواكه ، وهي مساعدة لزرع أنواع الحبوبات أيضاً ، ويريد أصحاب هذه المزارع أن يشتغلوا أعمالهم فيها ويقوموا بكل ما يستوجب كثرة الاستغلال ، ولكن تسلط قبائل عيساالمتواصل يضرب على أيديهم ، والمياه الجارية في المزارع المذكورة كثيرة جداً تجري من غير فائدة في الأراضي ، حيث يمكن تأسيس مدينة عظيمة ببساتينها وكرومها ومزارعها .

إننا من يوم قيامنا من أديس أبابا إلى هذا اليوم قطعنا مسافات كبيرة فصارت بغال الأحمال والركوب في حالة سيئة من التعب حتى صار بعضها لا يقدر على مشي خطوة واحدة ، ولم يبقَ بيننا وبين دريدوه التي هي آخر محطة السكة الحديد الممتدة من جيبوتي إلا مرحلتين ، لذلك رأيت أن نبقي في مزرعة أحمد أفندي صناديق الذخائر وبعض الحوائج التي لم يبقَ لها احتياج وأن نستأجر من هنا بعض البغال اللازمة لنا حتى نصل المحطة المذكورة ، ومن جملة ما تركناه هنا كثير من البصل والثوم وكان الخدم وقتئذ مشتغلين بمص قصب السكر ، فلما رأوا البصل وعلموا أنه سيترك هنا لعدم لزومه أحاطوا به وصاروا يأكلونه كما يأكل الإنسان أحسن الفواكه ، فلما رأيتهم استرسلوا في أكله منعتهم خوفاً من أن يتسلط عليهم العطش في الطريق .

قمنا من هنا قبل الظهر بساعة تقريباً وكان معنا أحد عبيد محمد أفندي المار ذكره المسمى (فدا) ووصلنا في الساعة الخامسة والنصف إلى محل يسمى (أرير) وكان الحر شديداً جداً في الطريق ، ولما وصلنا (أرير) هذه سررنا جداً إذ وجدنا فيها الماء اللذيذ الصافي يتدفق في نهر صغير وعلى أطرافه الأشجار الباسقة وتحتها الظلال المنعشة ، ونزلنا تحت شجرة من هذه الأشجار وأخذ كل منا يستحم في الماء البارد ، بينما كان الطاهي يهيئ الطعام ، واضطررت أن ألبس بعد الاستحمام ملابسي التي كانت عليّ مقلوبة لأنه لم تكن يدي تطول الملابس النظيفة ، وهذا هو أحسن ما يمكن عمله إذا لم يكن عند الإنسان ملابس نظيفة .

وفي هذه الأثناء وردت بغال الأحمال فشربت واستمرت في سيرها من غير أن تنزل هنا ، رأيت في (أرير) بضع راعيات جميلات جداً جالسات قرب القافلة مع قطعانهن ، وكان القسم الأعلى من أجسامهن عارياً من الملابس فوجهت عدة الرسم عليهم ورسمتهن من غير أن يعلمن ذلك .

يوجد هنا بضعة عشر كوخاً ، ولكن هذا العدد قليل جداً بالنسبة إلى خصب الأرض واستعدادها لتأسيس بلدة عظيمة عامرة فيها ، ومع وجود الماء والمراعي والأراضي القابلة للزرع لا يلتفت السكان إلى الفلاحة بل يعيشون السوائم فقط .

قمنا من هنا في الساعة الثانية والنصف بعد الزوال ووصلنا قبل الغروب بساعتين إلى وادي كرمام حيث يوجد بعض آبار محفورة على مجاري السيول ، واستمرينا بسيرنا بعد أن عوضنا من الآبار الماء الذي كنا صرفناه في الطريق وسقينا بغالنا ، إن الحر اليوم كان شديداً والذي زاد الطين بلة حلاوة الدقيق التي أكلناها على طعام الغداء فإنها زادت حرارتنا فاضطرينا للشرب من الماء كثيراً .

وقبيل الغروب وصلنا إلى محل يبعد كيلو مترين عن سفوح جبل توما حيث وجدنا القافلة نزلت هناك فنزلنا نحن أيضاً ، ولم يكن يوجد في هذا المحل شيء من الكلأ سوى بعض جذور النباتات التي اكتفت البغال برعيها ، ولو لم نكن أعطيناها في غوثا عليقاً كافياً من الشعير والذرة والحشائش لما كانت قدرت على السير معنا .

أعطى يس جاويش هنا حذاءً لخادمه الحبشي فلبسه هذا وقام ، ولكنه خطا بعض خطوات تشبه خطوات الأطفال الذين يبتدئون بالمشي ، وكان رفاقه يقهقهون من حوله

ولم يقدر على السير بالحذاء فقلعه من رجله وقال أنه لا يعرف أن يسير بالحذاء ، أمطرت المساء في الليل مطراً شديداً ولم تكن الخيمة الكبيرة المانعة لنفوذ الماء معنا لأننا تركناها في (أرير) مع ما تركناه من الأمتعة . لذلك نفذ إلينا المطر .

الوصول إلى دريدوه

يوم السبت 26 حزيران / يونيو

استيقظنا اليوم قبل الفجر لنتمكن من القيام من هنا قبل بزوغ الشمس حتى نصل إلى دريدوه لنستفيد من الوسائط المدنية مثل النوم في الغرف والسفر بالسكك الحديد والبواخر وما أشبه ، ولكن لم نتمكن من السفر من هنا إلا بعد طلوعها ، ولقربنا من دريدوه لم نكن نحتاج بعد الآن لبغال الأثقال وللصناديق لذلك تركناها كلها وراءنا وسرنا إلى دريدوه وأمامنا (فدا) عبد محمد أفندي يدلنا على الطريق ، لأن الأراضي التي كنا سائرين بها كانت عبارة عن غابات وأحراش فيها كثير من الطرق المتشعبة ، لذلك لا يقدر الإنسان أن يسير فيها من غير دلالة أحد العارفين بطرق هذه البلاد ، وقد كنا نرى في طريقنا بين أشجار الغابات كثيراً من الغزلان والأرانب والطيور الغريبة كما أننا رأينا اليوم لأول مرة سلحفاة كبيرة جداً طولها 80 سنتيمتر وارتفاعها ٥٥ سنتيمتر ، أراد (علامو) أحد خدمنا أن يركبها لتسير به ، ولكن لعدم وجود وقت كاف لنضيعه في أمور كهذه منعته عن ذلك فاكتفى بأن صعد عليها ووقف على ظهرها بضع دقائق ، وكان الخدم اليوم والمكارية والبغال كلها تسرع في سيرها لأنها عالمة بأن هذه المرحلة هي الأخيرة من سياحتنا هذه .

نزلنا قبيل الزوال تحت شجرة وجلسنا ريثما تناولنا الطعام وملأنا الكيزان من ماء المطر المتجمع بين الصخور ثم استأنفنا السير ، وكان نشاط الخدم والبغال في المشي آخذاً في الزيادة كلما اقتربنا من المدينة ، وفي الساعة الثانية بعد الزوال بلغنا دريدوه ولا تسل عن سرورنا لما سمعنا صفير القاطرة في محطة السكة الحديد ورأينا القطرات وعرباتها فكأننا قربنا من الآستانة ودخلنا في دائرة العادات والأحوال التي تعودناها في عالمنا المدني ، نعم إن السياحة في البراري والأراضي المقفرة لها لذة كبيرة ولكن

في مقابلة ذلك كثير من المتاعب ، خصوصاً تعب البال والفكر ، وهذا أمر لا ينكره أحد ، فإن الإنسان كثيراً ما يكون في النهار تحت رحمة الحر وفي الليل معرضاً لأهوال القرّ ، ولا تنسَ الأمطار التي تنزل بكثرة ليلاً ونهاراً والزوابع والعواصف وانقطاع البغال عن السير والتيه في هذه الفيافي وهجوم الحيوانات الكاسرة على القافلة ليلاً وعدم انتباه المكارية للأحمال وهم يحملونها على البغال فيقع الصندوق وينكسر أو يحملونه مقلوباً فوقه لتحت ، مما يجعل الأمتعة التي فيه لا تصلح لشيء فيما بعد ، وإذا كان فيه شيء قابلاً للكسر ينكسر ، وبالجملة إن هذه الأحوال وكثيراً مما تليها تدع الإنسان في كرب عظيم فلذلك كله كان وصولنا إلى دريدوه من أعظم دواعي السرور والحمد لله وقد خيل لي أنه لو كان أمامنا مسافة ساعتين غير ما سرنا لما كنت قدرت على قطعها على البغل . ذهبنا توّاً إلى الفندق الذي كنا زلنا فيه في الذهاب إلى أديس أبابا المسمى (أوتيل ميخاليدس) باسم صاحبه ، ودخل كل في غرفته بعد أن أرسلنا البغال إلى وكيل الحاج أحمد عبد القادر أفندي في دريدوه ، فكان أول شغلي الاستحمام وتغيير الملابس وبعد ذلك جلست على كرسي هزّاز أمام جنينة النزل وأخذت أشرب الشيشة (الأركيلة) بكل سرور من وصولنا إلى دريدوه بالسلامة ، وأما الطقس هنا فإنه كان حرّاً وكان معنا بالنزل كثير من السيدات الأوروبية وكلهن بملابس خفيفة جداً ، ولما سألت الغارسون عنهن أجاب بأنهن زوجات بعض المستخدمين في جيبوتي حضرن إلى هنا لقضاء بضعة أيام في دريدوه هرباً من شدة حرارة الثغر المذكور ، فأخذت أفتكر في درجة الحرارة في جيبوتي ، فإذا كان هنا الحر في هذه الشدة فكيف يجب أن يكون الطقس هناك حيث أوجب هروب السيدات الأوروبيات منها إلى دريدوه التي وجدنا الحر فيها شديداً .

كنت علمت من إدارة البوستة في أديس أبابا ومن موسيو لاغارد سفير فرنسا بأن باخرة من بواخر مساجري ماريتم تصل إلى جيبوتي آتية من ماداغسقار في صباح التاسع والعشرين من شهر حزيران (يونيو) وتبرح الثغر المذكور بعد الظهر قاصدة السويس ، لذلك كنا رتبنا خطة سيرنا على وجه أن نصل إلى دريدوه يوم الأحد ونقوم منها إلى جيبوتي يوم الاثنين حيث نركب الباخرة منها يوم الثلاثاء وبهذا الحساب لا نكون قضينا في جيبوتي إلا ليلة واحدة فقط ، ولكن لما وصلنا إلى دريدوه علمنا أن

الباخرة ستصل إلى جيبوتي يوم الأربعاء لا الثلاثاء فلزم أن نبقى هنا يومين لأنه لا يوجد قطار يقوم يوم الأحد إلى جيبوتي .

وردت مساءً البغال فوضعنا الأحمال في الأكياس والصناديق لأنها لا لزوم لها بعد الآن ، وبعد وصولنا بقليل ورد للسلام علينا آتو بيانا بن آتو مارشا حاكم المدينة وبعض الموظفين الأحباش وآتو جوزوف قنصل الحبشة في جيبوتي الموجود هنا لبعض أشغال تخص وظيفته ، ونعمان أفندي الخوري قنصل فرنسا في دريدوه ، وكان نعمان أفندي هذا رفيقي في المدرسة قبل 33 سنة في بيروت وما كنا رأينا بعضنا بعد أن خرجنا من المدرسة فجلسنا نقطع الوقت معاً ونذكر أيام الصبا والمدرسة وقد استفدت كثيراً من معلوماته بالحبشة لأنه مضى عليه بضع سنين وهو في دريدوه وهو رجل عالم عاقل ذكي لطيف المعشر يعرف أربع أو خمس لغات ، لا يمل مخاطبه من لذيذ صحبته وعنده هنا مكتبة نفيسة ، وكانت زياراتنا لبعضنا من قبيل زيارة الصديق لصديقه خالية من كل تكلف وترسم وقد دعانا للعشاء عنده في غد .

دريدوه

يوم الأحد 27 حزيران / يونيو

حضر اليوم آتو جوزف للنزل وسلم لكل واحد منا الرقيم (البراءة) المؤذن بإنعام جلالة النجاشي علينا بالنياشين التي مر ذكر إنعامها آنفاً ، فانتهزت فرصة وجود الآتو عندي وطلبت إليه أن يترجم لي الرقيم المشار إليه وجواز السفر المعطى لنا من قبل الإمبراطور وبعض مكاتيب باللغة الحبشية وردت عليّ بينما كنت في أديس أبابا وهاك ترجمتها :

ترجمة براءة الوسام

إن النصر والظفر لأسد سبط يهوذا

من منليك الثاني ملك ملوك الحبشة بعون الله وعنايته ، إلى كل من يقرأ هذه وإلى محبيه

سلام ، إن الملوك العظام ينعمون بالأوسمة لجنودهم الصادقين ولكل من يشتغل بإحياء العلوم والدراية ، وكذلك نحن أيضاً ، نهدي أعظم وسام من أوسمة حكومتنا إلى صديقنا صادق المؤيد باشا ياور الحضرة المعظمة السلطانية وأذنا له أن يعلقه وقت ما يشاء .

في 19 حزيران (يونيو) بعد عام النجاة 1896

ترجمة الجواز

إن النصر والظفر لأسد سبط يهوذا

من منليك الثاني ملك ملوك الحبشة : إن صادق المؤيد باشا وطالب بك ويس أفندي سيعودون إلى بلادهم فيجب أن لا يمسهم أحد بسوء بل ليحترموهم ويراعوا جانبهم .

12 حزيران

ترجمة الكتاب الذي أرسله ناظر القصر الإمبراطوري

إلى أحمد أفندي عبد القادر يصرح به للموما إليه بناءً على أمر النجاشي إضافتنا في منزله .

ليصل إلى الحاج عبد القادر أفندي .

كيف أنت يا أخي؟ أما أنا فإني ولله الحمد بخير وعافية ، عرضت البارحة على مسامع جلالة النجاشي التماسكم الخاص بإضافة الوفد العثماني المحترم بمنزلكم ، وحضرت مساءً لأبلغكم الجواب الذي تلقيته ولكني لم أجدكم ، وقد سر طلبكم هذا من تلقاء نفسكم جلالة الإمبراطور كثيراً فأصدر أمره بقبول ملتمسكم ودعا لكم بالرضاء الإلهي ومعونته الربانية .

التوقيع

نقد راس هيلا جورجيس

8حزيران 1896

خطاب إبنة الإمبراطور

وكنت تركت بطاقة زيارة لابنة الإمبراطور عندما زرت زوجها فتفضلت حضرة البرنسيس وأرسلت إليّ كتباً هذه ترجمته :

من وزرو وللآتو كريمة الإمبراطور منليك الثاني إلى حضرة صادق المؤيد باشا الجنرال العثماني :

كيف حالكم؟ عسى أن تكونوا بخير؟ أما نحن فإنا له الحمد بخير ، بلّغت سلامكم كما أنه وصلتني بطاقتكم وقد سرّني ذلك جدّاً فلتكونوا في رعاية الله دائماً وأنتم بخير وعافية . أرسلت لكم كتابي هذا مشفوعاً بتحياتي وسلامي .

التوقيع

وزرو وللآتو

ترجمة الكتاب الوارد من افانفوس

من افانفوس نسيبو إلى حضرة صادق باشا المؤيد العظم سفير جلالة السلطان عبد الحميد خان :

كيف أنتم ؟ وكيف صحتكم ؟ هل أنتم بخير وإذا تفضلتم بالسؤال عنا فإننا والحمد لله بخير وعافية ، أخذت بطاقتكم العزيزة ، وقد أسفت جداً لعدم التمكن من مقابلتكم وقت تشريفكم منزلي لوجودي وقتئذ في الجنة (اسم القصر الإمبراطوري الجاري تشييده في المحل المسمى هوللاتا) حسب أمر جلالة الإمبراطور والإمبراطورة . بلغني خبر وصولكم إلى أديس أبابا ، وآمل مجيئكم إلى القصر الجاري بناؤه هنا ، وإني مقصر بعدم إرسال كتاب إليكم للسؤال عن صحتكم ، والذي يكدرني أكثر من كل ذلك هو أني لم أتمكن من مقابلتكم ورؤيتكم فإذا كنتم حقيقة على وشك السفر أسأل الله أن ييسر لقاءنا بكم في وقت آخر .

التوقيع

افانفوس نسيبو

من الجنة 19 حزيران 1896

ترجمة الكتاب الوارد من وزرو دستا زوجة افانفوس

من وزرو دستا إلى حضرة صديقنا العزيز صادق المؤيد باشا

كيف أنتم ؟ وكيف أحوالكم ؟ أما نحن فله الحمد بخير وعافية ، إن الهدية التي تفضلتم بإرسالها وصلت ، وإني لفي غاية السرور والامتنان لتفكركم بي قبل سفركم أسأل الله أن يجعلكم

في حرزة وأمانة الصمداني .

التوقيع

وزرو دستا

20 **حزيران** 1896

التقويم الحبشي

يظهر من مقابلة التاريخ الحبشي بالتاريخ الإفرنجي أنه يوجد بينهما فرق ثماني سنوات ، وقد كنت ذكرت ذلك في الفصل الخاص بالتقويم ، وأما جملة (إن النصر والظفر لأسد سبط يهوذا) الموجودة في أول كل كتاب ملوكي فإن أصلها مأخوذ من التوراة التي تُشَبِّه يهوذا أحد أولاد يعقوب عليه السلام وجد اليهود بالأسد وتلقبه بهذا اللقب ، ولا يخفى أن يهوذا أبو داود وداوود أبو سليمان عليهما السلام وسليمان هو جد العائلة المالكة الآن في الحبشة كما يدّعي الأحباش ، وكل من أولاد سيدنا يعقوب كان يصنع علماً لعائلته وقبيلته وينقش عليها صورة حيوان وإذ كان يعقوب لقب ابنه يهوذا بالأسد لزم أن ترسم صورة أسد على علم يهوذا وهو شعار الأحباش إلى اليوم ينقشونه على دراهمهم وعلى أعلامهم ، ومن هذا القبيل ما كان يرسمه بقية أولاد سيدنا يعقوب من العلامات المميزة على أعلامهم ، فكان شعار يوسف صورة جاموس ، وشعار بنيامين ذئب ، وشعار نفتالي غزال ، وشعار ايساخار حمار ، وشعار دان ثعبان ، وشعار روبن سمكة .

سلمنا اليوم جميع أمتعتنا إلى السكة الحديد وقطعنا تذاكر السفر وفي المساء حضرنا المأدبة التي أقامها حضرة نعمان خوري أفندي قنصل فرنسا ، وقد كان أكثر المأكل في مأدبة نعمان أفندي على الطراز العثماني من تركي أو سوري .

السفر إلى جيبوتي

يوم الاثنين 28حزيران / يونيو

بكرنا اليوم في القيام من النوم ، وبعد أن هيأنا أنفسنا للسفر أخذ خدمنا الحقائب

الصغيرة وذهبنا إلى محطة السكة الحديد ، وقد حضر لوداعنا نعمان أفندي الموما إليه وآتو جوزف وآتو مارشا وآتو بيانا وكثير غيرهم من الموظفين ، وفي الساعة السادسة ونصف قام القطار وأخذنا نقطع الغيطان والوديان وكنا كلما وقفنا في محطة نجد كثيراً من الصوماليين واقفين للدعاء للحضرة السلطانية والسلام علينا ، وفي إحدى المحطات وصلني تلغراف من حضرات غالب إخوان من كبار التجار في جيبوتي وكان مر ذكرهم في الكلام على الثغر المذكور يهنئونني فيه بالإياب سالماً ويدعونني إلى النزول ضيفاً عليهم .

وقف القطار قليلاً في الحدود الفرنساوية لأخذ مأمور الحدود وزوجته الذاهبين إلى جيبوتي ، وفي محطة حمبولي وجدنا رئيس مهندسي السكة الحديد وموسيو له قورتيق المفتش الأول ، وقد حضرا على قطار قام بصفة خصوصية لاستقبالنا ، ولما وصلنا إلى محطة جيبوتي وجدنا في استقبالنا من قبل الوالي الموسيو انتوان مدير أقلام محررات المستعمرة وقنصل الروسيا والموسيه مارشال الوكيل العمومي لشركة مساجري ماريتم وغالب إخوان والموسيو وبجيه صاحب فندق (ده زاركاد) وكثيراً من المستخدمين وغيرهم ، وبعد أن سلمنا على المستقبلين مصافحة ذهبنا إلى منزل غالب إخوان حيث دعينا للنزول فيه ، فلا تسل أيها القارئ عن مقدار ما رأيناه من الإكرام من غالب إخوان في منزلهم فبارك الله فيهم .

وكانوا أعدوا لنا أسرّة في غرف خصوصية لكنا لم نقدر على النوم فيها من شدة الحر الذي كان يبلغ في الليل إلى درجة الأربعين فوق الصفر ، لذلك خرجنا إلى الشرفات الواسعة حيث قضينا الليل هناك على أسرة أقاموها لنا بصفة خصوصية ، والناس هنا ينامون على سرر مصنوعة من التيل وليس عليها إلا وسادة رأس فقط ، لأن الإنسان لا يستطيع أن يتحمل حرارة الفراش واللحاف فوق حرارة الجو الشديدة ، وينصبون السرير إلى جهة هبوب الريح لاستقبال الهواء الطري ، فإذا انقطع الهواء من هذه الجهة أثناء الليل فإن صاحب السرير يقوم ويوجه سريره إلى الجهة التي أخذ الهواء يهب منها . وبعض الناس يهيئون على الشرفات بضعة أسرة حتى ينتقل عليها في الليل حسب اتجاه الأرياح ، قضينا الليل بنوم متقطع وشرب ماء كثير والعرق يتصبب في جباهنا ، وكنت كأني في حمام حار ، ولما أصبح الصباح أسرعت

فاغتسلت بالماء البارد الذي لم يكن فرق بينه وبين ماء الحمامات .

يوم الثلاثاء 29 حزيران / يونيو

كنا منتظرين وصول باخرة شركة مساجري ماريتيم ، ولكن بعد السؤال علمنا أنه ليس لدى مكتب شركة البواخر المذكورة علم بميعاد وصولها لأن أسفار البواخر لم تكن انتظمت بعد من جراء الاعتصاب الذي حدث في مارسيليا قبل شهرين .

ورد اليوم أكابر وأعيان المسلمين لزيارتنا ، وأما الوالي موسيو بونهور فإنه كان تعين في غيابنا والياً على (مارتينيك) فتزاورنا مع وكيله موسيو دو باري القائم بأعمال المستعمرة ، وقد أدب المومأ إليه لنا مأدبة رسمية في دار الحكومة ، وبعد الظهر أخذت في رد الزيارة للذين أتوا لزيارتنا ، ومن حسن الحظ أنهم هنا لا يلبسون في هذا الموسم القمصان الإفرنجية والملابس السوداء مثل (فراك) (سموكينج) إذ شدة الحرارة في هذه البلاد تغلبت نوعاً ما على المراسم والتكلفات ، لذلك كنا مرتدين في زياراتنا بالأردية العسكرية البيضاء ، والذين يلبسون هنا اللباس الإفرنجي لا يلبسون سوى بانطلون رفيع وجاكيت مثله وأحياناً يلبسون القمصان الرفيعة جداً ولا يلبسون شيئاً سواء ذلك .

وقد كنت ذهبت لزيارة رجل من أكابر موظفي المستعمرة فوجدته لابساً بانطالوناً وجاكتاً مصنوعين من الشيت الرفيع وليس في رجليه جوارب بل محتذٍ بنعل (شبشب) فقط وهو عار الرأس وقد خجل مني جداً لمقابلته لي بهذه الهيأة وأخذ يعتذر ، والرجل يذهب لمحل وظيفته ويقوم بأداء مهام المستعمرة وأمورها وهو على هذه الهيأة ، وإني أعذر الرجل وغيره ممن يسكنون هذه البلاد على تخفيف ملابسهم لشدة الحر الذي يفوق كل تصور ، وقد زرت بعد ذلك بشارة أفندي غالب والقنصل الروسي والموسيو مارشال وكيل إدارة مساجري ماريتيم ، ولم أجد الموسيو مارشال في منزله فاستقبلتنا قرينته أحسن استقبال وفي أثناء الكلام شكت مرَّ الشكوى من شدة الحر وتأثيره عليها ، وقد رثيت لحالة هذه المسكينة مع أن المنزل القاطن به الموسيو شارل مشيّد من قبل شركة مساجري ماريتيم على أمتن وأحسن طريقة في فن المعمار وعلى طراز يمنع نفوذ الحرارة إلى داخله ، وكانت السيدة جالسة على مقعد (قانابه) مرتدية

بلباس خفيف مصنوع من القماش الأبيض الرفيع وفوق رأسها مروحة من الجنس المسمى (برانقار) مربعة الأضلاع حجمها يزيد عن الأربعة أمتار يحركها الخدم بالحبال من خارج البهو . وكانت تذكرني بالآستانة بتحسر وقد كانت سكنت فيها مدة ومعروف عنها مناخها اللطيف والبوسفور ومناظرها البديعة وهواءها البليل المنعش للأبدان . كنت تعرَّفت بمدام مارشال وزوجها قبل شهرين عندما وصلت إلى جيبوتي آتياً من الآستانة في المأدبة اتي أقيمت لنا من قبل الوالي حيث كان محلي على المائدة في جانبها ، وهذه السيدة على جانب عظيم من الذكاء واللطف وحسن المجاملة حسنة المعشر جداً ، مكرمة للضيف مهذبة تهذيباً جيداً . وبينما كنا نتجاذب أطراف الحديث حضر زوجها الموسيو مارشال فجلس معنا فكان جلّ كلامنا دائراً على الحر هنا والطراوة في أوروبا خصوصاً في الآستانة والبوسفور ، وبعد أن قضينا برهة من الزمن استأذنت بالانصراف على أن نتلاقى ثانياً في مأدبة وكيل الوالي الرسمية هذا المساء .

وكانت هذه المأدبة مثل سابقتها التي أقامها لنا الوالي السابق من حيث الزينة والترتيب والإكرام وقد كان الحر يلطف بالمراوح الكبيرة المعلقة بالسقف التي يحركها الخدم من الخارج ، وكانت فابريقة الثلج الصناعي أوقفت عمل الثلج منذ بضعة أيام لعطل طرأ على عدتها ، لذلك كان الأهالي مضطرين لشرب الماء الحار ، ولكن لحسن حظنا كان مدير السكة الحديد أهدى إلى وكيل الوالي ما يكفي من الثلج في مأدبة هذا المساء لأن لإدارة السكة الحديد هنا معملاً صغيراً يصنع من الثلج ما يكفي لمستخدميها وموظفيها فقط ، فلذلك كنت ترى المدعوين كلهم ألسنة تشكر مدير السكة الحديد على هذه الهدية العظيمة ، وفي الحقيقة إن الإنسان لا يقدر أن يقيس قيمة الثلج في هذه البلاد على أي شيء غيره ، ولما شكرت المدير على هديته أجاب قائلاً بأنه يرسل إليّ نهار غد بضع أقات من الثلج لوقت الغذاء فأظهرت شكري الجزيل وامتناني لهديته النفيسة وختمت المأدبة بخطبة ألقاها وكيل الوالي وشرب نخب الحضرة السلطانية وقد أجبته على ذلك بما يقتضيه المقام ، قمنا عن المائدة وجلسنا مدة في الشرفات حيث شربنا القهوة المثلجة والسجائر ثم انصرف المدعوون إلى منازلهم شاكرين وكيل الوالي على مأدبته البديعة النظام .

علمنا اليوم أنه ستصل بعد بضع ساعات إلى جيبوتي باخرة من بواخر شركة هاورثه بنسولير آتية من ماداغسقار وإنها ستقوم غداً قاصدة السويس فصممنا أن نسافر عليها وإن تكن دون بواخر شركة مساجري ماريتيم انتظاماً ونظافة .

السفر إلى السويس

يوم الأربعاء 30 حزيران / يونيو

قطعنا تذاكر السفر بواسطة غالب إخوان وأرسلنا جميع أمتعتنا إلى الساحل ، وبعد أن تناولنا طعام الغداء وودعنا وكيل الوالي ذهبنا إلى الباخرة وكانت الساعة وقتئذ الثانية بعد الظهر على الحساب الإفرنجي ، فلم نشأ النزول إلى الغرف (القمارات) من شدة الحر ، بل ظللنا على ظهر الباخرة التي كان بها بضعة ركاب آتون من الجنوب وكلهم لابسون أردية خفيفة جداً من غير جوارب عراة الرؤوس ، وكان ربان الباخرة رجل خدم بالجيش الفرنسوي في الهند الصينية يحب الجندية حباً عظيماً ، فكان دائماً يعاملني معاملة عسكرية ويخاطبني بقوله (مون جنرال) أي (أيها القائد) فكنت أرى اللطف والرقة والنشاط ومعاملة الضيف بالإكرام الخاصين بالبحارة الفرنسويين تجسمت كلها في هذا الرجل الجميل المعشر ، ولما رأى الربان أن الحر يمنعنا من النزول إلى غرفة الطعام فضلاً عن الأكل فيها أمر فأقيم لنا محل مخصوص حجز بالسجف (أتندات) وزين بصفة خصوصية وجهز بكل ما يلزم للإقامة والنوم فيها ، وأقيمت لنا مائدة على الظهر أيضاً نأكل عليها ، وقد خصص لي غرفة النوبتجي الموجودة في أعلى الباخرة للمطالعة والاستراحة بها نهاراً ، وهذه الغرفة بسبب علوها لم تكن تخلو من الهواء الطري نسبته للغرف الأخرى .

بقي غالب إخوان في الباخرة حتى قرب سفرها وفي الساعة الرابعة إفرنجي أقلعت الباخرة قاصدة السويس ، كنا لما سافرنا من الآستانة توجهنا إلى مرسيليا حتى نجعل سفرنا منها على إحدى بواخر مساجري ماريتيم ، ولكن لم يتم لنا ذلك للأسباب التي سردتها فيما سبق كذلك كانت حالتنا في الأوبة فإننا كنا عزمنا أن نقوم من جيبوتي على إحدى بواخر مساجري المذكورة ، وأسرعنا بالوصول إلى جيبوتي بقصد

أن ندرك الباخرة قبل سفرها ومع ذلك فإنه لم يتم لنا ذلك :

مـــا كل مـــا يتـــمنى المرء يدركـــه

تجـري الرياح بما لا تشتـــهي الســفن

إن المسافة الموجودة بيننا وبين السويس طويلة ، فيجب أن نقضي بعض الوقت في سرد الوقائع الحربية التي حدثت بين الأحباش والطليان :

الوقوعات الحربية بين الطليان والحبشة

احتلال مصوع

أرادت الحكومة الإيطالية أن تستعمر إحدى المقاطعات الواسعة في أفريقيا وتجعلها باباً للولوج إلى داخل هذه القارة العظيمة كما تفعل دول أوربا في الاستعمار فانتهزت فرصة اشتغال الأحباش مع الدراويش واحتلت مصوع ، وقد استصوب الإنكليز الذين كانوا يعلمون أن مصوع وحواليها لا تصلح لسكن الأوروبي ولا للاستعمار عمل الطليانيين هذا ، بل ونشطوهم على ذلك ، وكان لا بدّ للطليان من سبب وحجة للقيام بهذا العمل وإخراجه من القوة إلى الفعل ، لذلك انتهز الطليان فرصة قتل كوستاف بيانشي الطلياني ورفاقه سنة 1885 في دانغالي في نفس المحل الذي قتل فيه غاليه ني ورفاقه سنة 1884 وكان وقتئذ الرأي العام في إيطاليا متجهاً لهذا الاحتلال ومستحسناً له فبناءً على ذلك أرسلت إيطاليا فرقة من جنودها واحتلت ثغر مصوع في اليوم الرابع من شهر شباط (فبراير) سنة 1885 وانتشرت الجنود الإيطالية في أراضي سمهرة وأرشيكو ومونقوللو وساتي وكلها تابعة للحكومة الحبشية ، وأخذت من ثم الجنود الإيطالية تتقدم شيئاً فشيئاً إلى شمال مصوع وجنوبها وغربها حتى استولت على كل مقاطعة أريتره وجعلها الطليان مستعمرة لهم وألفوا فرقة من الجنود المتطوعة الوطنيين بالأجرة ، فلما رأى ذلك الإمبراطور يوحانس نجاشي الحبشة ، حينئذ أراد أن يوقف تقدم الإيطاليين عند حد معلوم فأرسل رأس الولا ومعه خمسة آلاف جندي لإرجاع الطليان إلى الساحل ، وبلغ هذا الخبر الطليان فأخذوا يحصنون (ساتي) للدفاع عنها عند اللزوم .

واقعة دوغالي في 26 كانون ثاني (يناير) 1887

كان تابور مؤلفاً من خمسمائة جندي طلياني ومعه كثير من الزاد والذخائر قاصداً (ساتي) تحت قيادة القائمقام خريستوفو ريدي ، فصادف في طريقه تابوراً من جنود رأس الولا فاشتبك القتال بينهما في محل يسمى (دوغالي) يبعد ١٠ كيلو مترات عن ساتي ، وقد دافع الطليان دفاع الأبطال ولكن هذا الدفاع لم يدفع عنهم القضاء المبرم فانهزمت الجنود الطليانية ، إلا أنه لم ينجُ منها ولا واحد ووقعت جميع أسلحتهم وذخائرهم غنيمة بيد الأحباش .

وكان وقتئذ في (ساتي) المذكورة تابور آخر مؤلفاً من خمسمائة جندي تحت قيادة البكباشي (بوره تي) الذي كان واقفاً على وقت سفر خريستوفو ريدي بجنوده التي أبادها الأحباش فلما استبطأ وصوله إلى (ساتي) أرسل في الحال من يستطلع أخباره فرجع هؤلاء المستكشفون وأخبروه بنكبة التابور وما حصل بينه وبين الأحباش الذين كانوا عسكروا في سفوح الجبل الكائن أمام (ساتي) فعلم البيكباشي بوره تي أن الأحباش سيهاجمون (ساتي) في اليوم التالي لذلك أخذ يتأهب للتقهقر إلى مصوع في جنح الظلام من غير أن يشعر الأحباش بذلك ، وتوقف للخروج من ساتي ليلاً ولم يأخذ الجند معهم سوى الخرطوش الموجود وأسلحتهم ، وتركوا ما عدا ذلك من الذخائر والمهمات وغيرها ، ولما أصبح الصباح وهاجم الأحباش المدينة وجدوها خالية خاوية على عروشها فاغتنموا ما تركه الطليان من الزاد والذخائر الحربية .

نكبة الموسيو ساليمبه ني ورفاقه

كان ورد إلى مصوع سنة 1886 وفد إيطالي تحت رئاسة الكونت ساليمبه ني ، ومهمة هذا الوفد هي الذهاب إلى شووا حيث يقيم الإمبراطور يوحانس عن طريق اسمرا وادووا وماقالله وأونتالو بحجة القيام بعمل رسم قنطرة (كوبري) نهر مارب المزمع تشييده والتحق بهذا الوفد أيضاً شخص طلياني يسمى قونت سافوارو وهو ضابط برتبة ملازم في الجيش الطلياني أتى مصوع لرؤية رفاقه الضباط الموجودين في هاته البلاد فرافق ساليمبه ني المومأ إليه الذي بعد أن تجول مدة هو ورجال وفده في جهات مونغوللو بقصد الصيد سار قاصداً ساتي المار ذكرها ، وكان خرج معهم من

مصوع ضابط آخر برتبة بيكباشي يسمى يبانو ومعه ابنه البالغ عشرين من العمر ارتياحاً إلى أن الوفد سلمي واعتبر سفره معه كنزهة جميلة ، وكان عدد رجال الوفد أربعة أشخاص .

كان الوفد يتصيد في النهار أثناء سيره ويلجأ في الليل إلى منازل الوطنيين حيث ينزل عليهم ضيفاً ، ولما وصل الكونت ساليمبه ني ورجاله إلى معسكر راس الولا أبقاهم هذا القائد الحبشي عنده بضعة أيام بحجة أنه يوجد في الطريق كثير من الأشقياء قطاع الطرق ، ولما عاد رجال الوفد من الصيد مساءً يوم حدوث الواقعة رأوا من رأس الولا إكراما زائداً وجلسوا على المائدة ، وبعد أن فرغوا من الطعام تقدم بعض رجال من الأحباش بناءً على إشارة الرأس ، ووضعوا السلاسل والأغلال في أعناق رجال الوفد وفي أيديهم وأرجلهم وأبلغوهم بأنهم أسرى عند الرأس وسجنوا كل واحد منهم على حدة في كوخ وحده ، وأراد رأس الولا أن يعدمهم الحياة ، ولكن بناءً على توسط كريمته التي كان يحبها جداً والتي كانت رثت لحال الضابط الملازم الطلياني وتمكنت بذلك من تخليص حياتهم فقط ، وبعد شهرين توفق الملازم سافوارو الموما إليه للاستحصال على تصريح بالذهاب إلى مونغوللو بقصد إرسال كتاب إلى والدته في إيطاليا ليعرفها محل وجوده ويطمنها على حياته على شرط أن يرجع ، فذهب وعاد إلى أسر رأس الولا تنفيذاً لما أعطاه من القول والقسم على شرفه .

طلبت الحكومة الطليانية من الحبشة إعادة هؤلاء الأسرى فأجاب رأس الولا لذلك على شرط أن تعيد الحكومة الإيطالية خمسة من الأحباش موجودين في أسر الجيش الطلياني ، وعلى ذلك أخلى القائد الطلياني أربعة من الخمسة أسرى واستبقى الواحد عنده لأنه كان قبل تابعية إيطاليا فلا يجوز سياسةً والحالة هذه أعادته إلى حكومته السابقة ، ولما علم رأس الولا بذلك أحضر الأسرى الطليانيين لعنده وقال لهم أنه يوجد الآن رجل حبشي في أسر إيطاليا ، لذلك يريد أن يبقي أحدهم نظير هذا الرجل ويخلي سبيل الآخرين وعليهم أن ينتخبوا هذا الأسير الذي سيبقى هنا حتى يفرج عن الحبشي وسمح لهم بمقابلة بعضهم والمذاكرة في هذه المسألة .

ولما اختلى هؤلاء الطليانيون مع بعضهم للمداولة في انتخاب واحد منهم للقاء هنا اقترح الكونت ساليمبه ني أن يرجعوا إلى الاقتراع ولكن الملازم سافوارو لم يوافق

على ذلك وقال : إن الكونت ساليمبه ني رجل عجوز فلا يليق أن يبقى هنا أسيراً وإذا وقعت القرعة باسم البيكباشي أو ابنه فإنهما سيضطران للافتراق عن بعضهما ، وهذا أيضاً مما لا يجوز بالنظر لسن الغلام فلا أرى من يبقى هنا إلا أنا لأني في مقتبل الشباب بعد كما أني أعزب يسهل عليَّ البقاء في الأسر . واقنع الملازم رفاقه بوجوب ذهابهم وبقائه هناك ، وبناءً على هذا القرار أخلي في اليوم الثاني سبيل الكونت ساليمبه ني والبكباشي وابنه ، وأراد عم الملازم سافوارو أن يفدي ابن أخيه بمليون فرنك يرسله إلى رأس الولا ، ولكن الحكومة الطليانية لم توافق على ذلك خوفاً من أن تصير عادة سيئة في المستقبل . وكان حراس الملازم يعاملونه بقسوة وعنف ، وكانت كريمة رأس الولا تحضر في بعض الأحيان خفية إلى سجن الملازم ، وتحضر له معها بعض المأكولات وتسليه في سجنه وأسره هذا .

وكان هذا الأسير المسكين يؤخذ إلى ساحة هناك ليعدم رمياً بالرصاص فيوقفونه أمام الجنود التي تصوب بنادقها عليه وتبقى مدة هكذا ، ثم تعود راجعة أدراجها من غير أن تطلقها عليه ثم يرجعون الملازم إلى سجنه بحجة أن الرأس عفى عنه الآن من الإعدام ، ولما طال هذا التعذيب قال الملازم يوماً إلى سجانه (اذهب لسيدك الرأس وقل له أني لست في احتياج لعفوه عني فليعجل بإعدامي) فأجابه السجان قائلاً (إن عمل الرأس هنا متأتٍ عن رغبته في تجربتك عما إذا كنت جباناً أو شجاعاً ، إنك تجهل أن الرأس رجل شفوق رحيم ولا يوجد قائد آخر مثله ، فهل يمكن والحالة هذه أن يأمر بقتل واحد مثلك ، فإذا كان لا بد من معاقبتك ربما يأمر بقطع يدك اليمنى ورجلك اليسرى فقط ، لأن قائدنا رجل رحيم بالناس جداً كما قلته لك) .

وبقي هذا التعيس في قيد الأسر مدة تسعة شهور ولم تقدر السياسة الطليانية على تخليصه ، ولما رأى ذلك أحد رهبان العاذاريين الفرنسويين المقيم في الحبشة توسط لدى رأس الولا في إخلاء سبيل الملازم الموما إليه نظير مبلغ يدفع إلى رأس الولا واتفقا على أن يكون المبلغ مائة ألف فرنك ، وخابر الراهب أهل الملازم سافوارو وأقرباءه فأرسلوا في الحال هذا المبلغ وبعد ذلك أخلى سبيل الأسير .

نزلت حملة عسكرية طليانية مؤلفة من عشرين ألف جندي تحت قيادة الجنرال سانمارزانو إلى مصوع في اليوم الثامن من تشرين ثاني (نوفمبر) سنة 1887 وكانت هذه الحملة تتألف من أربعة ألوية قوادها الجنرالات (جه نه) و (لانزا) و (غاني) و (بالديسه را) .

وكانت إيطاليا علمت أن محاربة الحبشة ليست بالأمر الهين ، فطلبت إلى إنكلترا أن ترسل من قبلها وفداً إلى الإمبراطور يوحانس للتوصل إلى تسوية الخلاف بين إيطاليا والحبشة بطريقة سلمية من غير سفك الدم ، وأجابت إنكلترا طلب إيطاليا هذا وأرسلت من قبلها من يعرض ذلك على يوحانس ،لذلك صدر الأمر إلى الجنرال سانمارزانو بأن يلزم جانب السكون إلى أن يرجع من أرسل من قبل إنكلترا إلى الحبشة وتعرف نتيجة مساعيه ، ولما عاد مندوب إنكلترا من غير أن يتوفق لحل مُرْضٍ صدرت الأوامر إلى الجنرال سانمارزانو بإجراء الحركات الحربية حسبما يرى فقامت الجنود الطليانية من مونغوللو الكائنة قرب مصوع وسارت إلى الأمام فضبطت النقط المهمة على طريقها ثم استولت ثانياً على ساتي وحصنتها للمدافعة عنها كما أنها باشرت في مد خط حديدي من مصوع إلى ساتي .

أما الأحباش الذين كانوا انسحبوا بعد واقعة دوغالي إلى المحلات العالية فقد عادوا هذه المرة تحت قيادة يوحانس بالذات ونزلوا عن طريق غنيدا وصابر غورما وعسكروا في سهول صابر غورما وفرقوا طلائعهم الأمامية حتى هضاب (ديفديفنا) الكائنة على بعد بضعة كيلو مترات من ساتي ، وأخذ رأس الولا يحرض الإمبراطور يوحانس على مهاجمة المعسكر الطلياني ، ولكن الإمبراطور أبى أن يصغي لكلام الرأس فأحجم عن مهاجمة الجيش الطلياني لأنه خاف من مدافع الطليان وبالوناتهم والصواريخ الليلية وعلى الأخص من الأنوار الكهربائية في الليل ، حتى أنه قال مرة لرأس الولا : «نعم إن الهجوم على العدو ليس بشيء يذكر عندنا ، ولكن هؤلاء الناس أهل الجلد الأبيض لهم مقدرة عجيبة ، حتى على توليد الشموس في الليل ولهم

آلات وأدوات شيطانية مما تدهشنا وتحيير عقولنا» ثم تربص مدة في محله دون أن يتحرك إلى الأمام أو إلى الوراء ، وبعد قليل تفشت الأوبئة مثل الطاعون والحمى التيفودية بين الجنود الحبشية ، وأخذ الجوع ينتاب الجيش والأمراض الفتاكة تقتل المواشي والحيوانات كل هذا ألجأ يوحانس لسحب جيشه إلى الداخل وترك الجيش الطلياني وشأنه ، أما الجنرال سانمارزانو فلم يشأ أن يتعقب الجيش الحبشي فرجع مع قسم من جيشه إلى إيطاليا وبقي القسم الآخر في جوار مصوع .

وفي نيسان (إبريل) من عام 1888 تعين الجنرال بالديسه را قائداً على القوى الطليانية الموجودة في هذه الأصقاع ، وبعد سنة أي في عام 1889 قتل يوحانس في الحرب مع الدراويش في القلابات كما مر ذكره آنفاً ولما تولى منليك بدلاً عنه ملك الحبشة ثار عليه أهل مقاطعة ينغرى بحجة أحقية رأس منغاشا بن يوحانس الذي كان أميراً على المقاطعة المذكورة بالعرش الإمبراطوري ، فلما رأى ذلك منليك طلب إلى القائد الطلياني أن يحتل اسمرا بجنوده الطليانية ليتمكن من رغم الينغريين على الرجوع إلى طاعته ، وكانت في هذه الأثناء المداولات والمذاكرات جارية بين إيطاليا والحبشة بشأن تحديد الحدود والعلاقات بين الحكومتين وجعلت الحد الفاصل بينهما أسمرا وعقدت عهدة أوقسياللي في 2 مايس (مايو) من عام 1889 بين منليك والكونت انتونللي وقد ذكرت هذه العهدة في الفصل الخاص بالإمبراطورة تيتو زوجة منليك ، أما الجنرال بالديسه را الذي كان نشيطاً وفي مقتبل العمر فقد تمكن من فتح مدينة (كره ن) الكائنة في مقاطعة بوغوس وأخذها من محافظها بالمبراس نحافل من غير مدافعة عنها وفي هذه المدينة استحكامات جميلة قوية كان أقامها المصريون لما كانت المدينة في أيديهم وفيها ثلاثة آلاف نسمة من المسلمين ، وطقس (كره ن) هذه جيد جداً وماؤها عذب .

وبعد ضبط (كره ن) قام الجنرال الموما إليه بالجنود الطليانية المنظمة وبالمتطوعة غير المنظمة من الوطنيين من غيندا قاصداً اسمرا فكان كلما اقترب منها الجنرال ينسحب أمامه الأحباش حتى إذا وصل إلى أسمرا في اليوم الثالث من شهر آغستوس (أغسطس) من السنة المذكورة وجد رأس الولا انسحب إلى (غودوفه لاس) ومنها إلى (آدووا) .

بينما كانت هذه الحوادث تجري هنا كان منليك أرسل رأس ماكونن إلى إيطاليا موفداً من قبله ليوقع على ذيل العهدة التي اتفق عليها الموسيو فريسي رئيس الوزارة الطليانية والرأس ماكونن وألحقت بعهدة أوقسياللي فوقع المندوبان في أول تشرين أول (أكتوبر) وأبلغت للدول في الحادي عشر منه .

وفي أواخر هذه السنة أعيد الجنرال بالديسه را إلى إيطاليا وعين الجنرال أوره رو بدلاً عنه لقيادة الجنود الطليانية هنا ، ولما وصل القائد الجديد جهز حملة مؤلفة من تابورين أحدهما من العساكر الطليانية والثاني من الوطنيين وكوكبة فرسان وبضعة بطاريات من المدافع وأرسلها إلى مقاطعة همازن الغنية جداً لتنفيذ عهدة أوقسياللي ولنشر نفوذ وحكم إيطاليا على المقاطعة المذكورة ، وقد علم قائد هذه الحملة بواسطة بعض الذين أرسلهم إلى الأمام للاكتشاف أن الجنود الأحباش انسحبوا إلى ما وراء ما كالله .

بسبب ما طرأ على البلاد من الضعف من جراء المحاربات ومن الأوبئة التي تسلطت على المواشي والحيوانات فأماتت معظمها ، وبسبب الفقر الناشئ عن الضرائب الفادحة التي كان يضربها الرؤوس على الأهالي ليتمكنوا من القيام بشؤون الجندية وإطعام العسكر مال الأهالي إلى مسالمة الطليان ، فكان حتى كبار الأحباش يقدمون الطاعة للجندي الطلياني أينما حل ، وأخذ الجنرال أوروه يعيّن الموظفين والمستخدمين للبلاد التي تقدم الطاعة وتوسع في فتح البلاد حتى وصل إلى بلاد مارب وبلزومونا ، فلما رأى منليك هذا التوسع أرسل في اليوم الثاني والعشرين من شهر مارث (مارس) عام 1890 احتجاجاً إلى إيطاليا ضد هذا العمل وأبلغها بأنه لا يرضى بهذا العمل البتة ، ومن ثم أخذت تجري المذاكرات السياسية بهذا الخصوص ، ولكنها لم تأتِ بنتيجة ما ، وبعد ذلك بثلاثة شهور فصل الجنرال اوروه من وظيفته وجاء بدلاً عنه الجنرال غاندولفي بوظيفة والي مستعمرة أريتره وقائد الجنود فيها ، وفي هذه الأثناء ثار على الطليان أحد أمراء الحبشة المدعوة بالمبراس ايلما أمير مقاطعة دونبلاسي وكان خضع لنفوذ إيطاليا ثم أخذ في محاربتهم ، وفي الواقعة الثالثة التي حصلت بينه وبين الطليان انهزم الأمير الموما إليه ووقع هو ورجاله أسرى بين يدي الجنود الطليانية ، وفي هذه السنة نفسها حصلت واقعة بين الدراويش والطليان كانت

نتيجتها توسيع الأراضي التي كانت تحت حكم الطليان ولضبط أراضي (أغوداست) ولما وصل توسع إيطاليا بالاستعمار لهذا الحد فإن منليك أرسل احتجاجاً آخر في ٢٧ أيلول (سبتمبر) من السنة المذكورة ضد عهدة أوقسياللي ، وأعاد عدم رضائه عن أن تكون الحدود بما يلي مارب وباله ومونا ، وفي هذه الآونة أقام الطليان جنوداً منظمة تؤخذ بالأجرة بدلاً من الجنود المتطوعة غير المنظمة ومرنوها على الأصول العسكرية الغربية وانتفعوا من ذلك بنتائج حسنة جداً .

وكان رأس منغاشيا الذي لم يقدر على تبوء عرش والده يوحانس أخذ يترقب الفرص لإبدال لقب رأس بلقب نفوس (أي ملك) .

وأما الطليانيون فإنهم اتخذوا في أريتره خطتين سياسيتين الأولى سياسة شووا ومنليك والثانية سياسة تغري ورأس منغاشيا فكانوا يبحثون عن الطرق التي توصلهم إلى الاستفادة من التفرق والمزاحمة الواقعين بين هاتين المقاطعتين ، ولما وصلهم احتجاج منليك اتجهوا نحو رأس منغاشيا وأرادوا أن يأخذوه لجهتهم ويتفقوا معه وبنيت عهدة مارب على هذا الأساس .

عهدة مارب الشفهية

أرسل الجنرال غاندولفي حكام مستعمرة أريتره وقائد حاميتها كوكبة من الجنود تحت قيادة ضابطين برتبة يوزباشي وآخر برتبة ملازم إلى ادووا مقر حكومة رأس منغاشيا ليقابلوه ويتذاكروا معه في مسألة مقابلة الجنرال الحاكم مع الرأس الموما إليه ويقرروا الترتيبات اللازمة لذلك ، وبعد أن اتفق الطرفان على هاته المقابلة وتم ترتيب ما يلزم لذلك سافر الجنرال بصفة رسمية في أواخر شهر تشرين ثاني (نوفمبر) ومعه أورطة مشاة من الجنود الوطنيين وفصيلة من الجنود الإيطالية وبطارية مدافع وكوكبة فرسان قاصداً نهر مارب الواقع قرب (آدي غولا) حيث تقرر أن يتقابل القائدان الطلياني والحبشي ، وكان رأس منغاشيا ورأس الولا عسكرا في ساحل النهر المذكورمن الجهة الأخرى ومعهما ثلاثة آلاف جندي ، فوصل الجنرال غاندولفي وقضى هناك مع الأحباش يومين وهم يشتغلون باعداد ما يلزم للعهدة وفي اليوم

الثالث أقسم الطرفان على الإنجيل أمام الجنود الإيطالية وقسيسها والقواد والقسيس الحبشي الذي أحضروه بصفة خصوصية من آقسوم أن يكونا أصدقاء على الدوام وتعاهدوا على ذلك شفهياً وأعطى كل من الطرفين للآخر العهد والميثاق الأكيدين بالتمسك في ما اتفقوا عليه ، وهذه صفة قسم الجنرال الإيطالي :

«أقسم بأني سأكون دائماً صديقاً لرأس منغاشا وأني سأعتبر عدوّه عدوّاً لي وصديقه صديقاً لي ، وأني سأمد يد المعونة والمساعدة له في كل وقت وزمان» وقد طلب رأس الولا من الجنرال قسماً آخر لأجله لأنه كان عالماً بأن الطليان لا ينسون قط هزيمة دوغالي ، فلا بدَّ أن يقوموا يوماً للأخذ بالثار منه . وعلى ذلك حلف الجنرال ثانياً قائلاً : «أقسم بأني أعتبر رأس الولا صديقاً لنا ولا آتي شيئاً للايقاع به» وكذلك أقسم رأس منغاشا ورأس الولا ، وبعد أن تمت هذه الحفلة وجه الرأس منغاشا على الجنرال غاندولفي وعلى القائممقام نافه لقب دازجماج كما أنه أنعم على سائر رجال الجيش الطلياني بوسام خاتم سليمان من رتب مختلفة وعلقها بيده في صدورهم ، كما أن الجنرال سلم الهدايا المرسلة من قبل حكومته إلى الرؤوس وإلى القواد ورجاليهما ، يقول أهل أوربا في أمثالهم (إن عهود العشق تكتب على صفحات الورد الرقيقة فأول هزة من الريح تبيدها وتمحوها) وأقول ما أصدق هذا المثل على هذه الأقسام والمواثيق لأن الحوادث التالية لها أظهرت أنه لم يكن لكل هاته المواثيق أدنى أهمية واعتبار .

سبب إعلان الأحكام العرفية في همازن

كان شاب من أبناء الأعيان من الأحباش ومن أقرباء رأس منغاشا المسمى أسماسق آباررا دخل في مدرسة الرهبان الطليانيين ، ودرس هناك وتخرج عليها بعد أن أتقن اللغة الطليانية ، وبعد خروجه من المدرسة دخل في الجندية الطليانية ودرس هناك أحوال وعادات الطليانيين وأطوارهم ، وبعد أن أحرز رتبة ضابط فرّ يوماً مع من كان تحت إمرته من الجنود الوطنيين المسلمين واتفق مع الفيتوراري غايرو الذي كان خدم أيضاً في الجيش الطلياني مدة وأخيه فيتوراري رايته ساي وثاروا ضد الطليان مع كثير من الأحباش الذين انضموا إليهم ، وكان في تلك الآونة أي 15 مارس 1892

أحد ضباط الطليان وهو اليوزباشي باتيني آتياً من مولاي ستايا إلى أسمرا ومعه ستة من جنوده ، فخرج رجال اسماسق الموما إليه ورفاقه عليهم وقتلوا اليوزباشي ومن معه من الجنود ،

وأرسل الجنرال غاندولفي في 17 مارس حملة مؤلفة من فصيلتين للقبض على آباررا ورفقاه ولكن هؤلاء التجؤوا إلى قمم الجبال الوعرة التي يصعب الصعود إليها ، فلم تتوفق الحملة إلى القبض عليهم ، وفي أواخر نيسان صادفت فصيلة اليوزباشي ورده للي أسماسق آباررا الموما إليه فأصلته نار الحرب ، ومع ذلك نجا آباررا من يد الفصيلة وسار هذه المرة قاصداً مقاطعة تيغرى ، وأراد رأس منغاشا أن لا يقبل آباررا ، ولكنه عدل عن ذلك بناءً على إصرار والدته ، وعقب أعمال آباررا هذا ظهر بعض أمور وأحوال تدل على الثورة والعصيان في جهات همازن فاضطر الجنرال أن يعلن الأحكام العرفية في تلك البلاد ، وألف في كل مدينة من مدن المقاطعة المذكورة مجلساً حربياً مؤلفاً من ثلاثة ضباط ، فأخذوا يعاقبون كل من يقع بأيديهم من الأشقياء والثوار المسلمين ويحكمون عليهم بالإعدام وينفذون الحكم في الحال حتى أوقفوا حدوث الثورة في أريتره مؤقتاً ، ولكن هذه الشدة التي اتخذها الطليان ضد الثائرين الوطنيين كانت سبباً لأضرار عظيمة لحقت بالطليانيين كما سيأتي ذكره فيما بعد .

إعلان فسخ عهدة اوقسياللي

مضى ثلاث سنوات على احتجاج منليك ضد اتخاذ الطليان هضاب مارب وبلز حدّاً فاصلاً بينهم وبين الحبشة ولم يعر الطليان أدنى التفات إلى احتجاج الإمبراطور ، واستمروا في اعتبار البلاد المذكورة منتهى الحد لمستعمرتهم مما ألجأ منليك إلى إعلان فسخ عهدة أوقسياللي في اليوم الحادي عشر من مايس (مايو) سنة 1893 وإن أحكام العهدة المذكورة أضحت لاغية اعتباراً من اليوم المذكور ، وأما الطليان فإنهم لم يهتموا بذلك الإعلان واستمروا في خطتهم ، وقد أظهرت الحوادث التالية أن الأحباش في هذه المدة كلها لم يكونوا نائمين ، بل إنهم كانوا يشتغلون ويجدون سرّاً في إحضار

وتجهيز ما يلزم للعمل لإسماع كلمتهم .

واقعة حالابا مع باثا آغوس

كان المدعو دازجماج باثا آغوس أمير مقاطعة أوقوله قواس الكائنة في أريتره حارب رأس منغاشيا ثم رأس الولا قبل احتلال الطليان لمستعمرة أريتره فانهزم أمامهما وضبطت أملاكه ، ولما أتى الطليان واحتلوا تلك الجهات أظهر الطاعة والخضوع لهم ، وطلب إليهم أن يردوا له مقاطعته فأجابه الطليان إلى طلبه وأرفقوه بألف ومائتي جندي من الوطنيين تحت قيادة ضباط إيطاليين ، وأعادوا له المقاطعة المذكورة وخصصوا له ما يكفي من الراتب .

وكان وقتئذ رأس منغاشيا بن يوحانس المقتول في واقعة القلابات مع الدراويش يظهر الود والميل للطليان ، ويقول لهم أنه سيجهز حملة ضد الدراويش ويساعد بها الطليان للأخذ بثار أبيه ، ويخابر من جهة أخرى سراً باثا آغوس ، وقد أخبر الطليان ببعض أحوال هذا الرجل فأرسل القائد سراً يسأل من الملازم سانغينتي المأمور بمرافقته في ساغانيني فأجاب الملازم بأنه لا يشتبه في أحوال باثاآغوس ، وفي 15 كانون أول (دسمبر) 1893 انقطعت المخابرات البرقية فجأة مع ساغانيتي حاضرة مقاطعة (أوقوله قواسي) فحمل الطليان ذلك على سبب عارضي خارجي ، ولكن لم يمضِ إلا القليل حتى ظهر أن باثا آغوس استمال إليه الجنود الوطنيين الموجودين تحت إمرة الملازم الطلياني سانغينتي ، وقبض على هذا الضابط وسجنه مع ثلاثة من مستخدمي التلغراف وبعض الجنود الطليان ، وعلى ذلك أصدر الجنرال باراتيه ري الذي كان في (كره ن) أمره إلى البيكباشي توسللي الموجود مع أورطته في أسمرا أن يذهب إلى ساغاناتي بأورطته ، وقد ظهر ظهور الشمس من إرسال باثا آغوس في اليوم التالي سجناءه الطليان إلى معسكر رأس منغاشيا ، إن الاتحاد بين هؤلاء الأحباش كان تاماً للقيام بعمل ثورة منظمة ضد الطليان ، وهذا يدل على أن العدوّ لا يكون يوماً ما صديقاً ، أما البيكباشي توسللي فإنه قام من أسمرا في الخامس عشر من الشهر ووصل في السادس عشر منه إلى قرية مهاربة الكائنة أمام ساغاناتي ، وأخذ من جهة

يراسل النقطة العسكرية الموجودة في حالايا الكائنة على بعد 18 كيلو متراً من ساغاناتي منتظراً ورود المدد الذي طلبه منها ومن جهة أخرى أرسل إلى باثا آغوس يطلب منه إخلاء سبيل الطليانيين المسجونين عنده ، فأجاب باثا آغوس على طلب البيكباشي بالمماطلة لأن السجناء كانوا أرسلوا إلى معسكر رأس منغاشيا ، وفي الليلة السابعة عشرة زحف باثاآغوس على (حالابا) بقصد الاستيلاء على استحكاماتها ، وقتل الحامية الموجودة فيها ليتمكن بذلك من فتح الطريق لرأس منغاشا إلى قلب المستعمرة الطليانية ، وفي اليوم الثامن عشر هاجم البيكباشي توسللي ساغاناتي ولما دخلها علم أنها خالية منذ البارحة من جنود باثا آغوس .

فعلم البيكباشي وجهته باثا آغوس وأنه سار إلى (حالابا) فزحف عليها بسرعة دون أن يخبر أحداً بذلك حتى يتمكن من تخليص الحامية الطليانية القليلة العدد فيها من بطش باثا آغوس ، وأما هذا فإنه وصل إلى حالابا ومعه 1900 رجل من حملة البنادق وحيث وصوله أرسل يبلغ اليوزباشي كاستللازي قائد الحامية في (حالابا) أن يترك المحل وينسحب إلى حيث يشاء سالماً ، وأراد اليوزباشي أن يطيل حبل المخابرة مع باثا آغوس ليغنم الوقت ولكن باث آغوس فهم قصده وعلم هذه المرة قيمة الوقت فلم يشأ أن يضيع فرصة فتح الطريق لسكان (اسواراتي) الذين ينتظرون وصوله لينضموا إليه ، لذلك هاجم المحل المذكور وأوشك أن يظفر بالطليان ، لو لم يصل توسللي مع أورطته وتتغير الحالة بانتصار الطليان على باثا آغوس وأصابته رصاصة أوردته حتفه ، وأما جنود الأحباش فإنهم ارتدوا إلى الاعقاب واختفى أحد أبناء باثا آغوس مع بعض جنود أبيه في الجبال ، ولحق ابنه الآخر مع بقية الجنود بمعسكر رأس منغاشيا ، ولما بلغ انتصار الطليانيين هذا مسامع حراس الملازم سانينغتي ورفقاه الذاهبين إلى معسكر رأس منغاشيا ، أعادوهم إلى ساغاناتي على شرط أن لا ينال هؤلاء الحراس سوء .

واقعة قواتيت

كان رأس منغاشا يهنئ الطليان بانتصارهم في (حالابا) بلسان ظاهره الصدق

وباطنه الرياء وإضمار الشر لهم لأنه بينما كان يظهر لهم أشد الأشياء من أعمال باثا آغوس وتقبيح سيره كان يشتغل من جهة أخرى بإعداد المعدات لمهاجمة الجيش الطلياني . والسبب في ذلك أن رأس منغاشا لما رأى أنه لم يتوصل إلى بغيته مع تقديم الطاعة والخضوع للطليان ، ذهب إلى انتوتو حيث يقيم منليك ، فصالحه وقدم له الخضوع ليحفظ نفسه ملك تيغرى على الأقل وقد كان كلم منليك قبل عهدة مارب في شأن العنوان الملكي ، فأجابه منليك قائلاً : «لأجل أن تكون أميراً أو ملكاً يجب أن يكون لك حكومة فأين حكومتك وملكك الذي ورثته عن أجدادك لأقيمك أميراً وحاكماً عليه ويجب عليك أن تسترد هذا الملك الضائع والشرف المفقود لتستحق تاج الحكم على رأسك» والآن لما رأى رأس منغاشا أنه لم يستفد شيئاً من الإيطاليين مال إلى أبناء جنسه ثانياً والتجأ إلى الأقوى من عدويه وهو منليك .

ولما أخذ الجنرال باراتيري كتاب الرأس منغاشا الذي يهنئه فيه بانتصاره (في حالابا) أرسل جواباً إلى الرأس طلب فيه منه أن يفرق الجنود الذين كان الرأس مشتغلاً بجمعهم في (انتسكيو) الكائنة على حدود المستعمرة ، وأن يسلم إليه الثوار الذين كانوا تمردوا على إيطاليا ثم التجؤوا إليه ، وأن يصدر الأمر إلى رأس ماغوس بمهاجمة الدراويش حسبما جاء في العهد والميثاق المتبادلين بين الفريقين ، وأما الرأس منغاشا فإنه لم يرد على هذا الكتاب ولم يجب طلبات الجنرال ، وكان عنده في (ادووا) ضابط إيطالي برتبة ملازم يسمى موللازاني لما رأى عدم إجابة الرأس لطلبات الجنرال ، خشي من أن يحصل له ما حصل للملازم ساننغيتي فترك (ادووا) في الحال وعلى ذلك أخذ الجنرال باراتيري يحشد قواه في (آدي أورجي) وهذا الموقع المستحكم يشرف على سهل (سه رائه) وكائن في نصف الطريق بين مصوع و (ادووا) وهاته المواضع مساعدة جداً على الدفاع عن أسمرا ، ويمكن التحصن بها والقيام بحركات حربية مهمة بقليل من الجنود نظراً لمناعة مواقعها .

ولما أتمّ الجنرال باراتيه ري إعداد المعدات وحشد الجنود نهض سائراً إلى (ادووا) ودخلها بعد ظهر 28 كانون أول (دسمبر) 1894 من غير سفك دماء ، وذلك لتجديد عهد مارب وتأييده ، وقد زار بعض الأشخاص الذين هناك وطائفة أفسوم الروحانية الجنرال باراتيري ، ولم يأتِ لزيارته الرأس منغاشا ورجال الأحباش الصالحين للضرب

والطعـان ، لأنه لم يكن يوجد أحد في (ادووا) وقتئـذ سوى العجزة والطاعنين في السن والقسس .

ولما رأى الجنرال ذلك ولم يجد من يجدد معه عهد مارب وخاف من جهة أخرى من هجوم الدراويش عليه بغتة اضطرّ أن يعود بجنوده في اليوم الثالث من كانون ثاني (يناير) إلى (آدي اوغري) دون أن ينال مطلباً من الأحباش ، وبقي مقام رأس منغاشا مجهولاً لهم حتى ظهر في اليوم العاشر منه هو ورأس الولا في (أوفولافرسا) مهدداً خطوط دفاع الطليان في مصوع وأسمرا وغندا وقد كان تحت إمرتهما جيش مؤلف من عشرة آلاف رجل عبرا به نهر (به لز) وقطعا (سهل زاما) حيث أتيا إلى (أوفولافوسا) المار ذكرها ، ولما رأى الجنرال باراتيري ذلك عزم على مهاجمتهم وأصدر الأوامر إلى الجنود بالقيام بالحركات الحربية ، فاحتل البكباشي توسللي بسرعة (فواتيت) بست فصائل من المشاة ، وسار الملازم سانتغتي والملازم مولللازاني بقوى أخرى وراء البكباشي الموما إليه ، ولم يأتِ اليوم الثاني عشر من الشهر المذكور إلا وكانت كل القوى الطليانية على تهيئة تامة في أماكنها ، وفي اليوم الثالث عشر في الساعة الثالثة والنصف صباحاً على الحساب الإفرنجي صدر الأمر لأورطة غليانون أن تصطف على شمال أورطة توسللي ، وقامت أورطة هيدالغو وراء هاتين الأورطتين بمقام الجنود الاحتياطية ، وقد كان الليل هادئاً والقمر كان بدراً ينير الأطراف كالنهار ، وكانت الجنود الإيطالية تعاين نيران معسكر الأحباش أمامهم قام الجيش الإيطالي بكل الترتيبات الحربية وتبعته الجنود في الليل وصدرت التعليمات والأوامر لكل فصيلة وأورطة بالأعمال التي ستقوم بها .

ولما أخذ الفجر بالظهور وأخذت بطارية اليوزباشي (سيكودي فولا) تلقي القنابل على الأحباش وأجاب الأحباش بنيرانهم أيضاً واشتد إلقاء المقذوفات من الطرفين ، وقد سعى جنود الأحباش مراراً أن يحيطوا بالإيطاليين ، ولكنهم لم يفلحوا ، دام القتال على هذا المنوال إلى المساء ، ولما خيم الظلام انقطعت النيران عن الفريقين على غير نتيجة وقضى الجيشان الليل قريبين من بعضهما .

وفي صباح اليوم الرابع عشر ابتدأ الأحباش بإلقاء المقذوفات على الطليان ، واستمر القتال بضع ساعات اضطر الأحباش في نهايتها أن يتقهقروا لنفاذ الرصاص والقنابل

والذخائر الحربية الموجودة عندهم ، وكانت خسارة الطليان في هذين اليومين عبارة عن ضابطين وصف ضابط و97 جندي قتلى و231 جندي جرحى .

واقعة سه نافه

كان سقط في الواقعة المذكورة بضعة أنفار من الجنود الوطنية بالجيش الطلياني في أسر الأحباش ، وفي المساء توفق بعضهم للفرار مساءً وعادوا إلى فصائلهم في الجيش المذكور ، وقالوا إن الأحباش يتقهقرون بغير انتظام وإن الخوف والرعب مستولٍ عليهم جداً ، فلما سمع الجنرال باراتيري ذلك جمع ضباطه وأركان حربه ، وبعد المداولة والمذاكرة معهم صمم على اللحاق بالأحباش ، وفي اليوم التالي وزّع على كل جندي من جنوده من الذخائر والمؤن ما يكفي لأربعة أيام وأمر بالقيام ، فتحركت الحملة في الصباح وكانت مؤلفة من الجنود الإيطاليين والجنود الوطنيين . وبعد أن قطعت الحملة أراضي صعبة المسالك كثيرة الحزون وصلت وقت الظهر إلى (توغوندا) حيث علم القائد أن الأحباش مروا من هناك قبل ثلاث ساعات قاصدين (سه نافه) ، وبعد أن استراح الطليانيون هنا ساعة واحدة قاموا قاصدين (سه نافه) المذكورة ، ووصلوا قبل الغروب إلى هضبة تشرف على (سه نافه) أمام معسكر الأحباش ، وحين وصولهم أخذت مدافعهم ترمي بمقذوفاتها على الأحباش ، وقد وقعت أول قنبلة من قنابل الإيطاليين في خيمة الراس منغاشا ولم يكن هو فيها بل كان خرج منها قبل بضع دقائق ليشجع جنوده على محاربة الإيطاليين فقتلت بضعة أشخاص من رجال الرأس ، ولما خيم الظلام اضطرّ الجيشان لقطع الحرب إلى اليوم الثاني .

وفي اليوم التالي نزل الإيطاليون إلى السهل ولكنهم وجدوه خالياً من الأحباش الذين انسحبوا ليلاً من هناك تاركين بعض الأشياء من جملتها خيمة الرأس منغاشا حيث وجدوا فيها أوراق المخابرات التي كانت تجري بين الرأس وبين منليك ، وبين باتا آغوس ورئيس القسس العاذاريين الفرنسويين ، فعلموا من هذه الأوراق بأن ما ظهر من باتا آغوس من التمرد والعصيان كان بتشويق الرأس وبرضاء وعلم القسس المذكورين الذين كانوا مشتغلين بالأمور السياسية أكثر من اشتغالهم بالأمور الدينية .

يقول الذين حضروا هاته الوقائع إن تقهقر جيش الرأس منغاشا أمام الإيطاليين على هذه الصورة كان ناشئاً عن جبن الرأس وعدم ثباته وقلة دربته في الأمور الحربية ، وقد وافق الرأس منغاشا أثناء تقهقره هذا عدواً آخر من أبناء جلدته فحاربه وتكبد الرأس خسائر فادحة ، وإليك بيان هاته الواقعة :

يوجد ولاية مهمة في مقاطعة تيغرى تسمى عقامه إدارتها بيد الأكابر من عائلة عريقة بالقدم والحسب والنسب اسمها ساغابادي ، ولما مات أمير هذه الولاية قبل الوقائع المذكورة ببضع سنوات قام النزاع على الإمارة بين رأس سابات وداز جماج آغوس تافاري وكلاهما من العائلة المذكورة ، ولما رأى رأس منغاشا ذلك عين أحد الغرباء عن عائلة ساغابادي أميراً على الولاية المذكورة ، بدلاً من أن يعيّن الأكثر استحقاقاً والأكبر من العائلة الحاكمة هناك من القديم ، ولم يكن لهذا الأمير الجديد المسمى رأس انتالو الذي عينه رأس منغاشا مزية سوى أنه حائز لرضا الرأس فقط ، لذلك أخذ الناس يتأففون من تصرف رأس منغاشا على هذه الصورة ، وثار غيظ كل من رأس سابات ودازاج تافاري المار ذكرهما وكادت تقع ثورات داخلية هائلة ، لو لم يتداخل رجال الدين النافذو الكلمة ، فطلبوا إليهما أن يحضرا عند رأس منغاشا لتسوية الخلاف بينهما وبين الرأس ، فأجاب رأس سابات إلى ذلك . ولما قصد رأس منغاشا أكرمه إكراماً زائداً ثم قبض عليه وزجَّ به في أعماق السجون في (امبا الاغي) أما دازاج آغوس تافاري فإنه كان عالماً بأحوال البلاد وتملق للراس منغاشا موجساً شراً من هذه المآدب أكثر من قريبه رأس سابات ، فلم يشأ إجابة الدعوة بل تحصن مع رجاله في جبال (به لز) وأعلن الخصام والعصيان على رأس منغاشا .

ولما قامت الحروب بين رأس منغاشا والإيطاليين هذه المرة ، كان دازاج تافاري يراقب حركاته ويتعقبه من بعد منتظراً فرصة ينتهزها ويستفيد منها ، وعندما تقهقر رأس منغاشا من (سه نافه) داهمه دازاج تافاري وقتل كثيراً من رجاله ، وأخذ من جيشه كثيراً من المواشي والغنائم الأخرى ، وبعد ذلك ذهب وقدم الطاعة للإيطاليين وقبل الإيطاليون خضوعه ، ولعلمهم ما لأفراد هذه العائلة في ولاية عقام من الحقوق وما لهم من الأهمية والنفوذ والمكانة ، عينوه أميراً على الولاية المذكورة ، ووضعوا جنود دازاج تافاري تحت إمرة البكباشي توسللي قائد منطقة عقامه باسم جنود منظمة .

وبقي دازاج تافاري آغوس تافاري هذا موالياً للإيطاليين إلى اليوم الثالث عشر من شباط (فبراير) 1896 فانضم من ثم مع رأس سابات إلى أعداء الإيطاليين أي التحق بأبناء جنسه .

احتلال تيغري

بعد انتصارات قواتيت وسه تافه الصغيرتين أراد الجنرال باراتيري أن يستولي على كل بلاد رأس منغاشا ، أي على بلاد تيغري فأرسل توسللي ومعه الأورطة الرابعة المؤلفة من الجنود الوطنيين وجنود دازاج آغوس تافاري المار ذكره ، وأمره أن يحتل (اديفرات) عاصمة عقامه ووجه البكباشي (امه غليو) بالأورطة الخامسة المؤلفة من الجنود الوطنيين إلى (ادووا) عاصمة تيغري ، وكان وقتئذ رأس منغاشا متقهقراً إلى الجنوب فاعتقد الإيطاليون لذلك أنه تم لهم أمر الاستيلاء على تيغري باحتلال هاتين البلدتين ، وأخذوا يرتبون أمور المدينة ويديرون دفة الحكم فيها ، وأما أمراء تيغري مثل رأس الولا ورأس أونتالو وغيرهم ، فإنهم كان انسحبوا إلى الجنوب بقصد أن يحشدوا الجنود ويستكملوا العدة ، وبينما كان الجنرال باراتيري يدخل إلى (روما) عاصمة إيطاليا ، حيث طلب إليها بأمر من حكومتها في شهر تموز (يوليو) دخول الظافر المنتصر بين تهليل الجموع وتصفيق الناس ، وبينما كانت تؤدب له المآدب الفخيمة يشرب فيها الشامبانيا على نخب انتصاراته ، كان الأحباش مشتغلين ومجدين في إعداد ما يلزم من المعدات لاسترجاع بلاد آبائهم وأجدادهم من يد هؤلاء الفاتحين المستعمرين ، لما كمل عدد جنود رأس منغاشا وعدده ، انضم إلى فرقتيّ رأس ولا ورأس ميكائيل واحتشد الجمع كله جنوب بحيرة (اسقيانفي) ، ولما انتهى هذا الخبر إلى روما صدر الأمر إلى الجنرال باراتيري بالسفر في الحال إلى أفريقيا ، ولما وصل إلى محل وظيفته رأى من الصواب مداهمة الأحباش وفلّ جموعهم ، لذلك أمر بحشد الجنود في اديفرات . ولما تم اجتماع الجنود في المدينة المذكورة وجه على معسكر رأس منغاشا في ٤ تشرين أول (أكتوبر) حملة مؤلفة من أربع أورط من المشاة وأورطة من حملة القراعينات وفصيلة من المدافع ، وقطعت هذه الحملة جبل (دبرا ايلله) الصعب

المسالك فوصلت في التاسع من الشهر المذكور إلى حيث يخيم جنود تيغري الأحباش ، فبدأت الحملة بمهاجمته وأصلتهم حرباً عواناً ، ولم يمض قليل من الوقت حتى اندحر الأحباش وولّوا منهزمين تاركين كثيراً من المواشي والذخائر في القتال غنيمة للإيطاليين .

إن تقهقر الأحباش هذا أمام الإيطاليين في (دبرا ايلله) لا يعد انتصاراً وليس له أقل أهمية ، ولكنه جرأ الجنرال باراتيري فأصدر أمره بتتبع آثار الأحباش ، وقسم قواه إلى قسمين ، سار سيراً حثيثاً بالأحباش ، ولكن القسم الكبير من الجيش الإيطالي لم يقدر على اللحاق به ، فقسم قواه إلى أقسام صغيرة ووزعها على الأطراف ، وفي النهاية اجتمع الإيطاليون كلهم في امبا الاجي حيث يسجن رأس سابات منذ خمس سنين ، فأخلوا سبيله . ولما رأى نفسه حراً خارج السجن أظهر مزيد ارتياحه من حضور الإيطاليين إلى هناك ، ولكننا سنرى بعد سنة واحدة أنه انضم هو وجنوده إلى راس منغاشا . إن هؤلاء الأمراء الأحباش يشبهون الإخوة الذين يتخاصمون كل يوم عدة مرات ثم يتصالحون ، وليس للحروب الداخلية التي تقع بينهم أهمية وكأنهم يعتبرون تلك الحروب كالتمارين والألعاب الوطنية ، أو كلعبة الشطرنج ، إذ بينما تراهم يحارب بعضهم بعضاً تجدهم إذا أتاهم عدو من الخارج عادوا إخواناً متحابين متحدين كأنهم رجل واحد ، أما الإيطاليون فإنهم لما لم يروا أقل مدافعة من الأحباش في تعقبهم لهم هذه المرة أيضاً ، حكموا بأن البلاد صارت إليهم وأخذوا ينظرون إلى تيغري كأنها من مستعمرة أريتره الطليانية ، ولم يخطر في بالهم أن هناك أسداً رابضاً يتهيأ ويستكمل العدة ويحشد الجنود للوثوب عليهم ، ألا وهو منليك الثاني الموجود في (شووا) كما أن رأس ماكونن الذي كان يظهر الحب والميل للإيطاليين كان من جهة أخرى يطرد تجارهم وجاليتهم من (هرر) .

هزيمة أمبا الاغي

كان جيش الرأس ماكونن الذي كان بمثابة مقدمة جيش منليك معسكراً على ساحل بحيرة اسيانفي ، ولما بلغ هذا الخبر الجنرال الإيطالي أصدر أمره إلى البيكباشي

توسللي بالمسير بألفين وخمسمائة من الجنود المشاة وبضعة مدافع إلى معسكر الرأس ماكونن المشار إليه ليمنع أولاً الأحباش من التقدم إلى الأمام ثانياً ليستكشف حال القوى الحبشية النازلة على ساحل البحيرة المذكورة وثالثاً ليعطي الوقت الكافي للقائد حتى يتمكن من حشد قواه العمومية في (اديفرات) وصلت هذه الحلة إلى هضبة امبا الاجي وظلت معسكرة هناك وفي اليوم الثالث لوصولها هاجمها الأحباش واشتبك القتال بين الفريقين وقد كان البيكباشي توسللي اجتهد أن يحافظ على خط رجعته ليجعل الطريق الذي سيصل إليه الجنرال اريمرندي بالمدد آمناً ولكن هذا المدد لم يصل إليه فسقط أكثر الضباط الإيطاليين بين قتلى وجرحى حتى فقدت الصفوف أكثرهم ، فلما رأى القائد ذلك أصدر أمره إلى اليوزباشي ريسس بالهجوم بفصيلته على الأحباش فهجمت هجمة شديدة جداً وأخذت المدافع تحميها من وراء أظهرها وتلقي الرعب والفناء بين صفوف الأحباش الذين كانوا كلما نقص عدد من جنودهم يأتون بغيرهم في الحال ويدافعون مدافعة الأبطال بلا مبالاة بنيران الإيطاليين الشديدة وبما ينالهم منها من الموت الزؤام . وفي الساعة الحادية عشرة قبل الظهر على الحساب الإفرنجي سارت فصيلة تحت قيادة الرأس الولا لقطع خط الرجعة على الجنس الإيطالي ، ولما رأى توسللي ذلك اضطر للتقهقر ليتمكن على الأقل من تخليص القوة الباقية لديه ، ومع ذلك فإن الطريق المضطر أن يرجع منها كانت محفوفة بالخطر من جهتين الجهة الواحدة وقوعها على حافة هوة عظيمة علوها 400 متر ، ومن الجهة الثانية تعرض السائر فيها لنيران جنود رأس الولا الذين كانوا واقفين له بالمرصاد على قمم تعلو 500 متراً عن الطريق وبما زاد الطين بلة والموقف حرجاً أن الطريق كانت مزدحمة بالبغال والجاريح والأثقال ، مع كل هذه الاخطار والمصاعب أخذت بقية فصيلة توسللي تمر من هذه الطريق والنيران تتساقط عليها من فوقها والهوة فاتحة فاها من تحتها لتبتلع من يسقط من الجنود فكانت فيها خسارة الفصيلة (التابور) الطليانية عظيمة جداً .

وكانت البطارية التي بقيادة الملازم مانفردي تلقي النيران من مسافة قريبة على الأحباش وأما جنود البطارية الثانية التي كانت تحت قيادة الملازم سقالا ، فقد ألقوا بالمدافع وبغالها وذخائرها وبكل لوازمها الحربية في الهوة حتى لا ينتفع بها الأحباش ،

ولم تبلغ الفصيلة ، أي التابور ، سفح الهضبة حتى لم يبقَ من الستة والعشرين ضابطاً الذين كانوا يقودونها سوى ثلاثة ضباط فقط أحياءً ، وأما البيكباشي توسللي قائد الفصيلة فإنه قتل برصاصة أصابته بعد وصول فصيلته إلى سفح الهضبة ، والحاصل أن هذه الهزيمة كانت مفجعة وبلاءها عظيماً على الجنود الطليانية إذ لم ينجُ سوى ثلاثمائة شخص من الفصيلة كلها .

ونظراً لشجاعة البيكباشي توسللي وما أظهره أثناء الواقعة من المهارة والإقدام وحسن التدبير ، أمر الرأس ماكونن أن يدفن هذا القائد الباسل في إحدى الكنائس هناك وأن يحتفل بدفنه احتفالاً عسكرياً يليق بالشرف العسكري وبقائد مثله .

حصار مكلا

وصل الجنرال اريموندي بجنوده بعد واقعة امبا الاجي بمدة غير قليلة فوجد الواقعة انتهت فالتحق به المنهزمون الذين كان أكثرهم جرحى ، ويقول أحد ضباط الإيطاليين في كتاب ألفه ، إن تأخر الجنرال اريموندي في الوصول وما أصاب حملة توسللي من المصائب والانهزام ناشئ عن الحسد الكامن في قلب الجنرال باراتيري للجنرال اريموندي المومأ إليه حتى أن انتصار الأخير في اريفرات لم يرق في عيني الجنرال باراتيري ، وفي هذه المرة استأذن الجنرال اريموندي باراتيري أن يذهب ليمد البكباشي توسللي ولكن لم يأذن له فاضطرّ اريموندي أن يرسل أمراً إلى البكباشي المومأ إليه بالتقهقر ولكن هذا الأمر لم يصل إلى البكباشي ، ولما لم يأتِ إليه خبر من قبل توسللي يطمئن به عليه أخذ كل مسؤولية على نفسه وقام هو وجنوده من غير إذن من القائد العام وكأنه وصل إلى امبا الاجي ليرى الحالة التعيسة التي كان عليها من نجا من أيدي الأحباش .

وفي اليوم نفسه صدر الأمر إلى القائد الإيطالي الموجود في آدووا أن ينسحب إلى اديفرات بعد حرق المدينة ، فاضطر الضباط هناك لجلاء الأهالي عنها لتنفيذ أمر القائد العام فخرج الناس إلى خارج المدينة نساءً ورجالاً وأطفالاً تاركين بيوتهم وأموالهم طعمة للنار ، وكان منظرهم يفتت الأكباد لما تولاهم من اليأس ولما كان يسمع

لهم من البكاء والعويل حتى أن الضباط الإيطاليين القائمين بحرق المدينة كانوا يعترفون بفظاعة هذا العمل ، وبعد انسحاب الإيطاليين دخلت شرذمة من جنود رأس منغاشا إلى (ادووا) وأفرغت ما في وسعها لإطفاء الحريق ، لكنها لم تتوفق وأضحت المدينة بعد بضع ساعات رماداً وأطلالاً . وكان الأمر صدر إلى الجنود الإيطالية أن يسرعوا بالانسحاب من ادووا ، لذلك خرجت الجنود والضباط ولم يأخذوا معهم سوى ملابسهم التي كانت على أجسامهم فقط ، وما بقي من ملابس الجنود والضباط وحوائجهم كلها تركت فريسة للنار .

بينما كانت هذه الوقائع تجري في ادووا والجنرال اريموندي يرتد إلى اديفرات كانت الأورطة الثالثة المؤلفة من الوطنيين موجودة في مكلا تحت قيادة البيكباشي غالليانو ، ومكلا هذه هي حاضرة ولاية (اندرتا) من مقاطعة تيغري ومشهورة بخصب أراضيها ، وكانت فيما مضى عاصمة لحكومة الرأس منغاشا وكان يتخذها الجيش الحبشي دائماً مركزاً لحركاته الحربية ، ولما احتل الإيطاليون مقاطعة تيغري أخذوا يقيمون الاستحكامات والقلاع ، وعندما جرت واقعة امنا آجي كانت هذه الاستحكامات لم تتم بعد ، وإنما كان الإيطاليون جمعوا هناك كثيراً من الزاد والذخائر ، ولا يوجد داخل المدينة آبار أو صهاريج للاستقاء ويأخذ الناس ماءهم من ينبوعين الواحد شحيح الماء ، وواقع خارج المدينة وقرب باب السور الكبير ، والثاني واقع في محل أبعد من الينبوع الأول ، لذلك اضطر قائد الحامية هناك أن ينشئ صهريجين وملأهما بالماء من باب الاحتياط ، وبعد مفارقة الجنرال اريموندي مكلا ببضعة أيام انقطعت الأسلاك البرقية وتعطلت المخابرات ، فأرسل البيكباشي فصيلة من جنوده لإصلاح السلك المقطوع ، ولكنهم رجعوا أدراجهم من غير أن يتمكنوا من عمل ما أمروا به لمداهمة الجنود الحبشية لهم قرب هضاب (ماسابوت) ولم يبقَ للفصيلة الموجودة في مكلا أمل سوى الاعتماد على أنفسهم وقوتهم القليلة ، لأنه بينما كان الجنرال بارا تيري يطلب جنوداً من إيطاليا ويحشدها قرب اديفرات إذ وردت في اليوم الخامس من كانون ثاني (يناير) قوى عظيمة تحت قيادة رأس ماكونن ورأس منغاشا واحتلت الهضاب الكائنة على أطراف مكلا ، وكان وصل قبل ذلك بيوم واحد الإمبراطور منليك والإمبراطورة تايتو ومعهما معسكرهما إلى محل يقال له (شه ليفو) قرب مكلا .

وكان نفوس حاكم مقاطعة غوجام التحق بمعسكر الإمبراطور ، وفي اليوم السابع من الشهر وصلت الجنود بكثرة من شه ليقو وعسكرت على بعد 8 كيلو مترات من مكلا ولما عاين الإيطاليون الموجودون داخل المدينة الصيوان الأحمر في وسط المعسكر علموا أن الإمبراطور والإمبراطورة وصلا بخيلهما ورجلهما إلى هنا ، وفي اليوم نفسه أرسل الأحباش مدافعهم إلى هضبة (انداجه زو) الكائنة على بعد 800 متر من مكلا ، وأكثر مدافع الأحباش هي من المدافع الجبلية ومختلفة العيار ، وبينها أربعة مدافع من طراز متراليوز و 28 مدفعاً من طراز هو تشيك السريعة الطلقات التي تقذف بقنابلها إلى مسافة 3500 متر ، ومن هذه المدافع يوجد دائماً خمسة مدافع في الجيش الخاص بالإمبراطورة .

باشر الأحباش اليوم الحرب مع الإيطاليين ، ولكنهم لم يلحقوا بهم خسائر تذكر وفي صباح اليوم الثامن من الشهر المذكور أخذ الأحباش يقذفون نيران مدافعهم على استحكامات مكلا من ثلاث نقط مختلفة كما أنهم أرسلوا قوة إلى الينابيع المذكورة ومنعوا الاستسقاء منها ، والماء الموجود في الصهاريج التي كان أنشأها قائد الحامية داخل المدينة كان يكفي لشرب المحصورين مدة يومين فقط ، لذلك أخذت المواشي والخيل والبغال داخل مكلا تهلك من العطش ، وفي اليوم التاسع قوى الأحباش مراكزهم الحربية ولم يكتفوا بنيران المدافع بل إنهم هاجموا المدينة ببنادقهم أيضاً ، واستمر القتال في اليوم العاشر والحادي عشر أيضاً بشدة هائلة ، وقد تكبد قواد وأمراء الجيش الحبشي خسائر تذكر لأنهم كانوا يسيرون بمقدمة الجنود المهاجمة ، لذلك قتل من أمراء وأركان الأحباش 22 شخصاً وكان الرأس ماكونن ورأس الولا بين الجاريح ، وسبب هذه الخسائر الفادحة هي أن المهاجمين كانت تصيب مقذوفاتهم الأحجار والتراب (الاستحكامات) وأما المحصورون المدافعون فبالعكس كانت مقذوفاتهم تصيب بني الإنسان أي الأحباش ، ولما رأى الأحباش عدم إمكان الاستيلاء على مدينة محصنة مثل مكلا ، غيروا خطتهم الحربية وصمموا على محاصرة المدينة فزادوا عدد الجنود الموجودة عند الينابيع وأرسلوا جنوداً كثيرة إلى الهضاب الواقعة على أطراف المدينة لتقوية الجنود الموجودين عليها ، وكانوا من آن إلى آن يلقون على الإيطاليين بعض القنابل ، وأما الإيطاليون فإنهم ثبتوا في مراكزهم لاقتناعهم بوصول

المدد إليهم في وقت قريب .

وفي اليوم الثالث عشر وصل إلى مكلا رجل مندوب من قبل الإمبراطور لطلب هدنة بضع ساعات تدفن بأثنائها الموتى من الجنود ، فقبل قائد الحامية الإيطالية ذلك على شرط أن يكون عدد الجنود التي ستقترب من المدينة محدوداً ، فعاد المندوب ليعرض الشرط على النجاشي وأمل المحصورون أن يملؤوا صهاريجهم في مدة الهدنة التي طلبها الأحباش ، ولكن خاب أملهم إذ لم يعد المندوب ثانياً ، كان القائد يعطي لكل شخص 750 جراماً في اليوم وأما هذا اليوم فإنه أنزل هذا الراتب إلى 500 جرام وفي اليوم التالي لم يعط سوى 250جراماً ، والحاصل كانت حالة المحصورين سيئة جداً وما كان يعطى لكل شخص في اليوم من الماء سوى كأس واحدة ، وفي اليوم الثامن عشر نفد الماء فجمع البيكباشي ضباطه وبعد المداولة فيما يعملونه قرّ الرأي على أن يصبروا اليوم التالي من غير ماء ، وإذا لم يأتِ المدد المنتظر في 20 منه يعطلون مدافعهم وينسفون بالنار ذخائرهم الحربية ، ثم يخرجون بالقوة مخترقين صفوف الأعداء ، فأما أن يفتحوا لهم طريقاً للنجاة وأما أن يموتوا في سبيل الدفاع عن أنفسهم ، وبينما كان المحصورون في اليوم التاسع عشر يستعدون للخروج في اليوم التالي إذ ورد أمر من الجنرال باراتيري بلزوم تسليم مكلا إلى الأحباش ، وقد أثر هذا الأمر في الضباط وقائد الحامية تأثيراً سيئاً ، وصاروا يبكون كالأطفال .

وفي اليوم التالي وصل في الساعة العاشرة إلى مكلا الموسيو فلتر التاجر الطلياني وصديق المير منليك القديم المتوسط بين الإمبراطور وبين الجنرال بارا تيري بأمر تسليم مكلا ، وعقب وصوله ببضع دقائق أنزل العلم الإيطالي ، ورفع بدلاً عنه العلم الأبيض إشارة للتسليم ، ثم خرج الناس يهرولون صوب الينابيع من شدة ما أصابهم من العطش ، وفي 21من الشهر المذكور ذهب البيكباشي إلى معسكر الإمبراطور للمذاكرة في طريقة خروج الجنود من مكلا ، فقوبل من الأحباش أحسن مقابلة وأهدى إليه الإمبراطور بغلاً وفرساً مع سرجهما ، ووعده أن يمده بألف بغل ليتمكن من الخروج هو وجنودهه من مكلا وبعد الظهر بساعتين بدئ بإخلاء المدينة المذكورة ، وبينما كانت الجنود الإيطالية خارجة من باب كانت جنود رأس ماكونن الأحباش داخلين من باب آخر ، ولما تم تسليم المدينة أنزل العلم الأبيض ورفع مكانه العلم الحبشي ، ولما رأى

الجنود الإيطاليين الذين كانوا خارج المدينة وقتئذ العلم الحبشي على السارية اغرورقت عيونهم بالدمع حزناً على ضياع هذه المدينة منهم ، ونزل الجنود في محل يبعد عن المدينة مقدار ساعتين وانتظروا هناك حتى أتت الجنود الحبشية فقام الجميع في 24 كانون ثاني (يناير) قاصدين هوازن وكانت فرقة من جنود رأس منغاشا ورأس الولا أمام الفصيلة الإيطالية وفرقة من جنود رأس ماكونن وراءها وعلى اليمين والشمال فرقة من جنود الإمبراطور ونفوس مقاطعة غوجام ، واستمروا في سيرهم هكذا حتى وصلوا إلى هوازن المذكورة في 29 منه ، فتخلف هنا الجنود الحبشيون واستمرت الفصيلة الإيطالية في سيرها ومعها الرأس ماكونن إلى أن بلغوا مكاناً في الطريق ، فوقف الرأس الموما إليه وقال لقائد الفصيلة إن رضاء الإمبراطور بخروجهم من مكلا من غير أن يمسهم سوء كان بناءً على شرط أن يرسل الجنرال باراتيري البيكباشي سلاسا إلى معسكر النجاشي للمذاكرة في شرط الصلح ، وأنه نظراً لعدم ورود البيكباشي الموما إليه إلى الآن صدر أمر الإمبراطور أن يؤخذ عشرة من الضباط يبقون لدى الجيش الحبشي كرهينة ، وبعد أن بلّغ الرأس ماكونن أمر الإمبراطور انتخب عشرة من الضباط ثم سمح للفصيلة بالسفر فسافرت .

وأما الجنرال باراتيري فإنه كان أمر البيكباشي سلاسا أن يسافر إلى معسكر الأحباش ، ولكنه لما بلغه خبر حجز منليك عشرة من ضباطه كرهن عاد واسترجع البيكباشي الموما إليه .

ولعدم وفاء الجنرال باراتيري بوعده طلبت الإمبراطورة تايتو ومن ينتمي إليها إعدام الضباط الذين أخذوا رهناً وكاد ينفذ عليهم هذا الحكم ، ولكن الإمبراطور أمر بإخلاء سبيلهم قائلاً إنه لا يجوز إعدامهم بجريرة غيرهم ، وقد أوصاهم الرأس ماكونن بأن يسافروا من المعسكر الحبشي في الحال ، وأن يفهموا الجنرال باراتيري لزوم إرسال البيكباشي ، أو على الأقل ، إرسال الموسيو فلتر ، لأن هذا الرأس والإمبراطور نفسه كانا يميلان إلى الصلح .

وأما الضباط الإيطاليون العشرة فإنهم التقوا بمعسكرهم الموجود في (ماي غايتا) بعد سير خمس ساعات ، ولما رأتهم النقط الأمامية الطليانية أطلقت عليهم بنادقها ظناً منها أنهم أحباش ، فقتلوا صف ضابط برتبة جاويش وبغلاً ، ولكن علموا فيما

عبد أنهم الضباط الإيطاليون الذين كانوا عند الأحباش ، ويقول الضباط الإيطاليون أنفسهم إن الإمبراطور منليك رجل يحب السلم ويكره سفك الدماء ، وقد أثبت ذلك بقبول توسط الموسيو فلتر بإخراج جنود الإيطاليين الذين كانوا محصورين في مكلا بعد ما كادوا يموتون عطشاً ، ثم إن هناك أمراً يدل على دهاء هذا الإمبراطور ووقوفه على أساليب السياسة وأحوال الحرب ، وذلك أنه لما خرجت الفصيلة الإيطالية من مكلا قام معها هو وجيشه بحجة مرافقتها تشريفاً لها ، ولكن تسنى له بذلك الاستيلاء على جزء كبير من الأراضي الداخلة ضمن دائرة النفوذ الإيطالي ، وقطع مسافة لا يستهان بها داخل الأراضي الإيطالية ، وهذه الحركة هي على جانب عظيم من الأهمية بالنظر لفن سوق الجيوش وتعبئتها .

وقد استغرب الجنود والضباط الإيطاليون أنفسهم عدم إرسال الجنرال باراتيري للبيكباشي إلى المعسكر الحبشي لعقد الصلح .

ثورة عقامه

وفي 5 شباط (فبراير) أي بعد إعادة الضباط العشرة الذين كانوا أخذوا كرهن وصل إلى معسكر الجنرال باراتيري بالمبراس أمانول من قبل الإمبراطور منليك ، وأبلغه بأن الإمبراطور نقل معسكره من هوازن إلى (غانداباتا) وأنه سينتظر هناك ستة أيام لعقد الصلح ، وعلى ذلك رضي هذا الجنرال العجيب أن يرسل البكباشي سلاسا وأمره أن يعقد الصلح على الشروط الآتية :

1 ـ تجديد عهد أوقسياللي .

2 ـ الاعتراف بالأراضي التي استولت عليها ايطاليا في المدة الأخيرة بأنها مستعمرة إيطالية اعترافاً تاماً .

ولا يخفى أن هاته الشروط لا ترضي الإمبراطور الذي يميل إلى عقد الصلح فضلاً عن الإمبراطورة وحزبها ، لذلك أثارت هاته الشروط التي لا تطاق غضب الإمبراطورة وأخيها رأس وليه ورأس منغاشا ورأس الولا وعلى ذلك طلب الإمبراطور من الجنرال نظير عقد الصلح :

أولاً ــ الجلاء عن الأراضي التي احتلها الإيطاليون مؤخراً .

ثانيا ــ تعديل عهدة اوقسياللي .

وقد جعل النجاشي طلبه هذا بصفة إنذار نهائي وأرسله مع البيكباشي سلاسا المندوب الإيطالي ، ولما انتهت طلبات الإمبراطور إلى الجنرال باراتيري أرسل حالاً كتاباً شديد اللهجة إلى الإمبراطور أخبره فيه أن كلا من الفريقين حر في حركاته الحربية .

وفي نفس اليوم الذي وصل فيه البيكباشي سلاسا إلى معسكر الجنرال باراتيري قام الرأس سابات وآغوس تافاري اللذان كانا في خدمة الجيش الإيطالي وتركا معسكر الجنرال والتحقا بجيش أبناء جنسهم الأحباش بخمسمائة جندي وقوبلا بكل تجلة واحترام ، نعم إن انضمام خمسمائة جندي إلى الجيش المحارب لإيطاليا لا يعد خسارة عظيمة على الإيطاليين ولكن أهميته كبيرة جداً بسبب ما لهذين القائدين من النفوذ في البلاد التي ستحصل فيها الوقائع الحربية ، وقد حصل ذلك بالفعل إذ قام الأهالي ضد الإيطاليين وأخذوا يشنّون الغارة على قوافل الجيش الحاملة للزاد والذخائر ، ويهاجمون النقط الأمامية للجيش الإيطالي وفصائله ، ولقد كانت إعالة الجنود الإيطالية متعسّرة جداً من قبل ، فكيف بها الآن لا جرم أنها صارت مستحيلة ، لهذا اضطر الجنرال باراتيري أن يرتد بمعسكره إلى هضاب (تيزالا) ولم تكن الجنود الإيطالية ، خصوصاً التي وصلت حديثاً من بلادها معتادة على هذه المتاعب والمشاق والتغذي بقليل من الدقيق مخلوط بقليل من الماء ، وعلى مراحل ومسافات طويلة وتسلق جبال أوعر وأصلب من جبال الألب ، لذلك كله نال هؤلاء الجنود تعب عظيم وتفشى الوباء بالماشية والخيل والبغال الخاصّة بالمعسكر فهلك معظمها .

وأما الجيش الحبشي فإنه قام بعد أن أتم معداته قاصداً (ادووا) وقد كان وقتئذ القائد العام للجيش الإيطالي نازلاً بقواه على الهضاب الحاكمة على (اينتقيو) وكان يكتفي بإرسال فصائل صغيرة كل يوم لاكتشاف ما حول هاته الهضاب ، فكانت تصادف الفصائل الحبشية الكثيرة العدد وتناوشها القتال ، ثم تعود من حيث أتت بعد أن تخسر كثيراً من رجالها .

واقعة لينا

ومن وقائع هذه الفصائل واقعة لينا حيث ذهب الملازم سيسزني في مساء 14 شباط (فبراير) للاكتشاف ومعه 60 جندياً إيطالياً و 50 جندياً من الوطنيين ، وبينما كان يتسلق هو وجنوده سفح هضبة وعرة في أثناء عودته للعودة إلى المعسكر إذ داهمهم جند الأحباش وأخذوا يرمونهم بوابل من رصاص البنادق واستمر كذلك حتى خيم الظلام وقتل كثير من جنوده ، ولقد سمع صوت البنادق من اديفرات فأرسل مدداً مؤلفاً من 35جنديا إيطالياً بقيادة الملازم قونسيللي ولكنهم لشدة الظلام لم يهتدوا للمكان الذي كان فيه رفيقهم الملازم سيسزني واضطروا أن يقضوا الليل كله في الجبال ، وفي الصباح صادفوا فصيلة حبشية ، فاشتبك القتال بينهم وبينها فأبيدت الفصيلة الإيطالية عن آخرها .

أما الملازم سيسزني فإنه لم يعلم بالمدد الذي جاءه إلاّ لما سمع صوت طلقات البنادق ، فأراد أن يمد إخوانه ولكن رأى فصيلة حبشية مؤلفة من 500 جندي أخذت تحيط به ، فخشي أن ينقطع عليه خط الرجعة ، فأمر جنوده بالتقهقر ولما وصل إلى اديفرات لم يكن بقي معه من جنوده إلا بضعة أشخاص والباقي ذهب فريسة لنيران الأحباش .

واقعة اله فان

قام الملازم سيمينيو من اديفرات في 16 شباط (فبراير) ومعه 100 جندي من المشاة للالتحاق بالمحافظين على قافلة كبيرة تحمل ذخائر حربية ، ولما وصلت هذه الفصيلة إلى (اله فا) التقت بفصيلة الملازم نيفرتي الإيطالي وانضمت إليها ، وبعد قليل ظهر تابور من الجنود الحبشية مؤلفاً من 1000 جندي ، فأحاطوا بالفصيلتين الإيطاليتين وقتلوا كل رجالها وكان الملازمان سيميوني ونيفرتي بين القتلى .

وانتهى خبر مهاجمة الأحباش للفصيلتين المذكورتين إلى المعسكر الإيطالي فقام

في الحال اليوزباشي موقوغاتا ومعه 140 جنديا لنجدة الفصائل ، ولكنه لم يكد يصل إلى محل الواقعة إلا وكانت الحرب انتهت على أن الأحباش لما رأوا هذه الفصيلة هاجموها من كل جانب فاضطرت للتقهقر وكادوا يبددونها عن آخرها إذ لم ينجُ منها سوى ثمانية جنود والضابط تاسعهم ، أما القافلة فإنها وقعت كلها بيد الأحباش ، وهنا يجب أن نقص عليك حكاية حدثت في أثناء هذه الواقعة وهي نموذج للشجاعة والوفاء من ضابط وجندي :

بينما كان القتال مشتبكاً أحاط نفر من الأحباش بضابط برتبة ملازم يسمى قابوتو وطلبوا منه أن يسلم نفسه ، ولكن الضابط أبى وقتل بمسدسه ستة من الأحباش ثم أصابته رصاصة ألقته صريعاً على الأرض ، وظن الأحباش أنه قتل ، ولكي يتأكدوا من ذلك أحرقوا رجله بالنار ثم انصرفوا ، أما الضابط فإنه كان أغمي عليه من جراحه ، ولما أفاق من إغمائه وجد نفسه بين ذراعي جندي حبشي فنظر في وجهه فعرفه ، وقد كان هذا الجندي الحبشي دخل متطوعاً في الجيش الإيطالي حيث ألحق بفصيلة هذا الملازم ، فلما انتهت هذه الواقعة وانصرف الأحباش عاد الجندي إلى محل الواقعة وأخذ يداوي الضابط المداواة الأولية البسيطة حتى أفاق من إغمائه ثم حمله على ظهره وذهب إلى المعسكر الإيطالي . فما أعظم هذا العمل وما أشرف نفس هذا الجندي البسيط الذي بعد أن أدى وظيفة الجندي مع سائر مواطنيه في ساحات القتال أدى بعدها وظيفة الإنسانية وحق الوفاء والصداقة والمعرفة القديمتين ، فبورك بهذا الإحساس الشريف ، وبورك بهذا الإنسان الكريم .

وفي 17شباط (فبراير) قام الجنرال باراتيري من معسكره مستصحباً مع ثلاثة أورط (توابير) للاستكشاف بنفسه فرأى الجيش الحبشي نازلاً في سفوح جبل (سيله ست) البعيد عن محل المعسكر الإيطالي بخمسة عشر كيلو متراً فلم يستنسب مهاجمة الأحباش في هذا المحل وأمر أن تغيِّر القوافل الآتية إلى معسكره طريقها وأن تأتي من الآن وصاعداً عن طريق (ماي ـ مارات ـ دبرا ـ داموا) وما كان يعلم الجنرال أن هذا الطريق هو أكثر خطراً وتهلكة من الأول ، لأن الرأس سابات كان نازلاً هو وجنوده في الهضاب المشرفة على هذا الطريق .

يوجد في هذا المكان دير للأحباش مبني على هضبة (امبادامو) وهو مشهور عند

الأحباش وأراضي (دامو) هذه مؤلفة من ستين قرية فيها 400 عائلة وكل هذه القرى هي ملك للدير المذكور فيمتلك كل راهب من الرهبان قرية من القرى المذكورة بما فيها من الأرض والسكان والمواشي والرهبان تابعون في أحكامهم لرئيس دير ناحية (دامو) والدير المذكور للجناة العتاة وقطاع الطرق لأنه مقدس يحرم دخول رجال الحكومة فيه ، أي أنه فوق أحكام القانون والحكومة ، والهضاب التي تسمى (امبا) في بلاد الحبشة هي عبارة عن هضبة تكتنفها من كل جانب صخور شامخة واقفة كالعمد أو كالجدران حيث يستحيل الصعود إلى القمة إلا بطريق ضيق لا يمر منه إلا الحيوان من الماعز والغنم ، وأما القمة فإنها عبارة عن سهل منبسط وأرض مخصبة منبتة ، إذن فهذه الهضاب هي حصن منيع طبيعي إذا تحصنت فيه فصيلة صغيرة تتمكن من إلقاء الفشل في صفوف قوة كبيرة وتجعل مركزها من أحرج المراكز ، ومن الهضاب التي رأيتها في المملكة العثمانية وتشبه هذه الهضاب الهضبة المبني عليها قلعة وان ، فإنها واقعة في أعلى الهضبة الكائنة في وسط سهل واسع الأرجاء وليس لها سوى طريق واحد ضيق ، والناظر من أعلاها يرى المدينة كأنه ينظر من أعلى أبراج الحريق إلى الآستانة ،

ويوجد على هضبة (امبادامو) صخرة جسيمة قائمة كعامود مبني عليها الدير ، ولا يتمكن الإنسان من الصعود إلى الدير إلاّ بواسطة الحبال ، وكذلك النزول لأن ارتفاع الدير عن سطح الامبا 30 متراً وللدير خدم مكلفون بإصعاد من يريد الصعود إليه بالحبال ، ويوجد في هذا الدير 60 راهباً ومأوهم من صهريج شيد في البدء ولهذا الدير حكاية في سبب بنائه لسنا في صدد ذكرها هنا .

وبالجملة فإن أطراف الدير وجواره أكثر خطراً على القوافل من الطريق القديم كما مر ذكره ، لذلك أمر القائد العام الإيطالي الميرالاي سنه فاني الموجود في مواقع (ماي مارات) أن يحتل هذه الامبا بالالاي المسمى (بزه رغانيه) فلما وصل الميرالاي إلى دير ادامو استحضر رئيس الدير وأبقاه عنده رهينة يدفع بها تعدي الأهالي على الجنود الإيطالية ، هذا من جهة ومن جهة أخرى كي يساعد هذا الرئيس الأحباش للوصول إلى الهضبة .

وفي 26 من الشهر المذكور هاجم الميرالاي سنه فاني معسكر رأس سابات واضطره

لإخلاء مواقعه والتقهقر ، وبذلك تمكن من فتح خط حركات الجيش الإيطالي وأمن الطريق الذي تأتي منه القوافل الحاملة للذخائر والمؤن للجيش الإيطالي ولو لم يتوفق الميرالاي لذلك لكان الجيش الإيطالي اضطر أن ينسحب إلى (آدي قابا) أو إلى أسمرا .

ولما رأى الأحباش ذلك سحبوا جنودهم النازلة على نهر مارب وحدودها فيما وراء (ادووا) ليجروا الإيطاليين إليهم .

واقعة (أدووا)

وبينما كان الجنرال بارات يري يستعد للانسحاب من صوريا إلى اديفرات إذ ورد عليه رسالة برقية من إيطاليا تنبئ بقيام الجنرال هوش من نابولي ومعه فرقة كاملة وبضع توابير قاصداً مصوع ، أخبرت الحكومة الإيطالية الجنرال عن سفر الجنرال هوش الموما إليه ، وإنما أخفت عنه إقالته من القيادة وتعيين الجنرال بالديسرا مكانه منذ 23 حيث قام بعد من برنديزي قاصداً محل وظيفته ، ولكن خبر هذا التعيين شاع في 27 من الشهر بين الضباط في أسمرا وكان وقتئذ الجنرال باراتيري في صوريا بعيداً عن أسمرا ولا يعلم إن كان بلغه هذا الخبر أم لا ، ولم يشأ هذا الجنرال انتظار وصول الجنود التي سافرت من نابولي ، بل إنه ألّف مجلس مشورة من قواده وأركان حربه وتفاوضوا في التقهقر أو الهجوم على الأحباش وأيهما الأوفق ، فكانت نتيجة المذاكرة والمداولة أن قرروا الهجوم على الأحباش .

وفي 29 الشهر بلغ الجنرال باراتيري من الذين كان أرسلهم للكشف عن مواقع الأحباش أن القسم الصغير من جيش الحبشة وعدده عشرون ألفاً نازل في سهل (أبا عزيمه) وأن القسم الكبير المؤلف من مائة ألف جندي معسكر في ما وراء (آدووا) وعلى ذلك قرر القائد العام الهجوم على معسكر الأحباش فأصدر أمره بسفر جميع القوى الإيطالية في مساء اليوم المذكور ، فكان فكر القائد العام أن يفاجئ بجيشه في سحر اليوم التالي معسكر الأحباش ويأخذه على غرة .

مقدار قوى الجنرال باراتيري حسب ما ذكرها الضباط الإيطاليون

1 ـ اللواء المؤلف من الجنود المتطوعة من الأهالي تحت قيادة الجنرال آلبرتون :

ـ أورط من الجنود المتطوعة الأهلية	3700 بندقية
ـ جنود الرئيس الوطني المسمى اوقوله قوساني	376 بندقية
ـ بطارية من المدفعيين الوطنيين	6 مدافع
ـ بطاريتان من المدافع الإيطالية	8 مدافع

2 ـ لواء المشاة وقائده الجنرال دابورميدا :

ـ أورط جنود إيطالية	3640 بندقية
ـ أورطة وطنية	650 بندقية
ـ جنود أسمرا	218 بندقية
ـ بطاريات إيطالية	18 مدفع

3 ـ لواء المشاة وقائده الجنرال آلينا :

ـ أورط جنود من المشاة الإيطالية	2930 بندقية
ـ أورطة من الجنود المتطوعة الأهلية مشاة	1150 بندقية
ـ نصف فصيلة من جنود المهندسين	70 بندقية
ـ بطاريتان من المدافع الإيطالية	12 مدفع

4 ـ لواء المشاة وقائده الجنرال اريموندي :

ـ أورط من المشاة الإيطاليين	3272 بندقية
ـ فصيلة واحدة من الجنود المشاة الأهليين	230 بندقية
ـ بطاريتان من المدافع الإيطالية	12 مدفع

واذا أضفنا على القوى المذكورة آنفاً خمسمائة ضابط وخمسمائة من جنود

الجاندارمه وغيرها يكون مجموع الجنود الإيطالية 16500 محارب فقط .

قامت هذه الحملة الإيطالية قاصدة معسكر الأحباش النازل قرب آدووا في 29 شباط (فبراير) 1896 في الساعة التاسعة مساء على الحساب الإفرنجي ، وأخذت تحث السير تحت نور القمر الذي كان بدراً وجعلت مسيرها على طريق (صوريابوني) مارين بسهل (انتي سبفو) وجبال (جحا) ذات الحزون الكثيرة والمعارج والمنحدرات ، فكان الجنود في بعض الأوقات يضطرون أن يأخذ بعضهم بيد بعض ليتمكنوا من السير ، وكان لواء الجنرال آلبرتو في المقدمة وبعده ألوية الجنرالين اريموندي ودابورميدا وكان لواء الجنرال آلينا يسير في المؤخرة ، قطعت هذه الحملة ثماني ساعات ذاقت فيها أنواع المشاق ووصلت مع بزوغ الفجر إلى محل يسمى (ربى ارين) حيث التقت بالقائد العام الإيطالي وبأركان حربه ، وهنا تغيرت الترتيبات الحربية وصار ترتيب صفوف الجنود على الوجه الآتي :

على لواء آلبرتون أن يسير إلى الأمام عن طريق شيدان ورنا مع لوائين آخرين وأن يحتل نقط (ربى ارايني) و (رابو) وعلى لواء آلينا الاحتياطي أن يحتل جهة الشمال الشرقي من (ربى بوني) التي سيجعل القائد العام مقره فيها ، وقد قامت هاته القوى بما أمرت به واحتلت النقط المذكورة ، ونزل لواء آلبرتون على يسار جبل (رابو) كما أن الألوية الثلاثة الأخرى نزلت وراء هذا الجبل ، وأما الجنرال آلبرتون فإنه أرسل الأورطة الأولى والثانية المؤلفة من الجنود الوطنيين المشاة إلى الأمام تحت قيادة البيكباشي تورينو إلى ادووا ، ووصلت هذه الأورطة بغتة في الساعة السادسة صباحاً إلى أمام معسكر الأحباش ، وأخذت تقذف نيرانها على الأحباش الذين جاوبوها بالمثل ثم هاجموها مهاجمة شديدة فلم يمضِ من الزمن إلا القليل حتى بادت الأورطة عن آخرها ولم ينجُ منها ولا رجل واحد وواصل الأحباش هجومهم إلى لواء آلبرتون الذي كان سائراً وراء أورطة نويتو المذكورة فدافع هذا اللواء دفاعاً شديداً ولكن جموع الأحباش أخذت تزحف عليه من كل صوب كأسراب النمل ، فأحاطوا باللواء المذكور ، وفي الساعة السابعة أرسل الجنرال آلبرتون يطلب مدداً من القائد العام ولكن كتابه لم يصله إلا في الساعة التاسعة ، وعلى ذلك أمر الجنرال باراتيري أن يسير اللوائين الآخرين إلى الأمام لتعزيز قوى آلبرتون وامداده فسار الأول تحت قيادة

جنرال بورميدا ولكنه ضلَّ عن الطريق الموصل إلى مقر الجنرال آلبرتون ومشى في وادي مريم وسافيتو ، وبذلك انفصل عن الجيش انفصالاً تاماً ، أما اللواء الثاني فإنه سار قاصداً جهة اريسن فوجد جميع الأحباش احتلوا جميع الهضاب الواقعة في الجهة المحاذية للقوى الإيطالية .

أما الجنرال آلبرتون فإنه ظلَّ يقاوم الأحباش ويكافحهم مدة حتى نفدت قواه وتكاثرت عليه الجموع ، فتقهقر منهزماً بمن بقي من لوائه شر هزيمة ، ومع ذلك فإن الجنود الحبشية لم تتركهم بل تتبعت آثارهم وشبعتهم ضرباً وطعناً حتى فني جميع الضباط ووقع الجنرال آلبرتون نفسه بين أيدي الأحباش .

هذا ما كان من أمر الجنرال آلبرتون وأما الجنرالان اريموندي واله نا فإن الأحباش أحاطوا بلوائهما أيضاً إحاطة السوار بالمعصم واختلط الجيشان اختلاط الحابل بالنابل حتى أدى الكفاح إلى التماسك بالأيدي والتضارب بالسلاح الأبيض ، حتى وصل الأمر إلى أن هذين الجنرالين عجزا عن جمع جنودهما بأية وسيلة كانت والتقهقر بهم إلى الوراء تخلصاً من فتك الأحباش بهم ، وكانت خسائر الإيطاليين عظيمة جداً خصوصاً جنود الطوبجية ، وبالأخص ضباطهم الذين لم يتمكنوا من استعمال مدافعهم ولم يشؤوا تركها بين أيدي أعدائهم فماتوا جميعهم في سبيل الدفاع عن بطارياتهم وقد كان مع الإيطاليين ٦٥ مدفعاً فوقع منها 45 غنيمة في أيدي الأحباش وتمزقت صفوف الجنود الإيطالية شذر مذر ، ولم ينفع ما بذله الضباط من السعي في تخفيف وطأة الهزيمة هذا وقد قتل الجنرال اريموندي ، وكثير من الضباط ومما زاد خسائر الإيطاليين تسلط الأهالي عليهم أثناء تقهقرهم ، هذا ما أصاب لواء آلبرتون الذي باد عن آخره ولواء اريموندي الذي انهزم شرَّ هزيمة ، وأما لواء برومـيدا الذي كان ضل الطريق وانفصل عن باقي الجيوش فإنه بينما كان سائراً في وادي مريم وسافيتو صادف فرقة حبشية فنشبت بينه وبينها الحرب فألجأها إلى التقهقر حتى أوصلها إلى الوادي ، ولكنه في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر وجد نفسه بغتة أمام الجيوش الحبشية المطاردة للقوى الإيطالية الأخرى المنهزمة ، وقد قاوم الجنرال بورميدا هذه القوى الهائلة بشجاعة نادرة لكنه غلب على أمره وقتل هو وأكثر ضباطه وألقي الفشل في صفوف لوائه فانهزمت الجنود وتشتت هذا اللواء أيضاً وأصابه ما أصاب لواء الجنرال اريموندي

وفرّ من نجا من الموت إلى جهة (آدي اورجي) وأخذ الأحباش يتتبعون آثار المنهزمين طول النهار ، وفي المساء جمع بعض الذين نجوا من مخالب الموت ما بقي من الجنود الإيطالية وعادوا إلى أسمرا ، وأما القائد العام الجنرال باراتيري فإنه كان يشاهد من الهضبة التي كان اتخذها كمقر له ما أصاب جيشه من الهزائم والمصائب ولما تم القضاء على الجيش كله عاد في المساء إلى أسمرا عن طريق (انتشيفو) وقد أحصى خسائر الإيطاليين في هذه الوقائع ، فوجد أنها تزيد على سبعة آلاف شخص بين قتيل وجريح ، أما هذا الجنرال أي القائد العام فقد حوكم فيما بعد أمام مجلس حربي ، ولكنه خرج بريء الساحة .

وبعد انتهاء الحرب عقد الإمبراطور منليك مجلساً مؤلفاً من الرؤوس لتعيين العقاب اللازم إيقاعه بالأسرى الوطنيين الذين هم من أهل البلاد وخدموا بالجيش الطلياني ، وأراد الإمبراطور المجبول على الرحمة والشفقة أن يكون عقاب هؤلاء خفيفاً ، ولكن بناءً على إصرار الإمبراطورة والرؤوس ، فقد تقرر معاملتهم معاملة خائن الوطن ، وصدر الحكم عليهم بقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى حسب المادة التي تنص عن خائن الوطن من قانون (فتانفوس) ونفذ هذا الحكم فيهم في الحال ، وأما الأسرى من الإيطاليين ، فإن البعض منهم ألحقوا في خدمة أكابر الجيش كعادة هذه البلاد ، كانت نتيجة هذا الانهزام أن دفعت إيطاليا إلى الحبش غرامة حربية عظيمة وتخلت عن جميع المواقع والبلاد التي كانت احتلتها في مقاطعة تيغري .

يوم الأربعاء ٧ يوليو / تموز

وصلنا اليوم إلى السويس فودعنا ربان البارجة وسائر الركاب وخرجنا إلى البر حيث نزلنا في فندق قونتيننتال الواقع على الترعة .

يوم الخميس ٨ منه

سافرنا اليوم من هنا على قطار الساعة الواحدة بعد الظهر عن طريق الإسماعيلية

ومنها إلى الإسكندرية ، أقمنا يومين وفي يوم السبت ركبنا الباخرة جنجاجيف الروسية قاصدين الآستانة العلية فبلغناها بعد ظهر يوم الجمعة الموافق 16 (يوليو) وبذلك تمت رحلتنا التي استغرقت ثلاثة شهور كاملة .

تمت

مُلحَق

مشاهير الأحباش

(ألحق الرحّالة هذا الثبت من الأسماء في متن رحلته،
وقد آثرنا أن ننشره هنا منفصلاً عنه)

لقمان الحبشي

وهو مشهور بفرط التعقل والحكمة ، وقد أشار الله في القرآن الكريم إلى مواعظ لقمان الحبشي التي ألقاها على ابنه ، وقد اتخذ بعضهم حكم لقمان دليلاً على نبوته ولكن أغلب المفسرين قالوا : إن هذه الحكمة هي بلاغة وفصاحة لسان وأثر من آثار العقل والفضل وإصابة الرأي . والحقيقة إنه مختلف فيه هل هو نبي أم ولي ، والقول الأخير هو الأرجح ، وقد روى بعض المحدثين ، منهم ابن مردويه بإسناده إلى أبي هريرة وابن عساكر بإسناده إلى عبد الرحمن بن يزيد وجابر أن لقمان حبشي .

بلال الحبشي مؤذن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

كان مولى عبدالله بن جدعان في مكة المكرمة وقد أسلم على يدي النبي عليه الصلاة والسلام ، ولذلك كان سيده يعذبه انتقاماً منه ولما بلغ هذا الخبر أبا بكر الصديق اشتراه من عبدالله وأعتقه لوجه الله . وبلال الحبشي ممن صاحب سيدنا محمداً وكان يؤذن بالصلاة بين يديه وقد روي عنه أحاديث عديدة ووجد مع الرسول

صلى الله عليه وسلم في أغلب غزواته ، ثم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ذهب مع الحبشي الذي أرسله عمر رضي الله عنه في زمن خلافته لفتح الشام واستقر في دمشق بعد فتحها واتخذها مقاماً له وفيها تُوفي عن عمر ناهز الستين ودفن في مقبرة الباب الصغير ، وقبره معروف إلى يومنا هذا يزوره الناس ويتبركون به رضي الله عنه وعن جميع الصحابة الكرام .

مهجع الحبشي

كان مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد أسلم وصحب النبي صلى الله عليه وسلم وحضر واقعة بدر وقتل فيها .

نفيع بن مروح الحبشي

هو مولى الحرث بن كلدة الثقفي ولما حوصرت الطائف كان نفيع فيها فتدلى من السور بحبل وبكرة وذهب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأسلم وتشرف بصحبته ، وقد أطلق عليه لقب أبو بكرة نسبة للبكرة التي استعملها عند نزوله من سور الطائف وقت الحصار ، وقد بقي نفيع رضي الله عنه على الحياد في واقعة الجمل ولم يشترك بالحرب مع أحد المتقاتلين ، وتُوفي في البصرة سنة 65 ودفن فيها وله من العقب ولدان الواحد يسمى عبد الله والآخر سليم .

شقران الحبشي

وأصل اسمه صالح بن عدي ولقبه الشقران ، كان في بادئ الأمر مولى عبد الرحمن بن عوف واشتراه في ما بعد النبي عليه الصلاة والسلام وأعتقه عقب واقعة بدر ، وقد حضر هذا الصحابي رضي الله عنه وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كما أنه كان من جملة الذين قاموا بتكفينه وبتجهيزه ودفنه ، وقد استمرت ذريته موجودة إلى زمن الخليفة هارون الرشيد العباسي .

ذو محجر الحبشي

هو ابن أخي أصحمة نجاشي الحبشة وقد كان بين الاثنين والسبعين حبشياً الذين حضروا من الحبشة مع سيدنا جعفر ، وكان لهذا الصحابي حب للنبي صلى الله عليه وسلم وملازمة له كان يظن أنه أحد مواليه ، وما كان يفارق النبي ولا لحظة واحدة ، بل كان دائماً في خدمته الشريفة ، وقد روى بعض الأحاديث وتُوفي في دمشق في الستين من عمره .

ذو مهدم الحبشي

وهو أيضا من الأحباش الذين أتو مع سيدنا جعفر وتشرفوا بصحبة النبي وقد كان هذا الصحابي يومئ في قصائده التي ينشدها أمام النبي أن أصل الأحباش من أولاد هود الذين مروا من جزيرة العرب إلى الساحل الإفريقي .

خالد بن رباح الحبشي

هو أخو بلال الحبشي المار ذكره وقد كان توطن في قرية داريا قرب دمشق الشام .

ذو دجن الحبشي وغيره

هو من الأحباش الذين أتوا مع سيدنا جعفر وقد صحب النبي أيضاً ومن الذين أتوا مع جعفر من الحبشة وتشرفوا بصحبة النبي ذو مناصب الحبشي وخالد بن الحوارثي الحبشي .

أسلم الحبشي

كان عند أحد يهود خيبر في أيام حصار هذه المدينة وقد وفد أثناء الحصار على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم ، ثم اشترك في قتال خيبر وقتل وكان بين إظهار إسلامه ووفاته ساعتان فقط .

يسار الحبشي

كان عند رجل من يهود خيبر يقال له عامر فأسلم وقتل أثناء الحصار أيضاً .

وحشي بن حرب الحبشي

كان قبل إسلامه مولى جبير بن مطعم ، وقد كان بين المشركين في واقعة أحد وهو الذي قتل سيدنا حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلام ووفد بعد ذلك على النبي في المدينة المنورة وأسلم هناك ، وهو الذي قتل في خلافة أبي بكر الصديق مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة في اليمامة .

عاصم الحبشي

مولى زراعة الشفري وقد أهداه سيده إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

نائل الحبشي

وهو أبو أيمن أحد الصحابة الكرام ورواة الحديث .

لقيط الحبشي

من موالي النبي عليه الصلاة والسلام .

يسار الحبشي

القائم بكنس المسجد النبوي وأمر نظافته ، وروى أبو هريرة أن النبي أثنى على يسار أمامه .

جعال الحبشي

هو من الذين حضروا غزوات النبي وقتلوا في إحداها .

أبرهة بن صباح الحبشي

والدة هذا الصحابي هي بنت أبرهة الأشرم صاحب الفيل المشهور وملك اليمن ، وكان أبرهة بن صباح من رجال أصحمة لنجاشي الحبشة فوفد على النبي هو وسبعة من رفاقه ودخلوا في الإسلام .

أسلم أبو خالد الحبشي

مولى سيدنا عمر بن الخطاب وقد روى أحاديث كثيرة عن كثير من الصحابة الكرام وكان أطول عمراً لأنه بلغ من العمر 114 سنة وتُوفي في زمن مروان بن الحكم .

أيمن الحبشي

أبو عبد الواحد ومولى عبد الله بن عمرو المخزومي وقد روى عن جابر بن عبد الله الأنصاري .

أنجشة الحبشي

لقبه أبو مارية وهو من الذين نالوا شرف الصحبة ، وقد حضر حجة الوداع مع فخر الرسل سيدنا محمد وكان يلازمه أين ما ذهب ويحدي في الطريق للجمال لتسير بسرعة ، ويوجد كثير من الأحباش غير الذين ذكروا ممن نالوا صحبة النبي ولكن لم تحفظ أسماؤهم .

أسماء الصحابيات المطهرات من الحبشيات

بركة أم أيمن الحبشية

جارية سيدنا عبد الله بن عبد المطلب وهي التي قامت بخدمة النبي صلى الله عليه وسلم بعد ولدته وبتربيته حتى شبّ ، وقد أعتقها سيدنا محمد بعد زواجه بالسيدة خديجة رضي الله تعالى عنها وكان يحبها كوالدته ويقول ذلك أمام الناس وبعد عتاقها زوجها النبي صلى الله عليه وسلم من زيد بن حارثة أحد مواليه فولدت له أسامة بن زيد ، وقد كان سيدنا محمد يتردد كثيراً إلى منزل بركة أم أيمن لزيارتها كذلك كان الخلفاء الأربعة بعد وفاة النبي يزورونها اتباعاً لما كان سنه النبي على نفسه من زيارتها .

سعترة الحبشية

هي من إماء بني أسد وقد ألمَّ بها مرض فأتت وشكت ذلك إلى النبي صلى لله عليه وسلم فدعى لها بالشفاء .

بركة الحبشية

هي أمة أم حبيبة إحدى زوجات النبي وقد جاءت معها من الحبشة .

عفيرة بن رباح الحبشية

أخت بلال الحبشي مؤذن الرسول عليه الصلاة والسلام

نبعة الحبشية

هي أمة أم هانئ إحدى زوجات الرسول وبنت أبي طالب ، وقد كانت في خدمة النبي عليه الصلاة والسلام .

أسماء بعض التابعين والتابعات من الأحباش

عبد الله الحبشي

هو ابن النجاشي أصحمة المعاصر للنبي صلى الله عليه وسلم وقد ولد في الحبشة وسمّاه باسم ابنه عبد الله الحديث الولادة ، وقد أرضعته زوجة جعفر الموما إليه ، ولما شبّ عبد الله بن جعفر وعبد الله الحبشي أحبا بعضهما وكانت المودة بينهما متبادلة .

حميس الحبشي

ذكره بعض المؤرخين في عداد الصحابة الكرام والبعض ذكره في عداد التابعين .

الفقيه عطاء بن رباح الحبشي

وهو مولى أبي مسرة الفهري وكان من أجلة الفقهاء والزهاد ، وقد روي عنه

أحاديث كثيرة ، وكان مفتي مكة المشرفة في زمانه ، وقد أثنى الإمام أبو حنيفة والحسن البصري والإمام مالك عليه ، وكان سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي يحضر حلقة درسه هو وابنه الذي كان من جملة تلاميذه ، وتُوفي في مكة سنة 114 وهو في التسعين من عمره قضاها بنشر العلم والتعليم .

أبرهة الحبشية

وهي أمة أصمحة النجاشي ، وقد كانت واسطة للمخابرة بين النجاشي المشار إليه وبين حبيبة أم المؤمنين ، ولما تمّ أمر عقد نكاح أم حبيبة على النبي أهدتها أم حبيبة هدايا فاخرة فلم تقبلها .

أسماء الصحابة الكرام الذين ولدوا من حبشيات

أسامة بن زيد

أشهر شعراء العرب ومن أحفاد امرئ القيس المشهور ، والدته بركة أم أيمن مربية النبي عليه الصلاة والسلام ، وتوجد أحاديث كثيرة تدل على عظم محبة النبي لأسامة وقد ولاه قيادة الجيش الذي سيره إلى الشام ، وكان وقتئذ عمر أسامة ثماني عشرة وقد سقط أسامة يوماً فجرح وجهه وقام النبي بمعالجته حتى شفي ، كما أنه أردفه مرة وراءه على الفرس التي كان راكباً عليها .

ولم يحضر أسامة حروب علي رضي الله عنه لأنه كان حمل مرة على أحد المشركين فلما رأى المشرك ذلك نطق بالشهادتين ومع ذلك ضربه أسامة ضربة قضت عليه فوبخه النبي على فعله هذا ، وقد روى أبو عثمان الهندي وعبد الله بن عبد الله وكثير من المحدثين أحاديث كثيرة بالإسناد إلى أسامة وقد مات سنة 45 من الهجرة في محل يسمى الجوف قرب المدينة المنورة ودفن في المدينة .

أيمن بن عبيد بن عمرو

ابن بركة الحبشية السابق ذكرها وهو أخو أسامة من والدته وكان موكلاً بإحضار ما

يلزم لوضوء النبي صلوات الله عليه تُوفي في غزوة حنين .

فيروز الديلمي

ابن أخت أصحمة النجاشي ويكنى بأبي عبد الله وأبي عبد الرحمن ، وهو الذي قتل الأسود العنسي الذي ادعى النبوة في اليمن ، وقد مات في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه .

أسماء بعض أعيان المسلمين الذين ولدوا من أمهات حبشيات

عبد الله بن قيس بن عبد الله بن زبير ، محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، جعفر بن إسماعيل بن موسى بن جعفر الصادق ، عبد الله بن حمزة بن موسى بن جعفر ، سليمان بن حسن بن عقيل بن أبي طالب ، إبراهيم بن حسن بن عقيل بن أبي طالب ، العبّاس بن محمد بن علي بن عبد الله ابن العباس عيسى بن جعفر المنصور ، جعفر بن جعفر المنصور ، هبة الله بن إبراهيم ابن المهدي ، العبّاس بن المعتصم ، الخليفة المقتضي لأمر الله ، ويوجد غير ذلك كثير من الذين أمهاتهم من الحبشيات .

أسماء بنات الصحابة الكرام الذين هاجروا إلى الحبشة وقد ولدن فيها

آمنة أم خالد القرشية

هي بنت خالد بن سعيد بن العاصي وقد ولدت في الحبشة ، وعادت مع من عاد إلى المدينة من الصحابة ، وقد تزوجت من الزبير بن العوّام ورزقت منه عمراً وخالداً وكنيت بأم خالد ، روى عنها بعض المحدثين مثل موسى بن عقبة وإبراهيم بن عقبة وكريب بن سليمان الكندي ومصعب بن عبد الله وغيرهم أحاديث كثيرة .

زينب بنت الحارث

ولدت في الحبشة وتُوفيت هناك أيضاً أثر شربة ماء .

زينب بنت عبد الله أبي سلمة

هي بنت أم سلمة إحدى زوجات النبي الطاهرات ، وقد ولدت في الحبشة وسميت (برة) ولكن النبي عليه الصلاة والسلام غير اسمها فيما بعد وأطلق عليها اسم زينب ، وكانت مشهورة بعلم الفقه .

عائشة بنت الحرث

ولدت في الحبشة وكانت بين الصحابة الكرام الذين عادوا إلى المدينة .

أسماء أولاد الصحابة الذكور الذين ولدوا في الحبشة

من بني هاشم غوث بن جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ومحمد ابن جعفر بن أبي طالب ومن بني عبد شمس محمد بن أبي حذيفة بن عتبة وعبد الله بن عثمان بن عفان .

أسماء من تُوفي في الحبشة من الصحابة الكرام

من بني أسد ابن عبد العزى بن قصي ، وعمر بن أمية بن الحرث بن أسد ومن بني جحم ــ حاطب بن الحرث وأخو خطاب بن الحرث ومن بني سهم ــ عبد الله بن الحرث ابن قيسر ، ومن بني عدي ــ فروة بن عبد العشري بن حرثان ، وعدي بن فضلة ، ومن بني زهرة المطلب بن أزهر بن عوف وأخوه طبب بن أزهر بن عوف ، ومن بني تيم موسى بن الحرث بن خالد وأمه ريطة بنت الحرث بن جبيلة وأختها عائشة بنت الحرث وزينب بنت الحرث وزينب صفران بن أمية الكتابي وفاطمة زوجة عروة بن سعيد بن العاص وأم حرملة بنت عبد الأسد زوجة جهم بن

قيس .

ومن بني عبد شمس — سعيد بن خالد وأخته آمنة بنت خالد بن سعيد ومن بني مخزوم — زينب بنت أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد وعبد الله بن عباس بن أبي ربيعة وعمر بن عبد الله ومن بني زهرة عبد الله بن عبد المطلب بن أزهر ومن بني تيم — موسى بن الحرث بن خالد وأخواته عائشة وفاطمة وزينب ، ومن بني جمح الحرث بن حاطب بن الحرث والحرث بن سفيان بن معمر ومحمد بن خطاب بن الحرث ومن بني عامر — سليط بن سليط بن عمرو .

المحتويات

هذه الرحلة

ارتياد الآفاق

تصنّف هذه الرحلة في عداد الرحلات الدبلوماسية، ومؤلفها صادق باشا المؤيد العظم شخصية عثمانية معروفة، قام برحلة إلى الحبشة في ربيع وصيف سنة 1896 موفداً من قبل السلطان عبد الحميد ومعه رسالة إلى النجاشي منليك الثاني امبراطور الحبشة الذي استقبله في بلاطه بحفاوة تليق بشخصية كبيرة، وهو سوري ينتمي إلى أحد أعرق البيوت الدمشقية. وإلى جانب "رحلة إلى الحبشة" له كتاب آخر عنوانه "الرحلة إلى صحراء أفريقيا الكبرى".

بدأ صادق باشا رحلته في 15 ابريل/نيسان من السنة المذكورة منطلقاً من ميناء اسطنبول على ظهر باخرة فرنسية متجهة إلى مرسيليا ورجع إلى الآستانة على ظهر باخرة روسية يوم 16 يوليو/تموز من العام نفسه، واستمرت رحلته ثلاثة أشهر، وبين هذين التاريخين حملة بارجة حربية فرنسية، من بور سعيد إلى سواحل جيبوتي وسفن أخرى استقلها قبل ذلك من موانئ في اليونان وإيطاليا [illegible]

بين دريدوه وهرار، والإسماعيلية والإسكندرية، و[illegible]

المدربة على صعود الجبال الوعرة واختراق الغابات

وعبور الأنهار الجارفة في المناطق الأفريقية وصعو[illegible]

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
دار السويدي للنشر والتوزيع